

عالم الفكر

جان بول سارتر

● سارتر وچينيه
● الحرية والالتزام عند سارتر
● فلسفه سارتر
● وظيفه الخيال عند سارتر



عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت . * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨١
المراسلات باسم: السوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

جان پول سارتر

٣	بقلم مستشار التحرير	جان پول سارتر : دراسة تمهيدية
٢١	الدكتور محمد علي الكريدي	سارتر وجنبيه او الشر والحرية
٥٥	الدكتورة ضحى عبد العزيز شيخه	الحرية والالتزام في اعمال سارتر
٧٧	الدكتورة دولت صالح العرب	وظيفة الخيال بين اللغة والفلسفة
١٠٥	الدكتور حبيب الشاروني	فلسفة جان پول سارتر
١٢٥	الدكتورة نفيسة عبد الفتاح شاش	مفهوم التحليل النفسي عند سارتر
١٥٥	الدكتورة حفيظة محمد عبد النعم	سارتر والاسطورة اليونانية

• • •

شخصيات وآراء

١٨١	الدكتورة سامية أحمد أسعد	رولان بارت : رائد النقد الجديد في فرنسا
-----	--------------------------------	---

• • •

مطالعات

٢٢٥	الدكتور عهاد الدين خليل	العلم في مواجهة المادية
-----	-------------------------------	-------------------------

• • •

من الشرق والغرب

٢٧١	الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف	لثاني وثائق في مهنة الطب
-----	------------------------------------	--------------------------

• • •

صدر حديثا

٢٩٩	الدكتور عبد الوهاب علي الحكيمي	أوليات : الهدف والطريقة
٣١٣	الدكتور محمد عبد الغني سعدي	عاشقان على التبل

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

تمهيد

يكاد الفلاسفة الفرنسيون ينفردون عن غيرهم من فلاسفة العصر بالتحامهم الشديد مع أحداث مجتمعاتهم وشئون العالم ككل ، وبمشاركتهم الفعالة في الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية وانشغالهم بأحداث الحياة اليومية مما يساعد بدوره على انتشار آرائهم وذووعها بين عامة المثقفين . وربما كان المثال الوحيد لذلك من خارج فرنسا هو برتراند رسل Bertrand Russell في بريطانيا بمواقفه المعروفة وأشهرها تأليف المحكمة التي حملت اسمه للتحقيق في حرب فيتنام ومحاكمة المسؤولين عنها . وفي هذا الصدد يلاحظ الاستاذ أنتوني مانسر Anthony Manser أستاذ الفلسفة بجامعة ساونهامبتون في مقال قصير رائع نشرته له مجلة New Society بعنوان « Existentialism in Retrospect » ، ان الفلاسفة الانجليز كانوا يميلون في السنوات الأخيرة الى اعتبار أنفسهم مفكرين « محترفين » ، ولذا فقد دأبوا على أن يوجهوا معظم اهتمامهم لمناقشة مشكلاتهم الفلسفية الخاصة الصعبة بدلا من أن يشغلوا أنفسهم بالتفكير في مشاكل الناس العاديين ، اعتقادا منهم أن « الارتفاع » بالتفكير الفلسفي عن طريق إبراز المشكلات الفلسفية في ألفاظ وعبارات « فنية » ومصطلحات معقدة وغير مفهومة لغير المتخصصين من شأنه ان يساعد الفلسفة على الاستمرار في الوجود والصمود في عصر العلم ، وذلك بعكس الحال في



جان بول سارتر

أحمد أبوزيد

فرنسا حيث تعتبر المذاهب والحركات الفلسفية أمورا شائعة في أوساط المثقفين العاديين ، يتناولونها بالمعالجة والنقاش في حياتهم اليومية وفي مجالسهم العادية ، على ما هو حادث الآن بالنسبة للبنائية التي تسيطر على الفكر الفرنسي الى حد كبير ، وكما كان عليه الحال بالنسبة للوجودية حين كانت ، حتى عهد قريب ، هي المذهب السائد في فرنسا قبل أن يتحول الفكر الفلسفي هناك الى البنائية على أيدي ليفي ستروس Levi-Strauss وتلاميذه وأتباعه ، وكذلك بفضل عدد من البنائيين الآخرين من أمثال (لاكان Lacan) (دريدا Derrida) (New Society, Vol.56, April 1981, p. 44, No 961,16) وعلى ذلك فان انشغال سارتر بأحداث عصره ومشاركته فيها وإبداء آرائه فيها من ناحية ، وانشغال الناس بأرائه وأفكاره وفلسفته من الناحية الأخرى ، انما هي أمور تتفق تمام الاتفاق مع ذلك التقليد الفرنسي العريق . أي ان جان بول سارتر ليس حالة استثنائية في تاريخ الفكر الفرنسي المعاصر وان كان هو من أفضل الامثلة على مشاركة الفلاسفة في الاحداث العادية واهتمام المثقفين بل والرجل العادي أحيانا بالمذاهب الفلسفية .

ولقد ارتبطت الوجودية باسم سارتر ، وأفلحت - كحركة - في أن تجذب اهتمام الناس بعد الحرب العالمية الثانية ، وإن كانت أصولها أسبق على سارتر بكثير ، حيث يعتبر الفيلسوف الدانماركي الشهير سورين كيركغارد Soren Kierkegaard في القرن التاسع عشر أول فيلسوف وجودي بالمعنى الدقيق للكلمة .^(١) والواقع أن جان

(١) ارتبط اسم سارتر بالوجودية ورائته (وجودي) ، وهذا وصف قد يكون غير دقيق ، ولكنه أطلق على حالة معينة وعلى فكرة فكرية نشأت بين عدد من المفكرين الأوروبيين وبخاصة في فرنسا نتيجة للاوضاع العامة الناجمة عن الحربين العالميتين ، ومن هنا كان الوجوديون يكونون على حالة قلق الفرد الانساني في بحثه عن المعنى وعن تكامله الشخصي في عالم لا يقدم أي تفسير متناكس ومقبول للأشياء في ذاتها أو السبب في وجوده الانساني بما في ذلك الوجود الانساني ذاته وقد أقام سارتر لفلسفته (الوجودية) على فكرة أن « الوجود أسبق على الماهية » ، أي أن الانسان ليست له طبيعة يمكن أن تحد من هو ومغلا يجب عليه ان يفعل ، وانما يحتمل على العكس من ذلك أن يحدد كل شخص ذاته بذاته ومن لحظة لأخرى . فطبيعة الانسان تتحدد إذن بما لتصوره هو لنفسه وإدراكه لذاته بعد أن يوجد . فالانسان « مشروع » يقوم هو نفسه بتعيينه لنفسه كما يكون هو المنشور عن تنفيذه أي عما سيكون عليه . وهذا معناه أن الانسان حر بالضرورة وإنه يصنع نفسه أو يخلقها بهذه الحرية والغيرة . على هذا الاساس عملية طويلة من خلق الذات ، وفيها يلقي الحاضر الماضي كما يلقي المستقبل الحاضر . ومن الاجرام في حق الذات أن يسمح للشخص للآخرين بتعريفه أو تحديده ، سواء أكان هؤلاء الآخرون هم الزوجة أم العموم المجتمع ، لأن السماح للآخرين بتعديده فيه تعقيب لغيرته أوحش إلغائها تماما . ومع أن فكرة سبق الوجود على الماهية كان قد قال بها الفيلسوف الألماني (كانت Kant) قبل (الوجوديين) فإن (كانت) كان يرى أن كل ماهية هي ماهية محددة من قبل ، وهذا ينطبق بوجه خاص على الماهية الانسانية . ويختلف (كانت) في ذلك عن « الوجودية » التي ترفض هذا « التحدد » باسم الحرية ، وذلك على اعتبار أن الانسان ، اوعلى الاصح الفرد الانساني ، هو الذي يحدد ماهيته بمحض حريته ، كما ذكرنا ، نظرا لعدم وجود ماهية محددة له مسابقة على وجوده .

ولقد كان سارتر يريد ذاتا ان الانسان محكوم به بالحرية لأن هذا هو ما هو عليه . فليس للانسان طبيعة ثابتة ولذا فان الحقيقة الانسانية لا يمكن تعريفها الا في حدود الاحتمال والحرية . والواقع ان الحرية الانسانية شيء « مرعب » حقا لأنها حرية مطلقة وغير مشروطة . وليس ان امكان الانسان ان يختار بين ان يكون حرا أو غير حرا بله مخلق من الحرية ، كما ان الحرية هي التي تكون ماهيته ويعرفه ، إذا كان يمكن ان نقول ان له ماهية . ليس ان كانت تتحكم فيه قوى النفس اللاعنصرية ، كما يظهر في نظرية فرويد ، كما أنه ليس كانتا تتحكم فيه القوى الاقتصادية الاجتماعية كما يظهر في نظرية ماركس عن التاريخ ، وانما على العكس من ذلك فان الانسان في نظر سارتر حرا بميله ، اي أنه حرية خالصة . وليس هناك حرية غير تلك التي يملكها الانسان الفرد . وحتى حين يتنازل عن حريته لينتج ما أو لئلا ينجع ما كما هو الحال في بعض الدول الشيوعية ، فانه انما يمارس في ذلك حريته في قبول حالة اللزوال والعبودية والاضطهاد . بل ان الانتحار رغم كل ما فيه من جبن وضلال هو ببساطة تعبير نهائي عن سيادة الإرادة الحرة - انظر في ذلك كتاب سارتر عن الوجودية نزعة انسانية بيوكلدك

David Caute ; Sartre ; Roads to Freedom, New Statesman, 2 May 1980, p. 667 ;

Nathan A. Scott, Jr., Mirrors of Man in Existentialism, Collins, 1978, pp. 172 — 3

بول سارتر لم يكن يطلق على نفسه صفة « وجودي » في أول الأمر ، بل أنه اعترض بشدة على هذه التسمية حين وصفه بها بعض الصحفيين . وإنما استخدم هذه الكلمة في الحقيقة جابريل مارسيل Gabriel Marcel وتلقفها منه رجال الصحافة الفرنسيون واعتبروها صفة ملائمة يلققونها بسارتر وأصحابه . والأحرى أن سارتر كان يعتبر نفسه في الأصل أقرب إلى المذهب الفينومولوجي ، وهذا واضح إلى حد كبير في كتابه الاساسي « الوجود والعدم L'Être et Le neant » حيث يضع له عنواناً فرعياً هو « مقال في الانطولوجيا الفينومولوجية » . ومن الطريف أن سيمون دوبوفوار تذكر في مذكراتها أنه حتى عام ١٩٤٣ كانت كلمة « وجودي » غير معروفة لها ، وهذا معناه أن الكلمة لم تكن معروفة لسارتر أيضاً الذي كانت حياته ترتبط بعجائنها ارتباطاً قوياً وعميقاً ، كما أنها كانت قد قرأت كتاب « الوجود والعدم » مراراً وتكراراً على ما تقول . ولكن في عام ١٩٤٣ قدم سارتر لها جان جرينيه Jean Greunier في مقهى فلور Cafe de Flore الذي كان في ذلك الحين ملتقى المثقفين النشأ في باريس ، وكان سارتر قد تعرف على جرينيه من وقت غير بعيد . وتكلم جرينيه عن انشغاله في تأليف كتاب عن الفكر الفلسفي المعاصر في فرنسا ، ثم التفت إلى سيمون دوبوفوار وهو يسأله : « وأنت يا سيدتي .. هل أنت وجودية أيضاً » والجملة الفرنسية التي تذكرها دوبوفوار هي :

« Et Vous, madame, etes-vous existentialiste? » . وتذكر دوبوفوار أنها شعرت بشيء من الحرج والحيرة ازاء هذا السؤال لأنها لم تكن تعرف حينذاك معنى تلك الكلمة . صحيح أنها كانت قرأت هايدجر Heidegger كما كانت تعرف مصطلح Existentielle التي كانت تستخدم بكثرة في مناقشة أعماله ، ولكن كلمة « وجودي existentialiste » : بالمعنى الجديد لم تكن قد مرت بها في ذلك الحين ، ولكن الكلمة أخذت تذيع وتنتشر بعد ذلك بفضل جابريل مارسيل ، والتصفت بسارتر الذي كان يعتبر في نظر الآخرين الكاتب الوجودي بمعنى الكلمة . ولم يلبث سارتر أن تقبل الوضع ، ثم استخدم الكلمة بعد ذلك بثلاث سنوات ، أي في عام ١٩٤٦ ، في عنوان كتاب أصدره تحت اسم « الوجودية مذهب إنساني L'Existentialisme est un humanisme » ، كما أن سيمون دوبوفوار كتبت في السنة نفسها مقالاً في مجلة « العصور الحديثة Les Temps modernes بعنوان « الادب والميتافيزيقا Litterature et Metaphysique » (ابريل ١٩٤٦ صفحات ١١٥٣ - ١١٦٣) تكلمت فيه عن « الاسلوب الوجودي » في النظر إلى الحقيقة الميتافيزيقية ، وأشارت فيه إلى جابريل مارسيل والبير كامي Albert Camus وجان بول سارتر باعتبارهم أهم الممثلين للكتاب الوجوديين حينذاك ^(٢) .



ولقد كانت الحرب العالمية الثانية بمثابة نقطة تحول في حياة سارتر وإتجاهاته واهتماماته^(٢). فقبل الحرب كان سارتر - على ما يقول ديفيد كوت David Caute « يزدرى السياسة » لدرجة أنه في عام ١٩٣٦ لم يهتم بالادلاء

(٣) ثمة في حياة سارتر بعض المعالم التي تساعد على فهم شخصيته وفكره وفلسفته وموقفه من الحياة .

فقد ولد سارتر في باريس في ٢١ يوليو ١٩٠٥ ، ولكن أباه توفي بعد عامين فترسي في بيت جده لأمه الأستاذ كارل شفايتزر وكان مدرسا للغات الحديثة وبخاصة اللغة الألمانية ، وبذلك نشأ سارتر في بيت يعطى أهمية كبرى للقيم العقلية والادبية ورأى نفسه محوطا بكميات هائلة من الكتب المكونة في كل أركان البيت وأرتحت له بذلك فرصة الاطلاع على أعمال كبار الادباء والكتاب فقرأ كورنيي Cornelle وجوته Goethe وبراً أعمال شاتوبريان Chateaubriand وليكتور هيجر Victor Hugo ، مثلاً عرف كتابات موبسان Maupassant وفلوبير Flaubert . وفي ذلك يقول هو نفسه « لقد كنت صورة مصغرة للرجل البالغ ، فقد قرأت الكتب التي كتبت للبالغين » ، كما يقول أيضاً في كتابه « الكلمات Les Mots » وهو نوع من الترجمة للسيرة الذاتية ، « لقد عرفت الكون في الكتب .. واختلطت في ذهني بمجربتي غير المنظمة المستمدة من الكتب بأحداث الحياة الواقعية التي كانت تحدث بطريق المصادفة والعرض ، ونجم عن ذلك نوع من المثالية التي تطليت ثماني ثلاثين عاماً لكي أخضع منها وأتبعها » . ويعترف سارتر في ذلك الكتاب أيضاً بأن فقدته لأبيه وهو في تلك السن الصغيرة كان معناه أنه نشأ دون أن تكون لديه « أنا أعلى Super — ego » مما ساعده على تحرره ذهنه وتفكيره وسلوكه . وحين تزوجت أمه للمرة الثانية عام ١٩١٦ عاش معها ، ولكنه لم يكن سعيداً في بيت زوج أمه .

في عام ١٩٢٤ التحق سارتر بمدرسة Ecole Normale Supérieure ليحصل منها على شهادة الاجريجاسيون في الفلسفة ، وهناك قابل سيمون دو بوفوار وأرتبط بها بتلك الرابطة القوية المثنية التي ظلت حتى وفاته دون أن يتزوجها ، وهي علاقة يصفها بعض الكتاب بأنها علاقة « أسطورية » نظراً لقوتها واستمرارها . فقد كانا يعتقدان أن الزواج هو نوع من النظام « البورجوازي » ولذا أثاراً ألا يدخلوا معا في علاقة رسمية كزواج وزوجة . ويقول دويوفوار في كتابه La Force de L'Age « لقد وضعنا ثقتنا في العالم وفي أنفسنا . فقد كنا نعارض ونقاوم المجتمع بصرته وتكوينه السائد حينذاك . ولكن لم تكن نحن بأية مראה أراه هذا الموقف العدائي لأنه كان يتضمن نوعاً من التفوق القوي الوجداني . كنا نؤمن بضرورة إعادة تشكيل الانسان وصياغته ، وهي عملية لن تتم الا على أيدينا ، ولورجيا ... لقد خلقنا علاقاتنا وروابطنا مع العالم ، وكانت الحرية هي جوهر وجودنا ذاته . » .

أثناء دراسته للاجريجاسيون في الفلسفة عرف كتابات ماركس ، أو كما يقول Douglas Johnson أنه (اكتشف) ماركس ، وبعد ذلك من أهم المعالم الأساسية في تكوينه العقلي ، ولكنه رغم ذلك لم يجد في فلسفته الحرية التي كان يفر إليها حينذاك . ثم عرف بعد ذلك كتابات هوسرل Husserl وهابيدجر Heidegger وباسيرز Jaspers فضلاً عن معرفته لديكارت من قبل ، وبذلك جمع في تكوينه الفكري بين ثلاث من أهم الحركات الفلسفية بعد المحولية وهي الماركسية والفيومولوجية والوجودية .

وحين قامت الحرب العالمية الثانية تم تجنيده ولكنه لم يشترك في الحرب ، ثم وقع أسيراً عام ١٩٤٠ (وسوف نعرض لذلك فيما بعد في ضوء أحد الكتب التي ظهرت منذ أسابيع قليلة في فرنسا) ، وما له دلالاته هنا أنه كتب أثناء الخدمة العسكرية جزءاً من كتابه L'Age de raison . وكذلك جزءاً من مؤلفه الهام (الوجود والعدم L'Être et le Neant) . وفي فترة الاعتقال قام بتأليف مسرحية مناسبة لأعياد الميلاد كما كان يقوم بشرح هايدجر لزملائه المعتقلين الذين كان كثيرون منهم ينتمون إلى طبقة المثقفين

حين أطلق سراحه عام ١٩٤٦ شارك مع الفيلسوف الفرنسي موريس ميرلوبونتي Maurice Merleau — Ponty في تكوين جماعة « للمقاربة الفكرية » وكان من أهم نتائجها تأليفه لمسرحيته الشهيرة « الذباب Les Mouches » التي لم ينته « الرقيب » في أول الأمر إلى ما تمحله من معاني الخث على المقاومة ، لأن « الرقيب » في العادة « شخص غيبي وأبله » كما يقول ثنائ سكوت ، ثم شُعت من العرض بعد ذلك ولكن بعد أن كانت أفادت في توصيل الرسالة التي أرادها سارتر . وأصبح سارتر مشهوراً منذ ذلك الحين . ولكنه لم يشترك في المقاومة الفعلية ولم يبق بأي عمل من أعمال العنف . ولكن هذه « المقاومة الفكرية » كانت بداية لاشتراكه في مقاومة كل أنواع الاضطهاد والوقوف في صف حركات التحرير ، وربما كان الاستثناء الوحيد من ذلك هو موقفه من قضية اللاجئين الفلسطينيين مما ستعرض له فيما بعد . وكانت هذه المشاركة نابعة من إيمانه بأنه يجب على المثقف أن يكون « رجل عمل » وليس مجرد « نجم »

انظر في ذلك كله :

Arthur C. Danto, Sartre, Fontana Books, 1979, p. 158 sqq ; N.A. Scott, op. cit., 153, 56 — 55

بصوته في الانتخابات على الرغم من أنه كان يأمل في فوز الجبهة الشعبية .. كان سارتر يرى أن الفنان غريب في كل مجتمع وبالتالي فإنه كان يعتبر فكرة التكامل والولاء والطاعة التي كانت تتطلبها الشيوعية السوفيتية فكرة غير مقبولة ، بل أنه كان يرى أن الاتحاد السوفيتي ذاته لم يكن سوى صورة من « حضارة المهندسين » بينا هو - أي سارتر - كان كاتباً أدبياً لا يأبه بالادعاءات السياسية التي كان يدعيها المثقفون اليساريون . أما الحرب .. فهذه مسألة أخرى مختلفة تماماً ، أنها - كما يقول كوت - ، دليل وبرهان على أن رفض السياسة إنما هو مسألة مؤقتة ولا يمكن أن تستمر طويلاً ، إلا بقدر ما يستطيع الإنسان أن يتمتع عن التنفس . إنها امتداد قوي للسياسة بحيث لا يمكن للإنسان أن يهرب منها ... وبعد سقوط فرنسا عام ١٩٤٠ أخذ الألمان سارتر أسيراً في أحد معسكراتهم على الرغم من أنه لم يشارك في الحرب . وحينئذ نبعت لديه فكرة أن الشرعية الحقيقية أو الوجود الترمعي الحقيقي أو الأصالة *authenticité* تتطلب الالتزام الشخصي المباشر الصريح . ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأنه بعد أن أفرج الألمان عنه عاش في باريس حياة عادية تماماً على الرغم من بعض المقالات التي كان يكتبها من حين لآخر في مجلة الآداب الفرنسية *Les Lettres Francaises* .^(٤) وبعد عشر سنوات من ذلك ، أي في الخمسينات ، ادعى سارتر أنه وزملاءه خرجوا من الحرب وهم مقتنعون تماماً بأن « الوجودية » تقدم الأسلوب الوحيد الصالح للتجربة الإنسانية ، أما المادية التاريخية فإنها تقدم التفسير الوحيد الممكن للماضي .

وفي معسكر الاعتقال كان سارتر يمارس نفس التعاليم التي شرع يبشر بها بعد خروجه ، على ما يقول ماريوس بيران *Marius Perrin* في كتاب عن سارتر في المعتقل ، ونشرته له في أوائل هذا العام دار *De large* بعنوان *Avec Sartre au Stalag* . وهو كتاب قصير ولكنه مقعم بذكريات الأسر والاعتقال . لقد كان سارتر يعلم زملاءه « طريق الحرية » . ولقد ظل سارتر بعد ثلاثين سنة من السجن يردد قوله : أن كل ما حاولت أن أكتبه أو أفعله خلال حياتي إنما كان هو تأكيد أهمية الحرية . لسارتر في ذلك عبارة مشهورة تقول : « ليس الإنسان سوى ما يصنعه بنفسه *ce qu'il se fait* » . *L'Homme n'est rien d'autre que*

لقد كان سارتر يرفض أن يخضع الإنسان لأي قوة أخرى أكبر من حريته هو ذاته ، وهو أمر كان يثير عليه حفيظة الشيوعيين الذين انتسب إليهم لبعض الوقت ، ولو أنه لم يكن أبداً عضواً في الحزب الشيوعي . وتذكر دوبروفار أنه في حوالي فبراير عام ١٩٤٠ لاحظت تغيراً هائلاً في حياة سارتر وحياتها بالتالي ، لأن سارتر أصبح

(٤) David Caute; (Sartre, 1, ROADS To Freedom) op. cit. p.664 .

وقد كتب بديله أربع مقالات في هذه المجلة تتناول حياة سارتر وأعماله وبعض القضايا العامة في فلسفته ، وهذه المقالات بما فيها المقال السابق ذكره ، هي :

(Sartre 2 : What is Literature ?) ; 9 May 1980

(Sartre 3 : Force of Circumstances) ; 16 May 1980

(Sartre 4 : The Good and the Great) ; 23 May 1980

يشعر بأنه لا يمكن له ان يعيش بمنزلة عن الحياة السياسية وعن الالتزام السياسي . ففكرة الشرعية والأصالة التي كان قد توصل اليها كانت تفرض عليه أن يمارس دروسه وعمله ومكانته في العالم ، وأن ذلك لن يتيسر له الا عن طريق (الالتزام) في العمل . وقد وافقته دوبوفوار - كما تقول في مذكراتها - على ذلك ، ومن هنا وجد الصديقان نفسيهما (ملتزمين) في الانشطة السياسية ، وان كانت فكرة الوجود الشرعي الحقيقي ذاتها قد منعت من الانتساب لأي حزب - من الأحزاب أو أن يتبع خط ذلك الحزب ، ولو أنها أدت به فيما بعد ، بطريق مباشر ، الى نظرتة الى الأدب على أنه (التزام) . وبذلك بدأ سارتر يفكر وينظر الى الكلام وإلى الكتابة على أنها صورتان من الفعل action . وهذا موقف كان قد عبر عنه صراحة في مجلة « العصور الحديثة » . وبدلاً من أن يظل مجرد كاتب في الفلسفة النظرية البحتة وفي الأدب البحت أصبح يمثل حلقة أخرى في تلك السلسلة الطويلة المولفة من ذلك العدد الكبير من الاخلاقيين الفرنسيين . ولكن الظاهر أنه لم يلبث ان راودته الشكوك حول الكتابة باعتبارها فعلاً سياسياً ، فتحول الى اهتمامات أخرى ، وأصبح يعني بوجه خاص بكتاب روائيين من أمثال ملارميه Mallarmé وفلوبير Flaubert الذين لم تكن الكتابة بالنسبة لهم لها أي مبرر أو سبب سوى تكوين صورتهم الخاصة عن المجتمع . وأوضح سارتر ان مثل هؤلاء الكتاب كانوا (ملتزمين) حقاً ، لأن الادب بالنسبة لهم كان يعني كل شيء ، ومن هنا كان للفهم صدى قوي على كل مستويات الانسان والمجتمع . بل الاكثر من ذلك انه ذهب الى القول بأنه لم يكن يعتبر قط مهمة الروائي أو المسرحي التعبير عن الافكار السياسية الا بقدر ما يترجمها الى « أساطير » . وقد أدى ذلك به الى أن يعرف الكتابة بأنها بالاحرى نوع من الحاجة العميقة التي يشعر بها الانسان لتطهير التجربة التي لا يمكن للحياة ان تسمع بها .

والمهم من هذا كله هو أن سارتر شغل نفسه طيلة حياته بمشكلات عصره وأسهم بالادلاء برأي فيها . ويريد رونالد أرنسون Ronald Aronson في كتابه الأخير Jean-Paul Sartre: Philosophy in the World (الذي نشرته له منذ أسابيع قليلة دار New Left Books) ذلك الى « مزاج سارتر المتطرف » الذي كان يدفعه هو وسيمون دوبوفوار (التي ينعتها بأنها « نوتردام دو سارتر Notre-Dame de Sartre » أو « الساترية العظيمة La Grande Sartreuse ») الى المشاركة في كل حركات الاضطراب بل وإلى التحريض على التمرد والثورة ، ما أمكن ذلك ، وأنها ظلا على ذلك طيلة حياتها ، ما عدا الفترة القصيرة الاخيرة قبل موته . لقد كانا يبحثان دائماً عن « الاستشهاد » ، ولكن يبدو - كما يقول أرنسون في سخرية - أن البوليس كان مصمماً على أن يجرهما من شرف الاستشهاد فتركهما حرين طليقين . وللجنرال ديغول تعليق طريف في ذلك اذ يقول « اننا لا نستطيع القبض على فولتير » . وتشبيه سارتر بالفيلسوف الساخر فولتير تشبيه يتردد في كثير من الكتب وسوف نرجع اليه بعد قليل . ومع ذلك فلم تسلم حياة سارتر من سخرية وتهكم الكثيرين من النقاد نظراً لما فيها من تناقض مع آرائه وأفكاره وكتابات .. فلقد كان سارتر ينادي دائماً بالالتزام كما رأينا ، ولكنه كما يقول أرنسون « ظل طيلة

حياته بتأى عن « الحلية » فما يتعلق بضغوط الحياة اليومية المادية التي كان يعاني منها ليس فقط الفئات المضطهدة والمستغلة بل وأيضا كل أعضاء المجتمع تقريبا . لقد كان يعيش بغير زوجة أو ولد أو حتى حياة منزلية مستقرة ، وإنما كان يسكن في البنسوينات ويأكل في المقاهي . لقد كان يتمتع بأكبر ميزة يمكن ان يمنحها أي مجتمع لأحد أعضائه وهي الحياة بدون أية احتياجات .^(٥)

الا أن هذا كله لا ينفي أن سارتر (عاش) رواياته ومسرحياته بالفعل ، بمعنى انه استقى هذه الاعمال من حياته هو ومن مواقف التي تعبر عن هذه الحياة . ولم تكن أعماله الفلسفية مثل « الوجود والعدم » أو رواياته ومسرحياته سوى أعمال مليئة بالانكار التي كانت تشغله هو نفسه والمشكلات التي كان يعاني منها والتي وجد في هذه الاعمال طريقة للتعبير عنها . ولقد عبر سارتر عن ذلك بعبارة المشهورة « ليس المهم هو كيف أصبحت الى ما أنت عليه الآن ، إنما المهم هو ما فعلته بما أصبحت عليه » . ولذا نجد الاستاذ دوجلاس جونسون Douglas Johnson أستاذ التاريخ الفرنسي في University College بجامعة لندن يقول ان سارتر كان دائما يقول : « ان كل ما حاولت أن أكتبه أو أفعله خلال حياتي كان القصد منه هو تأكيد أهمية الحرية » .

وبصرف النظر عما يقوله أرنسون عن تطرف مزاج سارتر فالذي لا شك فيه هو أن الظروف التي أحاطت بفرنسا والتي عاشها سارتر لم تكن تسمح له بالانزواء والانطواء والخلود الى حياة الهدوء والتفكير والتأمل التي يتصور الناس انها لازمة لحياة الفلاسفة ، وإنما ألقت به هذه الظروف في أتون المعركة واضطرته اضطرارا الى أن يشارك الناس في آلامهم وأمالهم ، وان كان هذا قد أدى به في آخر الأمر الى أن يظهر بمظهر الرجل الباحث عن الشهرة ، والذي ينادي ويدعو الى التحرر من كل القيود والقيم والاضاع المتوارثة والتي يفرضها المجتمع على أعضائه . ويبدو أن هذا النوع من الشهرة التي حققها سارتر في هذا المجال هو الذي أعمى نقاده عن بعض الحقائق الكامنة في فلسفته ، وهي فلسفة كانت تأبى عليه أن يتقدم بأية اقتراحات لغيره من الناس نحو السلوك الذي ينبغي عليهم أن يتبعوه والوسيلة التي يمكن لهم بها أن يوجهوا حياتهم . فلقد كان على العكس من ذلك يعتقد ان مسؤولية الفرد - من حيث هو فرد - تنحصر في أن (يختار) وأن يقرر بنفسه ما يتعلق بسلوكه وحياته .

(٥) يقول ديفيد كوت في مقاله الثاني « ما الأدب » : لقد أصبح سارتر غنيا وبذلك أصبح في امكانه السفر الى أي مكان مع أي انسان وفي الوقت الذي يجنده لنفسه . وكان يعمل في جيبه دائما مبالغ كبيرة جدا من النقود قد تزيد على ما يوزن في الآلاف جنيه استرليني ، وكان يقول في ذلك « انني أحب ان أحمل نقودي معي .. انني اكره ان ابعثني ابدوكا لو كنت شخصا مهما حين أزرعها من جيبى ... مع انني لست مهما في الحقيقة على الاطلاق » . ولقد كان سارتر يتفق المال بسطاء دون أن يبالي بالطريقة التي جاءت بها أو أنفقت فيها ، ولكنه كان يقول دائما « انني لم أعط قط نقودا لكي اعمر بها أثار خطأ ارتكبته » .

وسلوك سارتر (المتحرر) والسمة التي لحقت به وبخاصة فيما يتعلق بحياته الجنسية ^(٦) أخفت دور سارتر من حيث هو فيلسوف أخلاقي ، كما أخفت فلسفته التي كانت تدور حول ادراكه لوحدة الانسان وانزاعه ومستوياته في هذا العالم ، وان الانسان (خير) بطبيعته ، وهو رأي يشارك فيه الكثيرين من الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين وبخاصة جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau .



خلال العام ونيف التي مضت على وفاة جان بول سارتر ظهرت كتب ودراسات ومقالات كثيرة تناولت حياته وأعماله وتفكيره وفلسفته بالعرض والنقد والتقويم ، مما يدل ضمنا على أن الوجودية - كمذهب فلسفي - لا تزال تلقى الكثير من الاهتمام على الرغم من أن البنائية هي المذهب الفكري الذي يسود الاساط الثقافية الآن في فرنسا ، بل وخارج فرنسا الى حد كبير . وبعض هذه الكتب تناول الفيلسوف وعمله بالنقد العنيف الجارح الذي لا يخلو من سخرية وتسفيه . ومن المفارقات أن سارتر كان يؤمن أثناء حياته بأنه ليس في مقدور أي انسان أن يضفي معنى على أي انسان آخر دون أن يؤدي ذلك في الوقت ذاته الى تجميده وتحجيره ، أو تحويله الى حجر مثلاً كانت تعمل الميديوزا في الميثولوجيا اليونانية حين تلمس شيئاً فيتحول حجراً في الحال . ويبدو أن سارتر كان يشعر بما سوف يختلف الناس فيه من أمره وكان يشفق على نفسه من رأي الآخرين فيه . وهو على أية حال صاحب العبارة الشهيرة العميقة « ان جهنم هي الآخرون » . ولقد عبر عن شعوره في مسرحيته « الأبواب المغلقة Huis Clos » حين يقول على لسان جارسان Garcin « لقد تركت حياتي في أيديهم » . فكما هو الحال بالنسبة لجارسان لا بد أن سارتر كان يشعر بالالام الممض وهو يرى نفسه أثناء حياته خاضعاً للتشريح من كل جانب ، وأن حياته بطابعها الخاص المميز كانت تن تحت وطأة أنظار الآخرين . ولقد أعطى سارتر الكثير من الاهتمام لدراسة وطأة الآخرين على الذات ، وعالجها بكثير جداً من العمق والأصالة معالجة فلسفية في كتابه « الوجود والعدم » ، كما عالجها معالجة درامية في كل رواياته وبخاصة في مسرحية « الابواب المغلقة » ، حيث كان في ذلك الحين يحس بوقع أنظار سكان باريس اليه أثناء الحرب العالمية الثانية وهي تتركز عليه تركيزاً شديداً باعتباره أحد كتاب المسرح الناجحين . ومن هنا كانت كتاباته ، وبخاصة مسرحيته الشهيرة « اللباب Les Mouches »

(٦) تقول سيمون دوبوروا إن اختارت سارتر من دون زعمائها الذكور جميعاً لأنه كان أنبهم وأقلهم . وعلى الرغم من هروب سارتر الجنسية الواضحة فقد كان محبوباً جداً من النساء ، وقال هو أكثر من مرة أنه يفضل مجتمع النساء على مجتمع الرجال ، كما أن النساء يلعبن في رواياته ومسرحيه دوراً هاماً للغاية ويبدون على درجة عالية من الحس الرفيع والذكاء البارد والعذوبة ، وينظرون الى الرجال في العادة بكثير من الانزعاج والاستهفاف المبهين . وقد وصف سارتر نفسه بأنه يحب أن يجد نفسه محاطاً بالناس بشرط أن يكونوا نساء ، كما كان يقول « ان اطيب علاقاتي على الإطلاق كانت دائماً هي علاقاتي مع النساء ، لأن العلاقات الجنسية - بمعنى الكلمة - تسمح بامتزاج ما هو موضوعي بما هو ذاتي بطريقة سهلة ميسورة . فالعلاقة مع امرأة ، حتى ولو لم يشاهدها المرء - ولكن بوجه خاص إذا كان قد شاهدها بالفعل أو كانت هناك فرصة أو إمكان لمشايعتها - تصبح علاقة أكثر غنى ورفاء .. فمع المرأة يصبح الانسان حاضراً بكل كيانه ووجوده » .

تعمل رسالة هامة لأهلها بباريس الذين كانوا يشنون ويتألمون تحت قسوة الهزيمة في الحرب ... لقد كانت رسالته في أعماله تحمل اليهم الدعوة الى التضجاعة وتحمل المسؤولية ، مثلما كانت تحمل الامل في التحرر ، على الرغم من التعرض طيلة الوقت للموت والهلاك . (٧)

لقد كان سارتر يردد « إن أعمالي ليست سوى مظاهر مختلفة لشيء واحد كلي لا يمكن لأحد أن يقدر معناه الا بعد أن أصل أنا بها الى منتهاها » . ولكن بعد أن مات سارتر في الخامس عشر من ابريل عام ١٩٨٠ أصبح « عمله » منتهاها رغم عدم اكتماله ، فقد ترك كتابا واحدا على الاقل غير كامل وهو كتابه الضخم عن فلويور ، (٨) ولكن المهم هو أنه يمكن الآن فهم « معنى » ذلك العمل عن طريق الرجوع الى كثير من العبارات والآراء التي كان يكثر من ترديدها ، وكذلك في ضوء المشكلات الكثيرة التي كان يثيرها دون أن يصل فيها الى جواب نهائي . لقد كان استيفان ميزاروس Istvan Meszaros ، أستاذ الفلسفة بجامعة سسكس Sussex يشبه سارتر بفولتير تماما مثلما فعل كثيرون غيره ، وذلك حين حاول ان يبين أهمية أعمال سارتر ومدى تمثيلها عن العصر الذي عاش فيه . ذهب ميزاروس في ذلك الى حد القول ان ما يهم في ذلك هو « العملية » اي ما يؤدي الى انتاج الاعمال التي ينتجها الاديب او المفكر الفيلسوف خلال حياته والتي تصبح بذلك « عمل حياته » كلها بصرف النظر عن النتائج الواضحة الملموسة . ويقول آخر فان الذي يهم ليس هو عدد « الاعمال الفردية » التي سوف تعيش على المدى الطويل بعد موت مؤلفها ، ولكن الذي يهم هو كيان « عمل الحياة » وتكوينه وبنائه ، وهو في العادة مزيج

(٧)

Caute , Ibid , p 716

Edith Kern, op. cit; p. 1

(٨) قال سارتر في إحدى المقالات الصعبة « يمكن للإنسان أن يتنج دون أن يضطر إلى إرفاق نفسه كثيرا بالعمل .. ثلاث ساعات عمل في الصباح ومثلها بعد الظهر ... هذه هي القاعدة الوحيدة التي أتبعها » . ولكن هذه الساعات الست من العمل اليومي التي لم تنقطع عنها أبدا حتى أثناء سريته ورحلاته أسفرت عن انتاج كثير جدا من الأعمال التي تقدر بحوالي خمسين كتابا في الفلسفة والادب وعلم النفس وتاريخ سير الحياة والرواية والمسرح والنقد الادبي وسيناريو الافلام والمقالات وما الى ذلك . وكان سارتر كثيرا ما يردد أنه لا يستطيع أن يمر يوم دون ان تتاح له فيه فرصة انتاج قدر كبير جدا من الكتابة . ومن أراءه بتقدير أعماله وإنجازاته قبل أن يموت بوقت قصير قال ، « انني لست نيكيسير كما انني لست هيجل Hegel ، ولكنني كروست من جهدي وعنايتي ما استطعت . ولقد فلتت بعض أعمال فشلا ذريعا ، وكان البعض الآخر أقل فشلا ، ولكن البعض كان ناجحا قاما ، وهذا يكفي » .

وفي المناقشات الكثيرة التي تدور حول أعمال سارتر اختلف النقاد حول تحديد المجال الذي أنجز فيه أكثر من غيره خاصة وأنه من أغزر كتاب هذا القرن كتابة وانتاجا ، بحيث نجد أن ما أنجعه في الفلسفة وذهبا أو المسرح وذهبا أو الرواية وذهبا يمكن ان يعتبر إنجازا ضحيا وكافيا . وكما يقول تانان سكوت (ص ١٢٢) أن السؤال الذي يبره مرارا وتكرارا هو اذا ما كان سارتر يعتبر فيلسوفا استخدم الرواية والمسرح كوسيلة لتنصيب مذهبه الفلسفي ، او أنه فنان دفعته مجارته وجرالته وصرلته المحسوسة الى أراضٍ وإدخال الفكر النظري . ومن الصعب الوصول الى اتفاق عام بين النقاد في هذا الصدد ، ولذا فإن الكثيرين يميلون الى ان يأخذوا أعماله كلها كوحدة متكاملة وبذلك ليس من المهم ان نعتبره فيلسوفا أو فنانا أدبيا ، وإنما المهم هو ان ندرك أنه استطاع ، بصرف النظر عن الاداة التي يستخدمها في توصيل رسالته ، أن يدرك الواقع ويفهم الحقيقة وأن يعبر عن التجربة الإنسانية بطريقة مقنعة تتفق دائما مع نظريته الخاصة .

وال معروف ان سارتر كان قد اشغل بالتدريس في المدارس الثانوية (اليسيه) بعد حصوله على شهادة الاجريجاسيون وتقلب بين عدة مدارس في عدد من المدن ميتزنا والمغائر ومنتهاا بليسك كوندورسيه Condorcet في باريس . ثم ترك التدريس وانقطع للكتابة والتأليف من عام ١٩٦٤ حين أمكنه أن يعيش من دخل مؤلفاته .

فريد من الذاتية والموضوعية . « وإذا أردنا مثالا مشابها من الماضي - مع الأخذ في الاعتبار طيلة الوقت الاختلافات والمميزات والمحددات الضرورية - فان فولتير سوف يرد الى أذهانتنا بسليبيته الشاملة المسيطرة . لقد عاش فولتير في مفترق طريق آخر يمثل حالة انتقال تاريخي واجتماعي هائل . فأخضع النظام القديم لاقصى أنواع النقد والسخرية اللاذعة الممضة ، وتمكن من اكمال سلبيته الراديكالية بتوقع قيام نظام آخر جديد . ونحن نعرف الآن جيدا أن جزءا ضئيلا جدا من أعمال فولتير الضخمة هو الذي لا يزال يقرأ في الوقت الحالي ، ولكننا نستطيع أن نتخيل في الوقت ذاته مدى ما كان يمكن أن يكون عليه القرن الثامن عشر من فقر وجذب وإحمال لو لم يوجد فيه فولتير » (٩)

ولقد كان هذا النوع من السلبية الراديكالية هو أهم ما يميز أعمال سارتر حتى وهو يعني أغنية الأمل . والواقع أن « عجز » سارتر عن أن يتخطى ويتعدى هذه السلبيات « الراديكالية » لم يكن راجعا فقط الى انشغاله بكثير من الامور في وقت واحد وبالتالي عدم توفر الوقت لديه لتحقيق ذلك التغلب والتعدي على ما يزعم البعض ، وإنما كان ذلك العجز ، كما يقول ميزاروس أيضا ، مسألة أصيلة وكامنة وعميقة في علاقة سارتر بالعالم ، كما ان مواقفه واتجاهاته واستجاباته لذلك العالم هي التي كانت توجه أعماله وكتابات وكل أنشطته الادبية الكثيرة المتنوعة التي تتراوح من القصة القصيرة الى كتابة (سيناريو) الافلام ، ومن النقد الادبي الى الروايات ، ومن المسرحيات الى كتب السيرة ، ومن الكتب الفلسفية الضخمة العميقة الى المنشورات السياسية . وصحيح ان سارتر انتبه منذ وقت مبكر لهذه (السلبية) ووعده بأن يتخذ موقفا أكثر (ايجابية) بعد نشره رواية « الغثيان La Nausée » وهي أولى رواياته وترجع الى عام ١٩٣٨ . ولكن مثل هذه « الايجابية » لم يتح لها ان تتحقق أبدا ، وذلك اذا صرفنا النظر عما كان يتردد في كتاباته من كلمات مثل « ينبغي » أو « الالتزام » وما إليها . وبالمثل ، فانه لم يستطع ان يحقق ما كان يريده من وعود حول كتابة مؤلف منهجي عن الاخلاق ، مع أن المشكلة الاخلاقية كانت من اهم المشكلات التي كانت تشغل تفكيره ، رغم كل ما قد يبدو في سلوكه وأرائه من عكس ذلك . وعلى أية حال فان

Istvan Meszaros, " Sartre's Quest for the Reign of the Human "

(٩)

The Times Higher Education Supplement, 2.5. 1980, p. 9

وقد حاول استفان ميزاروس في هذا المقال الرائع العميق اظهار مكانة سارتر و « معناه » في ضوء أعماله . ويعتبر ميزاروس من أكبر النقاد في إنجلترا في فلسفة سارتر بالذات ، ويقدم حاليا بتأليف كتاب ضخيم يقع في عدة مجلدات يدرس فيها بدقة وتفصيل أعمال سارتر . وقد نشر في العام الماضي المجلد الاول من هذا الكتاب بعنوان :

The Work of Sartre : Volume One : The Search for Freedom, Harvester Press .

وكثير من النقاد ينظرون الى هذا المجلد الاول على أنه من أهم ما كتب عن سارتر على الاخلاق . وبخاصة فيما يتعلق بدراسة أعماله المبكرة ، ففيه (بواجه) ميزاروس سارتر حسب تعبير رونالد أرنسون Ronald Aronson وهو يعرض للكتاب في مجلة New Statesman (عدد ١٤ مارس ١٩٨٠) ، بمعنى أنه يصف بعض الضغوط والتوترات التي وجهت كل حياة سارتر وأعماله كما يبين أن هذه التوترات وما ارتبط بها من مواقف واتجاهات ظهرت كلها في تلك الاعمال المبكرة . والاستاذ أرنسون هو نفسه من الكتاب المهتمين بسارتر وله كتاب حديث عنه ورد ذكره في هذا المقال .

« السلبية » تتضمن بغير شك جانباً كبيراً من الأخلاقية ، ولذا فإن هناك من الكتاب من يعتبر سارتر - على هذا الأساس - من أكبر الفلاسفة « الاخلاقيين » في هذا العصر . على الاقل نظراً لانه كثيراً ما يتمسك بالالتزام حتى وان لم تكن كتاباته تتفق دائماً مع « القيم » السائدة في المجتمع .^(١٠)

والواقع ان مكانة الانسان ، او على الاصح وجود الانسان في العالم كان واحداً من الافكار الرئيسية في فلسفته . وقد ظهرت هذه الفكرة في كل أعماله الروائية وفي نقده الادبي بل وأيضاً في نظريته وأرائه عن غيره من الكتاب ، كما وجهت آراءه في التحليل النفسي ذاته . ونحن نعلم من سيمون دوبوفوار ان سارتر كان يقرأ أعمال هايدجر سواء في لغتها الاصلية او في ترجمة كوربان Corbin منذ أواخر الثلاثينات ، وكان يجد في تلك الكتابات مادة غزيرة لتفكيره هو ، بل انه وجد فيها صدى لمحاولته فهم حقيقة العالم فيها فلسفياً ، كما ان محاولته التوفيق بين الذاتية والنزعة الموضوعية كانت من المشكلات التي تدور في ذهنه وفي مناقشاته طيلة الوقت في ذلك الحين . ولابد ان فكرة كتاب الوجود والعدم كانت قد بدأت تتضح وتبلور أثناء تلك الفترة التي كان سارتر وسيمون دوبوفوار يتناقشان فيها حول آراء هايدجر عن الوجود في العالم . ولكن مما يؤسف له ان تركيز سارتر الشديد على فكرة الوجود في تصور الانسان للعالم أدت بالكثيرين الى اساءة فهمه ، بحيث اعتبروا كتاباته نوعاً من العدمية الاخلاقية .

ولقد سبق أن ذكرنا أن سارتر تصدى بشجاعة فائقة لعدد من القضايا الهامة ووقف موقف الدفاع والتحدى والعناد ضد حركات القمع والاضطهاد والاستغلال واستعباد الشعوب المستضعفة ، دون أن يكون في يديه سلاح

(١٠) الأغلب أن سارتر تأثر في فكرة الالتزام بالفيلسوف الالماني (كانت Kant) بأفكاره المظلمة . والمعروف على أية حال أن سارتر خضع لتأثير عدد من الفلاسفة الكبار من أمثال ديكارت وكيركجارد Kierkegaard وماركس وهوسرل وهايدجر على ملاكنا . ولكن أكبر تأثير تعرض له واستمر طويلاً كان تأثير هيجل ولورق كل شيء (كانت) . والغالب ان تأثير ماركس كان لفترة قصية نسبياً . وليس من شك في أن فلسفة (كانت) عن الأمر المطلق أثرت فيه وفي رسالته الاخلاقية الخاصة .

والواقع أن ثمة تشابهاً كبيراً بين موقف سارتر حول مدى امكان قيام نسق أخلاقي متمسك في ضوء كتابات سارتر وأفكاره . خاصة وأنه من الصعب العثور في تلك الكتابات الكثيرة المنتشرة على أي توجيه أخلاقي واضح وصريح . ولقد اعترفت سيمون دوبوفوار في كتابها *Les Forges des choses* ، وهو الجزء الثالث من تاريخ حياتها ، ان سارتر في أواخر الاربعينات نبذ تماماً فكرة إقامة نسق « أخلاقي » بالمعنى الدقيق للكلمة ، ولكن ذلك لا يعني أن تفكيره لا يتضمن أية أسس أخلاقية على الاخلاق ، على الاقل من وجهة نظر هو . فلي كتابه عن الكاتب الفرنسي جان جيهيه (Saint-Jean : comédien et martyr) يقول ان « الاخلاقية في حد ذاتها مسألة مستحيلة ولكنها ضرورية » ، وهو يرضى « بالاستعانة » هنا عدم امكان قيام « نسق » أخلاقي لأن الفرد الانساني ليست له ماعية « ما دام هو الذي يصنع بنفسه لنفسه ما يشاء ، ولكن سارتر مع ذلك لا يلمى تماماً لفكرة الاخلاق ولم يجهل أن سقط من اعتباره المشكلة الاخلاقية أو ينادي بحياة مثالية للأخلاق . والنقطة الاساسية في موقفه الاخلاقي بغير شك فكرة الشرعية أو الاصلية والصفة *authenticité* ، وذلك لأن الوجود الشرعي الحقيقي الاصيل يعني بالضرورة الشجاعة التي تجعل الانسان يرضى بأن يتحمل أعباء الحرية ، لأنه هو المخلوق الوحيد الذي يوجد بطبيعته من أجل نفسه ، وأنه يتعين عليه أن يجد الوسائل « خلق » نفسه نظراً لأنه حر بالضرورة وبالتالي فهو « المشرع » الضخم الذي يقدم هو نفسه بتصوريه وتصميمه وتنفيذه . وليس ثمة مهرب للانسان من هذه الحرية ، ومن هنا كان من المستحيل قيام « نسق » أخلاقي ، مقبول من الجميع ما دام الانسان ليست له طبيعة ثابتة أو ماعية بسيطة .

سوى الكلمات التي تعبر في قوة ووضوح وجراً عن اقتناعه بضرورة الوقوف الى جانب المذبذبين في الأرض . ولقد أشرنا الى المحكمة التي قام بتشكيلها الفيلسوف البريطاني برتراند رسل لمحكمة مجرمي حرب فيتنام ، وقد اشترك سارتر فيها كما اشترك من قبل في المظاهرات التي قامت للتنديد بأعمال الفرنسيين الوحشية في الجزائر ، وهاجم في محاضراته وخطبه تلك الاعمال والاستعمار الفرنسي بوجه عام للجزائر . وشجع سارتر ثورة الطلاب والنسب في باريس عام ١٩٦٨ وكان يحرض الطلاب بالفعل على التمرد ، وله في ذلك جملة مشهورة « ان العلاقة الوحيدة التي يمكن ان تنشأ بين الطلاب وهذه الجامعة هي ان يقوم الطلاب بهدم الجامعة ، والسبيل الوحيد لتحقيق ذلك هي ان ينزل الطلاب الى الشارع » ، كما عارض التدخل السوفيتي في أفغانستان^(١١) .

وربما كانت القضية الوحيدة التي لم يقف فيها سارتر صراحة الى جانب الشعب الذي اغتيلت حقوقه وطرد من أرضه هي قضية اللاجئين الفلسطينيين . ولم يكن سارتر في ذلك منطقيا مع نفسه أو أميناً لمبادئه . ومع ذلك فقد أثر هذا التناقض في سلوكه ومواقفه عام ١٩٦٧ حين زار سارتر مصر بدعوة من « دار الاهرام » في الفترة من ٢٥ فبراير الى ١٣ مارس من ذلك العام . فأتثناء لقائه مع طلبة جامعة القاهرة وجه اليه أحد الطلاب السؤال التالي :

« لقد أبديتم رأيكم في مختلف قضايا العالم التحررية ، وقد زرت قطاع غزة ورأيتم أسوأ وأبشع فظائع الاستعمار والصهيونية على حقيقتها . ونعلم أنكم ستزورون فيما بعد إسرائيل . فما رأيكم في قضية فلسطين بعد أن رأيتموها على الطبيعة ، ونحن نعلم انكم قاسيتم من الاستعمار والنازية الالمانية عام ١٩٤٠ ؟ »

(١١) يعتبر موقف سارتر من قضية الجزائر وحرب التحرير الجزائرية من أنصع مواقفه وأسماها في الدفاع عن الشعوب المضطهدة التي تكاليف في سبيل حريتها . فقد أعلن بوضوح تماطفه مع النشاط الذي كان يقوم به فرنسيس جانتسون Francis Jeanson بالتعاون مع جبهة التحرير الجزائرية . (محين قدمت (الشبهة) التي كويتها جانتسون للمحاكمة عام ١٩٦٠ أكد سارتر مرة أخرى تماطفه معه ، كما أنه كان ضمن المثقفين والمفكرين الذين وقعوا النداء الذي يشيد بالمواطنين الفرنسيين الذين رفضوا الاشتراك في الحرب ضد الجزائر أو الذين يزيدون حركة التحرير وكان عدد هؤلاء المفكرين ١٢١ شخصا . وقد هاجم البوليس الفرنسي مجلة (الصور الحديثة) عدة مرات وصادر بعض أعداها ، وقد حاول سارتر أكثر من مرة استشارة البوليس حتى يدفعهم الى القبض عليه وإرساله الى السجن ، ولكن حكومة ديغول كانت تحالفي ذلك . ولم يعرف أن الكاتب الفرنسي الشهير أندريه مالرو كان هو وزير الثقافة في حكومة ديغول آنذاك . وقد قال ديغول في تفسيره عدم القبض على سارتر : « ولكن سارتر هو أيضا فرنسا » .

وكما سبق أن ذكرنا فإن سارتر كان يكالغ دائما مع حقوق المضطهدين والمستعبدين ، ويتساوى في ذلك مواقفه الصريحة الجريئة في الدفاع عن انسان فيتنام ضد الأمريكين ، أو الدفاع عن انسان كوبا ضد أمريكا أيضا ، أو الدفاع عن انسان الكونغو أو الدفاع عن انسان المجر أو انسان أفغانستان ضد التدخل السوفيتي . وهو الذي دافع عن الانسان المصري ضد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ . « ان فرنسا ذهبت تنفذ فتاة تقتل شعبا . هذا الشعب الذي قررت أن تفضله ليس الشعب المصري وإنما هو الشعب الفرنسي نفسه . فليس من حق أي رئيس لحكومة فرنسا أن يجرد الشعب الفرنسي كله من شره وجهه للسلام وصداقته لكل الشعوب المتحررة - وهكذا . وكان سارتر يجادل من الاستعمار الجديد ويرفض تلك التفرقة الزائفة بين « المستعمرين الصالحين » و « المستعمرين الاثام » ويرى أن « هناك مستعمرين رصيب » « فلسطين وسائر والشبكة الفلسطينية » في كتاب : اساعيل المهدي وآخرين ، سارتر مكررا انسانا « دار العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، صفحة ١٨٩ » .

وجاء رد سارتر على السؤال كما يلي :

« الذي أستطيع أن أقوله لكم الآن بعد أن زرت غزة هو ملاحظتان :

الاولى هي أنني أحسست احساسا عميقا بأساة كل هؤلاء اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون في ظروف بائسة ولا تتحمل في بعض الأحيان .. الذين يعيشون على حدود البلد الذي كان بلدهم .

« والملاحظة الثانية هي أنني اعتبر أن حق الفلسطينيين القومي في العودة الى البلد الذي كانوا يعيشون فيه حق لهم لا يجوز مناقشته اطلاقا . ولن أذهب في حديثي اليوم الى أبعد من هذا ، لأنه قد يتساءل البعض وكيف يعودون الى بلدهم ، وما هي العلاقة التي يفترض أن توجد بينهم وبين من يوجدون بإسرائيل اليوم ، الخ ؟ أقول لن أذهب الى أبعد مما قلت ، سأقول لكم السبب أننا نقوم الآن في مجلة «العصور الحديثة» بتحضير عدد خاص عن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . سنقدم فيه لأول مرة وجهة النظر العربية بأقلام كتاب عرب ، وسيقدم هؤلاء الكتاب كل وجهات نظرم . ومن بين هؤلاء الكتاب كتاب فلسطينيون ينتمون الى (منظمة التحرير ، أي الحكومة المؤقتة السرية) . وفي نفس الوقت سنقدم وجهة نظر معروفة في فرنسا اليوم أكثر من وجهة النظر العربية وأعني بها وجهة النظر الاسرائيلية . سنقدم وجهتي النظر وذلك لأننا لو أعطينا وجهة نظر واحدة فإن إعلام الجمهور الفرنسي ، هذا الجمهور الذي أعرفه تماما ، سيكون اعلاما ناقصا . ان الرأي العام الفرنسي في حاجة الى وجهتي النظر لكي يحكم .. ولكي نحصل على وجهتي نظر الجانبين ، أعني العرب والاسرائيليين ، وهذا يرفضان الحوار تماما فيما بينهما ، فقد قرنا-لا أن نكون محايدين وإنما متغيبين تماما ، أي أن نكون غير متلين على الاطلاق في هذا العدد . ان هذا العدد سيترك من جزء سيكتبه الاسرائيليون وجزء آخر منفصل سيكتبه العرب ، ولن نضيف أي شيء أكثر من هذا . سنقول ببساطة أننا نقدم هذا العدد ... مفهوم إذن أنه لن يكون هناك حوار من أي نوع بين العرب والاسرائيليين ، كما أنه ليس هناك أي تدخل من جانبنا . في مثل هذه الظروف لو أنني ذهبت الى البحث في أعماق المشكلة فاني في مثل هذه اللحظة سأكون منحازا ، وإذا حدث فاني أحنت بالهمد الذي قطعته على نفسي في مواجهة هذا العدد الذي أعده ، إذن فاني أتوقف عند حد هذا القول الذي أعلنته .^(١٢)

(١٢) انظر : مجلة (الطليعة) القفارية ، عدد ابريل ١٩٦٢ ، صفحة ١٤٠ . والواقع ان سارتر كان قد عرض هذه المسألة ذاتها في حديث له مع صحيفة الاحرام في ديسمبر عام ١٩٦٥ حيث قال : « ونحن نجد أنفسنا اليوم أمام النزاع القائم بين العالم العربي واسرائيل كأننا متقسمن على أنفسنا . ونحن نعيش هذا الانقسام وكأنه مسألتنا الشخصية .. وقد رأيت هذا السبب الفاعل الممازج الوحيد الذي أصبح لنفسى بها ومن أن أغلب من الجانبين أن يزوداني بالبيم من معلومات . وقد قفلا ، كل على انفراد ، تزويدنا بوجهة نظرم . ومن اجل هذا السبب سأقرب الى مصر واسرائيل وهدف الوحيد جمع المعلومات . أي محاولة رؤية المشكلة بوضوح أكثر . ان الأمر لا يهدف الى إيجاد حوار عودي - عري ، لهذا مستحيل ولا جدوى من رواته ، لأن أساس هذا الحوار لم يوجد بعد . ويصدر بعد ذلك عند مجلة الألفية الحديثة ليتمكن قراؤها من تعلم القضية » (نقلا عن المرجع السابق ذكره ، صفحة ٢١٢) . وكما يقول نيل زكن ، ان موقف سارتر من اسرائيل كان منذ البداية موقفا حافضا لأنه كتب في ابريل عام ١٩٤٨ مقالا يأخذ فيه على بريطانيا انسحابها من فلسطين لأن ذلك يعرض اليهود لهدوم مياثر . من جانب العرب الذين يفرقون في العدد والعدد ، وطلب بضرورة تسليح اليهود أو السماح لهم بشراء الأسلحة لهم لحماية أنفسهم . (المرجع نفسه ، صفحة ٢١٣) . وقد نسي سارتر في كل ذلك أن ينظر الى قيام اسرائيل على أنها عملية انتصاب بالفرقة المسلحة كما تغافل عن النظام الارهابي الذي يجهه الاسرائيليون في تعاملهم مع العرب الذين يعيشون داخل اسرائيل ، وأن ينظر الى اسرائيل باعتبارها « أداة القوى الاستعمارية العالمية في ضرب حركة التحرير العربي ورسالة قوى الرجعية والتخلف » (صفحة ٢١٩) .

وواضح ان الجزء الاخير من هذه الاجابة هو نوع من الهروب اللبيق الذي يتناني على أية حال تماما مع مواقفه الصريحة المجرئة العنيفة في الدفاع عن الشعوب المضطهدة والمستضعفة . ولقد ظهر عدد « العصور الحديثة » كما ذكر سارتر ، ولكن الأمر وقف - من جانبه - عند هذا الحد ، ولا يمكن ان يقارن ذلك بما فعله المؤازرة حركات التحرر الأخرى ، بل انه لا يمكن مقارنة تخصيص عدد من العصور الحديثة ليكتب فيه العرب والاسرائيليون على السواء لبدء وجهة نظرهم هم أنفسهم في القضية ، بما فعله هو نحو اليهود حين خصص لهم أحد أعماله وهو « تأملات في المسألة اليهودية » الذي ظهر عام ١٩٤٦ . وهذا هو الذي يجعلنا نذهب الى أن سارتر خان مبادئه وتكررها حين وجد نفسه في موقف قد يثير ضده يهود فرنسا والعالم .



في الشهور الاخيرة من حياته بدأ سارتر تراجع نفسه ومواقفه وفكره من بعض القضايا الهامة التي كان يقف منها موقفا قاطعا وحاسما وصريحا ، وعبر عن مواقفه الجديدة في سلسلة مقابلات نشرتها مجلة Le Nouvel Observateur الاسبوعية . ففيلسوف الوجودية الفردية الذي كان يردد ان « الآخرين هم جهنم » يعترف أخيرا بأنه بالغ حين اعتبر - حسب ما يقول - « كل فرد مستقلا أكثر من اللان عن غيره في نظريتي عن الآخرين . ذلك أن الشيء الحقيقي هو العلاقة بيني وبينك » . ولعل أخطر هذه (المراجعات) والتغيرات التي طرأت على فكره في تلك الفترة الأخيرة . كما كشف عنها للمجلة هو تغير نظره الى اليهود كشعب متميز عن غيرهم من الشعوب . ففي كتابه « تأملات في المسألة اليهودية » كان سارتر يذهب الى أن اليهودي يصبح يهوديا لان الآخرين ينظرون اليه على هذا الاساس ، اي على أنه يهودي . واعتبر سارتر ذلك من أهم الاسباب التي تحتم انشاء دولة يهودية كحل لمشكلة اليهود الذين سوف ينزحون بالضرورة اليها . وكان يرى ان اليهود ليس لهم تاريخ مشترك أو ذاتية identité مشتركة موحدة وإنما يتمتعون بتلك الذاتية السلبية التي تضفيها عليهم النزعات المضادة للسامية . ولكنه لا يلبث ان يعلن على صفحات المجلة ان الشعب اليهودي له ذاتية خاصة مميزة ومستمدة من « حقيقة أعمق » بكثير من الالسامية . وانهم يستمدون حياتهم وبقاؤهم من هذه « الحقيقة العميقة » التي تقوم في أساسها على علاقتهم بالاله الذي يعبدون . « فاليهودي يعتقد أن نهاية هذه الحياة وظهور حياة جديدة إنما يعنيان ظهور وجود أخلاقي جديد » ، وهذه الفكرة عن الاخلاق كنهاية أخيرة هي فكرة مخالفة تماما لأراء ماركس والماركسية . وبذلك ظل سارتر مائلا لليهود ومتعاطفا معهم حتى آخر حياته . كذلك ذهب في (مراجعته) لنفسه ولأفكاره الى حد القول انه « لم يعد لليسار وجود » وذلك بناء على الوضع السائد في دول الغرب حيث يتولى السياسة المحافظون شئون الحكم ، وعلى ذلك فإن « الديمقراطية » يجب ان تكون هي الاسلوب الذي يعيش الناس بمقتضاه . وقد دفعه ذلك في آخر تلك المقابلات الى ان يعلن في صراحة ووضوح انه يتمنى أن يعود العالم الى ذلك البناء الاجتماعي البسيط الذي يميز « العشيرة clan » . « فمنذ عدة آلاف من السنين كانت الجماعة الاولى هي العشيرة التي كانت تتميز بطابعها الخاص والتي كانت تسود فيها علاقات تقوم على مبدأ الاخاء .

وهذا هو ما يتعين علينا أن نبحث عنه الآن : العشيرة ... إن فكرة قيام العشيرة على أساس الانتماء الى « رحم » واحد كانت أسطورة بغير شك ، ولكنها مع ذلك كانت هي الحقيقة » . (١٣)

والظاهر أن شعور الانتماء الى العشيرة كان أحد المبادئ التي قامت عليها علاقاته مع أصدقائه وزملائه المقربين ومع بعض تلاميذه والمعجبين به من الشباب المثقف في باريس ، والذين أصبح بعضهم فيما بعد من الكتاب والادباء والروائيين المعروفين . وقليل من المؤلفات التي ظهرت عن سارتر اهتمت بإبراز هذه العلاقات والأسس التي قامت عليها على الرغم من أنها تكشف ، ليس فقط عن شخصية سارتر، بل وأيضاً عن مدى اتباعه لمبادئه فلسفته وتفكيره ، وتطبيق هذه المبادئ في علاقاته الشخصية والعملية . وربما كان كتاب ماريوس بيران الذي سبقت الإشارة اليه والذي يعطينا صورة عن علاقات سارتر مع زملائه (في المعتقل) واهتمامه ببثّ تعليمه من أفضل هذه الكتابات رغم قصره . وماريوس بيران كان في الاصل من رجال الدين ولكنه متخصص في الوقت ذاته في الدراسات الانجليزية وشغل الآن منصب مدير المدرسة العليا للسكرتارية والترجمة في الكلية الكاثوليكية في ليون . ولم يكن لبيران عن سارتر قبل ان يقابله في المعتقل سوى ذكرى باهتة عن قراءته لرواية قصيرة وقصة كان سارتر كتبها عام ١٩٣٩ وهي « الجدار Le Mur » ، كما كان يتذكر أيضاً المقال الذي كتبه سارتر ينتقد فيه بعض أعمال كاتب فرنسا العظيم فرنسوا مرياك Francois Moiriac . ولكن حياة الاسر ربطت بين الرجلين كما هو واضح في الكتاب بحيث أصبحت العلاقة بينهما علاقة وثيقة استمرت الى ما بعد سنوات الحرب وتبلورت عن هذا الكتاب المشحون - كما ذكرنا من قبل - بالذكريات والعواطف ، والذي ينم عن مدى تأثر بيران بشخصية سارتر وآرائه وأفكاره . والشئ الذي يميز كتاب بيران عن معظم الكتب الحديثة التي ظهرت اخيراً عن سارتر هو ان الكتاب يبرز لنا سارتر في صورة « الحكيم الشرقي » ، حسب تعبير الاستاذ دوجلاس جونسون ، أكثر منه في صورة الفيلسوف الكلاسيكي . فلم يكن سارتر في نظره مجرد آلة مفكرة لها قدرة هائلة على التفكير والجدل والنقاش والافتقار وإثارة الحيرة والتساؤلات وارهاق من مجادله ، كما أنه لم يكن مجرد ذهن وقاد على درجة عالية من الذكاء والسمو بحيث كان يفلح دائماً في استنارة اهتمام السامع واخضاعه في الوقت ذاته لتأثيره ونفوذه ، ولكنه كان أيضاً رفيقاً وصديقاً وفيما يعرف كيف يخلص في صداقته وكيف يحتفظ بتلك الصداقة لفترات طويلة جداً من الزمن دون أن تفقد شيئاً من حرارتها وعمقها وصداقتها . والواقع ان ايديت كيرن كانت قد انتهت لاهغال المؤلفين والكتاب لهذا الجانب الشخصي في كتاباتهم عن سارتر ، ولذا فانها تذكر أن « الذي ظل في الخفاء هو سارتر

(١٣) كتف سارتر على غير توقع منه في الاسابيع الأخيرة من حياته عن تغييرات جذرية في بعض مواقفه والمجلدات المعنية بحيث اعتنق بعض القيم التي كان يعتبرها من قبل فيما يوروجرافية مثل « الأسرة » و « الديمقراطية » ، بعد أن كان في مراحل حياته الأولى يشغل نفسه بالبحث والعدم لكي ينتقل منها الى الاهتمام بالذات كالمعادلة الاجتماعية والاحترام . والمقالات الصحفية التي أجريت مع سارتر في الشهور الأخيرة من حياته تكشف عن هذه التغييرات التي لم يتبع لها أن تظهر بوضوح في مؤلفاته المتأخرة . انظر في ذلك المقال الذي نشر عن سارتر في عدد ٢٨ أبريل ١٩٨٠ من مجلة : New week الأمريكية .

الانسان كما يعرفه أصدقائه وتلاميذه ومريده . فهو انسان صبور ورفيق طيب القلب .. غارق في أفكاره وتأملاته الى حد كبير جداً» (١٤)

ولكن لعل الغريب في الأمر هو ان جان بول سارتر وسيمون دوبوفوار ، على الرغم من مكانتها وبخاصة بالنسبة لشباب فرنسا من المثقفين الذين كانوا يلتقون بها ، لم يحاولا التأثير بشكل متعمد أو مقصود على هؤلاء الشبان عن طريق دعوتهم الى اعتناق آرائها وفلسفتها او مطالبتهم بانتهاج نهج فكري بالذات ، أو أسلوب معين في الكتابة . بل كان الأمر على العكس من ذلك تماما ، فكما يقول جاك جيشرون Jacques Guicharnaud وهو يستعيد ذكريات الشباب حين كان يرتاد مجلس سارتر ودوبوفوار ، وذلك في مقال له نشر في مجلة Yale French Studies (العدد ١٦ شتاء ١٩٥٥ - ١٩٥٦) ان سارتر وبوفوار لم يحاولا قط أن يمارسا دور الأساتذة الكبار على مجموعة من التلاميذ والمريدين ، وإنما كان هؤلاء الشبان هم الذين يسعون طوعا الى سارتر الذي كان ينظر اليهم ويعاملهم على أنهم هم الممثلون الحقيقيون لمصرهم . فلم يكن سارتر بالذات يهتم بتوجيه هؤلاء الشبان وجهة معينة بالذات بقدر ما كان يحرص على مساعدتهم على التعبير عن أنفسهم في الصورة التي يختارونها لانفسهم ، وذلك على اعتبار ان هذه كانت تمثل في نظره - ونظر سيمون دوبوفوار أيضا - أفضل وسيلة لمساعدتهم على تحقيق حريتهم . بل الاكثر من ذلك ان جان بول سارتر وسيمون دوبوفوار كانا يبدآن من وقتها ما يسمح لها بقراءة كل ما عرضه عليها هؤلاء الادباء الشبان المبتدئون ، وأن يبديا رأيهما وجهة نظرها كتابة في كثير من الاحيان وفي غير قليل من الدقة والتفاصيل . ولم يحدث قط - حسب ما يذكر جيشرون - أن رفض أي منها النظر في أي عمل من هذا القبيل تقدم به اليها أي من هؤلاء الشبان الذين كانوا يحيطون بها ويحشرون مجلسها ، فقد كانا يعتبران ذلك نوعا من « الالتزام » عليها ازاء الادباء والكتاب الناشئين . فاذا وجدا ان العمل الذي قدم لها يصل الى درجة معينة من الجودة فانها كانا يعرضانه على البير كامى لقراءته وايداء الرأي فيه ، وكثيرا ما كان هذا « العمل » ينتقل بعد ذلك من يد لأخرى من بين الكتاب المتصلين بسارتر لقراءته وتقويمه ومناقشته اثناء هذه الجلسات . وربما كان ذلك من أهم الاسباب التي كانت تجعل هؤلاء الكتاب المبتدئين يتمسكون بجان بول سارتر ويظلون مخلصين لآرائه وفلسفته حتى الآن .

يقول جاك جيشرون ، « في عالم اليوم نجد ان الدعوة الى قيام ادراك واع وواضح والتي نادى بها سارتر في فلسفته عام ١٩٤٣ لا تزال قائمة وصحيحة حتى الآن . وعلى ذلك فليس ثمة ما يبرر الزعم ان سارتر لم يدع الى شيء جديد او لم يحقق شيئا جديدا في كتاباته . وحتى لو كان ذلك الزعم صحيحا فانه يكفي سارتر انه كان

الوحيد الذي أعلن عن هذه الحاجة في ذلك الحين وعبر عنها بوضوح وبألفاظ يفهمها الجميع . ولا يزال تفكير سارتر ونشاطه هوجماسته يشغلان حتى اليوم الجانب الأكبر من اهتمامنا . ومن المهم جدا بل ومن الحيوي ايضا ان نحاول ان نعرف ونفهم لماذا كان سارتر يتبع طريقا معينة بالذات دون أخرى ، فهذا أفضل وأجدي من أن نصكف على دراسة تحليلات فرانسواز ساجان Françoise Sagan وأوهامها ، او مسوغات جول رومان Jules Romains . ان هذه (النفوس المتدنية) التي ترى أن رسالتها الاساسية تنحصر في ان تخفف من مشاعرها بالانتم وان تلقى بها على عاتق الآخرين سوف ترمينا وتتهننا بأننا لا نزال أسرى انتماءاتنا القديمة وولائنا القديم الذي يرجع الى عهد مراهقتنا المبكرة . ومن السهل علينا الاجابة على ذلك ، بأننا حتى الآن لم نجد سببا واحدا يدفعنا الى تغيير هذا الولاء والانتباه ، وأنه يمكن القول بكل الموضوعية : ان العالم خلال العقد الاخير لم يقدم لنا ما يجعل هذا التغيير ممكنا » . (١٥)

ولكن ...

في عام ١٩٧٥ سئل سارتر عما اذا كان يشعر بالأسمى لأن المتفقيين الشبان لم يعودوا يقرأون كتبه ؟ فأجاب : « انه أمر مؤسف بالنسبة لي . ولكن لكي أقول الحقيقة ، انه ايضا أمر سيء جدا بالنسبة لهم » .



ويضم هذا العدد مجموعة من الدراسات التي حاولنا فيها الالمام بقدر الامكان بمعظم الجوانب التي تطرق اليها سارتر في كتاباته . فليس من السهل على العموم الاحاطة بكل الميادين والمشكلات التي اهتم بها وخصص

(١٥) ظهر مقال جيشرو في الأصل بعنوان Those 1945-1943 Existentialism لم نشر بعد ذلك ونشر العنوان في الكتاب الذي اشرفت عليه ايديت كيرن والتي سميت الاشارة اليه (صفحات ١٥ - ٢٠) . ويذكر جيشرو في بداية المقال ما يليد أنه انطباعات ذاتية وليس دراسة موضوعية . ولذا فانه يعنى فيه في المحل الاول بذكرياته الخاصة وملاحظاته . يقول جيشرو : « لقد طلب الى أن أكون ذاتيا ، على أساس أنه في عام ١٩٤٤ وكنت في ذلك الحين في العشرينات من عمري ، أتهد على مقهى دولفور ، وأتسبب لأشباب عديدة - كنت كثير الاتصال بسارتر و جماعة الوجوديين » وسوف استخدم في هذا المقال صيغة الجمع (نحن) فأقول مثلاً « لقد كنا نجلس خارج دولفور » .. « ولقد أثيرنا . سارتر . وحتما صيغة الجمع هذه الى شيء من التوضيح والتعريف ، فاللصود بها أولا الاشارة الى أنا شخصيا وما أتذكر من نفسي وما طرأ على تفكيري من تغيرات خلال السنوات العشرين للماضية . ولكنها تعنى أيضا الاشارة الى بعض الأسلاف وما أتذكر عنهم أو ما أتوهم أنني أعرفه عنهم . فهي اذا « نحن » مجردة ، انها صيغة جمع تاريخية ويرجى أن يمكن استخدامها بسهولة للاشارة الى المعاني التي تتجاوز التجربة الشخصية وتتعدى هذه الذكريات عن فترة تتجاوز وجودي الشخصى الى حد كبير جدا (Edith Kein, Ibid, p, 15) هنا وقد كتب المقال الأصلي عام ١٩٥٥ .

لها كثيراً من جهده ووقته وفكره . وعلى أية حال فحين أصدرت إيديث كيرن - على سبيل المثال - كتابها الذي أشرنا إليه في أكثر من موضع من هذه الدراسة التمهيدية والذي يضم مجموعة من الكتابات التي تتناول فكر سارتر وأعماله ومواقفه ، صنفت هذه المقالات والدراسات في الفئات التالية : الرواية ، المسرح ، الأسلوب ، النقد الأدبي ، الفلسفة ، التحليل النفسي الوجودي ، السياسة . والدراسات التي يضمها هذا العدد من المجلة تناولت هي الأخرى كل هذه الجوانب بشكل أو بآخر . وقد يكون هناك شيء من التداخل بين المقالات المختلفة وهذا أمر طبيعي ومشروع ، إذ ليس في الامكان (تشريع عمل شخص واحد أو تفكيره الى أقسام منفصلة بعضها عن بعض كل الانفصال . فكتابات المفكر الواحد تؤلف وحدة عضوية مهمة مهما تنوعت وتشعبت وبصرف النظر عن اختلاف الآراء وبخاصة في العالم العربي حول سارتر وأعماله ، فليس من شك في أنه أفلح كمفكر وكاتب في أن يفرض نفسه وفلسفته وآراءه على الفكر العالمي ، وأن يشغل المثقفين في جميع أنحاء العالم بهذه الفلسفة وتلك الآراء ، وأصبحت أعماله جزءا من التراث الفكري الانساني . ومن هنا كانت ضرورة إصدار هذا العدد عن جان بول سارتر .

تقوم دراسة جان - بول سارتر لمؤلفات جان جينييه^(١) على مفهومين رئيسين ، يحاول الفيلسوف الوجودي إبرازهما بطريقة موضوعية ، إلا أنها - في الواقع - ينتميان بصفة جذرية الى صميم فكره الفلسفي . هذان المفهومان هما مفهوما الشر والحرية . لذلك نحسن نريد ، من خلال هذه الدراسة ، أن نقدم قراءة سارتر لجينييه في اطارها الحقيقي وهي فلسفة سارتر نفسها ورؤيته للوجود ، وهذا أمر - لاشك - يسترعي انتباه معظم الدارسين لمؤلفات هذا الفيلسوف الخاصة بالأعمال الادبية وأهمها مؤلفاته عن بولير وجينييه وفلووير .

إننا نريد أن نقول بصدد هذه الدراسة عن جينييه انه اذا كانت فلسفة سارتر تقوم في جوهرها على الحرية ، وإذا كان دور الفيلسوف هو رفع الحجب عن هذه الحرية ، وأهمها حجب « سوء النية » la mauvaise foi و « روح الجسد L'esprit de serieux بالنسبة للفرد وحجب « الاغتراب » (L'alienation) . بالنسبة للانسان في مجتمع « الممارسة - الجامدة » (L'èpratico — inerte) . واستثمارها بطريقة تتفق وحركة التاريخ وتؤكد خلاص الانسان في المستقبل ، نظرا لأن المستقبل هو أسمى الموجودات قاطبة لارتباطه بعالم الامكان ، فان الشر ، الذي يشكل حجر الزاوية في مؤلفات جان جينييه ، ليس

سارتر وجينييه أو الشر والحرية

محمد علي الكردى

رئيس قسم اللغة الفرنسية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

غريبا على فكر جان - بول سارتر أنه ملازم للحرية ملازمة الظل للانسان - إن صح هذا القول - ومذكر بها كما يذكر الظلام بالضياء .^(٢)

ان الشر ، في عالم القيم الساترية ، لا يمكن ان يقوم بدون الحرية ، كما أن الحرية لا يمكن أن تقوم بدون امكانية الشر ، إذ أنه إذا لم يكن للشر معنى الا بالنسبة للخير ، أي في حدود النسبية ، فان الحرية ، وهي حقيقة « الموجود - لذاته » (le pour — soi) ، لا يمكنها أن تتوضع الا في عالم السلب الخالص ، بعبارة أخرى ، يتصور سارتر فكرتي الشر والحرية كقوتين سلبيتين لا يمكنها التحول الى ايجابيات الوجود الا بعد فعل التجاوز ، وإذا كان التجاوز الساتري لا يقوم على قيم مفارقة لأنه مرتبط في جوهره بأخلاقيات تتحقق من خلال التاريخ ، فان الفيلسوف يرفض مبدأ المطلق الذي يجمد الخير ، في نظره ، في صورة القاعدة أو القانون ، وبالتالي يجعل من الشر فعلا ملازما بالضرورة للحرية ، بل ان الشر حرية في جوهره بقدر ما هو ثورة وخلق وابتكار . أضف الى ذلك ، ان الشر ، الذي يعد قوة من قوى الرفض والاحتجاج الكبرى ، لا يمكن أن يوجد في عالم المطلق لأنه ، مثل الخير تماما ، لا يكتسب أية قيمة أو معنى خارج الزمان البشري ، بل ان الشر ، أكثر من الخير نفسه الذي ينتمي لطبيعته الى النظام ، هو التاريخ ذاته أو محركه لانه عنصر تغيير وتحول . لذلك كله ، فالشر المطلق والشر من أجل الشر لا وجود له في عالم الواقع ، هو تماما ، كالخير المطلق ، عنصر من عناصر الخيال وقوة من قوى « التديم » (néantisation) الملازمة للحرية . وإذا كان الأمر كذلك ، فان « مشروع » جينيه في تمجيد الشر المطلق بعد أقرب الى عالم الفن والأدب ، أي عالم الخيال ، منه الى دنيا الواقع والتاريخ .



ان الحد الحاسم في حياة جان جينيه يقع ، كما يبدو ، بين السنة العاشرة من عمره والخامسة عشرة ، اذ يفصل هذا الحد إبان هذه الفترة بصورة قاطعة وأليمة بين ماضيه وحاضره : بين ماضٍ تسود فيه البراءة والطهارة ، وبين حاضر كئيب يموت الطفل فيه ويولد اللص . وليس من شك في أن هذا الموت الرمزي للطفولة سوف يشكل ، بالنسبة لكاتبنا ، لحظة القدر المقدسة الرهيبة التي لا يكمل من الحنين إليها ومن إحيائها في أشكال أبدا

(٢) نظرا لان القلق ملازم للحرية ، فان الانسان يحاول ان يتغلب عليه بنوع من الكذب على النفس يسميه سارتر « سوء التية » أو بمجموعة من التبريرات والاعذار الخارجية وهي التي تشكل « روح الجد » ، أما « الاغتراب » فيربطه سارتر بقانون « التندرة » الاقتصادية وبالتالي بالفهم الماركسي للاغتراب ، والمقصود به « الممارسة - الجمادة » هو ارتداد الفعل المرهض صانعه الانسان وتكوينه لنوع من الممارسة المضادة ، فالانسان - مثلا - يخترع الآلة لتخفف عنه مشقة العمل وأعباءه الا انها سرعان ما تتقلب عبء وتغضمه لتطبيق معينة ورتيبة تجعله عبدا لها بعد ان كان يظن انه سيدها .

متجددة^(٢) . ويقول لنا سارتر في هذا الصدد : « بعد أن يتوفى جينيه في سن مبكرة ، يظل يحمل بين جوانحه دور اللحظة المشعومة ويتوق الى الموت من جديد . انه يستسلم ، بين حين وآخر ، لأزمات مطهرة تبعث اللحظة الساحرة الاولى وتسمو بها : على هذا النحو ، تتكرر لديه أمام الجريمة والاعدام والشعر والنشوى الجنسية واللواط مفارقة السابق واللاحق . »^(٤)

لقد كان جينيه « الطفل » ، قبل أن تمزق الجريمة كيانه ، يعيش في حالة من السعادة والتعيم تغلبها عليه البراءة والطهارة وتحكمها خلجات الضمير الساذج المطابق لذاته ولكن في حالة من الشفافية التامة مع الآخرين . لقد نما جينيه في بيئة ريفية وعاش سنوات عمره الاولى في كنف نظام يقوم على الملكية ولا يتأكد فيه الوجود الأصل إلا بالامتلاك .^(٥)

ان الوجود يتشكل ، في هذه البيئة التي تسودها قيم الارث والملكية ، على أساس من اعتقادات الآخرين وأرائهم ، ويكون نتاجا لظروف المعاش الموضوعية أكثر من ارتباطه بأية اعتبارات شخصية أو ذاتية . بعبارة أخرى ، يكون الوجود هنا أقرب الى ما يسميه سارتر الموجود - في - ذاته (L'en — soi) الذي يعبر عن حالة التوضع والتبعية منه الى الموجود - لذاته ، وهو الوجود الواعي المدرك لذاته الذي تجاوز حالة التطابق التام والامتلاء التي تميز الاشياء . ومن هنا يشعر جينيه ، الذي تحددت ملامح شخصيته وفقا لتعايير الملكية ، بأنه بسبب طفولته الفقيرة المعدمة ، لا شي ، بأنه مخلوق هوائي لا جذور له ولا انشاء . ولكن هل في مقدور جينيه أن يعيش هذا الفراغ الجديد - المرادف للحظة الصحوة - الذي يقضي عليه بالعدمية نظرا لافتقاره الى الملكية ؟ كلا ، لأنه

(٣) Mircea Eliade, Le sacré et le profane. Paris, Gallimard, 1965 . تشبه الاحتفال الديني لدى القدماء ، فهي تبعث زمانا قدسيا أو أسطوريا لا ينتهي أبدا ويمكن احيانا بصورة دورية . انظر المرجع ، ص ٦٠ .

(٤) Jean—Paul Sartre, Saint Genet, op.cit., p. 11 — 12 .

(٥) قلنا في بداية هذا البحث ان وضع جينيه جزء من فلسفة سارتر ونظريته التجريبية الى الامور . لذلك نراه يعالج المشاكل التي عاجلها في دراسته عن جينيه في مسرحيته : « الشيطان والله » ١٩٥١ . أخذ مثلا فكرة تطابق الملكية مع الوجود : يقول « جرتز » بطل المسرحية للراهب « هاينرخ » :

« - نحن لا نوجد ولا نملك شيئا . كل الاولاد الشرعيين يستطيعون الاستمتاع بالارض من غير أن يدفعوا . ما هنا أنت وأنا ، انني منذ طفولتي انظر الى العالم من ثقب الباب : انه بهشة صغيرة جميلة جميلة حيث يشغل كل فرد المكان الذي حدد له ، ولكنني استطعت ان اؤكد لك بأننا لسنا في داخله .. » ص ٥٥

Jean—Paul Sartre, Le Diable et le Bon Dieu. Paris, Gallimard, 1951

(Livre de poche, p. 55)

وفقا لسيكولوجية سارتر الظاهرية^(٦) ، لا يستطيع أي شعور أن يعيش في حالة سلبية ، لأنه في جوهره فعل الحرية نفسها ودفعتها المتوجهة الى العالم لتشكيله وتزويده بالمعاني ، ومن ثم يتفتق لجنيته مخرجان يسمحان له بالتغلب على نقيصته الرئيسيتين : نقيصته في الوجود ونقيصته في الامتلاك . ان المخرج الاول ، الذي سيتيح له سد فراغات الوجود ، سيكون تقليد « القدسية » ، أما الثاني ، الذي يمكنه من تجاوز وصمة السرقة ، سيكون قبوله بمحض ارادته القيام بدور اللص مع تفخيم نقائصه ومثاليه .

ان الأمر الذي يستهوي جينيه في ظاهرة القدسية هو تناقضها المزيج مع الطبيعة والمجتمع اذ أن القديس شخص يذر الدنيا ومن عليها ليتبع المسيح . وليس من شك في أن اذلال النفس ، وتعذيب الجسد طوعية لا كرها أمران يعدهما جينيه ضربا من الثورة « المعكوسة » ولونا من الرفض « المازوكي » . بالاضافة الى ذلك ، يوضح لنا جينيه هذا الموقف قائلا : « ان اعادة الحديث عن القدسية بمناسبة السجن والاقصاء سوف يجعل أسنانكم تصطك لانها لم تألف الاطعمة الحامضة . ومع ذلك ، فالحياة التي أحيهاها تتطلب ألوانا من هجرة متاع الدنيا قريبة الشبه من تلك التي تطلبها الكنيسة من قديسيها . أضف الى ذلك أن القدسية تفتح عنوة بابا يطل على عالم الخوارق . ويمكن التعرف على القدسية كذلك من خلال قيادتها لنا الى الساء عن طريق الخطيئة . »^(٧) أما بالنسبة لعملية السرقة ، فان جينيه يعدها نوعا من التملك الرمزي ، ويزعم سارتر أن جينيه حينما يسرق لا ينشد خرق القانون وإنما يسعى الى التوحد مع الآخرين والاندماج في جماعة الملاك . ولاشك أن جينيه يعثر هنا بفضل هذا الالتباس وهذه الازدواجية على وسيلة تؤكد توازنه النفسي وتبقي على وحدة شخصيته ، الا أن الأقدار كانت له بالمرصاد : اذ هناك مصيبة نكراء في انتظاره ألا وهي نظرة الآخرين .

ان نظرة الآخرين ، هذه النظرة الثابتة المطمئنة لجماعة الملاك ، تناجىء جينيه وهو يسرق ، واذا بها تحمد أوصاله وتثبت كيانه الجديد القائم على اللصوصية ، وتضع حدا في الوقت نفسه لحياة سعيدة هادئة غافلة . ان

(٦) من المعروف أن سارتر حاول تحرير الشعور من عقبتين رئيسيتين : عقبة الرؤية الوضعية التي تنهيه الشعور ، وعقبة الرؤية المثالية التي تزده الى مبادئ عليا أو سابقة . لذلك تعد فكرة التوجه أو القصد L'intentionnalite . جوهرية لديه وفي الفكر الفينومينولوجي عامة . ويقول لنا فرنسيس جانسون في هذا الصدد : « ان القصد لا يعد كذلك الا بالمسافة أو البعد ، غير قابل الازد ، الذي يفصله عن موضوعه : حول الشيء الى معنى . انزع عنه عتمته وغرابيته ووجوهه المباشر ، فجملة ، في نفس اللحظة ، معدا للوصول الى الشعور ، بل ان الشعور لم يعد الا هذا المعنى نفسه » . انظر المرجع التالي ، ص ١١٨

Francis Jeanson, Le probleme moral et la pensee de Sartre, Paris,

Ed. du Seuil, 1965, p. 118

Jean Genet, Miracle de la rose (Oeuvres Completes) (٧)

Paris, Gallimard, 1951, p. 255

جينييه يكرس لصا وهو في العاشرة من عمره ، الأمر الذي يدفعه - بعد اكتشاف حقيقته من قبل الغير - الى اتخاذ موقف موضوعي ، وذلك بتحويله مما كان عليه في ذاته ولذاته الى ما سيكون عليه بالنسبة للغير . ان حقيقته كسارق تتجلى له فجأة كما لو كانت وجيا انشق أمامه أو الهاما تكتشف له ليدله على « جوهر » الاصيل الثابت ، فهو وان كان قد سرق فلأنه كان يحمل بين جوانحه طبيعة شريرة ترجع الى ما قبل ولادته . لقد أصبح جينييه ، من الآن فصاعدا ، أمام نظرات الآخرين وقرىبا أمام نفسه ، تحسيدا للخطيئة ووجودا حيا للشر ، فلقد كان كل شيء ، ممكنا قبل فعلته النكراء ، أما الآن فلقد « زود بطبيعة وحرية مذنية وقدر . » (٨)

لقد أصبح جينييه ، بعد ادانته باسم الاخلاق ، « التقليدية » التي أتم استيعابها وأحسن استيعابها ، القاضي والتهمم والشرطي واللص على السواء . فهو ، بعد تصدع ضميره ، يقلل الصورة التي يرسمها له الغير كما لو أنها حقيقته الشخصية التابعة من داخله : هذه الصورة تمحده كشيء منفرد وكرهه وتقدمه في هيئة الشرير أو « الآخر » فالشرير ، في نظر الناس ، هو دائما الآخر . انه يقبل هذا الحكم ويشاطره كما لو أنه يخص شخصا غيره ، بل هو يذهب أبعد من ذلك اذ تراه يفرغ بقضائته الذين يجددون هويته على هذه الشاكلة لأنه ، في الواقع ، قد اتحد مع المجتمع الذي يدينه وقبل حكمه الذي يوضع ذاته ويشيئها . ان جينييه يمثل الشر اذن لأنه الآخر الذي يخالف ما هو كائن وموجود . ولا شك أن الآخر يفترض ارادة هدم وتدمير لا يمكنه أن تظهر الا بعد الوجود أي بعد استقرار النظام ، ولكن اذا كان الخير والشر متعاصرين في نظر سارتر ، يمكن القول بأن الشر هو : « وجود اللا - وجود ولا وجود الوجود » ، انه السلب . يقول سارتر : « اذا كان الشرير سلبيا بالطبيعة والجوهر ، فهو شخص يدفعه القدر ، مهما كانت الأمور ، الى الايذاء دائما ، هو حر لارتكاب الشر ، والأسوأ مؤكدا دائما بالنسبة له . » (٩)



ان الشرير ، بالنسبة لسارتر ، يمثل الجانب البغيض من نفوسنا ، هذا الجانب الذي تلفظه ونسقطه على شخصية الآخر ، الأمر الذي يتيح لنا أن نوضوع هذه الغواية التي تستحوذ على ألباننا وأن نشيء هذا الامكان الذي يتجلى لنا في أجل صورة وأوسع احتمالاته . ان الشرير ، وما يصاحب انبثاقه في النفس من خلجات غريزية ، يفجر لدينا ألوانا خبيثة من الحرية والغواية والاغراء التي لا تكف عن التسلط على مخيلتنا الا أننا غالبا ما نكتبها في ثنايا اللاشعور ، أو نجسدها في صورة شخص كرهه بنعمته الناس في مختلف المجتمعات بنعت عدة مثل اللقيط والغريب والمجرم واين الحرام ، ويقول سارتر موضحا هذه الفكرة : « ان الشر ينتج أساسا عن الخوف

Jean-Paul Sartre, Saint Genet, op. cit., p. 25. (٨)

(٩) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

الذي ينتاب الرجل الفاضل أمام حريته ، لذلك هو نوع من الاسقاط والتطهير . هوداتها اذن متشي . » (١٠)

ولما كان جينيه قد اقتنع بأنه الشرير ، نراه يحاول جاهدا التوافق مع هذا الكائن الغريب الذي قطن بين أحشائه والاتحاد مع هذه الصورة المتوضعة للآخر في دخليته ، وهكذا يستطيع جينيه ، بنوع من المدس أو الادراك المباشر ، أن يعيش في سريره صورة الشرير الذي يمثله بالنسبة للغير أولا وبالنسبة لنفسه أخيرا . ان هذا الموقف الدال على الغتراب ، أي فقدان حقيقة الذات ، يحمل من جينيه « كائنا - متشيئا » كائنا أنتويا ، الأمر الذي ظهر بجلاء في كلفه بالواط . الا أن هذه الأنوثة لن تعبر لديه عن موقف دائم إذ أنها سترتبط لديه ، في الواقع ، بفترة المراهقة وهي فترة التأثر والتشكل الكبرى لدى الانسان . من ثم يكف صاحبنا ، حينما يبلغ مرحلة الرجولة ، عن الوقوع تحت تأثير المجرمين ويقول معبرا عن ذلك : « اذا كانت خوارق الأشياء ، هذه الفرحة التي ترفعني الى قمم موقرة من الهواء النقي ، تنشأ في السجن من اتحادي بوجه خاص بعنة المجرمين الذين يرتادونه ، فانتني حينما أصبحت « ذكرا » فقد المجرمون رونقهم وبهاءهم . » (١١)

لا جرم أن تموضع الانسان هو أن يكون كما يريد له الناس أن يكون ، وأن يصبح وحيدا بغير اتصال ممكن من الغير . فقيم الكلام اذن وقيم الكتابة بالنسبة لصاحبنا ؟ ان الكتابة هنا ، في رأي سارتر ، لها وظيفة محددة : فهي لا تقيم اتصالا بينه وبين الناس او تشدد تبرير سلوك أو موقف معين ، انها في واقع الأمر تؤدي وظيفة نرجسية ، إذ أن جينيه يسعى عن طريق الكتابة الى تخليد عذابه وآلامه ويبيغي ترجمة معاناته الى كلمة سحرية تبلور حياته وكيانه جميعا . ان جينيه يقرر ، بعد ادائه والتصاق هوية اللص بشخصه ، ان يقلب الادوار وأن يقبل مسئولية وضعه الجديد كما لو أن قبوله أو رفضه يغيران من الأمر شيئا . ويحلوله أن يقول بصدد الجريمة وهوها : « ان الوسيلة الوحيدة لتجنب هول الهول هو أن تلقي بنفسك فيه . » (١٢) الا أن اعتناقا مبدأ الشر في هذا الموقف لا يعبر عن ارادة حرة بالقدر الذي يعبر عن ثورة المضطهد اليائس ، فمن الواضح أن موقف جينيه هنا هو رد فعل العاجز الضعيف الذي حاول انقاذ ماله وجهه بأيسر الوسائل بعد عجزه عن تغيير الوضع القائم . وعلى هذا النحو يستبدل جينيه الحياة الفعلية بحياة خيالية وهمية وما أعمق قوله في هذا المعنى : « ان الحقيقة ليست من شأني . ولكن علي أن أكذب لأكون صادقا ، بل وعلي أن أذهب أبعد من ذلك . » (١٣)

(١٠) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(١١) Jean Genet, *Miracle de la Rose*, op. cit., p. 241.

(١٢) Jean Genet, *Notre-Dame-des-Fleurs*. (Oeuvres Completes) (١٢)

Paris, Gallimard, 1951, p. 34 .

(١٣) نفس المصدر ، ص ١٢٥ .

يحاول جينييه أن يتطابق ، من الآن فصاعداً ، مع الفكرة التي يريدها الناس عنه ، وأن يقترب بقدر الامكان من الصورة التي يعتقد بأنها تمثل جوهره الأصل . ولا شك أن هذا الموقف الارادي يتضمن تركيباً شعورياً قائماً على القصد والتوجه (L'intentionnalité) كما يشمل تجاوزاً ذاتياً للموضوع ، فكيفنا ، كما يذهب سارتر ، لا يتطابق تماماً مع ذاتنا اذ علينا أن نتصوره أو نتخيله بطريقة ما . نحن ذاتنا في موقف التساؤل بالنسبة لذاتنا ، كما يقول بحق . لذلك يجب على جينييه اذا أراد أن يطابق صورة كيانه مطابقة تامة أن يطرح على بساط البحث منهجه او طريقته في الوصول الى هذا التطابق . ومع ذلك لا يمكن اعتبار هذا « الكيان » الذي ينطلق جينييه بحثاً عنه مجرد أثر سطحي أو رد فعل لانهامات الآخرين ، على العكس من ذلك ، ان هذا الكيان هو نتاج مركب للثقافة عميقة الجذور ، وهو كما يقول سارتر : « جوهر بالمعنى الذي يتحدث فيه ديكرات عن الجوهر المفكر ، انه روحه أو المبدأ الموجه لسلوكه ، انه « الاتيليجيا » (واقعه الاكمل) الخاصة به او شخصه بالمعنى اللاتيني للكلمة ، أريد أن أقول القناع والدور الذي حددت حركاته وردوده من قبل ، انه الآخر أوزار مسلطة عليه ، انه لا شعور ، كما هو الحال عند علماء التحليل النفسي ، يقترح ويأمر ويبرأ ويويع ويطلب كل الاحتياطات التي تؤخذ ضده . »^(١٤)

ولما كان هذا الكيان ذا طبيعة ثابتة ودائمة ، فان قيمته قائمة في ذاته : هو في الوقت نفسه الباعث والغاية والواقع والواجب . لذلك كان على جينييه أن يشبهه الى أقصى حد ممكن وألا يبتعد عنه قيد أغلة . أي أن يتمتع بحرية ويؤكد ذاته باقامة سفاقة أو بعد بينه وبين كثافة الأشياء وعتمتها في نفس الوقت ؟ ان هذه الازدواجية بين الكينونة (L'être) وبين الوجود (L'existence) ، بين الموضوع والذات تقوم هنا على مبدئين : الأول يتصل بإرادة الكينونة ، والثاني بإرادة الفعل .

ان ارادة الكينونة هي الرغبة « الانطولوجية » التي يتطابق فيها الوجود الفعلي مع الوجود المدرك لذاته تطابقاً تاماً وشاملاً . على هذا النحو ، يرغب جان جينييه في أن يكون اللص - مع ما تقتضيه هذه الكينونة من ملاء عند سارتر - وفي أن يكون واعياً بذلك مدركاً له ، الأمر الذي يجعل من أفعاله وسلوكه مجموعة من الصفات المتضمنة في ماهية ، تماماً كما تتضمن الماهية الوجود في فلسفة سينيوزا ، ويرى سارتر في هذا الموقف حالة أشبه بحالة المتصوف السلبية لأنها حالة انتظار وتوقع للمعجزة وان كانت ، مع ذلك ، تدعو الى قليل من الاستعداد والتأهب لاستقبال اللحظة القدسية التي تبشر بها . الا أن وقوع المعجزة أمر صعب المنال عند سارتر ، لأن المأل الذي يحلم به الانسان ، ملأ الذات التي تتطابق فيها ماهيتها مع وجودها ، لا يتحقق أبداً ، والا صار الانسان كائنات متوضعا لا ارادة له ولا خيار . وبما أن ذات جينييه هي في قرارها نوع من اللا - وجود لكونها نزعاً خالصة الى الفس ، فهي أبداً معلقة ولا أمل لها في الاتحاد بعالم الكينونة . لذلك نرى هذه الذات ، في آخر الأمر ، مضطرة الى بذل مزيد

من الجهد وإلى تقديم الفعل على التوقع والانتظار، ومن ثم تتولد عند جينيه إرادة الفعل وتحتل مكان الصدارة بدلا من إرادة الكينونة .

ترتبط رغبة الفعل بقوة الإرادة وديناميتها ، ويتلخص الموقف بالنسبة لجينيه في أنه يريد ما أرادته الغير له ، وفي أنه يقبل راضيا بل ومغتبطا المصير الذي حدد له . بعبارة أخرى ، على جينيه أن يريد الشر لأنه جوهره واقعه ، وحرى به كذلك أن ينزع إلى « الكمال » في الشر لأنه كليا أفلح في بث المزيد من الهول والاستنكار حواليه أقرب من جوهر الشرير وطبيعته البغيضة . بل وجدير به ، إمعانا في الحرص والتأكد ، أن يسبق هذه الطبيعة وأن يعطيها الفرصة كاملة لتحقيق نفسها في أتم صورها . على هذا النحو ، سوف تقوده هذه الطبيعة الشريرة إلى إرادة الشر من أجل الشر ، وإلى التهالك على الجريمة والتبجح بارتكابها بطريقة تكاد تبلغ حد التهكم والاستهزاء . ولقد عبر الكاتب عن هذه المعاني جميعا في الصورة التي رسمها للقاتل « بيلورج » قائلا : « ان القاتل شخص يرغمني على احترامه ، لا لأنه مر بتجربة نادرة ، ولكن لكونه ينتصب فجأة في صورة اله على عرش ، وان كان هذا العرش مصنوعا من ألواح متحركة ، اوقائيا في الهواء اللازوردي . انني أتحدث ، بالطبع ، عن السفاح الواعي ، بل الساخر المتهم الذي يأخذ على عاتقه قبض الأرواح من غير أن يستند إلى أية سلطة من أي نوع كانت ، فالجندي الذي يقتل لا يتحمل مسؤولية ما ، ولا المجنون أو الغيور أو الشخص المتأكد من الحصول على الغفران . أما الرجل الموصوم الذي يقف مترددا لحظة قبل أن يلقي بنفسه ، مثل مكتشف غريب ، في قرار بئر ، موثق الرجلين في قفزة تكاد تثير الضحك من فرط جرأتها ، فعل العكس من ذلك .. » (١٥) ولكن ، في نهاية المطاف ، ماذا يريد جينيه بهذا المثل الزائف المضلل ، وما هي المعاني التي يريد أن يضمنها هذا الحكم اللاخلفي ؟ انه يريد فقط أن يؤكد مسؤوليته أمام العالم ، وأن يثبت حرية اختياره لمصيره في مجتمع الجريمة والمجرمين . ومع ذلك ، كيف يريد انسان مصيره وقدره وهما نقيض الحرية والاختيار ؟ وكيف يتصرف وفقا لذلك من غير أن يؤكد ذاته كموضوع ومن غير أن يشرع أفعاله من مضامينها ويحوها إلى مجموعة من الحركات النمطية والاشارات الثابتة ؟



حينما يلقي جينيه في غياهب السجن ، نراه موزعا بين عالمين ، عالم الطباع والتقاليد البرجوازية التي راح ضحيتها ، وعالم عتاة المجرمين والأشرار الذين يحرقون من شأنه ويستأثرون بأعجابه في الوقت نفسه . ولما كان جينيه عاجزا عن الاستئثار بحبهم وصدائهم ، نراه يشرع في جبههم من جانبته وفي القيام بدور المرأة العاشقة المذبذبة . الا أن جينيه لا يبحث ، في الواقع ، هنا عن تبادل الحب والهيام وإنما يسعى ، من خلال هذا الموقف الموهن ، إلى الاستمتاع بذاته ومطابقة كيانه عبر الآخر . يقول سارتر في ذلك : « ان الحب طقس سحري يسلب

فيه العاشق كيان المعشوق ويمتزج به . «^(١٧) وليس من شك في أن الآخر ، الذي يلعب دور الواسطة بالنسبة لجينيه ، ليس الا صورته نفسها وقد تجسدت في هيئة رجل شرير قوي يمثل الشر ويحسده بين الناس . ان « الآخر » يمثل هنا في صورة المجرم الأسطوري الذي يعد بمثابة تجسيد وتعظيم للقوي اللا - اجتماعية ، وبما أنه يقوم بدور الوسيط للشر على هذه الأرض ، فانه يسمح لكاتبنا بالاتصال من خلاله بجوهر الشر ومصدره الاول ، فالآخر ، الذي يحمل علامات دالة وسهات مميزة تكرس اختياره من قبل آلهة الشر ، يجسد هذا الجوهر أفضل تجسيد وأصدق ، وان ضميره ليبدو لنا من جراء ذلك ، معنًا كثيفا فهو وحش كامل أو ، ان أردت ، تمثال من الرخام البارد الذي لا يعرف عاطفة أو شعورا .

ان هذا المجرم « المثالي » الذي يبعث الاقدار من لحودها ويبث فيها من طاقاته المتجددة الجياشة روح الحياة ليس في واقع الأمر الا صورة معكوسة للحرية الابجائية البناء وان كان يمثل ، بالنسبة لجينيه ، قمة الحرية في عالم الشر والسلبية . أضف الى ذلك أن هذه الحرية التي ترتبط بالأقدار هي أقرب الى الرمز منها الى الحركة الفعلية أو العمل المؤثر ، لأنها تقرر واقعا وقتل اختيارا مسبقا ، من ثم تكتسب أفعال المجرم المثالي ، في نظر جينيه ، صفة جمالية ومسحة من الشاعرية الخطيرة التي تشبه في فعلها أثر الخمر على شارب غض الاهداب . يقول جينيه في رواية « معجزة الورد » : « ان جرائم « هركامون » - قتل البنت الصغيرة سابقا وقتل المحارس مؤخرًا - سوف تبدو أفعالا غريبة . الا أن بعض الزلات اللسانية التي تظهر فجأة في الجملة تلقي الضوء على كوامن نفوسنا . إذ أن الكلمة المفاجئة سرعان ما تصبح أداة يتدفق منها الشعر وتعبق بها الجملة . ان هذه الكلمات تشكل خطرا على الفهم العملي للخطاب . وهكذا في الحياة بعض الفعال . فالأخطاء أحيانا - وهن فعال - تفجر الشعر . الا أن جمال هذه الفعال لا يقلل من خطورتها . انه من الصعب علي ، بل ولا يليق بي أن أعرض هنا حالة « هركامون » العقلية ، فأنا شاعر أمام جرائمه ولا أستطيع أن أقول الا شيئا واحدا ، وهو أن جرائمه تبث من الروائح الزكية ما يعطر سيرته وذكره واقامته هنا الى أخريات أيامنا . «^(١٨) ان المجرم ، الذي يبرز في هذا الاطار المثالي قريب الصلة ، في نظر سارتر ، بشخصية القديس إذ أن كليهما يتهالك على الموت : المجرم باندفاعه نحو الجريمة والقديس بتكاليه على التضحية . وفي كلتا الحالتين يكرس الموت قدرا : فالموت ، هذه النهاية الحتمية للبطل المأسوي ولكل حادث جليل ، يحول المجرم ، كما يحول القديس ، الى شيء نادر ، ويحيط بهالة من الاجلال والنور والهيبه .

ولما كانت هذه الصورة المثالية للمجرم هي التي تستحوذ على اعجاب جينيه وتقديره ، كان لزاما على هذا المجرم « المثالي » ان يحتفظ تجاه صاحبه بكثير من الكبرياء وعدم الاكتراف حتى لا تضيع مهابته وحتى لا تلتقي

Jean—Paul Sartre, Saint Genet, op.cit., p.84 (١٦)

Jean Genet, Miracle de la Rose, op.cit., p.256 (١٧)

الالفة بعض الظلال على قوته وجبروته . لذلك نراه يكتسب صفات الرجولة والفحولة جميعا ومنها القوة الجنسية الحارقة ، الا أن هذا ليس معناه أن جينيه ينشد في علاقات الشذوذ والانحراف التي يقيمها مع هذا المجرم المضخم المفخم ضربا من المتعة أولونا من اللذة الحبيثة الملتوية . على العكس من ذلك ، انه يبحث عن الآلام والعذاب : عذاب الجسد والنفس معا . يقول جينيه معبرا عن أحاسيس بعض أبطاله في هذا الصدد : « أن كولا فروا وغيفين ، المعروفين بذوقهما المرفف ، مضطران دائما الى حب ما ييغضان ، وهذا ما يشكل قدسيتهما بعض الشيء لأنه لون التضحية بالذات . » (١٨) ان هذا الالم ينتهي يموت الذات وفنائها الذي يوافق في واقع الأمر ، نقطة الاشباع عند الآخر . الا أن الموت المرجو - موت الرغبة بتحقيق اللذة - لا يتم ويبقى العاشق على وله وشيقه : فالآخر ، أي المشوق ، موضع رغبة أبدا متجددة ، لأنها لا تكاد تتحقق فتذوي الا وتولد وتترعرع من جديد ، الأمر الذي يحيط المشوق بهالة من المثالية البعيدة ويجعل منه مصدرا للآس والأمل على السواء . ان المشوق ، أو الآخر ، يصبح مصدرا للأمل بالقدر الذي يجيل فيه للعاشق أنه سيعبر على ذاته في الاتحاد معه ، ومصدرا للآس بالقدر الذي لا يمكن فيه لأية مساواة أو مطابقة أن تتحقق بين العاشق والمشوق . (١٩)



ان عالم السجون يتميز بـبروز فئتين من المجرمين : فئة الجبايرة العتاة وفئة الضعفاء الأذلاء . تضم الفئة الأولى المجرمين الحقيقيين ذوي القلوب القاسية والطباع الفظة الغليظة الذين يتميزون ، في نظر المستضعفين أمثال جينيه ، بالتفوق الطبيعي والقوة الواضحة المفعمة ، وهي صفات تدل عليها سيات ملموسة وعلامات بارزة . الا أن هؤلاء المجرمين لا يبرزون بقوتهم الجسدية والعنصرية فحسب ، وبألوان من القوة « المعنوية » التي يكشفها الكاتب الوطاني في قدرتهم الحارقة على تحمل الصعاب والمشقات وفي ثقتهم البالغة بأنفسهم ، وأحيانا - وهنا تكمن قمة المفارقة - في خيانتهم لأعز أصدقائهم ، ويشير جينيه الى هذه السمة الحبيثة على لسان إحدى شخصياته فيقول : « قد يحدث أننا نمل موقف الخارج على القانون مع ما يتسم به من بطولة وتوتر فننضم الى جانب الشرطة حتى نلحق بالانسانية السلبية . » (٢٠)

أما الفئة الثانية ، فهي تضم المستضعفين وصغار المجرمين الذين يتميزون بالليونة والرخاوة ، ولقد وافقت هذه الصفة « الأنوية » مرحلة المراهقة عند جينيه وهي المرحلة التي كان يخضع فيها لسيطرة عتاة المجرمين . ويرقن سارتر بين خضوع الضعفاء للأقوياء في ظل هذه الظروف بولاء التابع لسيد في النظام الاقطاعي ، الا أن هذا الولاء لا يخلو ، مع ذلك ، من المرارة والفصاة لارتباطه ارتباطا وثيقا بحالة السيد : فهو يقوي بقوته وحميته ، ويجزو

Jean Genet, Notre-Dame-des-Flours, op.cit., p.92. (١٨)

Jean-Paul Sartre, Saint Genet, op.cit., p.112. (١٩)

Jean Genet, Notre-dame-des-Flours, op.cit., p. 34 (٢٠)

بفتوره وإرثائه . وغالبا ما ينتهي هذا الاحساس ، في تأرجحه بين الاعجاب الشديد والانسحاق أمام القوة ومن اللفظ الشديد والحقد المتأجج إثر فتورها ، الى نوع من العطف والحنان الذي يغمر العاشق ويتيح له تحفي حالة الالباط وخيبة الأمل التي مني بها . فالإنسان ، كما يقول سارتر ، مهما بلغ من الجهال والقوة أو من الفطاعة والبشاعة ، لا يمكنه أن يتحرر نهائيا من أسار الآخرين . (٢١)

وإذا كان التقاء الذات بجهيتها عبر الآخر أو أحياء النفس بالفناء فيه تعد من الأمور الصعبة أو المستحيلة ، فإن هذه الاستحالة عينها هي التي تحرر « جينيه » من أهامه ، وهي التي ترده في عنف وخشونة الى وحدته الأولى . ومن ثم يبرز شقاء الكاتب ، من جديد ، الى السطح : فما الفعل ؟ وأي طريق يسلك ؟ انه سوف يسعى الى تبديل « شاعده » كما يذهب سارتر . في البداية كان جينيه يريد ادراك ذاته بطريقة موضوعية عبر الآخرين ثم العثور على هويته وطبيعته في نظرتهم اليه ، وأخيرا التوحد بالصورة التي يرسمونها له . أما الآن ، فهو يريد أن يكون قدبسا وشهيدا ، أي « موضوعا أمام شاهد مطلق » كما يقول سارتر . والشاهد المطلق ، هو الله سبحانه . الا أن الألوهية تقتل هنا ، بالنسبة لجينيه ، نوعا من الحلول الحارقة أو ضربا من المعجزات التي قدرها ان تتقدم من عالم الانسانية البغيض . على هذا النحو ، ترسم صورة جينيه الجديدة في هيئة انسان معذب يلاحقه مجتمع ظالم بكل ألوان القهر والاستعباد . وإذا كان الله قد كتب عليه العذاب والشقاء في هذه الدنيا ، فلأنه يبتلي في جسده ونفسه حتى يصطفيه ويظهره ويرفعه الى مرتبة القديسين . (٢٢)

ان هذا التحول من الاجرام الى القدسية يبرز لنا الطابع الجدلي لاغتراب جينيه . فنحن نراه ، في البداية ، يبحث عن الفناء في الآخر أملا في العثور على ذاته وجوهره الأصيل من خلال تجربة الحب . الا أن الحب الاتطاعي الذي يكرسه جينيه للآخر ينتهي بسلب هذا الأخير كل احساس وشعور ، فالآخر لا يستأثر بالحب والتقدير الا بالقدر الذي يعلم فيه جينيه علم اليقين أن حبه عطاء خالص وولاء بذل وتضحية بلا مقابل . ومن ثم يتحرر جينيه لأن جنوحه الى التفاني ونزوعه الى العبودية بمحض ارادته من الأمور التي تجعل من الآخر أداة طيعة ومعبرا سهلا للوصول الى غايته . باختصار ، ان الإرادة التي كانت تجعل من جينيه موضوعا سوف تحوله ، من الآن فصاعدا ، الى ذات والآخر الى موضوع ، وسوف يتمخض عن ذلك حصول جينيه على حريته التي كانت تحفي ، في قرارها ، رغبته في الوصول الى الكينونية وسكونها المطمئن المريح . بيد أن هذه الحرية المستردة سرعان ما تصبح عبئا ومصدرا للقلق . لذلك يتدفع جينيه نحو حتمية أخرى : انه سوف يصبح واحدا من شهداء الانسانية أو قدبسا من القديسين الذين اصطفاهم الله وقربهم اليه . الا أن هذا المخرج الجديد ، الذي يقود الى عالم

الكيونة ، سوف ينتهي للأسف الى الفشل اذ أن أي شعور لا يمكنه أن يتطابق تماما مع نفسه والا فقد طابه كشعور . ماذا تبقى اذن ؟ لم يبق الا طريق الفعل .

ان الفعل يمثل اختصارا لارادة جينيه والزاما لحيته ، كما يعبر ، من جهة أخرى ، عن الجانب الدينامي لشعوره . الا أن ممارسة الشر تقود ، مع ذلك ، الى اللابوجد^(٢٣) ، لأن الشر لا يمكن أن يكون في هذا المقام الا نوعا من الحرية المغترية ، فالشر هو تقرير الآخر وهو الصفة التي يطلقها رجل الخير على فعل المجرم . لذلك لا يمكن للشر أن يصل الى مرتبة الايجاب أو الى استقرار الكيونة ، لأنه نقيض الخير على الدوام . ان الخير ، مهما فعل جينيه ، يبقى الأساس والبدية . ويقول سارتر في هذا الصدد : « أكبر الشرور هو أن تعرف الخير بوضوح وأن تولد طيبا مثل أي مخلوق بشري ثم ترفض هذا النور وتنغمس عمدا في الظلمات . »^(٢٤) لذلك جرى العرف على أن الشرير الحقيقي هو الذي يرتكب الشر لينقض الخير ، أما اذا ارتكب الشر تلذذا به أو بدافع العاطفة الخالصة فهو لا يعد شريرا وانما رجل مريض أو معتوه خطير .

ان ارادة الشر عند جينيه هي ارادة العذاب ورغبة في تجاوز الأحوال التي يثيرها بالانغماس فيه . يقول الكاتب : « لكي تغفل من الهول ، عليك ، كما قلنا ، ان تنغمس فيه حتى العينين . »^(٢٥) ولاشك أن هذا الانغماس الارادي في الشر يعطي جينيه احساسا بالحرية ، لأنه اذا كان الخير هو الأساس والقاعدة الموضوعية العامة ، فان الشر يصحح الانحراف والعلامة المميزة للحرية الفردية . ان الشر هو غواية الحرية ، كما يذهب سارتر بحق . غير أن الشر ، في الواقع ، لا يتجاوز نطاق الحرية الزائفة التي لا تولد الا سرايا وأوهاما . يرتبط الشر هنا اذن بعالم الخيال ، ومن ثم تقوم الحرية الفردية ، التي تتحقق من خلال الشر ، برد جينيه الى وحدته الاولى الى الفشل مرة أخرى . الا أن الفشل في عالم الفعل والواقع غير الفشل في عالم الوهم والخيال ، ومن ثم كان ابدال الهدم الفعلي للوجود بلون من الهدم الخيالي طريقا من طرق الوصول الى الفن وتصورا جماليا معينا للوجود ، مهما كان تقديرنا لهذا التصور وحكمنا عليه . يقول سارتر : « لقد كان جينيه مولعا بالجماليات لمدة عشر سنوات ، ولم يكن الجمال يمثل ، بالنسبة له ، في البداية غير حلم حقود بالدمار الشامل . »^(٢٦) الا أن جينيه كان يريد

Jean—paul Sartre, L'etre et le Neant. Essai D'ontologie (٢٣)

phenomenologique. Paris, Gallimard, 1943, p. 50

يقول سارتر : « اللابوجد ليس عكس الوجود وانما ما ينقضه . الامر الذي يتضمن التبعة المطلقة للدم بالنسبة للوجود ، لانه الوجود موضوعا ثم منيا » انظر المرجع المذكور ، ص ٥٠

Jean—paul Sartre, Saint Genet, op.cit., p.149 (٢٤)

Jean Genet, Notre—Dame—des—Fleurs, p.61. (٢٥)

Jean—Paul Sartre, Saint Genet, op.cit., p.155 (٢٦)

قبل الوصول الى هذه المرحلة الجهادية ، بلوغ مرحلة الشر المطلق المناقض للخير المطلق ، وهي مرحلة لا يستطيع بلوغها انسان الا بارتكاب الكبائر من المعصيات .

حيثما يفقد جينيه ايمانه تنفصم عراه بكل قاعدة دينية ، وتضيع كل امكانية له في التضوع أو الارتقاء الى السماء ، من ثم نراه منفلقا على نفسه ، متخذاً ايها المصدر الأساسي للخير والشر ، الأمر الذي يقيم فعل الشر لديه على أسس واضحة ويربطه بأسباب وبواعث ارادية ومقبولة . ان جينيه المسكين يريد ايداء نفسه عن طريق ايداء الغير ، ويبحث في الواقع ، عن لذة احتضار ذاته عبر موت الآخرين . الا أن هذه الطريق الملتوية لا تتود ، هي الأخرى ، الى الشر المطلق ، لأنها محكومة ، في الحقيقة ، بنية الفعل . ولما كانت هذه النية تدفع كاتبنا ، كما يذهب سارتر ، الى الذلة والمهانة ، فهي لا تؤكد ذاته كحقيقة مستقلة وانما تكون من نغابة مجتمع مكرس للخير . ما الفعل إذن ؟ وكيف يمكن الوصول الى الشر المطلق ؟

هنا يبرز احتجال جديد : ألا وهو تحقيق الشر عن طريق الخيانة . يقول سارتر : « لقد اكتشف جينيه الشر المباشر والمأسوي ألا وهو الجريمة . لذلك لن يكون مجرماً قط ، انه سيصبح فقط جرثومة الجريمة واحدى طفيليات الشر القارضة . ان الخيانة ، بلا شك ، جرم طفيلي ما دامت تقوم على جرم آخر . انها جريمة من الدرجة الثانية ، او بعبارة أخرى جريمة انعكاسية ، وهذا هو بالضبط مأرب جينيه . لقد عقد عزمه : انه سيصير خائناً . » (٢٧) الا أن الخائن لا يكون كذلك الا بحكم المجتمع . ومن ثم تحدث الخيانة ، وهي سمة بارزة من سمات المجتمعات المنفككة ، صدعا في ضمير جينيه واحساسه اذ أنها تنقل نظرة الغير الى سريره معبرة بذلك اصدق تعبير وأبلغه عن الطبيعة المنتمضة المتشينة لجماعة الأشرار التي لا يمكن أن يقوم بين أعضائها أي انتلاف أو ارتباط خارج نطاق الشر وعلاقاته السلبية . لقد دفع جينيه دفعا الى سلوك طريق الخيانة بسبب وقدة ذكائه وطبيعته الشاعرية المتقلبة وكلفه بالمتناقضات والمفارقات . الا أنه ، مع ذلك ، سوف يجعل من الخيانة اختيارا حقيقيا ونهاية سامية أو غاية مثل لفعل الحرية . ان الخيانة ستصبح في حياة جينيه ، كما يقول سارتر : « دنسا وشرًا ، مفارقة لحظة غريبة ومعاناة روحية . » (٢٨) ان الخيانة دنس ، كما يذهب الفيلسوف ، لأنها تفرض دعائم المجتمع وهو يعد ، في المفهوم الوضعي والبرجوازي ، أساس القدسية ومنهجا . والخيانة كذلك ضرب من الشر لأنها ، في نظر سارتر ، تفجر قوة الكلمة وسحرها في عملية الوشاية ، والخيانة مفارقة عجيبة غريبة لأنها تفرق بين الأصدقاء وتقضي على أواصر المحبة ووشائج الزمالة والأخوة وهي ، أخيرا ، لون من المعاناة لأنها تتطلب ، على طول المدى ، مرانا شاقا وعسيرا وخبرة عميقة بالضعة والانحطاط .

(٢٧) نفس المصدر ، ص ١٦٤ .

(٢٨) نفس المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

يبد أن امتزاج الحرية أو الإرادة بالشر يقود حتماً إلى عالم من الوهم والخيال إذ يقول لنا سارتر: « القضاء على الكينونة هو ردها إلى الوهم الخالص ، وتحويل الشر إلى عجز هو تحويله إلى مظهر خداع والبحث عن حياة مستحيلة هو قضاء العمر جرياً وراء انتحار وهمي ، والتعرف على الذات في صورة السلبية المطلقة هو ادراك بأن محاولة تدميرها في سرائرها هو تظاهراً أمام أنفسنا بأننا المدمرون . »^(٢٩) باختصار ، إذا كان فعل الشر يقصد تحقيق جيلة شريرة يعد أمراً مستحيلاً ، وإذا كانت الخيانة تجعل من الشر وهماً خالصاً ، فإن ارتكابه - نتيجة لذلك - لا يمكن أن يتم إلا بكثير من المعاناة وعذاب النفس .

نحن على طريق القدسية ، لأن الرغبة في الشقاء والبحث عن ترف العذاب المجاني هما في نظر سارتر سات موقف القديس أو الشهيد . أضف إلى ذلك أن الاحساس بالقدسية لدى جينيه مرتبط بعملية خرق القوانين والأعراف ، وهي العملية التي تتصل في نظر كاتب مثل جورج بطاي بمبدأ السيادة ، إذ أن خرق القانون في سبيل الوصول إلى وهم السيادة هو نوع من التحدي للمجتمع ووسيلة لاستفازته ودفعه إلى البطش بشخص المتحدي . غير أن هذا الموقف المتناقض لا يزجج جينيه على الإطلاق ، فهو الذي يجعل منه بطلاً مريداً وضحية وشهيداً على السواء . (٣٠)

إن العلاقة التي تربط بين القدسية والسرقة تقوم عند « سارتر » على مفارقة غريبة ، فهو يقيّمها على مبدأ الاستهلاك أو التبدد ، فالقديس ، كما يذهب الفيلسوف ، يضحي بجسده مبرهاً بذلك على نقاهة القيم الانتاجية ، والمجرم ، بتدميره لخيرات المجتمع وممتلكاته ، يعطي الأولوية للاستهلاك على الانتاج . إن القدسية ، في هذا الإطار ، ظاهرة اجتماعية تنشأ في مجتمع لا يمثل فيه العمل غاية أو قيمة في ذاتها ، وإنما يشكل نوعاً من « الوساطة » نحو السلع الاستهلاكية ، وذلك مرده أن العملية الانتاجية لم تصل بعد في هذه المجتمعات « الاقطاعية » إلى مرتبة الأهداف والغايات التي تشكلها بالنسبة للمجتمع الرأسمالي الحديث ، ومن ثم ارتبط الاستهلاك في هذه المجتمعات المتخلفة بالصفوة الاجتماعية ، وكان إحدى ركائزها في التألق والظهور . ويرى سارتر أن القديس أو اللص يمثل كلاهما سلعة من السلع الاستهلاكية التي تروج في هذه المجتمعات فهما مكرسان للدمار كما تكرس النخبة الاقطاعية التي تقوم فيها على مبدأ الهبة والعتاء . وبما أن الكنيسة قد ورثت ، في نظر سارتر ،

(٢٩) نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

Georges Bataille . La littérature et le mal . Paris . Gallimard (٣٠)

(Ideas) 1957 , p. 204

إن السيادة التي يربطها جورج بطاي بالقدسية تظهر في عملية نقض المحرمات نفسها وتدخل القدسية في روح التضحية ، ويكاد يجعل هذا الكاتب من جينيه رائداً من رواة الصوفية : « أن جينيه يبحث عن الصفة حتى ولولم يجلب له إلا الألام ، هو يريد الصفة لذاتها ، بعيداً عن الراحة التي توفرها له ، إنه يريدنا بعضاً عن دفعة سكرى نحو الانعطاف ، دفعة لا يقل حسابه فيها عن حسابه الصوفي في نشوته . » ص ٢٠٤ .

روح التضحية والعطاء عن هذا المجتمع الانقطاعي ، فان القديس سيكون - لا محالة - في تصورها على شاكلة النبيل أو الانقطاعي الذي يدفعه كربه المرائد الى تبديد أمواله وممتلكاته كما يدفعه ولعه بالمخاطر الى حفظه . ان القديس هنا له ، مثل النبيل ، نزعاته المدمرة : فهو بطل ينكر القيمة المادية لهذا العالم كما يبحث عن تبديد ثرواته والقضاء على كل مظهر من مظاهر الحياة فيه . ويرى الفيلسوف في هذا الموقف الراض سواء من قبل النبيل أو القديس موقفا سلبيا من حركة الحياة ومسار التاريخ كما يرى فيه تبديدا للثروات التي جمعها الكادحون . ان القديس ، في كل الاحوال ، يقلب القيم رأسا على عقب : فهو يحول الفقر الى غنى والغنى الى فقر والحياة الى موت والموت الى حياة . واذا كان جينيه من القديسين ، فهو لاشك قديس بهذا المعنى .

الا أن ظهور طبقة التجار سوف يغير من طبيعة هذا المجتمع ، لأن الشخصية البرجوازية ، في نظر سارتر ، سوف تجلب معها مثلها الأعلى الذي يتلالم مع الظروف الموضوعية للمجتمع الجديد . لذلك سوف تحمل ، من الآن فصاعدا ، فكرة المهارة الفردية والاستثناء محل فكرة الشمول التي كانت تمثل تناجا لجدلية الرقض والبلذ ، وسوف تفرض روح الفردية مفاهيمها في الحياة والوجود : فبدلا من الصعود الى السماء سوف ينزع الفكر الى الهبوط على الأرض ، أي أن الواقعية ستلفظ المثالية . كذلك سوف تسلك المعاناة الجديدة نفس الطريق : أي أنها ستكون موجهة الى الدنيا وليس الى الآخرة . ان المعاناة القديمة كانت ، بسبب طبيعتها المثالية ، نفيا للحدود البشرية وبالتالي تأكيداً لحقيقة ثابتة واحدة ألا وهي الأبدية والمطلق . لذلك كانت تعد الطريق الوحيدة التي تؤدي الى طمأنينة الكينونة وسعادتها المستقرة . اما المعاناة الجديدة ، فهي تقود من العالم المثالي ، وهو الواقع الصادق الوحيد في هذا التصور ، الى فراغ وأقنعا على هذه الأرض . بيد أن تدمير الثروات المادية الذي يقوم به جينيه ، على العكس من سلوك البرجوازي الذي يعمل على تراكم هذه الثروات مع تأجيل الاستمتاع بها خاصة خلال فترة الزهد والتعشف التي ربطها ماكس فيبر^(٢١) بظهور العقلية البروتستانتية ، هو في واقع الأمر تمجيد للمادة واجلال لها على حساب المفاهيم الشمولية والمبادئ المثالية . الا أن موقف جينيه يظل ، مع ذلك ، غامضا وغريبا ، فهو في نزوعه الى التدمير والتخريب ينتهي بتأكيد نوع من المثالية المعكوسة التي يصل اليها الانسان

Max Weber, L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme. (٢١)

Paris, Plon, 1964, pp. 203—253

ان فكرة التعشف والزهد التي يربطها ماكس فيبر بمرحلة تراكم رأس المال توافق العقلية البروتستانتية ، وخاصة الجناح الكالفيني منها ، وهي العقلية التي ترى في تراكم الثروات علامة من علامات الرضا والاختيار الالهي . على هذا النحو ، يتطلب التراكم تأجيل الاستمتاع الذي يعد نزعاً من التعبدية ويصبح الزهد هو غياب النعمة . الا أن هذا الزهد يظل ، مع ذلك ، قائماً على تدمير المادة واجلالها وان كان يندمجها من التعبدية . والزهد عند جينيه لا يخرج ، في نظر سارتر ، من هذا الاطار ، فهو وان كان يقوم بتدمير الثروات المادية وجسده على السواء قائماً انطلاقاً من ذلك من مبدأ تدينه لها .

عن طريق الخطيئة وإذلال النفس . الا أن تبديد الثروات وإفناء الجسد أمران متساويان في نهاية المطاف ، إذ أن تعديم العدم ، وفق المنطق السارترى ، هو تأكيد العكس ، أي الرجوع الى الكينونة وإلى عالم الابدائية . (٢٢)

إن جينيه يبحث إذن عن إفناء ذاته ، او بعبارة أخرى عن تحقيقها كعدم خالص . الا أن هذه الإرادة ، التي تقوم على مستوى الفعل والوجود ، تنزلق دائما لديه الى مستوى الكينونة والملاء ، فهو في واقع الأمر يعيش ادراكه أوشعوره على غط التوضع والشئبية ، ويتجاوز رغبته في أن يمثل الإرادة الحرة للشئ الى نزوعه نحو تجسيد جوهر الشئ نفسه ، وهذا يعد ضربا من الاختيار المستحيل ، لأن الخير وحده يملك المقدرة على الوجود الكثيف المطابق للكينونة . إن هذا الموقف المتأرجح بين الفعل والكينونة يذكر بالخلاف العقائدي او الديني المشهور من أتباع الراهب « مولينا » (Molina) المثل الأعلى لليسوعيين ، وبين أتباع القديس « أوغسطين » (St. Augustin) . إن الأوائل كانوا يؤمنون بنجاة النفس البشرية عن طريق الاعمال الخيرة بينما أتباع القديس « أوغسطين » يعطون الاولوية الى الايمان وإلى اختيار الله المسبق . ولا شك أن هذا الموقف الأخير يؤدي الى السلبية وإلى مذهب « السكونية » (Le quietisme) الذي اشتهر به الكاتب الديني الفرنسي « فينون » (Fenelon) . كما أن الموقف الأول يقود الى نوع من التفاق وروح المساومة ، الأمر الذي دفع كاتبنا كبيرا مثل « باسكال » (Pascal) الى نقد اليسوعيين وتجريحهم في القرن السابع عشر . باختصار ، نرى ان جينيه لا يستطيع أن يتخذ موقفا واضحا ، فهو كما يقول سارتر : « اختار الضياع بواسطة الاعمال والايمان على السواء . أما طرافته فتتخلص في رغبته في أن يكون وحدة لا تركيبية لتناقضاته الشخصية . » (٢٣)



بعد تحديد المشروع او الاختيار الاول وهو بالنسبة لجان جينيه تحويل حكم المجتمع عليه من قدر وقوة ضاغطة من الخارج الى رغبة وإرادة ذاتية مجضة ، يشرع سارتر في وصف حياة الكاتب الداخلية وتحديد قواها الذاتية . ولا شك أن موقف الفيلسوف الوجودي واضح في هذا المجال : فهو لا يقبل أن تكون الأقدار او الظروف الخارجية قوة مؤثرة في ذاتها ، هي في رأيه ، لا تؤثر الا بمقدار ما تقبل ذاتية او إرادة ما أن تحط لنفسها حدودا معينة . لذلك اذا كان جينيه يقبل الظروف الموضوعية التي تدينه وحكم المجتمع الذي موضعه في صورة المخلوق الدنيء ، فهو - لا شك - يتجاوز ذلك كله على مستوى الخيال ، ومن هنا تتولد براعم العمل الفني .

حينما يلفظ المجتمع والانسانية جينيه ، فانه يلفظها بدوره ، وحينما يحكمان عليه بالتوضع والسلبية

(٢٢) Jean — Paul Sartre, Saint Genet, op. cit., pp. 193—215

(٢٣) نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .

فانه يستطيع هذا الحكم حتى يكون نابعا من ذاته ، ولما كان جينيه لا يشاطر الناس حياتهم ومعيشتهم ، فان مظاهر الحياة لا تتعدى بالنسبة له ، تسلسل الأحداث الاعشى والتصاق الاشياء بالمعاني بطريقة عشوائية . باختصار ، لقد أصبح جينيه وحيدا ، فالاشياء لا تخاطبه ولا تقيم بينها وبينه أية علاقة عملية أو نفعية . ان الاشياء تكثفي بالنظر اليه ، ويرد صورته اليه في مرآة قدره . ولما كان الناس قد حكموا عليه بالصمت ، فانه أصبح من واجبه ألا يتكلم أو يعبر عما يجيش في صدره لأن كل اتصال بينه وبين الغير أضحي مستحيلا . بيد أن جينيه يتكلم ، مع ذلك ، ويكتب . ولكن فعل الكلام او الكتابة يكتسب هنا - لاشك - معنى جديدا : فهو اذا كان يتكلم فذلك مرده الى أن الكلمات تمثل بالنسبة له وظيفة أخرى غير تلك التي تعارف الناس عليها . ان حياة الكلمات عند جينيه لا تتعدى تراكيبها الصوتية التي تلتقطها الأذان وأشكالها وصورها التي يبرزها عالم الكتابة ، هي بدلا من أن تربط بينه وبين الناس وبدلا من أن تقوي عرى التفاهم والتواصل بينه وبينهم نراها ، على العكس من ذلك ، تضفي على الوجود هالة سحرية وتغلف واقعه المتدني في غلالة من الشاعرية الحاملة . يقول جينيه في هذا المعنى : « كانت الكلمات تسترد معها ، في نهاية الأمر ، جاذبيتها كعلب فارغة من كل شيء ، علما ما يكتنفها من غموض وأسرار . فالكلمات التي أحكم غلظها والتي أطبقت على أسرارها ، كانت حينئذ تفتح تصدق منها المعاني في دفعات وثابة تترك الانسان حائرا . كلمة (philtre) مثلا (شراب المحبة) ، وهي كلمة سحرية ، كانت تقودني الى الفتاة العانس التي تصنع القهوة وقرج بها الشيكوريا ، وكلمة (filtre) (المصفاة) كانت تعود بي عن طريق رواسب القهوة (هذه حركة حوالة) الى السحر . » (٣٤)

ان اللغة تفقد ، على هذا النحو ، مع جينيه ، وظيفتها الاجتماعية ، فهي بدلا من أن تلقي الجسور بينه وبين الآخرين ، وبدلا من أن تقيم علاقات متوازنة بين ذاته وبين التنظيمات الاجتماعية ، كانت تزيد من عمق الهوة التي تفصل بينه وبين المجتمع . واذا كانت اللغة تقوم ، هكذا ، على الفرة وسوء التفاهم ، فهي - لاشك - ستصبح وسيلة من وسائل الكذب والرياء . بمساعدة هذا التصور اللغوي ، يقول سائر ، « يستطيع جينيه أن يضفي الوجود على العدم وأن يبقى ، باصرار ، في دنيا الظلال أي في عالم الشر . » (٣٥) وليس من شك في أن هذه اللغة ، من جهة أخرى ، لا يمكن أن تكون لغة الناس جميعا ، انها لابد أن تكون لغة خاصة . لذلك تعد لغة « الأرجو » الشعبية (L'argot) أفضل لغة تقوم بهذا الدور الهامشي القارض . ان « الأرجو » سيكون ، على وجه التحديد ، لغة المجرمين الحقيقيين ، لغة العانة وليس لغة المستضعفين و « الأثا » . يقول جينيه : « كان للخلالات ، في الطابق العلوي ، لغتهن الخاصة . أما الأرجو فكان يستخدمه الرجال . انه لغة الذكور . لقد

Jean Genet, Notre-dame-des-Fleurs, op.cit., p. 73 (٣٤)

Jean-Paul Sartre, Saint Genet, op.cit., pp. 265 (٣٥)

كان - مثل لغة الرجال عند سكان منطقة الكاراييب (Les caraïbes) - رمزا جنسيا اضافيا . لقد كان يشبه الالوان الزاهية مثل ريش ذكور الطير وملابس الحرير المزركشة التي يرتديها محاربو القبيلة فقط . لقد كان غرة وهمازات . وكان كل الناس يستطيعون فهمه ، الا أنه لم يكن يتكلمه الا الرجال الذين وهبوا ، منذ يوم ميلادهم ، الاشارات وحركة الاردااف والساقين والاذرع والعيون والصدر التي يستطيعون بها أن يتكلموه .. » (٣٦) ان اللغة عند جينييه تكتسب ، بسبب معارضتها للاستعمال العام ، قيمة شاعرية وخيالية عالية ، فهي ، كلفة الاحلام ، تجسد العدم وتضفي على الأوهام كثافة الواقع . وهي ، من جهة أخرى ، مثل الوشم ، تمثل رمزا لانتقاء معكوس . ان الشاعرية البالغة لهذه اللغة تكاد ترتفع بها ، وفقا لتصوير جينييه ، الى مرتبة القدسية ، فهو يريد أن يستلهم من خلالها ، عن طريق الوحي والتلقي ، كيان اللغة نفسه وجوهرها المكنون . » (٣٧)

وإذا كان جينييه يبحث عن التوضيح في اللغة ، فهو يسعى كذلك الى التوضيح والضياح في التاريخ ، فهو في الواقع ، بعد وقوع اللحظة الحاسمة ، لحظة الجرعة ، قد فرغ التاريخ ، الذي يعتبره سارتر مجالا مفتوحا للحرية الخلاقة وللارتجال والابتكار والمخاطرة . من كل مضامينه . ان التاريخ يصبح ، من خلال تصورات جينييه السلبية ، مجموعة من الاحكام القبلية والحقائق الكلية الكامنة في الوجود . لذلك نرى أن وقائع الحياة وأحداثها لا تغير ، في نظر جينييه ووفقا لأمنيته ، من طبيعته شيئا ولا تمس صفاء جوهره الشرير . ان الاحداث لا تقدم جديدا في نظره ، وانما تكشف النقاب فقط عن ضرورة حدوثها وحتمية صيرورتها ، الأمر الذي يجعل من الحياة مجموعة متكاملة من الاشارات والرموز التي تدعو الى التوقع والتفسير ، وليس الى الفعل والابتكار . الا أن الاشارات والرموز لا يمكنها - للأسف - الا أن ترد هذا الكاتب المتخبط الى عالم الوهم والخيال . ان الاشارات (Les gestes) ، وهي - في تصور سارتر - سيات الافعال الخارجية وأشكالها الظاهرة ، تؤدي الى الشر بقدر ما يدفعنا هذا الفن الى اعتبار مادة اللغة من صوت وجرس ونغم غاية في ذاتها . انها لما كانت تستبعد حركة الحياة وجيشانها الخلائق المتفجر تنتهي بالغاء الزمن والتاريخ وبقتل كل روح للابتكار وتفجير المواقف او الظروف الجديدة . الا أنها بردها جينييه الى الشر تسمح له بتجاوز موقفه الفعلي وتحويل الشر الواقع عليه وهدم بتدمير حياته الى شر خيالي ، ومن ثم تفتتح أمام الكاتب مجالات جديدة تتيح له التطور من مفهومه النفسي والادبي ، ان صح هذا التعبير ، للشر الى مفهوم جمالي . . .

ان المرحلة الجمالية تتيح للكاتب تجاوز ما يسميه سارتر « أخلاقيات الشر » التي ثبت فشلها وعجزها عن اكتشاف قيم بناء وإيجابية . وتتميز المرحلة الجديدة ببساطة أحلام الشر وخيالاته التي تراود جينييه . ولا شك أن

الحلم هولون من التصور الكاذب أو الوهم ، هو بريق الأشياء أو ظاهرها الخادع المراوغ ، لذلك لا يخرج الشر الذي يربط بهذا العالم الوهمي المتحرك عن كونه نقياً لطبيعة الوجود وإيجابيته . غير أن ارتباط الشر الوثيق بالعدم والخيال يسمح ، مع ذلك ، لجينيه بتجاوزه شقائه الفعلي وعذابه المضني بما أوتي للخيال من قدرة على إلغاء الواقع وتحريكه إلى لون من التمثيل واللعب . وهكذا يستطيع جينيه أن يأمل وأن يصون ماء وجهه وأن يحول « رغبة النفس » التي كانت تسيطر عليه إلى مجد وانتصار » (٢٨)

إن الخيال ، في نظر جان - بول سارتر ، طاقة هائلة قادرة على انتقاذ البشرية ، فهو في جوهره قوة « تدمير » كافية لانتزاع الإنسان من سجن الكينونة وبراثن الواقع المؤلم . ولقد توضع جينيه في هذا العالم الخيالي الذي يقوم على العدم والأكاذيب وعلى مظاهر الحياة الخادعة ، وأصبح ملكاً من ملوك الزيف والتضع . ويذهب سارتر إلى أن حب الزيف والتقليد هو نتاج المجتمع الصناعي الذي تتطلب فيه الصناعة أو اللا - طبيعة (L'antiphysis) على كل ما هو أصيل وفطري وأولي . إن الفن الأصيل يفترض في هذا المجتمع اللا - استقرائي وتلاشى معالاه أمام تطور المنتجات الصناعية بسبب غلبة الآلة وقضائها على روح الابتكار الفردية . إلا أن جينيه لا يبحث في الصناعة عن كمال التقليد أو عن عبقرية الإنسان الذي يحاكي الطبيعة . إنه يبحث فيها ، في واقع الأمر ، عن صورة ذاته المصطنعة وكيانه الزائف ، وينشد عالم المظاهر الخادعة والذوق الرديء لأن حريته المجردة الفارغة تتضوع في هذا العالم الخيالي وتدفعه - بطريقة جنونية - إلى إضفاء صفات الملاء والكثافة التي تتميز بها الكينونة على عالم العدم . إن الخيال يقوم هنا بدور الترجسية التي تتيح لجينيه جمع الشتات المتناقضة لشخصيته في وحدة وهمية وتسمح له بالبقاء على ازدواجية نفسه الجذرية . (٢٩)

إلا أنه إذا كان العدم يلعب دور البديل الخيالي أو الوهمي للواقع عند جينيه ، فإنه لا يستطيع أن يشبع أشتاعاً كلياً جميع رغباته أو تحقيق كل أحلامه . وفي نهاية الأمر ، نرى أن الواقع هو الذي يتبدل ويتحول إلى مجموعة زائفة من الاشارات والرموز السحرية الجميلة . لذلك سرعان ما تنتاب الكاتب أحاسيس اليأس وخيبة الأمل حيناً تنتهي للحظات النشوى وتكتشف له حقيقة الواقع المؤلم . يقول جينيه معبراً عن هذا المعنى : « أن لحظات الانبهار قد انتهت وبدأت أعرف الأشياء بصفاتها العملية ومن ثم صارت أدوات هذا المكان ، بعد أن أذابتها عيونى ، شاحبة هزيلة ، ولم تعد تدلني على السجن ، لأن السجن صار في داخلي وأصبح يتكون من خلايا أنسجتي » (٣٠) إن هذه المرحلة الخيالية ، التي كانت تسيطر على عقلية جينيه المرافق ، كانت تدفعه إلى تحويل تصوره للشر إلى مفاهيم جمالية ، غير أن هذه المفاهيم كانت سرعان ما تنهار لأنها لا تشكل مبادئ

(٢٨) نفس المصدر ، ص ٣٣١ - ٣٣٤ .

(٢٩) نفس المصدر ، ص ٣٤١ .

Jean Genet, *Miracle de la rose*, op.cit., p. 246 (٤٠)

إيجابية أرقيا خلقية ثابتة ، فهي تقوم على العدم وعلى وظائفه السالبة للوجود . ان الجمال الذي ينشده جينيه هو في نهاية الأمر ، كما يقول سارتر : (وجه العدم المروع) ^(٤١)

يقوم المفهوم الجمالي للشعر عند جينيه على مجموعة من الحركات والإشارات التي تعتمد الأناقة وجمال المظهر كأساس لها ، وهو في جوهره ، قوة تحريفية لمعاني الأشياء الدارجة وتشويه متعمد وإرادي للسلوك السوي . بعبارة أخرى ، هو لمهاة لا يقصد بها ، في أغلب الظن ، إرضائنا أو امتناعنا ، ولكن شد انتباهنا ، بل وإزعاجنا بتفخيم الوظائف الحيوانية البهتة لدى الانسان . وليس من شك في أن ولع جينيه بالتحدث عن الافرازات والروائح الكريهة معروف ومشهور في الأدب الفرنسي ولا يضاهيه في ذلك الا الماركيز دوساد (sade) في القرن الثامن عشر وانتونان أرتو (Antoninb Artaud) وجورج بطساي (Georges Bataille) في القرن العشرين . على هذا النحو ، يتحدد المفهوم الجمالي للشعر ككون من النفايات أو الترف الذي لا يجدي ، الأمر الذي يجعل من الجمال ضربا من المحاكاة « الكاريكاتورية » للوجود ونوعا من التقليد الزائف للحياة .

ان تبخر الطابع الواقعي للأشياء بفعل سحر الكلمات يبلغ غايته القصوى في لغة جينيه الشعرية ، فالكلية ، لدى هذا الكاتب ، تكتسب قوة تعبيرية فذة تتيح له تجاوز تناقضات الواقع ومشاكله المعقدة الى عالم خيالي تتطابق فيه الكلمة مع جوهر الأشياء . الا أننا لسنا بصدد اضفاء طابع مثالي على واقع مزر أو السمو بأوضاع متدنية ، على العكس من ذلك ، اننا بصدد نوع من تفرغ الواقع من كثافته المادية حتى يمكن ان يطابق في شفافيته عالم الرغبة والطموحات المكبوتة . لاشك أن الواقع يظل هنا الأساس ، ولكنه واقع مردود الى حده الأدنى وإلى ركيزته الأساسية التي تجعل منه النموذج الأمثل للبؤس الانساني . ومن ثم يصبح هذا الواقع المنحط ، الذي صقل حتى صار « هيكل الوجود المزهر » أو حلم الحقيقة الشاحب البعيد ، قيمة جمالية تؤثر في النفس تدفعها الى التعجب والتأمل . « ^(٤٢)

ان هذه القيمة ، بالنسبة لجينيه ، هي الشر ، والصيغة الجمالية التي تلاتمها هي العبارة الشعرية ، الا أن هذه العبارة ليست الا كلمات جينيه المختلفة والمنسوبة زورا الى زملائه المساجين : فهؤلاء يرفضونها رفضا تاما ، ويتحرجون منها متحرجا كبيرا لأنها تجسد الجريمة وتفخم الشقاء الذي يعيشون فيه ، ولأنهم لم يفقدوا الأمل في حياة أفضل ولا الحنين الى الخير والحريّة . ان هذه القيمة الزائفة تكرر كذلك يؤس الشاعر المحتقر الذي يعرض نفسه للسخرية والاستهزاء . وإذا افترضنا أن هذه الشعرية الخاصة التي تميز كتابات جينيه وتحلق حولها هذا الجر

Jaen—Paul Sartre, Saint Genet, p.351 (٤١)

(٤٢) نفس المصدر ، ص ٣٦٥ - ٣٧١ .

العجيب الغريب معنى أو فائدة ما ، فمن غير شك ان ذلك يتم بالرغم من ارادة الكاتب ويقدار ما تتجاوز فيه
فرديته وخصوصيته الضيقة الى حقيقة موضوعية عامة . (٤٣)



يرى سارتر أن الشعر الحديث يشمل نمطين من أنماط توحيد الكون : النمط الاول يقوم على التمدد والتموضع
والثاني على الانكماش والتركز . ويضم النمط الاول رؤى الوجود الخاصة بشاعر مثل رامبو (Rimbaud)
وفيلسوف مثل نيتشه (Nietzsche) ، وهي عبارة عن تصور انفجاري أو تممدي للوجود ، أما الرؤية
الانكماشية فتضم نظرات بعض كبار الشعراء من أمثال ملارميه (Mallarme) وبودلير (Baudelaire)
وجينيه نفسه ، وهي عبارة عن خيال ضاغط ويحدد لبرانية الوجود وظاهره ولون من التركز أو التكيف حول قطب
أو محور . وجينيه بالذات يتصور العالم على شكل دائرة يشكل هو مركزها أو محورها الأساسي الثابت . ويعتقد
جان - بول سارتر أن هذا التصور الاخير يطابق رؤية اجناعية للعالم هي رؤية الطبقة الاستقراطية التي تعتبر
نفسها تجسيداً لمبدأ الطهارة والتميز . ورؤية فلسفية للوجود تقوم على فكرة الجوهر ويبدأ الفكرة أو المفهوم
(concept) . وسوف تحمل محل هذه الرؤية في المجتمع الصناعي رؤية فلسفية جديدة تقوم على مبدأ الحكم
والتعلل (judgement) ، ونحن هنا ، وفقاً لسارتر ، بصدد الانتقال من الفكر التأملية المجرد الى الفكر
الاستقرائي التجريبي الذي يتلام مع رؤية الوجود الواقعية الخاصة بالطبقة البرجوازية . (٤٤)

في ظل هذا الفكر التأملية أو الميتافيزيقي ، يفقد الوجود الخارجي كثافته الواقعية ويصبح تجسيدا خالصا
وبسيطا لفكرة مسبقة أو تحقيقا لمبدأ أولي وأسامي . لذلك لا تشكل الأحداث بالنسبة لهذا الفكر أي جديد ولا
تمثل أي مخاطرة إذ أن كل شيء معروف ومحدد من قبل . ومن ثم يصبح الفكر أو العيش في هذا الاطار تحقيقا لخطة
مرسومة في صورة مجموعة من الحركات والاشارات الثابتة والمعروفة سلفا . الا أن الفكر المسبق لدى جينيه لا
يخرج ، مع ذلك ، عن ذاته الخاصة ، فهو يعود دائما الى مركز الدائرة التي خطها حول نفسه . ويقول سارتر في
ذلك : « لقد كتب جينيه ، في البداية ، ليؤكد وحدته ، ويحقق كفايته الذاتية . والكتابة نفسها هي التي
دفعته ، بمشاكلها ، لا شعوريا الى البحث عن القراء . وهكذا تحول هذا الانسان المتمركز على ذاته ، بفعل
الكلمات وثرانها الى كاتب . الا أن فنه سيتأثر دائما بمصادره وسوف يظل الاتصال الذي يعرضه علينا من
نقط فريد جدا . » (٤٥)

ان الكتابة لدى جينيه ترادف ارتكاب « جريمة قتل » في حلم من أحلامه ، وتتلخص في اضافة مسحة من

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٣٩٩ - ٤٠٦ .

(٤٤) نفس المصدر ، ص ٤٣٠ - ٤٣٦ .

(٤٥) نفس المصدر ، ص ٤٤٦ .

الجمال على عالم الجريمة ، ومن ثم كان هدف الشعر الخطير الخبيث الذي يبشّر الكاتب في ثنايا مؤلفه غوايتنا وتضليلنا . ان هذا الشعر لون من الغواية الشيطانية التي تهدف الى تحجيب الشر الى نفوسنا بعد تقديمه في اجمل مظهر وأحلى صورة ، وهو كذلك مشروع خداع كبير وعملية تزييف واغتراب هائلة : فجنيته ينشد بشعره ضياعنا ودفعنا الى هاوية العدم والوهم والضلال معتقداً بذلك أنه ينتقم لنفسه من رجال الخير وأنه يتحرر من الشر الذي يقضي عليه المجتمع الرأسمالي بالبقاء فيه . الكتابة لديه اذن ليست مجرد غواية وتضليل ، انما هي أيضا ، وفقا للمذهب سارتر في الوجود ، مشروع تحرير عن طريق الصاق جانب من الاغتراب والضياع الذي يعاني منهما الكاتب بالآخرين .^(٤٦)



ليس من شك في أن مؤلفات جان جينيه كان يمكن أن تعرض بطريقة أخرى أو على ضوء منهج آخر ، غير المنهج الوجودي وما يعتمد عليه من تصورات ذاتية . كان يمكن أن تقدم وفقا للمنهج البنيوي الذي يقوم على التصنيف واستنباط المبادئ الصورية العامة التي تحكم تفاصيل العمل الفني وموضوعاته بدلا من اعتداد مبدأ المشروع التاريخي الذي يتحقق ، في نظر سارتر ، عبر الزمان . ولقد قام بعض الكتاب فعلا بدراسات عن جان جينيه ، وأريد أن أضرب مثلاً بدراسة جورج بطاي^(٤٧) التي يحاول فيها نقد محاولة سارتر وعرض أفكار جينيه وفقا لمبدأ نقض المحرمات (transgression) الذي يشكل أساس فكره . الا أن هذه المحاولة ، بالرغم من طرافتها ، لا تقدم أعمال جان جينيه بطريقة متكاملة أو متسقة . وفي الواقع ، ان تفسير جان - بول سارتر لجينيه ، كما سبق أن قلنا في بداية هذه الدراسة ، ليس مجرد محاولة في النقد الادبي او الفلسفي ، انما هو اسهام فكري واضافة جادة الى الاعمال الفلسفية او المباحث النظرية للمؤلف ، وحسبنا الاشارة هنا الى واقعة مضرة وهي أن سارتر كان في الوقت الذي يعالج فيه كتابه عن جان جينيه ، يصوغ المبادئ الأساسية والخطوط العريضة لمسرحيته الشهيرة « الشيطان والله » (١٩٥١) ، وسوف تقوم الآن بدراسة هذه المبادئ الفلسفية التي تحكم منهجه في النقد .

يقول سارتر في سياق كتابه عن جينيه بأنه يحاول في هذه الدراسة أن « يبرز حدود التفسير النفساني والشرح الماركسي وامكانية الحرية وحدها في اظهار شخصية ما في شموليتها ، وأن يظهر هذه الحرية في صراعها مع القدر ، وهي تبدو في البداية مسحوقة أمام الأقدار ، ولكنها ترتد عليها بعد ذلك لتتضمنها رويدا رويدا ، وأن يدلل على أن العبقريّة ليست هبة ، ولكنها المخرج الذي يبتكره الانسان في حالات

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٤٦٦ - ٥٠٦ .

(٤٧) Georges Bataille, Jean Genet, in La littérature et le mal, (٤٧)

op.cit., pp 204 - 242

اليأس ، وأن يعثر على الاختيار الذي يقوم به الكاتب لما يكون شخصيته وحياته ومعنى وجوده ، وذلك حتى في السهات الصورية لأسلوبه وأنشائه ، وحتى في تركيب صورته وخصوصية ذوقه ، وأن يسرد ، بالتفصيل ، تاريخنا لتحرره . » (٤٨)

ان الذي يرفضه سارتر في منهج التحليل النفساني هو اسناد دور العلة الحتمية الى اللاشعور في عملية انتاج المؤلف الادبي أو الفني ، فاللاشعور ، في نظر الفيلسوف الوجودي ، لا يمثل بالنسبة للحياة النفسية الا اطارا لا عقلانيا وأعمى لضرورات عضوية يجدر استبعادها حتى لا تحجب العوامل الخلاقة والجانب الارادي في « المشروع » المؤثر أو في الاختيار الاول الذي يوجد خلف أي عمل فني . الا أن سارتر لا يذهب الى درجة رفض كل تأثير للقوى الحتمية او الموجهة ، لأنه حيناً يعطي الاولوية للوجود على الشعور حتى ببعض المعطيات التي تشكل على ضوئها هذا الأخير ، وتكون بالنسبة له بمثابة مرحلة سابقة على ادراك ذاته : (Le prereflexif) ، وهذه المرحلة تشكل بالنسبة للشعور اطاراً أو أفقاً يتيح له ، من خلال العمل الفني أو أي نوع من الممارسة ، أن يتخطى ذاتيته المحضة ليبلغ ، ان صح هذا القول ، أبعاده الموضوعية . ولكن الشعور يظل ، مع ذلك ، أساسياً في الفكر السارترى ، الأمر الذي يجعل من الذات (Le sujet) ، أحد المحاور الجوهرية ان لم يكن المحور الاول لهذه الفلسفة . وهذا المنحى ، كما نعلم ، هو ما ترفضه كل المدارس البنائية المعاصرة سواء ما كان منها يستلهم المناهج اللغوية والفونولوجية مثل كلود - ليفي ستروس (Claude — Levi Strauss) صاحب الانثروبولوجيا البنائية ، أو ما كان منها ينبثق من مفهوم تاريخي أو توليدي مثل بنائية لوسيان جولدمان (٤٩) أو مدرسة « أركيولوجيا المعرفة » لميشيل فوكو (٥٠) (M. Foucault) وغيرها .

على كل حال ، فإن مفهوم الذاتية هذا يتطلب بعض الايضاحات ، لانه لم يكن موجوداً في الفلسفة الارادية قبل ظهور ديكرت صاحب المطابقة بين الفكر والوجود (cogito ergo sum) . ولا شك أن غياب الذات هو غياب للشعور وما سوف يرتبط بهذا الأخير من مفاهيم خلقية كما تدل على ذلك العبارة الفرنسية (conscience) التي ترجعها على المستوى المعرفي أو الادراكي شعوراً ولكنها تطبق في معناها الشائع والأعم

Jean—paul Sartre , Saint Genet, p. 536 (٤٨)

(٤٩) لوسيان جولدمان ، تلميذ جورج لوكاتش ، ومؤسس منهج البنائية التوليدية في دراسة الادب والفلسفة ، ومشهور بدراسات هذه في سيبرولوجيا الادب والفكر ولقد عرف منهجه في كتاب :

Lucien Goldmann, Pour une sociologie du roman. Paris.

Gallimard, (Idées), 1964, pp. 337 — 372

(٥٠) راجع أول كتاب صدر بالعربية عن ميشيل فوكو وهو للزميل الناضل د . عبد الوهاب جعفر : البهيرة بين العلم والفلسفة عند ميشال فوكو - دار المعارف ١٩٧٨ .

على مفهوم الضمير . لهذا السبب كانت فكرة الخطيئة تكاد تكون مبهولة أو لا تتجاوز فكرة الخطأ كما كان قد ألقى أسسها الفكر السقراطي في علاقتها بالصواب . من ثم لم تكن الخطيئة ، على المستوى الاخلاقي ، وثيقة العلاقة بالعقل أو بالإرادة ، وكانت أقرب ، في أغلب الأحيان ، في الفكر القديري القديم ، الى القوى الغامضة العمياء التي تغترب فيها حرية الانسان وتسيطر عليها ظلمات الشر . ولا شك أن تأثير هذا التصور على فكرة الخطيئة في المسيحية كان هو الأساس في انقسام الضمير المسيحي حول هذه المسألة الى خطين متنافرين . هل الخطيئة تعد عملاً أروانياً أو عملاً جبرياً ؟ ومن الواضح أن الفكر الديني المسيحي الأكثر تركيزاً على الجوانب النفسية للانسان وأبعدها عن المظاهر والمراسيم الخارجية التي تخاطب الحواس أكثر من مخاطبتها للوجدان ، ونقص به التيار الارسطيني والتيار البروتستانتي قد استقطبته فكرة الخطيئة « المسبقة » حيث لا حول ولا قوة لعقل الانسان أو ارادته إلا بمعاونة بركة الرب الفعالة . وليس من شك في أن هذا التيار ، تماماً مثل التيار القديري القديم ، كان له أثر ضخم في محو كل علاقة بين الشر والمسئولية وذلك حتى ظهور الاخلاقيات الكلاسيكية التي تحتل فيها المسئولية ، مع ظهور الشعور والذاتية ، مكانة رئيسية . نريد أن نقول : « ان غياب هذه العلاقة يرجع أساساً الى غياب الذاتية التي لا يمكن ان تظهر الى حيز الوجود إلا متصلة بظهور مفهوم الشعور . ولاشك ان غياب هذه العلاقة ، هو من جهة أخرى ، نقص أساسي يكون الفجوة التي تفصل بين ما يسميه الكاتب جان - ماري بنوا^(٥١) اللامعروفة عند أوديب او دفعة الموت اللاشعورية (قتل لايبوس) وبين الزنا بالمحارم (رغبة الاتصال الجنسي بجوكاست) . وسوف تشكل هذه الفجوة ، وفقاً لهذا المؤلف ، مسافة سلبية بين حدثين ، ويمكن أن نضيف بين قطبي الرغبة أي بين دفعة الحياة (Eros) وبين دفعة الموت (Thanatos) . وسوف تقوم فلسفة الذاتية التي تبدأ مع ديكاوت وتنتهي مع سارتر ، بهذه الفجوة بطريقة سطحية ، إلا أن اللاشعور الفرويدي سوف يملؤها من جديد مفسحاً بذلك المجال لظهور المنابع النفسانية المتعددة والمهمة بتفسير مظاهر الاختلال والفعال الرمزية التي تحكم بنية اللاشعور القائمة على مبدأ « الغياب - الحضور » .^(٥٢)

Jean-Marie Benoist, La revolution structurale, Paris, (٥١)

Grasset, 1975, pp. 215 — 218

(٥٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .

يلاحظ المؤلف وجود ثلاث اختلالات (decalages) . الاختلال الاول بين الأنا والتصوير في مرحلة المرأة عند جاك لاكان ، وهو يعكس الصراع الهذلي بين الرغبة ودفعة الموت وسوف يعالج بتجربة تقوم على نمط بناتي ورمزي . الاختلال الثاني يقع بين الأنا والتصوير من خلال البنية الزمنية للارضاء عند جاك دريدا على أساس أن عملية الارضاء تسمح هنا بتجاوز الحاضر ، وهو الزمان الاول للرغبة ، وكسب المستقبل . أما الاختلال الاخير ، فهو أساس العملية الرمزية أو اللفظ عامة ، لأن أي لغة تعتمد في قيامها على وظيفتين اساسيتين وهما الاستعارة (Metaphore) والكناية (metonymie)

غير أننا نرى ، مع ذلك ، أن مسألة الذات لابد أن توضع في إطارها التاريخي حتى تفهم حق فهمها . فالذات الديكارتية ، التي تؤسس شعوراً بالوضوح والثقافة حيث يتطابق الوجود مع الفكر بلا غموض ولا وسيط ، هي قبل كل شيء خالقة لنظام ومعادل موضوعي لسيطرة الانسان على الطبيعة بواسطة منهج عقلاني . ولا شك ان هذه الذاتية هي التي تحدد النتاج الثقافي والايديولوجي للكتابة الكلاسيكية ، كما يرى بحق رولان بارت^(٥٣) ، على أساس محورين رئيسيين وهما محور الوضوح ومحور التتميق . ويعمل المحور الاول على ادراك وتقديم العالم من خلال الكتابة الثرية بطريقة موضوعية وعامة ، أما المحور الثاني فيظهر في العملية الشعرية بحيث يجعل منها لونا من النثر المنسق . ان هذا التصور يفترض ، كما نرى ، مطابقة تامة بين الوجود والذات ويرتبط بمفهوم التمثيل (representation) الذي سينبذه الشعر الحديث لارتباطه بكثافة الكلمة وجديتها الخلاقة والفن الحديث - خاصة بعد انحسار المدرسة التأثيرية - الذي يفصل بين اللوحة والوجود الخارجي ، وأخيرا الادب الفرنسي المعاصر الذي جعل من عملية الكتابة نفسها أساس الأدب وغايتها (مدرسة الرواية الجديدة) .

وهذا الوضوح الذي تتطلبه الكلاسيكية لا ينسحب على المعرفة فحسب ، بل وعلى المقدرة كذلك ، لأنه مقياس الذات الواعية بقوتها وامكانياتها ، الأمر الذي يعد ، في حد ذاته ، ضرورة أو احتتمية تاريخية ، في بداية العصر الاوروبي الحديث ، لانحسار القوى اللاعقلانية المنبثقة عن الماضي والمتزامنة مع بنينه الاجتماعية والتاريخية ، والتي تشكل باستمرارها خطرا كبيرا يعدد وحدة الانسان وقدرته على التطور والتقدم . ان هذا الوضوح المنهجي أساس لقيام التوازن الجديد بين الانسان العارف والقادر وبين البيئة الخارجية التي تجنح دائما الى الهروب من قبضته . وليس من شك في أن الانجاز الاعظم للعصر الكلاسيكي هو بالذات تحقيق هذا التوازن الأمثل بين العقل البشري وبين البيئة المحيطة . الا أن هذا الوضع لم يكتب له الدوام إذ أنه مع نهاية القرن الثامن عشر بدأت تظهر براعم الرومانسية وما صاحبها من استشهاعات المجهول الذي بدأ يلقي بغيومه وظلاله على الضمير الاوروبي ... ومن ثم بدأت تتحول جميع قوى الغيب القهرية التي كانت تتمثل للقدماء في صورة قدر أي قوة خارجية لا طاقة للانسان بفهمها او مقاومتها الى قوة عدوانية داخلية تمزق الانسان وتبلبل كيانه . وقد

(٥٣) Roland Barthes, Le degre zero de l'écriture. Paris, ed. (٥٣)

du Seuil, 1972, p. 9 — 10

يعد مفهوم الكتابة : (L'écriture) الذي يطوره الكاتب بمثابة طريقة المؤلف في « تصور الأدب » ويعتبر من جهة أخرى « اختصارا واعيا » يخطئ حائز اللغة ، هذه « الضرورة التاريخية » والاسلوب ، هذه « الضرورة الهيكلية والمزاجية » . وإذا كانت الكتابة تمتاز في القرن السابع عشر بالوضوح فهي تبدأ في الاضطراب مع نهاية القرن الثامن عشر ، وهي تتخذ بعد ذلك عند شاتروبريان شكلا ترجميا تصبح مع فلوير مرآة عاكسة وعند ملارميه أداة مجسدة وأخيرا تصير في الادب المعاصر موضوعا لغويا ، هو ما يعرف به « الكتابة البهيماء » أو المحايدة التي تجرد كتابات كامرو وبلاشو وكيرول .

استشعر هيجل ذلك بحسه المرفه وذكائه الحارق إلا أن الذاتية تضيق عنده في متاحات المطلق الموضوعي ، وهو الأمر الذي دفع مفكراً مثل كيركجارد إلى الثورة ضد ديكتاتورية الفكرة المطلقة ابتغاء استرداد ذاتيته الحميمة وخصوصية كيانه العميق الذي كاد يضيع من جديد في متاحات الشمولية الهيجلية .

وبالرغم من أن الذاتية سوف تمر بتجربة عسيرة خلال الفلسفة الوضعية التي تحاول أن تقلد العلم تقليداً أعمى فتتحدث بها إلى مستوى الشيئية ، نراها تتألق من جديد عبر المدرسة « الفينومولوجية » التي يقوم بتأسيسها الفيلسوف الألماني ادوموند هوسرل . في ظل هذه المدرسة تصبح الذات جزءاً لا يتجزأ من مشكلة الشعور أو الإدراك ، إلا أنها سوف تتأرجح بين المفاهيم المثالية الموسرلية وامبريقية هيدجر الانطولوجية قبل أن تعرف أوج تألقها عند فيلسوف الوجودية الأكبر جان - بول سارتر ، وهو تألق ، كما نعلم ، يسبق احتضارها على أيدي اتباع المدرسة البنوية الذين يزعمون بأن « إنسان » العلوم الإنسانية التي نشأت في القرن التاسع عشر قد مات وقد حان دفنه مع جميع التصورات المتصلة به من إرادة وشعور وتاريخ وتطور واستمرارية وارتقاء . على كل حال ، إن الذات التي تتأكد من خلال وجودية سارتر ليست أساس الفكر فالوجود ، كما هو الأمر عند ديكاكارت ، وإنما هي علاقة ارتباط بالوجود ، فالشعور عند سارتر لا يوجد في ذاته وإنما هو شعور بالوجود وفي الوجود . إلا أنه يجدر بنا ، قبل أن نرى ما يتضمنه هذا التصور من نتائج بالنسبة لقضية الشر التي تعنيها في هذه الدراسة عن جينيه ، أن نبحت النقطة الثانية من المنهج النقدي السارترى وهي تقديره بأن الشرح الماركسي الصرف للأعمال الأدبية أو الفكرية غير كاف .

يرفض سارتر الشرح الماركسي تماماً كما رفض التفسير النفسي ، لأنه يعتبرها قاصرين عن إدراك العمل الفني في شموليته وصيروته . إلا أننا يجب أن نفهم بأن هذا الرفض ليس رفضاً مطلقاً لهذين المنهجين وإنما هو رفض لهما كمنهجين مستقلتين بذاتهما ، أي أن هذا الرفض لا يعني عدم الاستفادة بهما أو دمجهما في أطر نظرية جديدة . ولنلاحظ جيداً أننا أوردنا كلمة شرح بالنسبة للماركسية ، وكلمة شرح (explication) التي تقابل كلمة تفسير (interpretation) التي استعملناها للدلالة على المنهج النفسي تعني أيضاً من الظاهر بينا التفسير يقوم على شرح من الباطن . لذلك يفترض مبدأ الشرح ، في تصور سارتر ، الاعتماد على عملية خارجية وتقديم العمل الفني في صورة نتاج موضوعي متشعب . ولا شك أن الشرح الماركسي ، التقليدي بالذات ، يعتبر الآثار الأدبية والفنية والفكرية مجرد انعكاس للبيئة التحتية للمجتمع وهي البنية التي يحكمها ، في المقام الأول ، نمط الإنتاج ، وللأسف لم تغير ابتكارات البنائيين الماركسيين مثل لويس التوسر (Louis Althusser) شيئاً من هذا الوضع اللهم إلا تكريس مفاهيم النسق والنية على حساب مفاهيم التطور والتاريخ والوعي الطبقي . هذا معناه أن الثقافة ترد ، في نهاية الأمر ، عند الماركسيين إلى مستوى الظاهر السطحية التي تنتجها مجموعة من العوامل أو « الميكانيزمات » الخارجية بطريقة آلية صرفة . إلا أن سارتر لا يجهل ، مع ذلك الدراسات الهامة التي

أنجزها لوسيان جولدمان ، تلميذ المفكر المجري الشهير جورج لوكاتش ، والتي حاول أن يقيم فيها بين مستوى النص أو العمل الفني والمستوى الاجتماعي مستوى ثالثا يقوم على مفهوم « رؤية الوجود » المأخوذ عن الاصطلاح الألماني :

(weltanschauung) الذي يسمح بالعبور من الشعور الجمعي أو الوعي الطبقي الى البنية التوليدية للمؤلف الادبي أو الفكري . إلا أن دور الفرد ودور الإرادة الذاتية في انجاز العمل الفني يظل هنا محيرا وبخاصة بالنسبة لمفكر مثل سارتر الذي ينطلق في مؤلفه الفلسفي الأساسي الاول وهو « الوجود والعدم » (١٩٤٣) من منطلق فردي بحث .

غير أن سارتر لم يبق طويلا على موقفه الاول ، إذ أن تجربة الحرب العالمية الثانية واحتلال بلده من قبل النازيين قد وضعا وجهها لوجه مع مشكلة الحرية والمعاناة الثانية الجماعية . لذلك لم يتورع عن دمج الماركسية في بعض ممارساته الفلسفية ، الأمر الذي أتاح له اضافة بعدين رئيسيين الى رؤيته الوجودية الفردية المجردة وهما البعد الاجتماعي والبعد التاريخي . ولقد أفاد سارتر من هذا الالتقاء الفكري على السواء في مسرحه ^(٥٤) حيث استطاع أن يتجاوز مرحلتى الحرية الفردية « الموهولة » والحرية المتضمنة في إطار الجماعة ، وفي ثاني مؤلفاته النظرية الهامة وهو كتاب : « نقد العقل الديالكتيكي » (١٩٦٠) ولقد أفاد كذلك من هذه التيارات الماركسية بعد دمجها ببعض ممارسات التحليل النفسي ، الذي عرف عن الفيلسوف تحت اسم التحليل النفسي الوجودي ، في مؤلفه الضخم عن « جوستاف فلوبير » ^(٥٥) حيث استطاع أن يدمج ظاهرة « العصاب الذاتي » الذي يميز الكاتب بظاهرة « العصاب الموضوعي » الذي يطبع الحقيقة التي عاش فيها . إلا أننا اذا استطعنا أن نقول ، من الآن فصاعدا ، بأن الماركسية تمثل الأفق الاجتماعي والتاريخي للوجودية السارترية ، يجدر بنا أن نضيف الى هذا التقرير أن سارتر لا يقبل الماركسية التقليدية على علاقتها ولا في ذاتها ، ولكن بعد تعديلها وتطويرها بحيث

Claude Launey, Le Diable et le Bon—Dieu—Sartre. Paris, (٥٤)

Hatier, 1970, p. 15.

يمده المؤلف ، بعد فرنسيس جاكسون ، مرحلتين كبيرتين في مسرح سارتر ، وهما :

أ - مرحلة اورست - هيجو (١٩٤٣ - ١٩٤٨) : حيث نتحول من موقف مثالي قائم على الحرية المطلقة الى نوع من الواقعية الخلقية والسياسية .

ب - مرحلة هيدرز - برنيز (١٩٤٨ - ١٩٥١) : حيث نتحول من فكرتي الفردية والطلق الى البعد التاريخي - الاجتماعي .

Jean —Paul Sartre, L'idiote de la famille. Gustave Flaubert. (٥٥)

Paris, Gallimard 1972, t. III Paris, Gallimard (Idées)

تتلاءم مع مفاهيمه الخاصة عن المشروع (Le project) ومنهجه الذي يسميه « التطوري - الارتدادي » والذي يقوم على دمج الرؤية المستقبلية بمؤثرات الماضي في تفسير مكونات العمل الفني .^(٥٦)

ان مشروع سارتر ، القائم على الحرية في الأساس ، وهي المشكلة التي تزوره منذ ظهور رواية « الغشيان » عام ١٩٣٨ وحتى نشر كتابه عن « جينيه » عام ١٩٥٢ ، هو في نهاية الأمر إبراز محاولة جينيه الادبية في شكل اختيار ارادي لذات حرة . الا ان المفارقة الغريبة في هذا الاختيار عند كاتب مثل جينيه هو اختياره ما قد اختاره له الآخرون وقبول قضاء الاقدار والظروف الخارجية التي تحولها الى أداة صماء لاحول لها ولا قوة . غير أن غرابة هذا الموقف يمكن أن تزول اذا أخذنا في الاعتبار من جهة ، ان الانسان لا يمكن أن يتحول الى أداة الا بعد تنازل أو رضوخ من جانبه ، واذا تأملنا ، من جهة أخرى ، هذا العمق الغريب الذي توحى لنا به عبارة « ديتري » في رواية « الاخوة كارامازوف » لديستوفسكي وهي : « انني حيناً اندفع الى الهاوية ، اندفع مباشرة ، رأسي في المقدمة ، ويعجبني أن أسقط على هذا النحو اذ أرى جمالا في هذا السقوط . »^(٥٧) ان هذه الحرية تمثل - لاشك - نوعاً من القدر المضاد ، فهي قتل هذه الامكانية التي تتيح للانسان أن يحافظ على جوهره كمخلوق حر وأن ينقذ ماء وجهه وكرامته البشرية وهو في أدنى درجات الخضوض . الا أن هذا الموقف لا يؤدي ، في نظرنا ، للأسف الى قيم بناءة أو نتائج ايجابية ، فالحرية التي تنطلق من العدم لا تؤدي الا الى العدم اذ فيم تنفعني هذه الحرية اذا لم تخبرني الا بما أعرفه فعلاً وهو أنني كائن حر ؟

غير أن هذه المعرفة العملية التي نكتسبها من خلال ممارسة حياتنا اليومية لا تمثل - بلا شك - معرفة

(٥٦) ان فكرة المشروع ، عند سارتر ، تربط ارتباطاً وثيقاً ببدأ الحرية التي تشكل أساس النشاط أو الممارسة الانسانية ، وفكرة المنهج التطوري - الارتدادي (methode progressive — regressive) تربط بمنهجه الجدلي التوسلي في فهم النشاط الانساني . على عكس هذا المنهج يفهم سارتر السلوك الانساني على أساس الغايات التي توجهه وتدفعه نحو المستقبل ، وتعتبر هذه الغايات التي يتصورها كل انسان في حرية تامة هي الدافع والموجه . الا ان أي انسان لا ينشأ في فراغ ، ومن هنا يدخل دور المحتميات في الاعتبار ، وهي المحتميات التي يقوم الجانب الاخر من المنهج بالقاء الضوء عليها : جانب الارتداد الى الماضي حيث تشكل الطفولة (موضوع التحليل النفسي) والظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية (موضوع الماركسية والتحليل الاجتماعي الوجودي) أهم صورها .

(٥٧) Dostoievsky, Les Freres Karamazov. Livre de Poche, 1962, t.I, p.132

ان الحرية لا تنفصل عند دوستيفسكي عن الخطيئة . يقول لنا « آلان بيزانسون » في هذا المعنى : « بالنسبة لدوستيفسكي لا توجد حرية الا في الخطيئة . لذلك كان يطالب مهلفي عصره الذين كانوا يبرهنون بدافع الانسانية ، كل المجرمين ضحايا الظروف الخارجية بادانتهم حتى يردوا اليهم كرامتهم كمذنبين . فلقد كان تقل المسؤولية الى المجتمع المذنب يبدوله لمة الالهة ضد الانسان » . انظر :

Alain Besancon, "L'Inconscient", in Faire de L'histoire. Nouveaux objets.

Paris, Gallimard , 1974 , p. 42.

صافية أو مبلورة ، فنحن لكي نفهم هذه الحرية حق فهمها ، هذه الحرية التي حكم علينا بأن نمارسها والتي يصعب فصلها عن الواقع الانساني ، يجدر بنا أن نطهر نفوسنا من شوائبها ، وأن نقيم مسافة بيننا وبين الأشياء التي تحيط بنا من كل جانب وتهدد بجزنا الى سيئاتها العميق . وليس من شك في أن مشكلة جينييه أو بودليير أو فلويير هي بالذات نسيان هذا المطلب الأساسي للحرية ، فهي لا توجد على شكل مسلسلة قائمة أو على صورة كائن (exis) ، ولكن تنشأ بالفعل وتتولد بالممارسة (praxis) . الا أن جينييه يسعى جاهدا لتحقيق كيانه ككس ، هذا الكيان الذي حدده له المجتمع من الخارج ، سواء برغبة التحدي او عن غرور وكبرياء ، ولكن هذا المسلك هو مسلك حرية زائفة تراوغ نفسها وتقع فريسة ، في النهاية ، لغواية المتأدبر . أما بودليير ، فهو يقبل ، من جهته ، بالتمرغ في الوحل ، وبالعيش في حالة من السخط الدائم والمحل المستمر (٥٨) ، الأمر الذي يسمح له بتحقيق وجوده في صورة المخلوق الضائع بين عالم المثل وبين الشهوات الهابطة ، والكائن المتخبط بين شفافية الحب الطاهر وبين كثافة الغريزة . بالقسبة لفلويير ، فان الاحداث الخارجية لا تمثل مادة العمل الفني الأصلية ، لأن هذا العمل ليس ، في واقع الأمر ، الا تجسيدا لعالم « اللا - وجود » بمقدار ما يمثل اللا - وجود حقيقة الخيال الكائنة . ومن ثم كان تقديس الفن عند فلويير هو الحقيقة الوحيدة التي تستطيع تجاوز الواقع وخلق عالم من العدم .

ان فلويير يتوضع في العالم الخيالي الذي ينسجه تصوره للجبال الثابت الابدي ، وبودليير يكاد يموت شوقا في سبيل ادراك ذاته من خلال الوحدة المستحيلة بين كيانه المرجو ووجوده الفعلي ، كما أن جينييه لا يألو جهدا في البحث عن جوهره الشرير . وينتهي الأمر بأن يفشل الكتاب الثلاثة فشلا ذريعا في تحقيق مأربهم ، الا أن هذا الفشل لحسن حفظنا ، هو المصدر الخلاق لثلاث من روائع الاعمال الادبية . ومع ذلك ، فان هذا الفشل الواقعي ، بالرغم من دفعه ورفده للعمل الفني الذي يتخيله سارتر في صورة بديل للواقع ويخرج للافلات من أزمانه ، يتطلب منا بعض الايضاحات ، فهو يظل فشلا على المستوى الخلفي والانساني .

ان الحرية عند سارتر ، وعلينا أن ندرك ذلك جيدا ، لا ترتبط بالفشل عرضا أو عن طريق الصدفة ، على النقيض من ذلك ، ان الفشل يشكل في وجودية سارتر الأساس الانطولوجي للحرية . بعبارة أخرى ، ان الشعور محكوم عليه بأن يكون حرا ، لانه في جوهره نقص دائم ومفارق لذاته أبدا ، والحرية ليست الا حركة الشعور نفسها ، أو هذه الرعدة التي تنتابه فجأة حينما يقطن الى وجوده القائم على العدم . الا أن هذا العدم ، الذي هو أيضا الحزينة نفسها ، لا يرضي الشعور ولا يستطيع ان يضيئ عليه حالة الاستقرار والسكينة

التي يطمح إليها . ومن ثم كانت نزعتها التي لا تهدأ ، نحو حياة الكينونة الصماء ورغبته الجامحة في التزود بكثافة الأشياء ومطابقتها لماهيتها . الا أن هذه الرغبة لا يمكن أن تتحقق لأنها تناقض جوهر الشعور نفسه الذي يقوم على العدم وعلى الاستحالة الجذرية في التطابق مع ذاته . ومن ثم لا يمكن للفن أن يعد هنا حادثا طارئا ، فهو ملائم ، ان صح هذا التعبير ، « لطبيعة » الشعور .

ومع ذلك ، فان الانسان يمكنه أن يخطيء في تقدير حريته ، كما يشق عليه في أغلب الأحيان أن يتحمل عبء مطلبها الأساسي وهو ضرورة كونها معلقة دائما ، مفارقة باستمرار لوجودها الفعلي . لذلك غالبا ما يهرب منها الفنان - مثل أي انسان - أو ينقذ نفسه من خلال العمل الفني الذي تشكله - لاشك - ظروف فردية واجتماعية وتاريخية محددة ، بالرغم من أن تأنيبها لا يمكن أن يتم ، في نظر سارتر ، الا من خلال ذاتية الكاتب أو الفنان نفسه . ان العمل الفني يبدو لنا اذن في هذا المقام في صورة وسيلة للهروب من الحرية أو طريقة من طرق استخدامها . الا أنه من الواضح أن للحرية استخدامين رئيسين عند سارتر : هناك الاستخدام السلبي الذي يرد الى المجتمع ، كما هو الأمر في مؤلفات جينيه وبودلير وفلوبير ، صورته معكوسة سواء أكانت هذه الصورة مسقة في ماديتها أو مبالغ في مثالياتها ، وهناك الاستخدام الايجابي الذي يمثل سارتر نفسه ، فيلسوف الالتزام ، والذي يتفق ومسار التاريخ والتقدم .

ان فعل الكتابة لا يستطيع اذن أن ينفصل عن الأخلاق . ولكن علينا أن نفهم جيدا أن مهمة الفنان أو الاديب ليست في تبرير أخلاقيات أو مبادئ معينة أو في تقديم صور من الوعظ والنصيحة وانما في الضرورة التي تحتم عليه أن يكون في توافق مع ضميره المتحرر المتطهر . كذلك على الأدب ان يجعل من الكتابة عملا مستولا ونوعا من المساهمة الايجابية في تاريخ العصر وتأكيدا مخلصا لقوى المستقبل ، ولربما أدى هذا الموقف ، في النهاية ، الى تبرير اخلاقيات معينة أو تكريس العمل الفني لغاية تتجاوزه وتتعداه . نحن لا ننكر ذلك ، ولكننا لا نريد أن نفرض هذه الغاية على العمل الفني من الخارج . اننا نريد أن نتبين من العمل الفني نفسه انطلاقا من مبدأ الحرية المسؤولة الواعية بذاتها والطامحة ، في اطار ادراكها التام لحدودها وامكانياتها ، الى بناء مستقبل انساني أفضل . ولكن هل يعني ذلك أن مفهوم سارتر للحرية ايجابي خالص ؟ انني أكاد أشك في ذلك ، فالحرية والشر يمتلان ، كما رأينا في هذه الدراسة التي أفردناها لقراءة الفيلسوف الوجودي لحياة جان جينيه ومؤلفاته ، وجهين لحقيقة واحدة نظرا للارتباط العضوي بينهما . ان الشر ، هذه الغواية المتجددة أبدا ، يبهز الحرية ويفتنها لأنها لا تستطيع أن تنفلق على ذاتها والا فقدت جوهرها الصافي وتقمصت صورة الضرورة الموضوعية الحتمية الصارمة . لذلك نرى أن هذه الحرية ، التي يحددها سارتر كقوة من قوى التحول المستمر وكجوهر علينا أن نتكسبه وأن

نشكله على مستوى الابداع الفني غالباً ما تفقد دفعته وتتجمد في احدى الصيغ أو الاشكال الممكنة التي توفرها لها مصادر الفن الحالية .

على هذا النحو ، نرى أن الحرية عند سارتر ، ابتداء بدراسته لبودلير وانتهاء بدراسته لفلوير مرورا بجان جينيه ، لا تكف عن التوضع ، بل اتنا نكاد نتبين ان الفيلسوف يشعر بلذة متعاطمة في وصف هذه الاشكال المغتربة للحرية التي تمثلها مؤلفات هؤلاء الكتاب الثلاثة . الا أن الذي يثير الاهتمام ليس في الواقع هذه العلاقة العضوية التي تربط بين الشر والحرية والتي تميز العالم الخلفي عند جان - بول سارتر وإنما طبيعة هذه العلاقة . ولكن علينا أن نستبعد أولاً مشكلة الخطيئة التي لا يربطها أي رباط بمفهوم الشر كما يحدده الفيلسوف ، مع أنها ، من وجهة نظر اللاهوت وكما ادرك ذلك ببراغة كيركجارد ، هي الامكانية الوحيدة (الامكانية ترادف الحرية) المتاحة للانسان لمعارضة الخير ، مستتر القيم وأساس الكينونة .



ان الشر عند سارتر ذو طبيعة جد مختلفة : فهو في العالم وفي التاريخ مرتبط بالفعل وملزم للممارسة ، أي أنه في جوهره حركة تعديل وتغيير ، وهو في الفن يرتبط بالخيال ويصبح شكلاً من أشكال الفعل التصوري وقوة من القوى السحرية التي تحول العالم الى حلم أو سراب . الا أن سارتر ، للأسف ، يقيم تناقضا غريباً بين الشر والخير بالرغم من العلاقة الجدلية التي يحددها بينهما . فسارتر ، بالرغم من اعترافه بأولية الخير كشرط أساسي لقيام النظام والتنظيم ، يحاول أن يخلط بينه وبين الأمر الواقع او النظام القائم بالفعل . وانطلاقاً من هذه الفكرة التي تجعل من مبدأ الخير مرادفاً لواقع ، يصل سارتر الى اضافة طابع القيمة على الشر نفسه . ومع ذلك فمبدأ الخير لا يمكن أن يطابق واقع هذا العالم مطابقة تامة والا فقد جوهره كقيمة اذ أن القيمة مفارقة بطبيعتها للفعل نظراً لكونها غايته المتجددة أبداً ، وعلى ذلك فالخير الذي يتحقق في هذا الوجود لا يمكن أن يكون الا أقل خير ممكن ، لأن الوجود الانساني ، مهما كانت مطامعنا ومهما كان ايماننا بالانسان والتاريخ ، ناقص ومحدد بطبيعته ، وكل محاولة لاضفاء طابع القيمة عليه كواقع لا يمكن أن تؤدي الا الى طريق مسدود .

الا أن قائلاً قد يحتج بأن سارتر لا يجعل من الخير مرادفاً للواقع كما نذهب ، لأنه اذا كان يعطيه الأولوية المنطقية فذلك لأنه يربطه بالكينونة (L'Etre) التي لا بد لها أن تكون بطبيعتها نقطة البداية ، وهنا في الواقع مكان اللبس والغموض ، فالكينونة التي يصورها سارتر ويقابل بينها وبين الوجود الانساني هي عين الوجود - في - ذاته وهو الوجود العشوائي ، القائم ها هنا من غير تبرير والذي يغمرنا من كل جانب حتى لنكاد نشكل

بالنسبة اليه نوعاً من الوجود الفاضل ، الزائد عن الحد . ان هذه الكينونة ^(٥٩) التي ترتبط ، في نظر سارتر ، بالخير وتشكل قاعدته الأساسية ، كما نرى ، هي حالة غائبة لا حدود لها ولا اطار . حالة قابلة للشكل والظهور في مختلف الصور وفقاً للمراسلات الانسانية عبر التاريخ ، ومن هنا كان ارتباطها ، في نظرنا ، بالواقع وقابليتها لتقديم الخلفية الخلقية لأي نظام اجتماعي وسياسي حتى ولو كان هذا النظام قائماً على الظلم والاستبداد ، فالخير - مثلاً - الذي يصوره سارتر في دراسته عن جينيه ليس الخير في ذاته ولكن تصور المجتمع الرأسمالي - الذي يدينه الفيلسوف ويراه مرحلة تاريخية قابلة للزوال - للخير ، وعلى ذلك تكون الكينونة التي ترتبط به كينونة مزيفة لانها تقدم البناء في صورة المبادئ العامة والمثل المطلقة وهي في واقع الأمر نسبية تاريخية . وليس من شك في أن هنا يقع عيب كل المذاهب القائمة على تصور تاريخي مادي بحث لتطور المجتمعات الانسانية ، هذا العيب هو اعتادها في نقد كل المذاهب السابقة على النسبية التاريخية ورفضها للمبدأ نفسه حينما تقدم تصورها للمجتمع الأمثل في المستقبل بصرف النظر عن طبيعة المبررات والدوافع الاقتصادية والاجتماعية والانسانية التي تبرزها لتبرير هذا التصور . ومن هنا نرى أن المثل الانسانية لا يمكن لها ، مهما كانت درجات اغتراب الفرد في المجتمعات القهرية ، أن تقع تحت اسار النسبية التاريخية (راجع في ذلك تجربة ألبير كامو المريرة في كتابه : الانسان المتمرّد) لأنها لا ترتبط فقط بتصورات خلقية عليا وإنما أيضاً بضرورات بيولوجية القصد منها الحفاظ على حياة الانسان وكيانه ، وإذا كانت التصورات الخلقية العليا هي التي تأخذ دائماً جانب الصدارة فلأنها أفدر على الدلالة على قدرة الانسان العظيمة في التسامي وتجاوز واقعه المتدني الذي يشكل النقص فيه صفة ملازمة لطبيعة الحياة .

الآن مشكلة الوجودية السارترية ليست في عدم ايمانها بالمثل العليا بقدر ما هي في ربطها لهذه المثل بحرية الفرد المتغيرة التي لا تستطيع ان ترتكز على ركيزة والا تتجاوزتها في الوقت نفسه ، لأن الحرية الانسانية مرتبطة

Emmanuel Mounier, Maitraux — Camus — Sartre — Bernanos. (٥٩)

L'espoir des desespérés, Paris, Ed. du Seuil, 1953

يقول إيمانويل مونييه ، الذي ينطلق من منطق مسيحي حيث ترادف الكينونة صورة الذات مخالفة القادرة ، بصدد الوجود - في - ذاته عند سارتر : « انه الوجود الاول وله الاولوية على كل وجود ، ومع ذلك فرجه الكينونة الاساسي يقدم اليها في صورة الغياب نفسه . فالكينونة تكون هكذا بكل بلاهة ، هي موجودة هنا للاني ، ولتلقني بها دفقا أدنى سبب ، دون سبب محدد ، فهي ليس لها بناء إذ انها كتلة لا شكل لها ، و ولرة مسترخية » كتلة لا نهية ، وهي مختلطة وبدون أجزاء . » ص ١٦٦

وبصدد الوجود - لذاته ، يقول : « في الخلفية ، بجانب هذا الوجود - في - ذاته سوف يقدم سارتر بأعادة بناء التلقائية ، النظرة الداخلية والدفع مع الوجود - لذاته الذي يعد وجودنا الواعي غطاء له . ولكن الوجود - لذاته ثانوي بالنسبة الى الوجود في - ذاته ، فهو ليس الوجود مطلقاً » ص ١٦٧

ان هذه الصور المختلفة للكينونة تتعارض في نظر الكاتب ، مع صورة الكائن في المسيحية حيث يرتبط بالكلمة الخالقة ويمثل مصدر الاشعاع بالنسبة للعالم كله .

بجدلية تاريخية هي التي تحددها ، في نهاية المطاف ، الظروف الموضوعية والمواقف الملموسة التي تستطيع ان تبرز من خلالها . ولاشك أن الهدف الأساسي في وجودية سارتر، على العكس من أنطولوجية هيدجر التي تقوم على عملية وصفية بحثة للوجود الانساني ، هو تمجيد الحرية أن ترتكز؟ وما هي الأسس الخلقية التي تحددها أطرها وتنير لها الطريق ؟ ان اطلاق الأعتة لحرية الفرد هكذا على علاقتها لاشك أمر يقوم على حسن النية وثقة لا متناهية في الانسان ولكنه في الوقت نفسه مخاطرة كبرى . ولنستمع ، في الختام ، الى ما يقوله فرانسيس جاكسون ، وهو أحد تلاميذ سارتر المتحمسين : « ان سارتر يذم لنا منهجا لفهم الواقع الانساني يرضينا تماما . وإذا كان هذا المنهج يقود الى أبعاد خطيرة ، فهذا أمر لم نفكر في نكرانه : فالمشروع الخلقى الذي يدعى اليه كل انسان للقيام به لحسابه الخاص وتحت كل مسؤوليته يمثل - كما أوحى بذلك أفلاطون - مخاطرة كبرى علينا أن نتعرض لها . ولا شك أنه من المستحيل ان نتعرض لهذه المخاطرة من غير أن نتردد على الآخرين ، الى حد ما ، عواقب مغامرة لا يمكنها أن تبقى بأية حال في حدود شخصية ضيقة » (٦٠)

قائمة مراجع

SUPPLEMENT BIBLIOGRAPHIQUE :

- Emmanuel Mounier, **Malraux-Camus-Sartre-Bernanos. L'espoir des desesperes.** Paris, Ed. du Seuil, (Points), 1953, pp. 111-143.
- Jean Beaufret, **Introduction aux philosophies de L'existence.** Paris, Ed. Denoel, (Mediations) 1971.
- Jean Genet, **L'enfant criminel'** in **Oeuvres Completes.** Paris, Gallimard (NRF), 1979, pp. 376-393.
- Jean-Paul Sartre, **L'imaginaire. Psychologie phenomenologique de L'imagination.** Paris, Gallimard (NRF) 1940.
- , **Un theatre de situations. (Le Diable et le Bon Dieu,** pp, (268-281) Paris, Gallimard, 1973.
- Michel Foucault, **Surveiller et punir. Naissance de la prison.** Paris, Gallimard, 1975.
- Mohamed El Kordi, "Le probleme du mal dans la pensee et la litterature francaises", in **Bulletin de la Faculte des Lettres d'Alexandrie** 1980, pp. 1-73.
- Serge Doubrovsky, **Pourquoi la nouvelle critique. (Critique et philosophie.** pp. 171-257) Paris, Mercure de France, 1966.

مقدمة :

كتبت الباحثة الفرنسية « أني لوكليير » في مقال نشر لها في مجلة لارك (L. Arc) في عام ١٩٦٦ متسائلة : « هل يمكننا حقا ان نتكلم عن الأعمال الروائية عند سارتر ؟ لأن ما نطلق عليه اسم الأعمال الروائية قد يبدو بالفعل في صورة محاولات متفرقة ومتردة هدفها الوحيد هو ان تبين وتوضح للناس من خلال شخصيات مغمورة في موقف معاصر فكرة فلسفية لا يمكن الا لقلة من الناس ان تدرك مفهومها »^(١).

وفي الواقع ان الباحثين كلها أرادوا ان يتوصلوا الى الاتجاه الرئيسي لفكر سارتر نجدهم يركزون كل اهتمامهم على دراسة اعماله المسرحية فقط لانها تبدو لهم - اذا ما قورنت بباقي اعماله - أسهل فهم وأيسر ادراكا وأوضح في الفكرة ، ومع ذلك فان الواجب يحتم علينا ان نقول ان اعمال سارتر الروائية لم تهمل اهمالا تاما بل كانت موضوعا لبحوث ودراسات عديدة غاية في الأهمية ، ولكن وجود عائق مهم يتمثل في عدم انتهاء المجموعة الروائية المسماة طرق الحرية حال دون اتمام هذه الدراسات والبحوث او أدى الى حدوث قصور في النتائج التي كانت تهدف للوصول اليها . وتعلق الباحثة أني لوكليير على هذا الموضوع قائلة : « لا يمكن ان ننظر الى طرق الحرية باعتبارها شيئا مكتملا في حد ذاتها ، بل يجب داتها ان نتذكر انها مسيرة تهدف الى الوصول بنا الى مكان ما ولكنها في الواقع تتوقف فجأة خلال الطريق »^(٢).

الحرية والالتزام في أعمال جان بول سارتر

منهجي محمد عبد العزيز

Annie Leclerc, „De Roquentin à Mathieu“, in *Revue L. Arc* 1966, p. 71 à 76, p. 71.

(١)

Ibid, p. 72

(٢)

لكن هل يؤدي بنا هذا القول الى ان نجزم بأن أعمال جان بول سارتر الروائية لا تستحق ان نعيرها اهتماما او ان نتوقف عندها لكي نحاول ان نستخرج منها المعنى والفكرة التي اراد لها الكاتب ان تعبر عنها ؟ اذا كان رونا على هذا السؤال بالاجاب فانه يكون بمثابة حكم بالنسيان والاهمال على أعمال أدبية فذة كان لها عظيم الأثر على جيل بأكمله .

أما اذا تناولنا بالبحث أعمال جان بول سارتر في مجموعها فسنجد انها تتصف باجتياز فترة الشباب الى فترة النضوج وباجتياز مرحلة البراءة والاتصاف الوثيق بالعالم الى مرحلة انقطاع الصلة المسببة للقلق للانسان المسئول الذي يسلك سبيل الالتزام في العالم على الرغم من انه منفصل عن ذاته بكل سعة العالم^(٣)

ان من السمات الاساسية لأعمال سارتر والتي تمنحها اصالة وابداعا فريدا هي نجاحه في نقل الموضوع الفكري الرئيسي الذي تميز به الأدب في القرن العشرين وتعني به حالة القلق التي يعيشها الانسان المعاصر بعد ان تخلص من العقائد القديمة التي عرفها واعتادها ولم يعد يؤمن بها ، وكذلك احساسه بالوحدة والعزلة ، وفي حالة لم تتمتع من ان يكتشف انه إنسان مسئول فتولدت لديه حالة من التوتر بسبب هذه الوحدة والشعور بالمسئولية التي تتمتع من قبول اي مرشد او موجه أو اي مساعدة تأتي من الخارج بما خلق لديه شعورا بالقلق النفسي .

هذا هو محور أعمال جان بول سارتر كما كان محور أعمال من سبقوه ومن عاصروه من الكتاب والادباء^(٤) .

وهكذا يمكننا ان نقول ان الوحدة والحرية والمسئولية او الالتزام الانساني تمثل المواقف الاساسية في أعمال سارتر خلال الفترة التي امتدت من عام ١٩٣٨ حتى عام ١٩٤٨ اي خلال الفترة بين رواية الغشيان الى المجموعة القصصية المسماة طرق الحرية كما أنها تمثل أيضا الجوانب الفكرية التي سوف نبينها بصفة خاصة من خلال أعماله الروائية .



الغشيان :

ما هو الشعور بالغشيان ؟

تجيب لنا الباحثة آني لوكليز على هذا السؤال في مقالها الذي سبق ان أشرنا اليه في محاولة منها لتحديد

(٣) Francis Jeanson, Sartre' Ecrivains de Toujours' Paris, Editions du Seuil, 1956, 189 p., p. 15

(٤) هذا الموضوع تناوله بالبحث برناتيس ، ومالرو ، وجولييان جرين ، والبير كامى في أعمالهم واطلقوا عليه عدة أسماء منها القلق ، المأساة ، القدر أو العيب .

مفهومها فقالت : « ان الغشيان هو الدليل الغامض الدال على ان جميع الكائنات الحية تدعي لنفسها الوجود وقتل شيئا على الرغم من انها لا شيء على الاطلاق . وهي تشكل وجودا لا اساس له ولا مبرر له فهو وجود تافه لا أهمية له »^(٥) .

وتدور حول هذا المفهوم احداث اول رواية لسارتر وهي الغشيان التي نشرت في عام ١٩٣٨ ، وقد اطلق عليها الناشر اسم « رواية » مع ان هذا العمل الأدبي ليس رواية بالمعنى الصحيح والمألوف . فالغشيان تبدو في صورة مذكرات رجل مثقف اسمه « انطوان روكنتان » يقيم في مدينة لوفيل (الهافر) ليستكمل بحثا تاريخيا عن شخصية رجل عاش في القرن الثامن عشر هو مسيودي رولوبون عاش ومات في مدينة لوفيل .

كان انطوان روكنتان بطل الغشيان يقضي وقته بين المطعم الذي اعتاد ان يتناول فيه وجباته وبين المقهى والمكتبة البلدية وكان دائما وحيدا ، وقد اظهر لنا الكاتب هذه الوحدة والعزلة التي يعاني منها روكنتان في أبشع صورة من الوحشة والكآبة ، وأكثر من الكلام عنها وذكرها ، فنجدها تتكرر مثل الفكرة المتسلطة الى ان تتوصل شيئا فشيئا الى عزل الشخصية كلية ثم تقطع كل صلة بينها وبين العالم الخارجي الذي يحيط بها ، وكثيرا ما وردت تصريحات تدل على ذلك على لسان بطل الرواية مثل :

« انا اعيش وحدي في عزلة تامة ولا اكلم احدا ابدا كما اني لا أحصل على شيء ولا أعطي اي شيء »^(٦) .

كما ورد عنه ايضا :

« انا وحيد ومعظم الناس قد عادوا الى ديارهم وهم الآن يقرأون جريدة المساء اثناء استماعهم الى المذياع وقد ترك لهم يوم الاحد الذي مضى طعم الرماد ومن الآن تتطلع افكارهم الى يوم الاثنين ، اما انا فليس لي يوم اثنين او أحد بل توجد بالنسبة لي ايام يدفع بعضها بعضا بدون نظام »^(٧) .

كان روكنتان يقابل في المكتبة البلدية رجلا ذا شخصية غريبة فأطلق عليه لقب « المثقف الذاتي » . ومن الواضح منذ الوهلة الأولى انه لا يستلطف هذا الشخص بل الاكثر من ذلك انه يشعر نحوه بشيء من الاشمئزاز ولهذا السبب كان روكنتان كثيرا ما ينهره نهرا عنيفا الا أن هذه الشخصية الغريبة كان لها دور في الاحداث فقد

Annie leclerc, op. cit., p. 75

(٥)

Jean-Paul Sartre, La Nausée' Paris, Editions Gallimard, 1938, p. 17.

(٦)

Ibid., p. 81.

(٧)

اختارها الكاتب لتمثل بصورة ساخرة وقائمة الالهام الثقافية كما كان على نملي الطبقة البرجوازية تمثيل أدوار اخلاقية لا تتفق مع واقعهم الفعلي (٨).

لكن رب سائل يسأل من هو المثقف الذاتي ؟ انه كاتب بسيط يعمل في مكتب أحد المحامين ، وقد قرر يوما ان يقوم بتثقيف وتعليم نفسه عن طريق قضاء ساعات طويلة في القراءة في مكتبة البلدية ، وقد ارتاب روكنتان في أمر هذا الشخص وتسامل عن سبب وجوده في المكتبة في جميع الاوقات ولكنه سرعان ما اكتشف سر هذا الشخص وكذلك الطريقة العجيبة التي يسلكها لاختيار الكتب التي يقرأها وهي عبارة عن قراءة كل الكتب الموجودة على أرفف المكتبة وفقا لتسلسل الحروف الابجدية لأساء الكتاب .

وكان « المثقف الذاتي » يشعر باعجاب شديد نحو روكنتان فقد كان يرى فيه شخصا متعلما ومثقفا لديه العديد من المعلومات . ونظرا لان روكنتان كان يعاني من الوحدة كما سبق ان ذكرنا كما كان يشعر بالملل الشديد لهذا كان يقبل على مضض مجالسة « المثقف الذاتي » والتحدث معه .

وبفضل مواجهة هذين الشخصين اصبح من السهل على القراء اكتشاف شخصيتهم الحقيقية . فالمثقف الذاتي كان يمثل كما ذكرنا المثقف الذي لا يتمتع بحاسة النقد والتمييز والذي كان يؤمن بالقضايا العامة والمباديء الاولى بينما كان روكنتان يمثل النقيض فهو يتمتع بروح ناقدة فاحصة الى اقصى درجة (٩) .

لكن عملية التثقيف الذاتي التي بدأ المثقف الذاتي في اتباعها توقفت فجأة يوم ان طرد من المكتبة عندما ضبط وهو يتحسس ذراع تلميذ صغير في السن .

وتدور الرواية حول فكرة اساسية يمكن ان نقوم بتلخيصها في سطور قليلة وهي ان المعيشة العادية ليس فيها ما يبرر الحياة ، ويوضح الكاتب هذه الفكرة من خلال استعراضه لفكرة الملل فيبين لنا « الملل القاتل » الذي تعيش فيه الشخصية الاولى للرواية وهي شخصية بطل الغثيان انطوان روكنتان والذي يبدو واضحا في تجواله الطويل بدون هدف معين في ارجاء المدينة وفي قراءة الاعلانات المختلفة في الجرائد اليومية حتى يقتل الوقت وفي تأملاته الساخرة للأهمية الزائفة من وجهة نظره التي يعلقها الناس على احداث حياتهم اليومية مما ساعد على توضيح وترسيخ فكرة الملل الذي يعاني منه البطل وخاصة عندما اكتشف عدم جدوى حياته وحياة الآخرين ، فحياة الناس الذين يغالطهم ويمجاسهم ويتابع تصرفاتهم ما هي الا حياة دمي تلعب ادوارا في مسرحية لكي تقدم

R. M. Albérès, Jean-Paul Sartre, Classiques du xx^e Siècle Editions Universitaires, Paris, (٨) 1962, 151 p., p.30

R. M. Albérès, op. cit., p. 32.

(٩)

ميرزا زانفا لوجودهم ، ويعلق الناقد الفرنسي المعروف البير يس Alberes في كتابه عن سارتر قائلا : « ان الحياة اليومية بما تمتاز به من دجل وخداع أو نزعة انتقاد ليس لها أي مبرر وهذا ما يشعر به روكنتان بالنسبة لنفسه وبالنسبة للآخرين ولهذا كانت تنتابه حالة الغثيان » (١٠) .

وهكذا يمكننا ان نقول ببساطة أنه ابتداء من اليوم الذي نكتشف فيه ان اعمالنا ليس لها مبرر يبدأ لدينا حالة احساس بالغثيان . وليس هذا الاحساس من خصائص أبطال اعمال سارتر وحدهم بل هو احساس ينتاب كل انسان عادي وطبيعي في فترة ما من حياته فالغثيان كما يقول البيريس في نفس الوقت هو السؤال لماذا أعيش ، والدور الرهيب الذي يصيب الانسان عندما لا يجد ردا سريعا على هذا السؤال » (١١)

وهذا الرأي هو نفس ما يؤكد سارتر عندما كتب عمله الادبي المسمى « الكلمات Les Mots » ، فقد قال « لقد نجحت وأنا في الثلاثين من عمري ان أحقق ضربة ناجحة وهي ان أصف في « الغثيان » بكل أمانة - يجب ان تصدقوني - الحياة المرة التي ليس لها مبرر ، حياة أمثالي » (١٢) .

ولكن في هذه الحالة من اليأس والقنوط التي يمر بها الانسان الذي يكتشف أنه يعيش حياة لا مبرر لها يظهر له فجأة عامل إيجابي ألا وهو الحرية فالحرية هي التي يقع على عاتقها أو كما يقول البيريس هي « المحكوم » عليها بأن تجد معنى للعالم المحيط للحياة وهو يشرح ذلك بقوله :

« نحن أحرار في أن نعطي أي معنى نريده لأي شيء نريده ، ولكننا مضطرون لأن نعطي معنى معيناً لكل شيء ، وان نفكر وان نفرس وان نختر » (١٣) .

فحياة الانسان في رأيه عبارة عن ممارسة مستمرة لحيته ثم يستطرد قائلا في نفس الكتاب :

« بما انها قادرة على الابداع ومبتكرة لمعاني الاشياء ، فنجد ان حياة الناس بطبيعتها عبارة عن مجهود متواصل فإذا تعب الناس من هذا النشاط المتواصل وإذا ضعف مجهودهم في مجال وضوح الفكر واتخاذ القرار فلا شيء يصبح له أي معنى ، وتبدو لهم حياتهم التي منحت لهم دون مقابل فاحشة ومملة (« الذباب ») ويشعرون بأنهم « تكلمة عدد » (الغثيان) (١٤) .

Ibid., p. 34.

(١٠)

Albérès, op. cit., p. 34.

(١١)

Sartre, Les Mots.

(١٢)

Albérès, op. cit., p. 56.

(١٣)

Ibid.,

(١٤)

والإنسان الذي يشعر أن وجوده في هذا العالم عبارة عن زيادة في العدد فقط أي أنه شخص ليس لوجوده أي أهمية بل هو إنسان تافه يشعر بأنه منفي أو دخيل ورغم ذلك فهو وحده الذي يمتلك القدرة على اعطاء معنى للأشياء الموجودة في هذا العالم ، وهو وحده كذلك الذي يستطيع أن يغزو العالم وينتصر عليه .

وهكذا نرى أن جان بول سارتر بعد أن جرد الإنسان وحرره من كل ما يكون ثقته بنفسه ، يعود فيمنحه هبة عظيمة هي الحرية التي يمكنه بواسطتها أن يستعيد كل ما فقدته ولكن يجب عليه أن يحسن استخدام هذه الهبة « لاننا عندما نقوم بالتفكير وصياغة العالم ، نصبح مسئولين » (١٥)

ولا يجب أن تنهرب من هذه المسؤولية ، كما يجب ألا نتجاهل المجهود المستمر والمتجدد بغرض اعطاء معنى للحياة .

ويجدر بنا هنا أن نتذكر أن هناك سبلا عديدة يتبعها بعض الناس للهروب من هذا الالتزام الذي تستوجبته حريتهم ، هذه السبل اطلق عليها سارتر اسم « تصرفات سوء النية » وهؤلاء البعض يعتبرون أنفسهم ذوي وجود راسخ غير قابل للتغيير وأنهم ليسوا مخلوقات مبتكرة دائما لمعان جديدة .

وقد قال سارتر حول هذا الموضوع في رواية « المهيلة » متحدثا عن أحد هؤلاء الناس :

« أنه مخلوق من الحجر ، غير متحرك ، فاقد الحس (...) ، ليس لديه خطة في الحياة ، وليس لديه أي هموم » (١٦)

ويدين سارتر هذه الأمنية السلبية التي تدفع الإنسان الى نبذ حياته كمخلوق حر يتحمل مسئولية أفعاله وقراراته ليعيش في صورة النقيض المتحجر بعيدا عن كل مسئولية ومن خلال نظرة الغير اليه . ويعلق الناقد اليريس . قائلا :

« اذا كنا لا نريد . أن نتحمل مسئوليتنا كاملة وأن نكون أحرارا وليس مجرد مظهر مشرف فستجد أنفسنا مضطرين الى اللجوء الى التمثيل (...) والا نتخيل وجودنا الا من خلال نظرة الآخرين » (١٧) .

ومن بين التصرفات التي اعتبرها سارتر من تصرفات سوء النية تلك التصرفات التي تدفع المرء الى تمثيل شخصية مخالفة لشخصيته الحقيقية وبدلا من أن يعيش حياته الحقيقية نجده « يلعب دورا » ويتقمص شخصية أخرى .

(١٥)

Albérès, op. cit., p. 62.

(١٦)

J. P. Sartre, le Sursis' Paris, Gallimard, 1945, 519 p., p. 107.

وقد عبرت بوضوح شخصية ماتيو ديلاو عن هذا التصرف في رواية « سن الرشد » قائلة :

« ربما أنه ليس في مقدورنا أن نتصرف بطريقة أخرى . ربما يجب علينا أن نختار بين أن نكون لاشيء أو أن نلعب دورنا الحالي . فان صح ذلك يكون الأمر مخيفاً لأن شخصيتنا ستكون قد زيفت وأبعدت عن أصلها » (١٨)

فالإنسان لا يكون انساناً بما تحتويه هذه الكلمة من معانٍ إلا اعتباراً من الوقت الذي يقبل فيه مايجود به القضاء والقدر دون أن يلجأ الى تصرفات تمثيلية . فالحرية الشخصية تتخلص من التمثيلات التي تلتصق بها ولن يتهم ذلك إلا اذا تحملنا المسؤولية الشخصية لأفعالنا .



من الحرية الى الالتزام :

وهكذا يكتشف روكنتان بطل قصة الغثيان ذات يوم عدم وجود شيء في حياته له هدف أو مبرر ، وأنه إنما يعيش عيشة غير مجدية ليس لها هدف محدد فهي عبارة عن حياة ممنوحة له دون مقابل يقدمه أو عطاء يعطيه ، ولكنه يكتشف في نفس الوقت ان هذا الوضع لا يخلصه من حريته ومسئوليته وأنه بيده وحده أن يخلق المبررات لوجوده .

ويرجع سبب عدم ارتياحه وغثيانه أساساً الى أن حريته خاوية وجوفاء لا تجد لها مجالاً أو استعمالاً ، ولمعالجة هذه الحالة يجدر بنا أن نلتزم ، إلا أن ضرورة الالتزام وتوفير عمل لهذه الحرية الملحة لم يصورها لنا الكاتب في أولى رواياته . وظلت أعمال جان بول سارتر حتى عام ١٩٤٣ لا تتناول الا موضوع اكتشاف هذه الحرية وعدم جدواها ، فالإنسان الذي يكتشف في نفسه الحرية وعدم الارتباط بشيء معين لابد أن يسأل نفسه « لماذا أنا حر ؟ » وكما يقول البيريس :

« هذا هو الوقت الذي يكتشف فيه الانسان ابن القرن العشرين الذي تحرر من الأحكام المسبقة والتقاليد ، والذي كان يحلم بالحرية الكاملة أن هذه الحرية لن يكون لها معنى اذا ظلت خاوية وجوفاء وغير ذات جدوى (...) » (١٩)

Albérès, op. cit., p. 69.

(١٧)

Sartre, Les Chemins de la Liberté Tome 1 ' L'Age de Raison' Paris, Gallimard, 1945, 441 p. 181

(١٨)

Albérès, op. cit., p. 20.

(١٩)

فروكتنان وأمثاله يمتلكون حرية ليست محصورة وغير واقعة تحت أي تأثير ولكنها لا تجد مجالا لتطبيق فيه . وفي رأينا أن أهمية « الغشيان » تنبع من أنها كانت تشكل خطوة ومرحلة على طريق وضوح الفكر الذي يبدأ باكتشاف الحرية ثم ينتهي أخيرا بالالتزام ويعلق على ذلك اليريس قائلا :

« انها تشير الى وجود فشل معين ، وهي تطرح سؤالا واستفهاما وهو أن الحرية ووضوح الفكر اللذين أكدناهما لا نفع من ورائهما الى أن نقوم باعطائهما معنى » (٢٠)

ويقع على عاتق المجموعة الروائية المساء « طرق الحرية » أن تستكمل هذا المسار ، فالروايات الثلاث المكونة لهذه المجموعة تشكل ثلاث مراحل أساسية تبدأ بمرحلة اكتشاف البطل لحريةته الجوفاء عديمة الجدوى وتنتهي بمرحلة اكتشاف المسؤولية والالتزام اللذين يعطيان للبطل معنى ومبررا لكل حياته ووجوده .

وقد نشر الجزء الأول من هذه المجموعة الروائية في عام ١٩٣٨ تحت عنوان سن الرشد ويقدم لنا الكاتب في بداية الرواية بطل قصته ماتيو ديلاروم خلال حادث عادي من الحوادث التي تحدث في الطريق ، ولكن هذا الحادث البسيط كان بشكل بالنسبة للبطل حادثا له مغزى كبير وغنى بالمعاني ، فحينما كان يسير ماتيو في الطريق تقدم منه أحد الشحاذين وطلب منه احسانا يشرب به مشروبا في أحد المقاهي القريبة ومقابل هذا الاحسان أعطاه الشحاذ طابع بريد صادرا من مدينة مدريد، قائلا في نفس الوقت بعض الكلمات التي تدل على أسفه لعدم امكانه الذهاب الى أسبانيا والاشتراك في كفاح الشعب الاسباني من أجل الحرية . فتركه ماتيو واكمل مسيرته وهو يفكر في أنه هو نفسه يشبه هذا الرجل ، لأنه نجح حتى ذلك الوقت في عدم الالتزام بعمل يتطلب منه أي مخاطرة أو مسئولية وها هو ذا الآن قد بلغ سن النضج « سن الرشد » الذي يشكل مرحلة نضج لا تجد لها وظيفة وهي فارغة وخاوية ، فها هو ذا ينتزه في شوارع باريس بحريره الجوفاء ووضوح فكره الذي لا طائل من ورائه .

لكن من هو ماتيو ديلاروم؟ انه مدرس فلسفة في إحدى المدارس الثانوية بالعاصمة باريس ، ليس له هدف معين في الحياة أو أمل يعيش من أجله ، وعند الانتهاء من عمله يقضي وقته في التجول دون هدف معين في شوارع الهي اللاتيني بصحبة بوريس وهو أحد تلاميذه القدامى أو بصحبة أخته المساء إيفيش ذات المزاج المتقلب والتي يشعر ماتيو نحوها بعاطفة تشبه الحب ، ومن الصفحات الأولى للرواية نلاحظ أن ماتيو غارق في مشكلة معقدة تتلخص في أن عشيقته مارسيل قد حملت منه وتقتل هذه المشكلة الموضوع الاساسي الظاهري للرواية ، نظرا لأن ماتيو رفض حتى الآن أن يكون عبارة عن « رجل ضائع » له « زوجة وخمسة أطفال » (٢١)

Ibid., p. 22

(٢٠)

Sartre, L'Age de Raison, p. 182.

(٢١)

وانطلاقاً من هذا الموقف نجد أنه لا يرغب في أن يشغل حريته ويجعلها ترتبط بهدف معين إذا تزوج من عشيقته وهو نفس السبب الذي جعله يرفض السفر إلى أسبانيا للقتال مع المناضلين مخالفاً ومناقضاً أفكاره ومعتقداته التي يعتنقها . وهكذا يبدو لنا منذ الوهلة الأولى أن الشكل المفضل للحرية بالنسبة لبطل الرواية هو أن يعيش مستقلاً دون أي قيود تشغله أو تحيد من حريته فهو يرغب في الحفاظ على حريته دون أن يشغلها أو يقيد بها أي قيد ، فهو إذا مثال ونموذج للرجل الواعي والمدرّك لحريته والذي يسعى فهمها ويجوّر في معناها ، فهو رجل يرفض أن يلتزم بأي شيء خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى عاقبة حريته من انطلاقها .

وكان ماثيو يبدو في نظر الآخرين في صورة « رجل حر » أيضاً كل منهم يحسده على موقفه ، لأنه في نظرهم جميعاً يتمتع بميزة كبيرة « فهو حر » ويبدوننا من كل هذه الآراء الفهم الخاطيء لمفهوم الحرية فمارسيل عشيقته تلومه في أسى وحزن على إصراره على عدم الاعتماد إلا على نفسه . وعلى ألا يكون له من يرتبط به ، وعلى إصراره على بقائه حراً يتمتع بحرية مطلقة وتقول له « هذه هي رذيلتك » (٢٢)

أما بوريس تلميذه المخلص فله شأن آخر فهو يحسده على استقلاله ويعتبره أكبر دليل وبرهان على حريته وفي رأيه أن ماثيو له بعض الأهواء « ولكن ذلك لا يمنع من عدم ارتباطه بشيء فهو إنسان حر » (٢٣)

أما لولا مغنية النوادي الليلية وعشيقة بوريس فنجدها تخلط ما بين الحرية والاستقلال أو الأمان المادي وهذا يبدو واضحاً من كلامها مع عشيقها عن ماثيو فتقول :

« اني لاتسامل من منا أكثر حرية أنا أم هو فهو يعيش في مسكن وله دخل محدد ومعاش مضمون فهو يعيش كموظف صغير وعلامة على ذلك كله فلهذه هذه العلاقة (...) وبذلك تكتمل الصورة فلو بحثنا عن مثل للحرية لن نجد أفضل من هذه الصورة . أما عني فلا أمتلك إلا ثيابي التي أرديها بالإضافة إلى أنني أعيش بمفردي وأقيم في فندق (...) » (٢٤)

فيحاول بوريس جاهداً أن يزيل هذا الخلط في مفهوم الحرية لديها وأن يبين الفرق بين حرية ماثيو وحرية لولا فيقول لها موضحاً :

« انت حرة دون أن تفعلي شيئاً من أجل ذلك (...) ، أما ماثيو فحريته أرادها بعد تفكير (...) ، أن حريته لا تبدو للعين ولكنها بالداخل » (٢٥)

Sartre, L'Age de Raison, p. 20.

(٢٢)

Ibid., p. 44

(٢٣)

Ibid., p. 45

(٢٤)

L'Age de Raison, p. 45-46

(٢٥)

أما ماتيو نفسه فقد كان على دراية بما يظنه الآخرون عن « حرته » « أن الآخرين دانييل وصارسيل وبرونيه وجاك بروني على هذه الصورة أي صورة الرجل الذي يريد أن يكون حراً ، يأكل ويشرب مثل الناس أجمعين وموظف بالحكومة ولا يعمل بالسياسة ويقرأ جريدتي « لوفر » (L'Œuvre) و« لوبوبيلير » (Le Populaire) ولديه مشاكل مادية ولكنه رغم كل هذه القيود يريد أن يكون حراً ببساطة كغيره ممن يريدون مجموعة طوابع بريدية ، فالحرية هي حديقته السرية وهي اتفاقه السري مع نفسه ، وهو في الحقيقة شخص كسول وبارد وليس لديه احلام غير واقعية بل هو انسان عاقل جداً في الواقع استطاع أن يصنع لنفسه بدءاً سعادة متوسطة ولكنها متينة أساسها عدم النشاط وتبرر وجودها من وقت لآخر بادعاء أفكار سامية » (٢٦)

لكن إذا كان ماتيو يبدو في نظر الآخرين على هذه الصورة إلا أنه كان يرغب في الحرية طوال حياته فقد كان عمره ستة عشر ربيعاً عندما قال لنفسه مخاطباً إياها « سوف أكون حراً » وبعد ذلك بعدة سنوات كرر نفس العهد على نفسه ولكن بقول آخر هو « سوف أحقق سعادتي » وما هو ذا الآن يفكر ويطلق التفكير في السبب الذي أدى به إلى أن يكون هذا الموظف الذي ليس له هدف معين وهو الشخص الذي قضى سنوات طويلة ينتظر : « هذه السنوات الأخيرة التي لم تكن إلا انتظاراً يشبه انتظار الجنود ليلة المعركة (...) وكان همه الوحيد فيها أن يبقى غير مرتبط بأي شيء . انتظاراً لانجاز فعل حر ومتزن تلزم به حياته كلها ويكون ذلك بداية لحياة جديدة (...) وكان يتصور دائماً انه في مكان آخر غير هذا العالم وانه لم يولد بعد وكان في حالة انتظار مرت السنين خلالها في بطنه وفي غفلة وأمسكت به من الخلف (...) واستمر هو في الانتظار » (٢٧)

أما الآن فانه لا ينتظر أي شيء فهو أجوف على الرغم من أنه انسان حر ، حر في أن يفعل ما يشاء وأن يمارس حرته بالاسلوب الذي كان يشرحه لتلميذه بوريس :

« علينا واجب معين هو أن نفعل كل ما نشاء وأن نؤمن بكل ما نتصور أنه صحيح ، والا نكون مسئولين إلا أمام أنفسنا وإن نعيد التفكير باستمرار في كل ما نؤمن به وفي الدنيا كلها » (٢٨)

يألفها من حرية : انها حرية الانسان الاناثي غير المسئول ومثل هذه الحرية تجعل الانسان يعيش في عزلة تامة وتجعله يشعر بالقلق كذلك وهذا ما كان يشعر به ماتيو نفسه في وقت ما عندما يفكر في احوال زواجه من عشيقته مارسيل بعد أن علم بحملها :

Ibid., p. 71.

(٢٦)

Ibid., p. 73-74

(٢٧)

L'Age de Raison, p. 202.

(٢٨)

« كان وحيداً وسط سكور رهيب ، أنه حر ووحيد وبدون مساعدة وبدون مبرر ، محكوم عليه أن يتخذ قراراً لا رجعة فيه ، محكوم عليه أن يكون حراً الى الأبد » (٢٩)

ليس لماثيو هدف معين في الحياة فحياته غير مجدية بل الأكثر من ذلك أنه يعتبر نفسه انساناً فاشلاً وخوفه من أن يفقد حريته التي لم يستخدمها ضيع على نفسه كل فرص الفوز والنجاح فهو على حد قوله الشخص « الذي لم يتعلم اللغة الانجليزية والذي لم يلتحق بالحزب الشيوعي والذي لم يذهب الى أسبانيا » (٣٠)

وهكذا تمجده بلحق بالبطل الذي سبقه في رواية الغثيان روكنتان الذي يتوصل الى نفس النتيجة :

« أنا حر ولم يتبقى لي أي سبب أعيش من أجله » (٣١)

ما هي اذن فائدة هذه الحرية التي لا استخدام لها ، انها حرية محكوم عليها ان تظل غير مجدية وغير فعالة فماثيو الذي ظل ينتظر طويلاً فعلاً يلتزم به نجده الآن يحسد أصدقاءه الذين اختاروا طريق الالتزام فأصبح لديهم منذ ذلك الحين هدف في الحياة يسعون لتحقيقه ولم يتردوا لحظة واحدة في التخلي عن حريتهم الشخصية وان يضحوا باستقلالهم ويتخلصوا من أنانيتهم في سبيل شيء آخر وان يختاروا هدفاً لحياتهم ومنذ ذلك الحين اكتسب كل فعل فعلوه معنى وأصبح له مبرر . وعندما كان يتذكر صديقه برونيه الذي أصبح عضواً. عاملاً في الحزب الشيوعي الفرنسي كانت تراوده هذه الفكرة :

« لقد سلك طريق الالتزام ، وتغاضى عن حريته ، فهو الآن ليس الا جندياً . وهكذا استعاد كل شيء حتى حريته ، وهو الآن أكثر مني حرية فهو على وفاق مع نفسه وعلى وفاق أيضاً مع الحزب » (٣٢)

وتذكر ماثيو آخر لقاء في بيته تم بينه وبين صديقه برونيه ، وكيف حاول برونيه جاهداً أن ينقذ ماثيو بأن يشجعه ويحثه على الالتحاق بالحزب الشيوعي ، والانضمام اليه ، وحاول بقدر المستطاع أن يبين له عدم جدوى وعدم فاعلية حريته هذه التي يحافظ عليها باصرار وعناد ما لم تلزم بهدف معين في الحياة ومن بين ما قاله له :

« لقد سلكت طريقك (...) فأنت تنتمي الى عائلة برجوازية ولم يكن ممكناً أن تأتي للانضمام اليها بسهولة فقد كان ولا بد أن تتحرر أولاً ، أما وقد تم ذلك الآن وأصبحت حراً فما هي فائدة هذه الحرية ما لم

Ibid., p. 357.

(٢٩)

Ibid., p. 195

(٣٠)

La Nausée p. 202

(٣١)

L'Age de Raison, p. 175.

(٣٢)

تسلك سبيل الالتزام ؟ لقد أمضيت خمسة وثلاثين عاما من عمرك في التخلص من القيود التي فرضتها عليك نشأتك والنتيجة هي الفراغ (...) ولقد تنازلت عن كل شيء لتبقى حرا ، قم بخطوة أخرى وتنازل عن حريتك نفسها وبذلك سوف تسترجع كل شيء » (٢٣)

وكان ماتيو ينصت باهتمام شديد الى حديث صديقه وهو مقتنع تماما بصحة ما جاء فيه ، فهو نفسه قد لاحظ أن الالتزام يمنح الأشياء والحياة كذلك معنى وصدقا ، ولم يستطع منع نفسه من أن يقول ذلك لبرونيه :

« بالنسبة لك ، أنت مثلا غير زائف وكل ما تلمسه يبدو حقيقيا ومن اللحظة التي دخلت فيها حجرتي أصبحت تبدو حقيقة. وفي نفس الوقت أشماز منها » ثم أضاف فجأة « أنت رجل » (٢٤)

وفي الواقع كان برونيه يبدو أكثر صدقا وأكثر واقعية لأن لحياته معنى ولوجوده مبررا ، وبدا على ماتيو وكأنه يقام الاغراء وأنه يحاول أن يقبل دعوة صديقه للانضمام للحزب الشيوعي وأن « يعطى لحياته معنى ، وأن يختار أن يكون رجلا يعمل ويؤمن بشيء فيكون في ذلك خلاصه » (٢٥)

لكن على الرغم من كل هذه المغريات وعلى الرغم من أيمان ماتيو بقيمة الالتزام نجده في النهاية يرفض الانضمام الى برونيه ورفاقه ويعتذر له قائلا : « انى اعتقد مثلك في أن الانسان لن يكون رجلا طالما لم يجد الشيء الذى يقبل أن يموت من أجله » (٢٦).

وهكذا يظل ماتيو ينتظر ثم ينتظر ذلك « الفعل » الذى بواسطته يلتزم الانسان الى الابد .

ثم نجد أن هناك شخصا آخر يشعر نحوه ماتيو بنفس الشعور والاحساس وهو صديقه جوميز الاسبانى الذى يعتبره مثلا للانسان الحى بمعنى الكلمة لأن له هدفا في الحياة يعيش من أجله كما أنه ليس حرا بطريقة جوفاء غير مجدية . وعندما اختار جوميز طريق الالتزام فقد استعاد اتصاله بعالم الواقع . كان هذا ما أحس به ماتيو أثناء تناوله معه وجبة الغذاء وقال لنفسه :

« أن قطع اللحم موضوعة على المائدة ، واحدة له واحدة لى . وهو له الحق في أن يتذوق قطعته ، وله الحق في أن يقطعها بأسنانه البيضاء الجميلة ، كما أن له الحق في أن ينظر الى هذه الفتاة الجميلة الجالسة على

Ibid., p. 172

(٢٣)

L, Age de Raison, p. 173

(٢٤)

Ibid., p. 176

(٢٥)

Ibid, p. 177.

(٢٦)

يساره وأن يفكر يا لها من فتاة جميلة أما أنا فليس لي هذا الحق . إذا أكلت فهناك مائة أسباني من ماتوا سوف ينقضون على لأني لم أدفع الثمن » (٣٧)

إن جوميز وحده يتمتع بهذا الامتياز لأنه قد اختار ويحمل مسؤوليته ويعمله هذا استطاع أن يستعيد العالم بكل حقائقه فمقابل التزامه قدم له العالم كهبة . أما هو فلا يزال يعيش بدون هدف بل الأكثر من ذلك أنه قد ضيع كل هذه السنوات من عمره هباء وفكر في حالته :

« لقد عشت حياة بلا أسنان (...) ، نعم بلا أسنان . لم أقضم مرة واحدة ، كنت دائها انتظر ، وكنت أبقى نفسى لشيء ما سيأتي حتما بعد ، وهأنذا قد اكتشفت أنه لم يعد لي أى أسنان » (٣٨)

وينتهي الجزء الأول من المجموعة القصصية « طرق الحرية » بنغمة يائسة وحزينة ليس فيها أى أمل ، فمرى ماتيو وحيدا في بيته وقد تركه صديقه دانييل سرينو بعد أن أعلن له عزيمته على زواجه من عشيقته أى مارسيل وهكذا يتم حل مشكلة حل عشيقته وهي المشكلة التي كان يعيش فيها ماتيو منذ بداية القصة وأصبح الآن في مقدوره الاحتفاظ باستقلاله وهو المظهر الوحيد للحرية بالنسبة له كما سبق أن أشرنا ، ولكنه يكتشف في أسى أنه لا يتمتع بحرية الآن أكثر مما سبق كما كان يظن أن « الحياة قد منحت له بدون مقابل ، فهو عبارة عن شيء لا يذكر ولا يوجد بصيص من الأمل في تغييره فقد اكتملت معالم حياته » (٣٩). وحياته السابقة فاشلة .



مرة أخرى نعود ونلتقي بماتيو ديلاو وبقية شخصيات الرواية الأولى ، وذلك في الجزء الثاني من المجموعة القصصية. طرق الحرية ، وقد أساء الكاتب المهلهلة ، وقد نشر هذا الكتاب في عام ١٩٤٥ وهو نفس العام الذي نشر فيه الجزء الأول سن الرشد ولكننا نكتشف أن ماتيو لا يلعب الدور الرئيسي في هذا الكتاب الجديد ، ولم تعد الأمور تحفصه بمفرده فهناك حدث ضخم يفوق مشكلته الشخصية في الأهمية ألا وهو تلك المأساة التي كانت تعيشها أوروبا خلال الأيام القليلة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وتوجد فترة زمنية مقدارها شهران فقط فيما بين نهاية سن الرشد وبداية المهلهلة .

في هذه الأيام التي اتسمت بالتوتر كان مصير العالم يتقرر من خلال مجموعة من الأشخاص ، وفي الواقع أن مسؤولية القرار الذي سوف يقود العالم نحو الدمار أو السلام لم تكن تقع على عاتق دلايديه أو تشرميرين أو هتلر ولكن هذه المسؤولية كانت تقع على كل الذين يقيمون في شتى العواصم الأوروبية ويترقبون في هلع أو في أمل .

Le Sursis, p. 321.

(٣٧)

L'Age de Raison, p. 273.

(٣٨)

Ibid., p. 441

(٣٩)

فهذا القرار المفرع لن يتوقف فقط على محادثات برشتسجاربون في ألمانيا ولكنه يتوقف على ضمير وعمل ومسؤولية كل فرد سواء في ذلك الرجل التشيكي العادي المحاصر في منزله من قبل أنصار هايتلارين أو ذلك الصيدلي الفرنسي البسيط الذي يعيش في أي بلدة صغيرة في فرنسا ويكتشف أنه يحمل ورقة التجنيد رقم ٢ ويستعد للسفر واللحاق بموقع التجمع ويعبر البيريس عن ذلك بقوله :

« أن ظاهره جماعية مثل الحرب ليست كيانا في حد ذاتها بل هي عبارة عن تجاوز بين الضائير والمسؤوليات لدى ملايين من الأشخاص » ^(٤٠).

ويهدف سارتر من رواية المهله أن يبين لنا أن هذا الموقف العالمي الجماعي يفرض نفسه على كل ضمير فردى ، فكل شخص يستطيع على حده أن يستمر في حياته الخاصة بما تتضمنه من مشاكل شخصية ، ولكنه في نفس الوقت لا يستطيع أن يتجاهل المشكلة الجماعية التي تواجهه وهي الحرب .

« الحرب هي نفس الموضوع الذي يخص كل انسان ، ويوجد خارج نطاق كل رجل ، ويفرض نفسه على الجميع » ^(٤١).

ولكى يبين لنا هذا الوجود المتعدد للحدث ، استخدم الكاتب اسلوبا متميزا فنجده يبدأ بالكلام عن شخصية توجد في باريس وبعد ذلك بسطرين أو نحو ذلك يتكلم عن شخصية أخرى توجد في برلين ويستمر في استخدام هذا الاسلوب الى آخر الكتاب وكان يرمى من وراء ذلك الى تأكيد أن الحرب ظاهرة جماعية تخص العالم كله . وهذا ما يكتشفه الناس بأنفسهم في جميع انحاء العالم عندما ينتظرون نتائج اللقاءات التي تمت بين تشميرلين وهتلر فنقرأ في بداية الرواية :

في يوم الجمعة ٢٣ سبتمبر ، والساعة الآن السادسة عشرة وثلاثون دقيقة في برلين ، والخامسة عشرة والثلاثون دقيقة في لندن ، وكان الفندق غارقا في الملل فوق هضبته وكان مهجورا وكتيبا ولا يوجد به الا رجل مسن . وكان الناس في انجولام وفي مرسيليا وجود ودوفر يتسائلون « ماذا يفعل هذا الرجل ؟ لقد تجاوزت الساعة الثالثة فلماذا لم ينزل ؟ (...) وكان الصحفيون ينتظرون في بهو الفندق ، وكان ثلاثة من قادة السيارات ينتظرون في الفناء دون حركة وهم جالسون أمام عجلة القيادة داخل سياراتهم ، وعلى الناحية الأخرى من نهر الراين كان ينتظر في سكoon داخل بهو فندق دريسين رجال بروسيا طوال القامة يلبسون ملابس سوداء (...) » ^(٤٢).

Albérès, op. cit., p. 102.

(٤٠)

Ibid, p. 103

(٤١)

Le Sursis, p. 5

(٤٢)

وكسائر الفرنسيين كان ماتيو. ديلار يتابع هذه الأحداث ولكن بدون حماس كما هو واضح وكان يعيش في سأم على الشاطئ، في مدينة جيون لايان حيث يقضى اجازته مع أخيه جاك وزوجته أوديت ، وكل الأيام متشابهة بالنسبة له وقرودون جديد ، ويصف لنا الكاتب هذه الحالة في قوله :

« فتح ماتيو عينيه ، إنهما عينا طفل حديث الولادة لأنها مازالت عمياء وكان يتساءل « وما الفائدة » مثلما يفعل كل صباح (...) . وكانت هناك فيما مضى فترات صباحية مختلفة تمثل بدايات رائعة لأشياء جديدة ، وكان جرس المنبه يدوي فيستيقظ فجأة وعينه حادتان وجسمه منتعش ، وكأنه يستيقظ على صوت النقيير . أما اليوم . فلا توجد بداية ولا يوجد شيء . يمكنه أن يشرع في عمله ، ورغم ذلك يجب عليه أن يفادر فراشه (...) وأخرج ساقيه من السرير ونهض ثم خلع بيجامته وتساءل « وما الفائدة » ، واستلقى ثانية على ظهره فوق السرير وهو عارقما وضع يده تحت عنقه وبدأ يتبين السقف من خلال غشاوة بيضاء انا انسان ضائع تماما . فيما مضى كنت أحمل الأيام على ظهري وكنت أجعلها تمر من صفة الى أخرى ، أما الآن فهي التي تحملني » (٤٣) .

ولكن هذا الوضع تغير تغيرا كاملا ولم يستمر أكثر من ذلك فمنذ اليوم الذي قرأ فيه أنه يحمل ورقة التجنيد رقم ٢ ، وعلم أن من اللازم أن يسافر ليلحق برفاق السلاح ، لم يستطع أن يستمر على حالته السابقة من عدم الاكتراث وعدم الاهتمام بالحرب ، وكان هدف الكاتب من خلق هذا الموقف هو محاولة إيجاد حل لمشكلة ماتيو بحسم الصراع الذي يعانيه وأن يوضح له أن حياته لا تتوقف عليه وحده وعلى حريته التي استطاع بنجاح أن يقيها بدون استخدام حتى الآن وإنما هي في الواقع متوقفة على موقف معين ووجد نفسه فيه وهو موقف الحرب الوحشية الحدوث انه لا يزال حرا ولكن الحرب أمر يخصه ولا يمكنه أن يتجاهلها وهكذا نجد أن حريته لاحول لها ولا قوة وهي ضعيفة لا تعرف لنفسها خلاصا أو منفذا للهروب من هذا الموقف الخارجي ولكن ماتيو لم يقدر مسؤوليته في بادئ الأمر وهذا واضح من استجابته لنداء التعبئة كما شرحه لأخيه :

« لا يمكنني أن أتصرف بطريقة أخرى . أما أن تكون هذه الحرب عادلة أو غيرها فهذا أمر ثانوي بالنسبة لي بعد ذلك » (٤٤) .

والاكثر من ذلك أنه شعر بخيبة الأمل واليأس عندما فكر في أنه سوف يتخلى عن كل شيء ، وأنه سوف يترك كل ما حوله ليسافر « الى حرب من أكثر الحروب سخافة ، وهي حرب مضمون خسارتها مقدما ، وكان

Le Sursis, p. 88-89

(٤٣)

Ibid., p. 125.

(٤٤)

يشعر أنه يقوص في أعماق المجهول الى أن تلاشي (...) أنه لاشيء وهو شخص بدون شخصية وليس له سن معينة ، انه شخص سرق مستقبله وأمامه أيام لا يمكن التكهن بها » (٤٥) .

أى أن ماتيو ديلا رولا يزال حراً ، ولكنه لا يعيش في حالة الفراغ الناجمة عن حالة عدم الاستقرار كما ورد في الرواية الأولى سن الرشيد ، بل أنه يعيش في موقف معين هو موقف الحرب ، ونلاحظ أنه يتمتع بشيء من الحرية في هذا الموقف وهي حرية يمكن أن نعتبرها مطلقة من وجهة نظره ففى مقدوره أن يستجيب لنداء التعبئة العامة ، أو أن يهرب الى سويسرا أو أن ينتحر فهو اذن حر الارادة ، حر في اتخاذ القرار ولكنه ليس حراً في تجاهل الموقف بل هو مضطر الى مواجهته .

وقد اعتبر ماتيو قراره الخاص بالاستجابة لنداء التعبئة العامة بمثابة قطعة مع ماضيه وقيل أن يطوى الصفحة الأخيرة من هذه الفترة من حياته ذهب قيل أن يلحق برفاقه الى شقته في باريس ليستعيد ذكرياته وذكريات كل من عرفهم الى يومه هذا ويريد الآن أن ينساهم « واستدار فجأة وجال ببصره في حجرة مكتبه وكانت تشملكه سعادة خالية من الانفعال فقد خيل اليه أنهم جميعا هنا محبوسون وقد فارقوا الحياة : مارسيل وبورنيه ، وبوريس ودانييل فعندما حضروا اليه وقعوا في الشرك وسوف يبقون فيه (...) » (٤٦) ثم غادر شقته ونهب يتجول على الكبارى الممتدة عبر نهر السين في باريس وقد بدا له أنه أصبح الآن بلا ماض ، ينعم بالحرية ولكنه وحيد وقد بدت له الحرية التي طالما تمسك بها وكأنها منفى :

« ان الحرية هي المنفى وأنا محكوم على أن أكون حراً (...) ولكن ماذا سأفعل بهذه الحرية ؟ وماذا سأفعل بنفسى ؟ (...) انه وحيد على هذا الجسر » ووحيد في هذا العالم وليس في استطاعة أحد أن يصدر له أمراً ثم قال لنفسه وقد ظهرت عليه علامات الارهاق « أنا حر لاشيء » (٤٧) .

وبناء على ذلك استقل باحساس من الارتياح والسعادة الفطار الذى سوف يقله الى مكان تجميع المجندين في المرحلة الأولى من الحرب تلك الحرب التي تمنى في هذه اللحظة أن تكون متبوعة « رجاء الموت أى الحرية » (٤٨)



Le Sursis, p. 132.

(٤٥)

Ibid., p. 394

(٤٦)

Le Sursis, p. 419-420.

(٤٧)

Ibid., p. 462.

(٤٨)

ثم تلقى في الجزء الثالث من مجموعة « طرق الحرية » الذي ظهر في عام ١٩٤٩ تحت عنوان « موت النفس » ماتيوي ديلارو في بداية الرواية وهو بين مجموعة من رفاقه الجنود الهاربين بعد أن تركهم ضباطهم وهم ينتظرون في شبه ارتياح وقت حضور الألمان لأخذهم أسرى وكان هؤلاء الجنود يعانون من حالة فظيعة من المهانة والقذارة والجوع وكانوا يشعرون أنهم معزولون عن باقي العالم ومنبوذون ولكنهم اكتشفوا معنى التضامن في هذه العزلة ، وكان ماتيوي يشعر في البداية أنه مختلف عن الآخرين وكان يجد صعوبة كبيرة في الاختلاط بهم والعيش معهم وكان يشعر نحوهم بنوع من الاشمئزاز في بعض الأحيان ومن ثم كان شعره بالوحدة والعزلة أكثر حدة ، ولكنه اكتشف بمرور الوقت انه ليس أفضل منهم وليس له الحق في احتقارهم وعدم التضامن معهم لأنه في الواقع واحد منهم وهم جميعا متضامنون وهذا التضامن يشكل قوة في حد ذاته سوف تظهر وتتضح وقت هروب الضباط وتركهم جنودهم دون مأوى أو قيادة مستغلين سواد الليل فنرى الجنود جالسين جميعا في الظلام ينصتون لأصوات العربات وهي تتحرك في حذر حاملة الضباط ، وكلهم أمل في أن يتلقوا منهم ولو كلمة واحدة تجيب على تساؤلاتهم وتشعرهم بالراحة . ولكن يطول انتظارهم دون جدوى وهنا يجد ماتيوي نفسه غير قادر على الاهتمام بهم ويقلقهم ويخافهم لأنه يشاركهم في مصيرهم المبهم وكان الجنود ينتظرون الى أنفسهم نظرات تعبر عما يعيش في صدورهم :

« كان ماتيوي ينظر الى لونيجان دون سبب معين غير أنه كان في مواجهته وكان لونيجان ينظر اليه بالمثل لنفس السبب ، وكان شارلو ولاتكس ينظر كل الى الاخير ، وكان الجميع ينظر بعضهم الى بعض ، ويبدو عليهم جميعا أنهم كانوا ينتظرون شيئا يقال ، ولكن لم يعد هناك شيء يستحق القول ، وفجأة ابتسم لونيجان لماتيوي ورد له ماتيوي الابتسامة ، وابتسم شارلو ، وابتسم لاتكس ، وأضاء القمر هذه الابتسامات على شفاههم كأنها زهرات باهتة ^(٤٩) .

وهكذا تم التعبير عن التضامن في صورة النظرة والابتسامة التي جعلتهم جميعا يشعرون انهم يشتركون في نفس المصير . كما ان حالة الفراغ التي أحاطت بهم بالإضافة الى الشعور بالخوف من الاسر الذي ينتظرهم دفعهم الى ارتكاب افعال مشيئة مثل الاقبال على السكر الشديد وحتى يؤكد ماتيوي في نفسه فكرة التضامن والتآخي اضطر ان يشاركهم مواقفهم المخجلة وأقبل على السكر والشرب معهم رغم عدم رغبته الحقيقية في ذلك لأنه كان يرفض ان ينساق الى هذا الموقف المهين وأراد ان يتصدى للأساليب المخزية التي يسلكها رفاقه والتي لم تكن تحوز اعجابه بل كانت تنال احتقاره واكتشف في هذه اللحظة انه اذا أراد التوصل الى العالم الحقيقي مثل صديقيه جوميز وبرونييه « فيجب قبل كل شيء ان تكون لديه الشجاعة على تحمل مسؤولية أفعاله ، وان يحسن استخدام حريته ، وان يتعرف على التضامن الواعي ، وأن يلتقي مسؤوليته بثقل في الميزان ^(٥٠) .

La Mort dans l'Amé^e Paris Gallimard, 1949, p. 122

(٤٩)

Albérès, cp. cit., p. 108

(٥٠)

كما أنه اكتشف أيضاً أن قيمة الحرية تكمن في كيفية استخدامها وأنها تتطلب التزاماً ومستوليه بالإضافة الى الاقدام على فعل محدد في موقف معين . وتوصل الى ان الواجب يحتم عليه ان يدرك الواقع الملموس وهو ان على المرء ان يعمل ويدفع الثمن ، وان هذا الواقع هو الحقيقة التي طالما تهرب من مواجهتها وعندما أعلنت الهدنة وجدنا ان غضبه واحساسه هو وزملاؤه بالمهانة والحزني قد ازداد ازديادا كبيرا ، وشعر ماتيو بالرغبة والحاجة الى « الاندفاع في عمل مجهول لا يعرف كنهه مثل الاندفاع داخل غابة مجهولة ، وهذا العمل عبارة عن فعل يلتزم به الانسان ولا يفهمه أبدا بدرجة كاملة^(٥١) » وقد ازدادت هذه الرغبة لديه يوما بعد يوم .

وأخيرا تسنح الفرصة لماتيو والتي طالما كان ينتظرها ، ففي أحد الأيام جاءت الى القرية التي يقيم بها مع زملائه مجموعة جنود من القناصة من إحدى الوحدات المجاورة ولديهم مهمة فدائية تتطلب التضحية بالنفس وهدفها هو عرقلة تقدم جيش العدو ، وعند سماع هذا الخبر اختبأ رفاق ماتيو كالفران المدعورة في قبو كنيسة القرية ، اما هو وصديقه في المحنة المدعو « بينت » فقد قررا الانضمام الى مجموعة القناصة وأخذ كل واحد منهما بندقيته وصعدا معهم الى قبة كنيسة القرية للنضال ومقاومة العدو المنتظر .

وبدأ ماتيو في اطلاق النيران من أعلى الكنيسة ومواجهها ببندقيته الضعيفة المدافع والدبابات القوية المعادية وربما كان صنعه هذا غير مجد ولكنه اتاح له الفرصة ليثبت لنفسه أنه يقوم بعمل وأنه يترك أثرا لحياته ووجوده وسيهره في أرجاء هذه الأرض ، وقد أحس بفرحه غامرة عند قتله أول رجل من رجال العدو :

« كان ماتيو ينظر الى الرجل الذي قتله وهو يضحك ، فقد كان يحاول منذ أعوام طويلة ان يقوم بعمل ولكن دون جدوى لان نتائج أعماله كانت تسلب منه أولا بأول وكأنه انسان ضعيف لا حول له ولا قوة ، اما في هذه المرة فلم يسلبه أحد شيئا بالمرة ، لقد ضغط على الزناد ولأول مرة يحدث شيء نهائي (...) فهذا هو ذا قتيله ملقي على الأرض وهو يمثل تجسيدا لعمله وأثرا من أثار مروره على الأرض^(٥٢) .

وكانه بصنعيه هذا قد تراءى نهائيا من الحذر الذي طالما اتبعه في حياته وأثبت انه اذا أراد أن يعيش فيجب عليه المخاطرة ، وكأنه أيضا قد تأثر من كل أعمال الجبن التي تعرض لها في حياته ، واستطاع في نشوة ان يؤكد ذاته وهو الآن لأول مرة في حياته موجود بالفعل وهو أيضا انسان حر :

« واقترب من حافة السور وأخذ يطلق النيران وهو واقف وكان ذلك بمثابة انتقام فظيع ، ان كل طلقة قد تنتقم له من خوف قديم ، هذه الطلقة على لولا التي لم أجروا ن أسرقها ، وهذه الطلقة على مارسيل التي

La Mort dans l'Ame, p. 95.

(٥١)

Ibid., p. 236.

(٥٢)

كان يجب على ان اتركها ، وهذه طلبة على أوديت التي لم أرغب في مضاجعتها وهذه طلبة على الكتب التي لم أجرو على كتابتها ، وهذه على الرحلات الى خارج الوطن التي حرمت نفسي منها (...) واستمر في اطلاق النيران كان نقيا ، وكان قويا ، وكان حرا^(٥٣) .

وبهذا يكون ماتيو قد أنجز مهمته ، فقد التزم ووجه حريته نحو الالتزام واستطاع بعمله هذا ان يتجنب اللعنة التي كانت تجعلها حرية « جوفاء » وحرية « في الفراغ » كانت تنزلق على سطح العالم الى مالا نهاية دون ان تقدر على التدخل فيه وأن تترك بصاتها عليه . ورغم ذلك يظل فعل ماتيو صبيانيا ولا يلقي ضوءا كاملا على القيمة الحقيقية للالتزام الفعلي ، ففعله هذا ساعده في ان يثبت لنفسه « انه كان غخطا حتى ذلك الوقت ، وان الانسان قد خلق لاضفاء المعاني على الحياة ، وانه لايجب عليه ان يسمى وضوح الفكر ثقافة أنانية خاصة به بل هو معرفة كاملة بالعالم المحيط وقرار جريء لتشكيله وفق هواه كيفما يشاء »^(٥٤) .

لقد كانت حريته السابقة حرية سلبية خاطئة كانت تدفعه الى مشاهدة العالم من الظاهر بدون محاولة التدخل والالتزام بعمل فيه ، لأنه بالفعل وبالفعل فقط تأخذ الحرية معناها الحقيقي :

« وهكذا لاكتشف الا من خلال الفعل ، وتتوحد مع الفعل ... فالحرية ليست فضيلة داخلية يتبع لنا الابتعاد عن المواقف التي تتطلب عملا عاجلا ... ولكن على العكس من ذلك هي القدرة على الالتزام بفعل معين في الحاضر في سبيل بناء المستقبل »^(٥٥)

وفي نفس الوقت الذي نشر فيه جان بول سارتر هذه الأفكار عن الحرية والالتزام في أعماله الروائية نجده قد أظهر هذه الآراء نفسها في أعماله النظرية أيضا ففي كتابه المسمى ما الأدب (مواقف ٢) يشرح الكاتب ضرورة التزام الكتاب .



الالتزام الكتاب :

في مقال نشر في جريدة « الأخبار الأدبية » بعد موت سارتر كتب جان فرنسوا كان :

« نفس الشيء يمكن ان يقال عن سارتر وفولتير وهيجو ... كانوا وأعمالهم شيئا واحدا لا ينفصل وسيطر عليهم الثلاثة بالحاح - كل على طريقته - موضوع الحرية وحده ، ألم يستغلوا لخدمة معركة الحرية كل

La Mort dans l'Ame, p. 244-245.

(٥٣)

Albérès, op. cit., p. 109

(٥٤)

Lartre, Matérialisme et Révolution, in Situations III, p. 205-206.

(٥٥)

الوسائل الفنية التي وفرها لهم علم التعبير (...) ، ألم يضيفوا علاوة على ذلك ثمرة أفعالهم الخاصة ، قاصدين من وراء ذلك ان يبرهنوا على ان أي فكرة لن تساوي شيئا مالم تقدم البرهان على صحتها ، ماقيمة الكتابة عن الحرية ؛ ليس للحرية أي قيمة مالم يصاحبها كفاح مستمر من جانب الكاتب من أجل الحرية ، حريته وحرية الآخرين »^(٥٦)

وفي الحقيقة ان التطور الفكري لدى جان بول سارتر قد قاده الى الاعتقاد بأن من الواجب على الكاتب ان يلعب دورا سياسيا قبل كل شيء. وقد أنشأ لهذا الغرض مجلة « الازمنة المعاصرة » Les Temps Modernes ولكنه لم يتطرق الى موضوع تحديد دور الكاتب وأهمية الكاتب الا في كتابه المنسوق ما الأدب ومن أهم الأفكار التي نادى بها في هذا البحث وجوب استبعاد الانتاج الأدبي الشعري أو الانتاج الفني أو الانتاج الغيبي ، ذلك من أجل الأدب السياسي والاجتماعي الذي يهدف أساسا الى الاتصال بالناس ، وقد كتب سارتر قائلا في هذا الصدد :

« على هؤلاء الذين يتمتعون بحسن النية المطلقة ان يعايشوا التاريخ مع الابقاء على نقائهم وأن يحولوا مطالبهم الصورية الى مطالب مادية مؤرخة ، بدلا من أن يبقوا في عزلة ووحدة موجهين في الفراغ نداءات لا يشعر بها أحد عن المصير الانساني بصفة عامة (...) »^(٥٧)

وهكذا نرى ان على الكاتب الا يتطرق الى الموضوعات العالمية الشاملة بل يجب عليه ان يتمسك بموضوعات الساعة ، فالكاتب لا يمكنه ان يتجاهل العصر الذي يعيش فيه ولا يهتم به لأن العصر إن عاجلا أو آجلا سوف يؤثر على حياته لذلك يجب على الكاتب ان يهتم بوقته ومحرم عليه أن يحتنى وراء أسوار الموضوعات الابدية ، ويجب على كل كاتب وأديب ان يتخذ موقفا محددًا من قضايا عصره الذي يعيش فيه ، أو بمعنى آخر وأصح ان يلتزم فبالنسبة لنا (الكاتب) ان أي عمل أدبي هو في حد ذاته التزام طالما الكتاب أحياء اليوم قبل ان يصبحوا امواتا^(٥٨)

ان الكاتب الملتزم يعرف جيدا قيمة وتأثير كلمته « فالكلمة فعل »^(٥٩) ويعرف جيدا ان « الكلمات على حد قول بريس باران (Price Parain) ماهي الا « مسدسات معدة للاطلاق » اذا تكلم انطلق الرصاص (...) »^(٦٠) فعلى الكاتب ان يتضامن مع العصر التاريخي ، والاجتماعي الموجود فيه ، ولا يجب عليه الارتباط

Jean-François, Kahn, "Dieu, comme ils l'ont hai" in Les Nouvelles Littéraires' 17-24 avril (٥٦) 1980, p. 19.

J-P. Sartre, Qu'est-ce que la Littérature' in SituationsII, p.293. (٥٧)

Ibid., p. 83 (٥٨)

Ibid., p. 30 (٥٩)

Ibid., p. 31 (٦٠)

بشيء آخر غير ذلك « لكل كاتب موقف محدد في عصره ولكل كلمة من كلماته صدى ولكل صمت أيضا » (٦١)

وقد اذان سارتر موقف بعض الكتاب مثل جونكور وفلوبير أثناء الثورة الفرنسية المعروفة باسم حكومة باريس الاشتراكية التي قامت في عام ١٨٧١ وقد اعتبر هؤلاء الكتاب « مسئولين عن فترة القمع التي أعقبت الثورة ، انهم مسئولون لأنهم لم يكتبوا سطرا واحدا لمنعها » (٦٢)

كما أنه أسف أيضا لعدم اكتراث بعض الأدباء الكبار بالأحداث المعاصرة لأنهم بسبب هذا الموقف غير المسئول افتقدوا للأبد شيئا مهما في حياتهم : « أننا لا نريد ان يفوتنا شيء في عصرنا ، ربما تواجدت أزمة أفضل في الماضي ، ولكن هذا الوقت هو وقتنا نحن وليس لدينا حياة أخرى نحياها » (٦٣)

يوجد موضوع واحد يفرض نفسه على الأدباء مهما كانت نوعية أعمالهم سواء كانت أعمالا نقدية أو بحثا انشائية مبتكرة :

ان الكاتب رجل حر يتوجه بالحديث الى رجال أحرار وليس لديه الموضوع واحد ، وهو الحرية » (٦٤) وبهذه الطريقة يجد الكاتب نفسه في قلب معركة أي يجد نفسه ملتزما وهذا ما يؤكد سارتر بقوة في قوله :

« وهكذا مهما كانت الوسيلة التي أتت بكم (الى الادب) ، ومهما كانت الآراء التي تجاهرون بها ، فالأدب يدفع بكم الى المعركة ، والكتابة لتهب الاوسيلة معينة للرغبة في الحرية ، ومتى بدأتם ستجدون أنفسكم ملتزمين سواء أردتم أم لا » (٦٥)

«Sartre Présentation des Temps Modernes», in Situations II, P.13

(٦١)

«Presentations des Temps Modernes», Situations p. 13.

(٦٢)

Ibid.

(٦٣)

Qu'est-ce que l' littérature' p. 81.

(٦٤)

Ibid., p. 82.

(٦٥)

وهكذا عاد بنا الحديث الى الكلام عن الحرية والالتزام وهما المفهومان اللذان شكلا محور هذا البحث المتواضع وكان لهما عظيم الأثر بالنسبة لكاتبنا جان بول سارتر في حياته الشخصية أو في أعماله الأدبية والفلسفية .



والذي يتضح لنا من خلال تتبعنا لأعمال سارتر الروائية أنه كان يؤمن بأن الانسان حر أراد أم لم يرد وبهذا تحددت ماهيته . فالانسان بحكم وجوده مسئول عن حرته وله القدرة على الاختيار أى له القدرة على اتخاذ القرار لأن القرار في جوهره هو عملية اختيار لبديل من البدائل المطروحة أمام الانسان ولا يوجد حد نهائي للاختيار ولا نهاية لاستخدام الحرية والحرية في أعمال سارتر عبارة عن امتحان مستمر ير به الانسان في كل لحظة أمام المعطيات والفرص التي تتوافر له ، والحرية لا تتحقق وتعطي معناها الكامل الا بالالتزام والمسئولية .

ولكن

ماذا يسعنا أن نقول بعد ذلك ؟ لعل أفضل ما يمكن لنا أن نختم به هذا البحث هو أن نستعير هذه الأسطر القليلة التي كتبها ج لوكليزيو Le Clezio في بحث نشر في مجلة لارك عام ١٩٦٦ تحت عنوان « رجل مثالي »

« ان الذى بحث عنه (سارتر) ونجح في التوصل اليه قد أصبح بالنسبة لنا أكثر من مؤشر إذ أنه مجموعة أمثلة . فقد كانت مغامرة سارتر حقيقية : هو فيها الانسان وهو المحور الذى يشبه البطل ، وهو بطل مرتين ، أولاً لأنه استطاع أن يجسد هذا القرن ، وأن يتألم لهذا القرن وأن يعمل جاهدا في هذا القرن ، وأن يعبر أيضا عن هذا القرن . لقد قال لميلينا ما كان يجب أن يقال وكتب الكلمات التي كان يجب أن تكتب والتي كان الجميع ينتظرونها » (٦٦)



J. M. G. Le Clézio, "Un homme exemplaire," in *la Revue L'Arc* 1966, p. 58 g, p. 5. (٦٦)

من المعروف لدينا جميعا مدى الاهتمام الذي علقه سارتر على « الخيال » حتى جعل منه عنوانا لواحد من كتبه : نقصد كتابه « الخيال » الذي صدر في سنة ١٩٣٦ ، وفي سنة ١٩٤٠ ، أصدر سارتر كتابا آخر بعنوان « المتخيل » .

ومن ناحية أخرى فإن الصور الخيالية تشرى أعماله الأدبية ، وسنحاول هنا أن ندرس الأعمال الروائية بهدف تحديد الدور الذي تلعبه الصور الخيالية وتنوع المظاهر التي تتخذها هذه الصور حين تنتظمها أعمال فنية متكاملة ، مركزين في دراستنا على الجزء الثالث من رواية « دروب الحرية » وهو الجزء الذي تكاد تتم به الرواية وعنوانه « الحزن حتى الموت » وقد صدر سنة ١٩٤٩ ، وقد تعرض هذا الجزء للتصدع الذي مرت به فرنسا في سنة ١٩٤٠ من جراء هزيمتها المؤقتة - في الحرب العالمية الثانية أمام الألمان .

وسنرى أن للصور الخيالية عند سارتر مهمة ذات شقين : أحدها أدبي والثاني فلسفي .

أوجز الأستاذ « شارل برونو » - في مقال بجريه ^(١) - المعالم العريضة لنوعية الصور المتخيلة في الأدب المعاصر ، ففي رأيه أنه يمكن التاريخ لمرحلة جديدة من مراحل فنية التصوير الخيالي في أدب

وظيفة الخيال بين اللغة والفلسفة عند جان بول سارتر*

دولت مباحث العرب

* جميع المصطلحات الواردة في هذا المقال لسارتر أو لغيره هي من ترجمة كاتبة المقال ، بدون الرجوع إلى أي من الترجمات العربية المنشورة أو المخطوطة .

(١) Charles Beureau, „L'image dans notre langue PiHéraive", *Mélanges Dauzat* pp. 55-67, (١)

العصر الحديث بنظرية الترابط التي أصلها بشعره شارل بودلير في القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الوقت تطور هذا الفن في اتجاهين رئيسيين ، فأحدهما يمثله شعراء اساهم « برونو » الكيائيون Les Chimistes « وهم قد طوروا الصورة الخيالية بطريقة عقلانية مصقولة ومتقنة : شيء كأنه لغة فوقية Sur Langage وافضل من يمثل هذا الاتجاه هما : « مالارمي » ، و « فاليري » ويمثل الاتجاه الثاني من يسميهم « برونو » ، « الملهمون Les Inspires » وهؤلاء يميلون الى صور لا معقولة جامحة الخيال وأحيانا بدائية اي عكس الصور التي اختارها اصحاب الاتجاه الاول . ويمثل هذا الاتجاه الثاني بوضوح شعراء من امثال « رامبو » و « ابولينير » و « بول إليوار » ، ويميز الاستاذ برونو كذلك بين أربعة أنماط تنقسم اليها مجموعات الصور الخيالية المعاصرة : الأولى « الاحساسات » والثانية « الانطباعات » والثالثة « المشاعر » والرابعة « الخبرات العقلية المحضة » . والرابعة قد اقتصت بها « الكيائيون » وعلى رأسهم « فاليري » . وتقسيمة هذا يمكن أن يقال عليه انه الى حد ما مانع كما انه شديد البساطة ، وأن كان ينطبق دون شك على بعض اتجاهات الشعر المعاصر كما انه يمكن الاستعانة به لتصنيف الاعمال الروائية التي لا نعدم التشابه بينها وبين الاعمال الشعرية ، وبخاصة منذ نهاية القرن الماضي .

كانت البلاغة التقليدية قد اعترفت اعترافا كاملا بأهمية الصور في النسيج الشعري وكان ارسطو نفسه قد نوه بأهمية الاستعارة عندما قال في كتابه « فن الشعر » ان الاستعارة دليل العبقرية *** « ولم يبيل هذا الشعار عبر القرون رغم انه كان لكل عصر مفهومه الخاص لدور الخيال في بناء القصيدة الشعرية ، بل ان كلاسيكيي القرن السابع عشر في اوربا لم يخف عنهم تلك الاهمية . اما الرومانسيون فعندهم ان الصورة هي روح القصيدة . وكان « كولردج » قد ألمع بذكائه المعهود الى « ان شاعر العصر الحديث يكاد ان يلهم نفسه صورا جديدة باهرة وكأنها هدفه الوحيد وأهم ملامح فنه » بينما يقدم وردزورث تفسيراً دسماً وحاسماً لمراحل الاستعارة نفسها في الابيات التالية :

« قد تحدث الأغنية عن المبنى الذي يعلو الى ما لا نهاية .

وترى بين جزئياته تشابها تحفظه العين الكسولة »

وفي هذا القرن ذهب « ازرايارد » الى انه « من الخير أن يضع الشاعر يده على صورة خيالية واحدة او استعارة واحدة او مجازاً واحداً من ان ينتج مجلدات بأكملها » (١)

«La métaphore est le sign du génie»

cf. Cecil Day Lewis, 'The Poetic Image' London, 1947.

*** الاستعارة دليل العبقرية =

(٢)

ولم يأل السيرياليون الفرنسيون بدورهم جهدا : فيقول إمامهم أندريه برتوت « لا زالت أقدس مهمة يطمح إليها الشاعر هي المقارنة بين شيئين لا يوجد ما هو أكثر منهما تباعدا ، والمقارنة بينها بشكل أو بآخر يفاجئنا ويصدمنا » (٣)

وليس لأحد بالطبع أن ينقص من المكانة العالية التي تتمتع بها الصورة في القصيدة .

ولكن ماذا عن أهمية الصورة في النص المنشور ؟

ينص بروسست بصراحة في مقاله الشهير عن فلوير « اعتقد أن الاستعارة وحدها هي التي تحفظ أسلوب الأديب من الفناء » (٤) وجهة نظره هذه تشخص تحولا جذريا كان قد طرأ على الرواية العالمية في نهاية القرن الماضي .

إن للأجزاء الثلاثة الأولى من رباعية سارتر المنقوصة المعنونة « دروب الحرية » شكلا أدبيا متكاملا للغة (وتقص بالتكامل هنا التآزر والتغاير معا) . فالمجلد الأول « سن النضج » قد بنى في ما يبدو على أسس تقليدية ، بينما يختلف الأسلوب السردى تماما في المجلد الثاني « المباطلة » فيحاول سارتر فيه أن يرصد « معية » الحوادث التي تقع في أماكن منفصلة ، وهنا يظهر تفوقه على مواطنيه من الروائيين أمثال « جول رومان » وتشابهه مع معاصريه من غير الفرنسيين أمثال « جون دوس باسوس » الأمريكي . فمثلا يصور سارتر في ذلك المجلد وقع أزمة « ميونخ » على بعض من أشخاص روايته لا يجمع فيهم نفس المكان وإن كان يجمع بينهم جملة واحدة في إحدى صفحات الرواية . إن ثمرة مثل ذلك ليس موفقة والقارىء لأعمال سارتر - الذي تأخذه الدهشة - لا يملك إلا أن يتساءل - على حد تعبير ناقد معاصر - « عما إذا كان سارتر قد ضحى بموهبته على مذبح شراسته إلى التجريب من أجل التجريب وحده ؟ » (٥)

أما عن المجلد الثالث « الحزن حتى الموت » فإن كاتبنا يواصل محاولته لرصد الحوادث المتزامنة « المعية » ولكنه يجد من توزيع الامكنة التي ينتقل بينها لرصد تلك الحوادث ولا « يقطع » تنقلاته تلك بنفس المباشرة التي أزعجت قارىء المجلد الثاني .

ويكاد الانتباه يتركز بشكل أساسي في شخصية واحدة هي شخصية « ماتيو ديلاو » وفي زمن لا يتعدى المرحلة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية . ويحاول سارتر أن يدخل بنا خلال النصف الثاني من ذلك المجلد في

Cité par I. A. Richards, *The Philosophy of Rhetoric* Oxford University Press, New York, (٣) 1950, p. 123.

Marcel Provst, « Le style de Flaubert », *Nouvelle Revue française* vol. xiv, 1, 1920, (٤) pp. 72-90.

Henri Peyre, *The contemporary French Novel* New York, 1943. (٥)

تجربة جديدة فيكتب وصفا مرسلًا في مائة صفحة للأيام الأولى التي قضاها الصحفي الشيوعي « برونه » في الاسر ، والواقع ان محاولته تلك لم تكن صادقة لانها اقتصرت على تغيير شكلي بحث في صورة الصفحة المطبوعة فالتطور تتلاحق دون ان تضمها فقرات منفصلة ، وان كانت محاولة ناجحة لان مجرد مثل هذا التأثير البصري كفيلا باحداث الاثر المطلوب وهو أن تتلاحق انفاس القارئ في متابعتة للسرد بهذين يشبه هذيان المحموم .

وكان من المقرر ان ينتهي سارتر من مجلد رابع من نفس الرواية يتعرض فيه للمقاومة الفرنسية للاحتلال الألماني ولكنه لم يفعل ذلك ، وان كان نشر مقتطفات منه تحت عنوان « صداقة غريبة » في مجلة « العصور الحديثة » في سنة ١٩٤٩ .

ولقد شغل سارتر انتصاره المثقفين واثارت حولهم ضجة ومناقشات شملت كل القضايا الاساسية فمنها الانطولوجي ومنها الاخلاقي ومنها السياسي ومنها الجهالي الى حد جرف الاهتمام بعيدا عن اسلوب سارتر في التعامل مع اللغة ، وذلك على الرغم من ان الوجودية حركة لها ابعادها الادبية كما ان لها ابعادها الفلسفية ، وانها طورت لغة خاصة بها والتزمت بهذه اللغة .

وقد اثنى على اسلوب سارتر في الكتابة اغلب النقاد حتى اشداهم قسوة وأشار بعض هؤلاء بتنوع صورته الخيالية بصفة خاصة .^(٦)

فمثلا اوضح الناقد « شامبيني Champigny » دور عناصر الطبيعة الاربعة (الارض والماء والنار والهواء) في تكوين اخيلة سارتر الواردة في اعماله الفلسفية مستعينا بنظريات جاستون باشلار^(٧) .

ولكن تفهم اثر صور سارتر ودورها البنائي واهميتها التي لا تتجزأ لا يتم الا بتحليلها في اطار رواية باكملها .

وبالفعل يؤخذ المرم قليلا عندما يعرف ان في النصف الاول من مجلد « الحزن حتى الموت » مائتين وخمسين تشبيها ، اي ما يزيد على تشبيه واحد في كل صفحة ، وذلك على الرغم من ان هذا الجزء حافل بالحوار بين شخصيات الرواية . ذلك الحواز الذي يدور بالعامية الفرنسية والتي تحتوي بدورها على صور خيالية مما يدل على كثافة الصور الخيالية والتشبيهات والكنايات والاستعارات والمجازات الواردة على لسان المؤلف . وبالتالي فلا

(٦) cf. Raymond Picard, "L'art de J.P. Sartre et les Hommes de Bonne volonté", La France libre 13 février 1946, pp. 289-295.

R.M. Albérés, Jean, Paul Sartre, Editions Universitaires, Paris, 1960, pp 126-140.

(٧) cf. R. Champigny, "L'expression élémentaire dans l'Etre et le Néant, Publications of the Modern Language Association of America. vol. L'XVIII, 1953, pp. 54-64.

نستطيع ان نوافق « هنري بير » على رأيه ان استعارات سارتر نادرة ^(٨) . قد تكون هناك دون شك عند سارتر أمثلة واستعارات تقليدية ولكن اغلب تشبيهاته أصيلة ومشحونة بعناية ومتميزة بطابعه الخاص الذي يستحيل تقليده .

ان روايات سارتر وقصصه القصيرة هي اعمال ادبية متكاملة ويمكن للقارئ غير الملم بالوجودية ان يفهمها وان يتذوقها فنيا ، ومن ناحية اخرى فان هذه الاعمال مشبعة بفلسفته ومقصود منها شرح المسائل التي تطرحها الوجودية من خلال مواقف بشرية ملموسة ، وسيكون للصورة الخيالية بالمثل مهمة مزدوجة ادبية وفلسفية يصعب تقسيمها او تحليلها الى شقيها الذي يثري كل منهما الآخر دواليك .



ان الوجودية في مفهومها للعالم - تنمرد بشدة على التيار الفكري الممتد من ديكرت الى هيغل والذي ينفي وجود « الشيء » في ذاته « ومع ذلك فالعالم في نظر الوجودية لا يتكون من ماديات مستقلة عن معرفتنا بها فحسب بل ان هذه المعرفة هي الحقيقة المكونة للعالم من وجهة نظر الوجودية . ان كتاب سارتر « الوجود والعدم » يبدأ بذلك التصريح الواضح : « ان الفكر الحديث قد حقق تقدما ملحوظا نحو عملية اختزال الوجود الى سلسلة الظواهر التي يتجلى من خلالها . ان كينونة اى موجود هي بالتحديد ما يظهر به ذلك الموجود ، ان نظريتنا في الظواهر تحمل موضوعية الظاهرة محل حقيقة الشيء » ومن هنا تبدو لنا دلالة العنوان الثانوي الذي اتبع به سارتر العنوان الرئيسي على غلاف كتابه المذكور الا وهو « مقال في الانتولوجيا الفينومولوجية » اي « مقال في علم الوجود من خلال علم الظواهر . »

وفي نفس الوقت فان تلك الظاهراتية بعيدة تماما عن مثالية القرن التاسع عشر المطلقة ، او على الاقل عن تلك المثالية كما تدرس الآن ، ان هناك شيئا مستقلا عن الفكر وهذا الشيء يسميه سارتر « الموجود في ذاته » . وللوهلة الاولى يكون « الشيء في ذاته » ملأ الكينونة فهو « كتلة » لا فراغ فيها وبالتالي « معتم » لنفسه اي معدم الوعي في ذاته « اي مطابق لذاته » . كذلك « فالشيء في ذاته » ليس كالكائن الواعي الذي يستطيع هو ان يكون مالا يكون والا يكون ما يكونه ، فالشيء في ذاته هو ما هو لا غير ، لكنه بلا معنى الا بتعرف « الوعي » عليه ، وهكذا فان العالم يتحقق من خلال الوعي ويكتسب معقوليته من خلال « الأنا » ويصبح مكونه الاساسي هو « الموجود لذاته » وليس « الموجود في ذاته » .

وتقول رفيقة حياة سارتر ، سيمون دي بوفوار في فترة جميلة من روايتها الاولى « الضيقة » ما معناه ان حضورها الى العالم يوقظ ذلك العالم من نومه ، وبطلنة تلك الرواية واسمها « فرانسواز » تذهب في موعد متأخر من

cf. Henri Peyre, op. cit., p. 233.

(٨)

الليل الى استوديو السينما الذي تعمل فيه عادة في الصباح وهنا تلفت نظرها لاول مرة اشياء كانت موجودة طيلة الوقت ولكنها لم تنتبه اليها من قبل . وكأنها جئت عادت اليها الحياة (تقول سيمون دي بوفوار) : « خرجت (هي) من المكتب ، كانت هذه الارقوة السوداء هي التي تجذبها ، وعندما لم تكن هنا لم تكن موجودة ايضا رائحة التراب وهذه العتمة وهذه الوحدة اليائسة ، والآن كانت هنا وكانت لها تلك القوة : ان ينتزع وجودها الاشياء من نومها وتضفي هي عليهم الروائح وروائحهم ، دفعت باب الحجرة كانت كالمكلفة بمهمة ، كان يجب بعث هذه الحجرة المهجورة الى الوجود ، وكانت الكراسي المكسوة بالمخمل الاحمر تتباعد عن بعضها ثابتة وفي الانتظار ، منذ برهة لم تكن تنتظر احدا والآن صارت تمد اذرعها » (٩) .

وفي بحث سارتر الفلسفي « الوجود والعدم » نجده يعبر عن الكائنات الميتة بصفات مستمدة من الجهاد شأن « كئيل » و « كئيف » و « معتم » و « متعجن » .

وبالنسبة للصورة الخيالية الواردة في رواية « الحزن حتى الموت » فبدأه ذي بدء يلفتنا الميل الى تصور ظواهر الطبيعة وكأنها جمادات ، واضفاء للحسية على ما هو مجرد فكرة في سلسلة من الصور الغريبة .

هبط نبأ إعلان الهدنة - الذي اتضح فيما بعد انه خاطيء - على ماتيو وقصيلته في يوم صيف ثقيل الجو ، يقول سارتر « بريق كوميض الرصاص ، ثم الصمت . كانت الابدية قد هبطت كالبلطة تقطع لحم ذلك النهر الطري الازرق . » (١٠)

لقد مثل النهار هنا مادة جسدية قطعت فيها الانباء (كما تقطع البلطة في الجسد) .

وفي موضع آخر من النص يغدو الليل ايضا محسوسا . يقول سارتر : « كان الليل رقيقا وبريا وقد برئت الجراح الكثيرة التي أحدثها من قبل في الجسد . كانت ليلة غنية وعذراء ، ليلة جميلة بلا أناس ، جميلة ملتجة الدماء في عروقها وبلا خصوم » (١١) .

يضع صديق ماتيو المدعو دانييل الذي ينتظر في شوارع باريس الحالية وصول طلائع القوات الالمانية : يضع نهار يوم الاحد تحت مجهر التحليل الكيميائي او ما الى ذلك . يقول سارتر : « كان يوم احد متفنا ، عاديا ربما زاد جفافه قليلا عن العادة وزاد تصنعا ايضا ، صموتا للغاية وقد امتلأ بتفضنات سرية . » (١٢)

Simone de Beauvoir, L'Invitée' Gallimord, Paris, 1945, p. 10. (٩)

Jean. Paul Sartre, La Mort dans l'ame' Gallimard. Paris, 1949, p. 67. (١٠)

Ibid.' p. 140. (١١)

La Mort dans l'ame' p. 140. (١٢)

كذلك ينسب سارتر الى الهواء والى الماء الصلابة فيقول : « فنسيم حار وثقيل كالحلاصة »^(١٣) وايضا : « كان الماء ياردا وعاريا كبشرة »^(١٤)

ويحس بطل رواية سارتر اي « ماتيو » نفسه وقد طرأت عليها تحولات بفعل مواجهة الجنود الاجانب وغدت جزءا من العالم المكون من جمادات والذي يحيط به ويتحول ما هو « لذاته » الى مجرد « ذات » (يقول سارتر) : « وأحس ماتيو - تحت النظرات القادمة من عصر مختلف - انه يتحول الى عشب .. كانه مرعى ترقبه الماشية »^(١٥)

وعندما يحاول ماتيو بمعونة رفاقه ان يتطوع لعمل بطولي يوقف الزحف الالمانى يأخذه فجأة شعورا لا يقاوم بصلابته وبصلابة العالم من حوله (يقول سارتر) : « توقف الطريق عن السيولة .. ابطل الطريق حركة ، وقفز ماتيو الى قدميه وصوب (بندقيته) وجمدت عيناه وهو واقف وكثيف على ارض صلبة وامام فوهة بندقيته احد الاعداء وقد جعل هدقه يهدوه « الكليتين »^(١٦)

ويكفي ان يقرأ المرء عناوين مؤلفات سارتر الاولى : تلك العناوين المحملة بالاستعارات وان كانت استعاراتها تصر على الالتصاق بارض الواقع الملموس ، ومنها على سبيل المثال « الغشيان » و « الحائط » و « والذباب » .

ويبدو ان لدى سارتر الهاجا على الاستمساك بالواقعية الملموسة ، واصراراً على تصوير العالم بكل ملامحه اليومية حتى ما كان منها منفرا ، ان لديه تعطشا للتعبير بالاسلوب المشيع بالصور الحسية والمحسوسة .

والامثلة التي ذكرناها حتى الآن تكشف ملمحا آخر بين الملامح التي تميز صور سارتر الخيالية كما تميز اسلوبه بشكل عام ، فكل شيء مرئي او محسوس يصل القارىء من خلال الشخصيات نفسها (لا المؤلف) في خطاب غير مباشر مسترسل تنقصه دقة البناء . ولولا الصفة الاخيرة (تنقصه دقة البناء) لكانت رواية سارتر موضع حسد « جوستاف فلووير » لو كان امتد به العمر ، فهو رائد هذا الاسلوب في الرواية الفرنسية .

وكما رأينا فان احد المبادئ الاساسية للفلسفة الوجودية هو ان العالم الصلب العيني لا يكتسب معنى ووجودا اصيلا سوى بادراك الوعي الانساني له . و « ما هو لذاته » يبعث الحياة « فيما هو في ذاته » وبلي ذلك ان العالم ليس متجانسا تجانسا صارما ، فيدركه كل فرد ويفسر ظواهره بطريقته الخاصة : والحاصل اللغوي لهذا الموقف الفلسفي الذي يعتنق النسبية هو الاسلوب الحر غير المباشر ، اي ان الاشياء والاحداث تعرض لا كما هي في

Ibid. p. 192.

(١٣)

Ibid. p. 42.

(١٤)

Ibid. p. 136.

(١٥)

Ibid. p. 186.

(١٦)

الأصل ولكن بأسلوب علم الظواهر « الفينومولوجيا » أي كما يعيها ادراك فردي خاص . ويقول « البريس » عن حق على سارتر ، « ان ما هو عند كاتب اخر مجرد سرد موضوعي يتخذ عند سارتر شكل تدوق منفرد يتفارت بحسب ادراك البشر الذين يعيش كل منهم تجربته ، اننا لا نعيش مع ماتيو الاحداث الصغيرة فحسب ولكن تدوق ما ذاقه في حلقه في خلوقنا ويستفز عقولنا مما استفز عقله ونرى مناظر الشارع التي رآها بنفس انطباعاته البصرية والانفعالية والبدنية والخيالية » (١٧)

ولهذا الأسلوب بالتالي ثماره الفعالة في صور سارتر . فالخيال فيها يزيد اتساعا وحرية ولها طابع ذاتي وحيانا ملهم ، فيمكن ان يتناول الفكر المكونات البدائية للواقع الفيزيقي لطريقة ، لقد رأينا كيف اضفى سارتر الصلابة على الماء والهواء بل وعلى النور والظلام ولكنه قد لجأ ايضا الى الاجراء العكسي فحول الاشياء الصلبة الى اشياء سائلة (يقول سارتر) « نظرت (هي) بندم الى العشب الطري الاسود وانحنيت تحسه كما لو كان ماء » (١٨) (ويقول سارتر ايضا) : « كان ماتيو ينظر الى الطريق الواقع على بعد مائتي متر منه . كان الطريق يهرب من الليل وبسبل مانعا ابيض حتى قدميه ثم يجاوزه ليغسل المنازل المقفولة النوافذ الواقعة خلفه ، كان الطريق قد عادت اليه برية الانهار القديمة ، وغدا سينقل الى القرية سفنا محملة بالقتلة » (١٩) .

وفي المثل التالي تتطور الصورة البصرية الى رمز فكري ، ان الليل نفسه الذي تتحول بفعله الاشياء الصلبة الى السيولة قد شبه هنا بسائل داكن (يقول سارتر) . « كان الجنود المسلحون يخرجون واحدا تلو الآخر من ماء الليل الاسود » (٢٠) . والفسق ايضا قد يوحى الى سارتر بمقارنات غريبة لانه يضع الحدود الفاصلة بين الاشياء (فيقول) « كان الغسق هو اللحظة التي فيها تفيض الاشياء من محيطاتها وتندمج في ضباب المساء اللقطني ، وكانت النوافذ تنزل في عتمة حركة طويلة ساكنة ، وكانت الغرفة قاربا وكان هذا القارب يتوه ، وكانت زجاجة الموسيقى احد اوتان المكسيكيين الاول ، وكان الحب شيئا اكثر بكثير من الحب ، وكانت الصداقة شيئا ليس هو تماما الصداقة » (٢١)

وهكذا مرة اخرى تتحول صور بصرية الى رموز فكرية في نهاية الاستعارة كما يتم في البناء الدرامي .

وبحين ننظر الى العالم من حولنا من زاوية غير عادية نجعلنا هذه الزاوية غير المألوفة نعيد تفهم الحقائق وبشكل ليس مألوفا ايضا ، فعندما يصف سارتر الارض من وجهة نظر ماتيو نحس ان ماتيو يرقبها من عل ، من

Albérès, op. cit.' p. 124.

La Mort dans l'ame' p. 157.

Ibid.' p. 125.

Ibid.' p. 145.

La Mort dans l'ame' p. 140.

(١٧)

(١٨)

(١٩)

(٢٠)

(٢١)

موقع اقرب الى السماء (يقول سارتر) : كانت الارض المنطرفة ترفع اليه وجهها وكانت السماء المتروية تجري صوبه بكل نجومها » (٢٢)

ان التشبيه الذي ذكرناه للتوهو في الرواية صدى لحلم كان قد مر بماتيو وجاء وصفه بلغة تكاد تذكر بأعمال السيرباليين (يقول سارتر) : « بدأت كرة صغيرة حمراء تدور واطلت من الشرفة وجوه نساء وبدأت تدور ايضا ، كان ماتيو يحلم بأنه السماء وكان يطل من الشرفة وينظر الى الارض ، وكانت الارض خضراء ذات بطن ابيض وكانت تتقافز كما تتقافز البراغيث » (٢٣)

ان الصور التي ترد الى شخصيات سارتر اثر تجارب غير عادية مرت بها تأخذ احيانا شكل الكابوس المستط، وعندما يسير دانييل في شوارع باريس الحالية التي تذكره بالاطلال يلحظ فجأة صليب النازية المعقوف على واجهة فندق « كريون » (يقول سارتر) « ايها المبني ، يا قطعة من اللحم الدامي الموشاة ، في وسط الحفرة الملونة بالدم كانت الدائرة البيضاء بيضاء كانهكاسات المصاييح البيضاء على ملايات السريز في طفولتي وفي وسط الدائرة تلوى الثعبان الاسود (الوصف لرأية الصليب المعقوف) يا رمز الشر ، يا رمزي انا ، في كل لحظة تتكون نقطة حمراء في غضون الرأية ثم تنفصل وتسقط على الاسفلت : ان الفضيلة تنزف الدماء » (٢٤) .

وفي ذلك الموضع من الرواية يرى دانييل طائرة تشق السماء . (يقول سارتر) « استقبل بارتياح تفرق السماء وأومضت الطائرة تحت الشمس ، واصبح للبلدة الميتة شاهد آخر ورفعت البلدة الى تلك العينين الاخريين الآلاف من رؤوسها الميتة ولو اسقطت الطائرة قنابلها لكان بعثا جديدا ولعادت للبلدة حياتها الاولى ولاكتست جدران مساكنها بأجمل الازهار الطفيلية » (٢٥)

ولكن سير الاحداث يخيب توقع دانييل فالطائرة لا تسقط قنابلها ويعود للبلدة سكنها المعزول .



ان الذاتية التي بنيت عليها الفلسفة الوجودية والشریان الالهامي الذي نبض في كل صور سارتر تقريبا يؤيدان حثا الى التعبير بطريقة التداعي الحر وكان سارتر قد نص في كتابه « الوجود والعدم » بتشدد : « اذا أكلت كعكة صفراء فلا بد ان يكون طعمها اصفر » (٢٦)

Ibid.' p. 175.

(٢٢)

Ibid.' p. 93.

(٢٣)

La Mor dans l'ame' p. 115.

(٢٤)

Ibid.' p. 116

(٢٥)

Cité par Champigny, op. cit.' p. 62.

(٢٦)

cf. R. Pieard, loc. cit. p. 293.

ويأتي سارتر مرارا بنشأته من نفس النوع وبين اشياء لا تضمها نفس الفصلية ولا يخاطب كل منها الحاسة التي يخاطبها الآخر، وترتفع نيرة الاغراب في بعض الاحيان حتى تقارب الهذيان .

فعندما زار الرسام جوميز الذي انقطع عمله بالرسم لظروف الحرب الاهلية الاسبانية : زار لأول مرة متحف الفن الحديث في نيويورك ويصف سارتر تأثير الألوان عليه بسلسلة من الصور تختلط فيها احساسات متنوعة (يقول سارتر) : « كان وكأنه عولج جراحيا من مرض بصري ، اضاءت كل الألوان في نفس الوقت ورحبت به ، كانت الألوان تفرع كل الاشياء بنهض مجنون ، كانت الألوان نداءات وذبذبات بل انفجارات ، هاجمته الألوان من كل جانب وانفجرت في عينيه كما تنفجر زجاجات الدم والسم . (٢٧)

واحيانا تنطلق صور سارتر من الاحساسات نفسها لا الاشياء التي تثيرها ، ويخلط كذلك بينها فيقارن بين الصمت واللمس والشتم (فيقول) : « كان يحس في ظهره بضغط الصمت السحري » (٢٨) .

(وايضا) « فتح النافذة وتدل في الفراغ وتنفس رائحة بنفسجات الصمت (٢٩)

والصوت الآدمي وان استقل عن صاحبه ما زال يستمد منه قوته ويستنهكه كما يستنهك حيوان طفيلي الآدمي (فيقول سارتر) « كان صوته يخرج منه رغما عنه ، وكان صوته يتغذى عليه وكأنه مخلوق طفيلي هائل ، لو استطاع لامتص دمه وامعاءه بغية تحويلها الى أغاني » (٣٠) بل تمكن رؤية الروائح باشكالها المحددة تماما والوانها الواضحة (يقول سارتر) : « وبعد العاصفير تيقظت الاعشاب ، والقت بدورها براحتها كما كانت العاصفير تلقي بصيحاتها ، روائح خضراء سعيدة لا زالت مدببة وحمضية الطعم ولكنها سرعان ما ستحلو تدريجيا وتكبر وتتضخ انوثتها كلما اشتدت زرقعة السماء » (٣١) .

وفي فلسفة جان بول سارتر يلعب الجسم الآدمي دورا مهما ، وقد أرينا ان سارتر يفترض في العالم انه « في ذاته » وبالتالي ابعد ما يكون عن تيار الفكر ، وبالتالي فالجسم هو جزء من ذلك الذي هو « في ذاته » اي من العالم : العالم - الجاد ، ما جسم الانسان بالنسبة اليه ؟

ان مفهوم سارتر الذي بسطه في كتابه « الوجود والعدم » هو أن كينونة الانسان كلها ليست الا « وجودا - في - العالم » حسب تعبير « هيدجر » ونحن « في - العالم » بواسطة الجسم . يقول سارتر : « اذن ليس الجسم

La Mort dans l'ame' pp. 25-26.

Ibid.' p. 79.

Ibid.' p. 140.

Ibid.' p. 105.

Ibid.' p. 45.

(٢٧)

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠)

(٣١)

بتاتا اضافة عارضة الى روحي، ولكن على المكسب بناء ثابت لكياني والشرط الدائم لاستمرار امكانيات ادراكي من. حيث ان هذا الادراك ينصب على العالم» (٣٢).

أي لا غنى للادراك عن الجسم، ويضيف سارتر «ان الادراك الواعي هو نفسه الجسد بل انه ليس الا الجسد، وسائر ذلك عدم وصمت» (٣٣).

وبالتالي فالجسم جزء مما هو في ذاته أي من العالم المادي الصلد ومع ذلك يكون البناء الدائم لكياننا ولا غنى عنه لكي توجد حالة الوعي. وهذا هو ما كنت اقصده بقولي ان مفهوم سارتر للجسم مبهم.

ان كون الجسم مشتركا مع ظواهر الطبيعة العديدة الحياة يوحي الى سارتر ببعض صور خيالية تصنف الجسم بكميات تصلح لوصف المعادن او النباتات (يقول سارتر) «كان ذلك الرجل شفافا يظهر الشمس. وكانت الحياة تملو وتهبط وتدور بسرعة عجيبة للغاية في شجرة عروقه الزرقاء» (٣٤) «وايضا» «عندما كان يلمسني كنت استحيل الى مخمل، والآن اصبح جسدي كطين يابس يتفتت تحت اصابعه» (٣٥).

وفي صور أخرى يصف سارتر الاحساس الغريب الذي ينتابنا حين يبدو وكأنه قد انفصل عن الجسد احد أجزائه او احدى وظائفه واكتسب وجودا مستقلا. وقد رأينا كيف يكن تصوير الصوت الآدمي بصورة طفيلي عملاق، وسنرى الآن التطوير الذي سيسبغه المؤلف على التنفس الآدمي. (يقول سارتر) : «وعلى يسراها كان تنفس خشن - كان هناك منذ خمس دقائق بيتا لم تكن هي قد تنبعت لوجوده. كان ينزلق إليها ويستقر في رتبتها ويصبح تنفسها هي» (٣٦).

وفي ادب سارتر تتخذ الاستعارات التي تشبه اعضاء الجسد بالكائنات الميتة شكلا مختلفا عما اتخذته في الادب الفرنسي عامة، فهو الآخر لا يخلو منها، فبعض تشبيهاته بصرية بحتة (يقول سارتر) : «كان له وجه منهك وغائم كالضباب يعلو بياقته المغكوكة الازرار» (٣٧) «وايضا» «كانت تحس بأنفها يضيء تحت نظرتها وكأنه مصباح» (٣٨). بيتا تصور تشبيهات أخرى لسارتر الجسد الآدمي بالالة (يقول سارتر) «باعد الرجل بين

Jean. Paul Sartre, *L'être et le néant* Gallimard Paris, 1943, p. 392. (٣٢)

Ibid.' p. 395. (٣٣)

La Mort dans l'ame' p. 75. (٣٤)

Ibid.' p. 175. (٣٥)

La Mort dans l'ame' 23. (٣٦)

Ibid.' p. 99. (٣٧)

Ibid.' p. 156. (٣٨)

اعضاء جسمه فيدا كملبة تنفتح » (٣٩) (وايضا) « كان زنده بارزا كأنه نفخ بنفاخ » (٤٠) (وايضا) « كان جفنه الايسر بدأ يضطرب في وجهه التشبيه بالرماد كما تلوح نافذة مفتوحة في يوم عاصف » (٤١)

كما يشبه سارتر ايضا الحشود بكائنات غير حية ، وقد طور سارتر هنا تشبيه الحشود ببياه البحر وان لم يكن اول من ابتدع هذا التشبيه من الفرنسيين او غيرهم (فيقول) : « دحرجت عليه الحشود مدحا المائي ومملت الامواج الى قمعتها حزما من الاعين البارقة الميتة ، وكان الرصيف يرتجف وقد لطفه الالوان الملتهية ، وكانت الحشود تبعث بخارا كالذي تبعثه ملاءة رطبة اذا تعرضت للشمس » (٤٢) .

وفي موضع آخر يحكم سارتر تشبيهه فيقارن بين حشد المهاجرين عن فرنسا من الشمال الى الجنوب وبين ثالة النبذ ، ثالته الداكنة (فيقول) : « كانت ثالة المشاة السوداء تغطي الطريق » (٤٣) وبالمثل فان التشبيهات المتأثرة بصورة الحيوان اهمية كبيرة في رواية سارتر وليس من قبيل المصادفة ان يفتتح هذا المجلد بصورة خيالية مستلهمة من الحيوانية ويختتم بصورة مثلها . فالجملة الافتتاحية تقارن بين موجة الحر التي اجتاحت نيويورك وبين حشرة قارضة (يقول سارتر) :

« حشرة قارضة ؟ استل سكينه وفتح عينيه . كان حلما . لا . كانت الحشرة هنا وقد انشبت فيه مخالبها الماصة : كانت الحرارة » (٤٤)

ومن الواضح تسلط هذه الصورة ، وفي موضع تال من الرواية تعاود تسلطها « يقول سارتر : « وفي الخارج كانت الحشرة القارضة تخترق بالآف الحراطم الماصة » (٤٥)

وكذلك تختتم الرواية بصورة حيوانية المصدر رمزية الغرض « غدا ستأتي الطيور السوداء » وتلك الجملة هي احد الامثلة النادرة على « التقديم والتأخير » في الرواية ، وكأنما صاغ المؤلف الجملة بهذه الكيفية لتنتهي هي والكتاب معا بكلمة « السوداء »

وكالعادة تتخذ الصور الخيالية الحيوانية المصدر عند سارتر شكلا مجازيا وهو يستخدمها لوصف الآدميين سواء ليصممهم بالوحشية اوليشير لبعض الصفات القبيحة في مظهرهم (فمثلا) . « الوحش القذر الذي تكاثرت في ليل

Ibid.' p. 157.

(٣٩)

Ibid.' p. 130.

(٤٠)

Ibid.' p. 68.

(٤١)

Ibid.' p. 31.

(٤٢)

Ibid' . p. 17.

(٤٣)

La Mort dans l'ame' p. 30.

(٤٤)

Ibid.' p. 30.

(٤٥)

جسده» (٤٦) أو (وكذلك) «رأى ماتيو عيني المرأة تحت الشربط الذي ترتديه حول جبهتها» ... ثابتتين ومستديرتين كميني فرخة عجوز» (٤٧)

(وايضا) : «لمح ضفدعا يتوالب تجاه المعركة ونظر ماتيو للحظة الى ذلك الحيوان الافرطس ثم اصبح الضفدع رجلا» (٤٨).

واحيانا نجد في رواية «الحزن حتى الموت» صورا تروق للذوق ولا تصدمه (فمثلا) : «كانت تبدو نبيلة أنوفة وحزينة كفرس» (٤٩) وايضا . احس دانييل نفسه غريبا كوعمل شرود يلقي على متسليتي الجبال نظرة عذراء بطيئة» (٥٠)

وسارتر يقرن ايضا بين الكائنات الميتة والحيوانات فيقول «تغلق البيوت على نفسها كالقواقع» (٥١) وايضا «شارع سان ميشيل - الذي كان بالامس سيلا طويلا من الذهب يتجه جنوبا - كان اليوم حوتا نافقا منتفخ البطن . دق دانييل خطواته على پروزات ذلك البطن وانخفاضاته» (٥٢)

ان الصورة الاخيرة هي احدى الصور المنفرة العديدة التي يفرزها خيال «دانييل» المحموم اثناء سيره في شوارع باريس الحالية . وفي نفس الفقرة يحيل الى دانييل ان انفجارا قد وقع وتنفجر بالتالي مرارته من مواطنيه على هيئة استعارة حيوانية مقذعة (يقول سارتر) :

«انهم يعدون : اولئك الشهود والقضاة واهل الاحسان ، انهم يعدون تحت الشمس وقارور السماء يقفص طائرات على رؤوسهم» (٥٣)

وفي نفس الوقت يقع فعلا انفجار حقيقي بالقرب من ماتيو وفرقة وهنا ايضا يشبه سارتر الطائرات الحربية بالطيور الجوارح التي تحوم في السماء بحثا عن جثث تنهشها (يقول سارتر) :

«كانت الطيور الجوارح متراخية ومنتعشة تدور قليلا فوق البلدة تبحث عن فرائسها ثم بعدت وهي تجر وراءها أصواتها المعدنية التي كانت تتوالب فوق اسطح البيوت» (٥٤)

Ibid.' p. 176.

Ibid.' p. 114.

Ibid.' p. 185-186.

La Mort dans l'ame' p. 132.

Ibid.' p. 80.

Ibid.' p. 83.

Ibid. p. 81.

Ibid.' p. 81. L'azur du ciel

La Mort dans l'ame' p. 83.

(٤٦)

(٤٧)

(٤٨)

(٤٩)

(٥٠)

(٥١)

(٥٢)

(٥٣) قارور السماء =

(٥٤)

ينبأ يقارن سارتر في موضع آخر: بين الطائرات وصغار الضفدع (فيقول) « وبدت له الطائرات كصغار الضفادع تسبح في مياه السماء » (٥٥)

وكذلك يشبه سارتر المجرى بالحيوانات (فيقول) : نحن كاحلام الدود ، فأفكارنا تسمك ويقل نصيبها من الأدمية تدريجياً ، غدت افكارنا تعدو في كل مكان : افكارنا تلك التي يكسوها الشعر ونبتت فيها مغالب غدت تتناقل من رأس لآخر : ستدب في الدودة الحياة » (٥٦)

وهذه الصورة هي إحدى مجموعة كبيرة مثيرة للاهتمام من الصور استلهمها سارتر من عالم الحشرات . وقد اختار سارتر هذا النوع من الاستعارات بالتحديد وهو يصف الخروج الكبير من باريس على لسان « سارة جوميز » وصغيرها اللذين كانا بين المهاجرين على حين تسد السيارات الشوارع (فيقول) :

« كان النمل الأسود الطويل يشغل الطريق كله وكانت الحشرات تتقافز امامهم كبيرة وطويلة وغامضة وكانت السيارات تنز كسرطان البحر وتزقزق كالعصافير ، كان الرجال قد تحولوا الى حشرات وكانت خائفة » (٥٧) (وايضا) « مرت السيارات امامها واحست ان عيونها خفية تراه ؛ عيوناً غريبة اصحابها ذباب ونمل » (٥٨)

وبالتدريج تكبر الكائنات التي تشبه بالحشرة حتى يشبه اكبرها وهو الحشد الذي يغطي الشارع بدوره بالحشرة (فيقول سارتر) : « لقد احتوانا الحشد والحشد يسير ونحن معه ، لسنا الا ارجل تلك الدابة التي ليس لها نهاية » (٥٩)

وتعود مراراً صور الحشرات في الرواية بمثابة كمناسبة الكابوس أو الوهم المتسلط (فيقول سارتر) :

« تلك النطفة الرمادية التي كانت تتحرك حركة طفيفة لصق الارض وقد في اتجاههم رؤوسها المتعددة » (٦٠)

(وايضا) « كان كل جسمه يتأوت كما تتأوت الحشرات حين يهددها الخطر » (٦١)

« وكان الباقون يجهرون في كل اتجاه كالنمل المجنون » (٦٢)

Ibid.' p. 24.

(٥٥)

Ibid.' p. 89.

(٥٦)

Ibid.' pp. 21-21.

(٥٧)

Ibid.' p. 21.

(٥٨)

La Mort dans l'ame' p. 24.

(٥٩)

Ibid.' p. 85.

(٦٠)

Ibid.' p. 117.

(٦١)

Ibid.' p. 170.

(٦٢)

وصورة الحشرة تؤدي الى الصورة الاقنطع أي الابداء (يقول سارتر) :

« لقد خرسوا ، ماذا كانت تلك ان تفعل سوى ان تخرس هذه الحشرة الوضيعة التي كانت تلوث ذلك النهار البديع في يوم من شهر يونيو ، صبرا فستأتي اداة القضاء على الحشرات وترش كل الشوارع بالدي دي تي » (٦٣)



وتلعب كل هذه الصور دورا هاما واساسيا في استحضار حالة الغثيان التي يعتبرها الوجوديون احدى مراحل النفس الانسانية . وستتوقف هنا قليلا بمناسبة صور الحشرات عند سارتر لتحليل احد مناهج « الاسلوبية » الادبية يستأهل عناية خاصة لان نتائجه سريعة وهامة . وهذا المنهج يستند الى افتراض ان الكاتب يكتشف عن نفسه من خلال اختياره للصور التي يغترفها اساسا من خبرته الشخصية وبصفة خاصة من التجارب التي استحوذت على انتباهه أو ألهمت خياله او كان لها عليه انطباع قوي وهناك مثل واضح على صحة هذا الفرض في قصيدة فيكتور هوجو « Booz endormi » حيث ترفع « راعوث » رأسها الى السماء ليلا بعد يوم شاق من العمل وترى السماء ولكن فكرها ما زال مشغولا بأحداث النهار وانطباعاتها عنها فتذكرها السماء المرصعة بالنجوم بحقل مزروع ويذكرها الهلال بالمنجل .

(القصيدة) :

« هذا الهلال البارقي الرشيق بين زهور الظل كان يلعب غربا ، وراعوث ثابتة ترفع بعض بصرها من خلال نقابها تسائل نفسها اي رب ؟ ، اي زارع للصيف الخالد قد القي في طريقه عن غير عمد منجل الذهب هذا في حقل النجوم ؟ »

من الصعب الحكم حكما جازما من واقع صورة منفردة ، ولكن ان امكن تتبع تشكيل بنائي او مجموعة متناسقة من التشكيلات فان ذلك يمكن ان يساعد على الحكم على أدب مؤلف أو آخر . وفضل تطبيق هذا المنهج هو الذي حاولته « كارولين سبرجن »^(٦٤) التي حللت صور شكسبير والتي سعت الى توصيف « سيرته النفسية » وجدانه ومعاناته ويوميه من خلال اختياره لتلك الصور في اعماله الادبية ، ولا شك ان شكسبير نفسه يسهل المهمة على من تصدى لمثل هذا البحث ، فمن ناحية له اعمال ضخمة حافلة بالصور الخيالية والتشبيهات الثرية ، ومن ناحية اخرى فالمعروف عن حياته الشخصية والعامة ضئيل جدا . وقد تبدو بعض النظريات التي خرجت بها كارولين سبرجن ساذجة بالغة الخيال ولكنها اصابته الحقيقة على ما يبدو حين فسرت على سبيل المثال صور الفيضان عند شكسبير على انها ذكريات عن فيضان نهر « أفون » الذي امضى طفولته على ضفافه . ومن

Ibid.' p. 81 .

(٦٣)

Carolyn Spurgeon, *Shakespeare's Imagery and what it tells us* London, 1954, pp. 93-112. (٦٤)

المعروف عن هذا النهر انه كان ولا يزال نشط الفيضان ، فكان هذا سبب اكثار شكسبير من استخدام الفيضان مثلا لظواهر اخرى ، ونرى مثلا على تلك الصورة المستوحاة من الفيضان والتي مردها طفولة شكسبير في كلمات عظيم :

« ان حزني انا قد فاض
وطغى عاليا ونضج
فابتلع كل احزان الناس
فلم ينقص بل ظل كبيرا »

وبالفعل هناك احوال يكون فيها اختيار الصور لدى الاديب بتأثير تجارب حية او انفعالات قوية لم تحت داخله . فصور القطار عند الفريد دي فيني مثلا والتي ترد كثيرا في شعره هي نتاج الصدمة التي لم يشف منها قط اثر وقوع حادث قطار في فرساي سنة ١٨٤٢ وموت بعض معارفه وما تبع ذلك من نفوره الشديد من القطارات ، فيحذر في قصيدته « بيت الراعي » من مخاطر ذلك الاختراع الذي كان جديدا وقتها :

لقد ركب الانسان قبل الوان صهوة ذلك النور الحديدي
الذي يزفر وينفخ ويرغي ويزبد
ولا يعرف احد بعد اية اعصارات
يحملها داخله هذا الوحش الاعمى »

على ان الافتراض المطلق ان الصور الخيالية عند كاتب لا تخرج عن تجاربه وانطباعاته الخاصة يمكن ان تقود الى نتائج خاطئة فان كثيرا من الصور والتشكيلات البنائية قد اعمل فيها الكاتب وعبه عن عمد بغرض فني بحيث لم تعد تكشف شيئا من نفسه العذراء . وكثيرا منها كذلك وان كانت تلقائية الا انها وليدة نزوة التداعي وكثيرا منها كذلك قد يكون مصدرها الادب نفسه لا الحياة ، أي ان يكون الاديب متأثرا بأديب آخر في اختيارها وسنعود الى ادبنا سارتر لتوضيح الى اين يؤدي التطبيق الاعمى لمنهج كارولين سيرجن . وقد رأينا ان في رواية سارتر « الحزن حتى الموت » تكرارا متسلطا لصور الحشرات فالجر يشبه بحشرة قارضة والمركبات والناس في شوارع فرنسا اثناء الخروج في سنة ١٩٤٢ يصورون كمجموعة من حشرات تزحف زحفا اليها وكلما توغلنا في الرواية وجدنا صورة تتطور الى رمز هام . هل يمكن ان نفسر ذلك على انه علامة على اهتمام سارتر بعلم الحشرات ؟ ام هل يجب ان نفترض ان سارتر في طفولته قد مر بخبرة الية مصدرها متصل بالحشرات ؟ . وهل سمنتم بنفس التفسير السيكولوجي الى كتاب آخرين تلعب عندهم الخيالات الحشرية نفس الدور الهام ومنهم مثلا

اندرية مالرو ؟ ^(٦٥) هناك بلا شك حالات يمكن ان نقرر فيها بشكل حاسم ان هناك صلة بين الخبرة الشخصية والصور الخيالية ، ولكن عموما يكفي ان نفترض ان كلا الكاتبين قد التفق الى امكانيات الافادة المتنوعة من المقارنة بين النشاط البشري والنشاط الحشري وان كلا منهما قد طورها في اتجاه رمز معين .

ومن الصور الهامة التي اختارها خيال سارتر في الرواية تلك التي تنتقل من الملموس الى المجرد . ومن الصعب فهم بعض التجارب والمشاكل التي يمر بها الوجودي دون امثلة واضحة تنتقل بنا الى افكاره المجردة عبر جسر من الملموس ، ولكن يمكن ايضا تحديد اتجاهين آخرين ، الاول الصدمات العنيفة التي تحدثها الخطوب غير المتوقعة والثاني ان المجاز والصور المحملة ليس الا متنفسا للمرارة التي تكتنف شخصيات سارتر . والاتجاهان يتضحان في عديد من الصور المريرة تتعرض لبعض القيم الاخلاقية ، اولا تتعرض للطيبة كما في المثل التالي :

« ملأت الطيبة ثدييها كما يملأها اللبن واكتنظت بطبيعتها التي لا تستعملها كأثما ملأها غاز » ^(٦٦)

وثانيا تتعرض للاحسان كما في المثل التالي :

« واتخذ قراره ، هوى قلبه الطيب الشفوق من غصن الى غصن ، انتهى ، لم يعد له قلب » ^(٦٧)

وثالثا تتعرض للاخوة كما في المثل التالي :

« كان قد بقي لي في اعناق فمه من ليلة الامس طعام - قد برد - من الاخوة » ^(٦٨)

واحيانا يأتي سارتر بصورة شعرية ثم يزيحها فنفقددها وكأنها سراب (فيقول) : « بالطبع كانت البراءة تبرق تحت شمس الصباح ، كانت ملموسة على اوراق الاعشاب ، ولكنها كانت تكذب ، والذي كان حقيقيا كان ذلك الخطأ المشترك المنفلت : خطؤنا » ^(٦٩)

ويمكن للصور المجازية ايضا ان تتعرض للجوانب السلبية لذاتل معينة وتؤكد عليها فتصور الكراهية كسائل قذر (فمثلا) « لقد فجرت الكراهية رذاذها الى السماء » ^(٧٠)

Cf. G.O. Rees, "Animal Imagery in the Novels of André Molrauw", *French Studies* (٦٥)
vol. IX, 1955,

pp. 129-142.

La Mort dans l'ame' p. 23.

Ibid.' p. 174.

Ibid.' p. 99.

Ibid.' p. 50 .

Ibid.' p. 185.

(٦٦)

(٦٧)

(٦٨)

(٦٩)

(٧٠)

ويأتي سارتر بنفس التأثير عن طريق الكناية فأولا « مروا بين سياجين من البغض الهين » ^(٧١) وثانيا « رفع رأسه فوق تلك الطاعة المشعرة » ^(٧٢)

وباستعمال الاسماء « البغض » و « الطاعة » المجردة بدلا من « الاعداء المبهضون » و « المرأة المطيعة » ينجح سارتر في تكثيف المعنى وفي الوقت نفسه يعزل الصفة ويكسبها لها حيا ، ونجد عند سارتر ايضا امثلة اعتد من ذلك كما في الاسطر التالية :

« تحطم خلود تمثاله وطار مع قهقهات الضحك » ^(٧٣)

ويلجأ سارتر ايضا الى رصد التجارب والعمليات العقلية المجردة بكلمات تنتمي الى مجال الخبرة الحسية كاللمس او الحرارة او الصوت .

فمثلا « سمع صيحات وهو يعلم حلما متعجنا » ^(٧٤)

وايضا « مد يديه الطويلتين كأنما يريد ان يتحسس النبأ بحذر » ^(٧٥)

وايضا « المجد الذي سرى من الارض الى بدنه كأنه دفء حيواني » ^(٧٦)

وايضا « لثانية واحدة أثت ذكريات كما تنث الاشجار بفعل الرياح » ^(٧٧)

واخيرا « حركت صلاصلا مشاكلي » ^(٧٨)

وتوحي مشاهد معارك سنة ١٩٤٠ الى سارتر بالعديد من المقارنات الغريبة فتبدو له فرنسا وكأنها جهاز ضخم قد توقف عن العمل ، يقول :

« والآن انطرح فرنسا ورأيناها ، رأينا آلة كبيرة معطوبة وفكرنا : نعم نعم انه كذلك » ^(٧٩)

وخلال مسيرته الكابوسية داخل باريس يأخذ دانييل بغتة شعور بأن المدينة ليست تماما خالية ولكنها مليئة بجيوش صغيرة تحارب في كل اتجاه وتهرب بعد هزيمتها تاركة ثغرات في اسوار المدينة ، فيقول دانييل لنفسه

Ibid.' p. 146.

(٧١)

Ibid.' p. 148.

(٧٢)

La Mort dans l'ame' p. 69.

(٧٣)

Ibid.' p. 185.

(٧٤)

Ibid.' p. 67.

(٧٥)

Ibid.' p. 138.

(٧٦)

Ibid.' p. 174.

(٧٧)

Ibid.' p. 69.

(٧٨)

Ibid.' p. 46.

(٧٩)

« ليست باريس خالية بالمعنى المفهوم بل هي مليئة ولكنها مثقوبة »^(٨٠). وتحت ضوء القمر يرى دانييل اشكالا -جديدة تتخذها باريس ومنها « الحجر المعق في رحيق التاريخ »^(٨١).



ان الاستعارات التي يستخدمها سارتر عند التعرض لافكار الوجودية الكبرى مثل الاختيار والالتزام والقلق والتضامن وطبيعة الوجود وطبيعة الزمن توضح العلاقة الوثيقة بين فلسفته وصوره الخيالية .

ان كلمة الوجودية نفسها تعني التسليم لدى معتقها بأولوية الوجود على الماهية ويقول جان بول سارتر « بالمصطلح الفلسفي ، لكل شيء وجود وماهية ، ويظن الكثيرون ان الماهية تأتي اولا والوجود بعد ذلك ولكن الوجودية تنص على العكس . ان لدى الانسان والانسان وحده يسبق الوجود الماهية ، وهذا يعني ببساطة ان الانسان يكون اولا ثم يكون هذا اوداك »^(٨٢) . والتجربة الدالة على هذا المفهوم للوجود والذي يمثل لمعتني هذا المذهب ما يمثله « الكوجيتو » اوال « انا افكر اذن انا موجود » لمعتني مذهب ديكارت . *

اقول ان هذه التجربة قد تم وصفها بعناية وقوة في زاوية سارتر الاولى « الفئشان » ، فبرينا سارتر كيف اكتشف « روكوتيني » بطل الرواية الذي كان لا يزال يرقب الاشياء بل يكتفي باستخدامها : اكتشف الوجود ، ولكن ماذا يجب ان يعني « الوجود » ؟ في مصطلح الوجودية ؟ ليس « الوجود » مرادفا « للكينونة » . فالاشجار تكون ولكنها لا توجد الا بالفعل العقلي الذي يضيف عليها ذلك - فالوجود الفعلي ليس « حالة » ولكنه « فعل » ، فهو الانتقال الفعلي من « الممكن » او « المحتمل » الى « الواقع » . ومع ذلك فلا يكفي مجرد الانتقال الفعلي من حالة الى حالة شرطا للوجود ، فان الصيرورة والوجود الحقيقي يشترط الحرية ولذلك فالوجود هو من نصيب الانسان دون سائر الكائنات (بفضل حريته) ومع ذلك فلا يجب مجرد الافتراض ان كل انسان يتمتع بنصيبه ويوجد حقا ، فهناك كثيرون يتبنون القطيع ولا يؤدون اختيارا حقيقيا ، واولئك على حد تعبير هيدجر - هم الذين يشيرون الى انفسهم بكلمة « المرء » بدلا من كلمة « انا » ، وليس هؤلاء وجود اصيل . ففي نظر سارتر كما في نظر هيدجر ، لا يوجد بأصالة الا الذي يختار حريته ويصنع نفسه بنفسه والذي هو نتاج عمله هو نفسه . وفي المجلد الاول من رباعية « دروب الحرية » لسارتر هو المعنون « سن الضحج » يقول دانييل

Zbid.' p. 80.

(٨٠)

Ibid'. p. 155.

(٨١)

Jean Paul Sartre, Action' 27 décembre 1944.

(٨٢)

(*) انظر في ذلك مقال الدكتور جيب الشاروني المنشور في هذا العدد - مستشار التحرير .

« أريد ألا انتسب إلا لنفسى » (٨٣) وفي كتاب سيمون دي بوفوار « دماء الآخرين » تعجب البطلة « هيلين برتراند » بصديقها « جان بلومار » لأنه يبدو عليه الرضا بنفسه وتقول له :

« أن هذا هو مصدر قوتك ، رضاك عن نفسك ، ويشوبني انطباع أنك خلقت نفسك بنفسك » (٨٤) ، وبعد ذلك تستغرب أن له أما : « كان من الصعب الاقتناع بأنه مدين بحياته لاحد ، أكان يمكن ألا يكون قد وجد ؟ » (٨٥) .

إن المحور الثاني لفلسفة الوجودية هو الاختيار للإنسان حرية الفعل ولكن عليه أن يختار طيلة الوقت ، فحتى الامتناع صورة من صور الاختيار ، والإنسان من خلال اختياراته المتعاقبة يلتزم بها ، وهذا الالتزام يجد من حريته المقبلة ، وفي الوقت نفسه لا توجد معايير مطلقة تملي عليه اختياراته . ففما يخص الإنسان يسبق الوجود الماهية ولذلك فليس هناك مثل قبلي يقود خطوات الإنسان في اختياره ولا سلطة أو قاعدة تفرض عليه سلوكه . وفي مسرحية سارتر « الذباب » يقول أوريست لجوبيتر الذي يريد أن يرده إلى حظيرة الطاعة «

« ما كان يجب أن أخلق حراً .. فما أن خلقتني حتى لم أعد ملكاً لك . ولا يوجد في السماء خير أو شر أو شخص يصدر إلي أوامر .. لن أعود إلى شريعتك إن من المحتوم علي ألا تكون لي إلا شريعتي ، فأنا إنسان يا جوبيتر ويجب على كل إنسان أن يخترع طريقه » (٨٦) ، وفي روايتنا « الحزن حتى الموت » يصف سارتر مأساة هذا الموقف الإنساني عموماً واحتدامها في صيف سنة ١٩٤٢ فيقول :

« أن نفوس في فعل مجهول كما نوغل في غابة : في فعل .. في فعل يلزمنا ولا نفهمه حق الفهم قط » (٨٧)

وفي فرنسا الهزيمة ستكون حرية الفعل محدودة وبلا جدوى (يقول سارتر) :

« سكت وقد قال لنفسه : يجب أن نحيا .. نحيا ونجني يوماً بيوم ثمار الهزيمة العفنة : وإن نرد هذا الاختيار المطلق إلى تفاصيل تنطق بالخيبة » (٨٨)

وبعد ذلك ينتاب ماثيو ياس يتبلور في صورة تكاد تكون أسطورية (فيقول) :

« مأسوي ؟ ولا حتى ذلك . تاريخي ؟ لا ولا ذلك ، نحن مهرجون لا يستحقون دمة واحدة مقهرون

Jean. Paul Sartre, L'Age de raison' Gallimord, Paris, 1945, p. 18. (٨٣)

Simone de Beauvoir, Le Sang des autres' Gallimard, Paris, 1954, p. 127. (٨٤)

Ibid.' p. 127. (٨٥)

Jean, Paul Sartre, Les Mouches' Gallimard, Paris, 1947, Acte III, Scène II. (٨٦)

La Mort dans l'ame' p. 77. (٨٧)

Ibid.' p. 50. (٨٨)

لهدف ؟ لا ولا ذلك ، ان العالم هو مجرد مصادفة ، كان يضحك ويضرب برأسه حائطي القدر والعبث المتواجبهين واحدا بعد الآخر » (٨٩) .

وفي مواجهة الاخطار التي تتهدد الموقف الانساني : يغزو الانسان شعور بالقلق ، وقد جعلت الوجودية من القلق احد خيوط نسيجها الرئيسية وهو خيط يعود تاريخيا الى المرهصين بالوجودية من الفلاسفة شأن باسكال وكير كوجارد ، وتدخل صور عديدة تصف القلق وأثارة الى رواية سارتر ومعظمها تبرز الاعراض التي يحسها البدن والمصاحبة للقلق الذي تستشعره النفس الآدمية ، وربما جاءت الصورة وجيزة لا تلم بكل جوانب حالة القلق (فمثلا) « كان يشعر بأن القلق يطغى عليه كما يطغى مد البحر على الشاطئ » (٩٠) (وايضا « شقه القلق تصفين » (٩١)

بيتا في مواضع اخرى من الرواية تلم الصورة بعدد اكبر من التفاصيل (يقول سارتر) : « ومرة اخرى القلق : بدأ حذرا كما تبدأ الملاطفة ، ثم استقر متواضعا واليقا في اعماق امعائه ، لم يكن شيئا ، مجرد فراغ .. فراغ في داخله وفراغ حوله ، كان يجول خلال غاز مخلخل » (٩٢)

كما يصف سارتر الاعراض المصاحبة للقلق الجماعي اذا وجدت هذه الظاهرة (فيقول) : « كانوا ينظرون بعضهم الى بعض ويخيفون بعضهم البعض ، لم يتحدث احدهم عن القلق ولكنهم كانوا يستشعرونه في الازرع والافخاذ : مؤلما كالضعضة وكان يلف في القلوب كالذبابة » (٩٣)

ومع ذلك فالتضامن بين الافراد لا زال من اشجع الوسائل لدرة القلق ، فعلى طول الرواية يشقى ماثيوسميا لذلك الشعور بالتضامن (يقول) : « في اوقات اخرى كان يصيح هو الجميع ، كان قلقه يهدأ وتتصاعد افكار الجميع الى رأسه في بقع ثقيلة ثم تتحدر من فمه » (٩٤)

وفي نفس الوقت يكون الفرد جزءا لا يتجزأ من الحشد على نحو بدني (فيقول سارتر) : « خلال لحظة واحدة اخترقتها هذه المسيرة الجماعية وصعدت من فخذيها الى معدتها واخذت تضرب في داخلها ضربات قلب منهك : قلب الجميع الكبير » (٩٥) .

Ibid,' pp. 69-70.

(٨٩)

La Mort dans l'ame' P. 125.

(٩٠)

Ibid,' p. 144.

(٩١)

Ibid,' p. 89.

(٩٢)

Ibid,' p. 83.

(٩٣)

Douloureuse comme une courbature.....

مؤلما كالضعضة =

La Mort dans l'ame' p. 84.

(٩٤)

Ibid,' p. 22.

(٩٥)

ان شخصيات سارتر تستشعر القلق بشكل حاد الى درجة ان القلق يكاد يصبح في روايات سارتر احدي الشخصيات (فيقول) :

« كان القلق يدور بين الخضرة والحضرات المتوردة الحدين ولا يتوقف في اي مكان » (٩٦) .

ويتخذ القلق ايضا شكلا مختلفا ، ففي اوقات الحساسية المفرطة يدرك بطل سارتر بحدة عبثية العالم ودقة موقف الانسان داخل ذلك العالم فينتابه نوع من الفزع او الذعر الميتافيزيقي (فيقول سارتر) :

« أحس ماتيو تحت فخذيه وتحت راحتيه تشابهك حياة الارض والعشب والحشرات : بشعر طويل مهوش وندي ولىء بالقلل : كان القلق العاري هو الذي تتوسده راحته ، كان مليون فرنسي سخفاء بين اقليم الفوج الفرنسي ونهر الراين الالمانى لأنهم لم يستطيعوا ان يكونوا رجالا . سيموتون وستظل تعيش بعدهم هذه الغابة الفطساء ، كما لو كانت الحياة في هذا العالم من حق الفلوات والبراري وحدها » (٩٧) .

ويستمر حوار ماتيو مع نفسه (مونولوجه الداخلي) ويتطرق الى صورة غريبة ملتوية تصف خبرة ملموسة بوصف ينطبق على خبرة مجردة (فيقول سارتر) :

« وكان للعشب الذي يلامس يديه اغراء الانتحار » واخيرا يختلط - عند البطل - الملموس والمجرد والآدمي والانساناني كما انمحت الحدود بين العالم فيقول سارتر « العشب والليل الذي يلصقه العشب بالارض والافكار الحبسية التي تحاول الهرب منبطحه أثناء الليل ، وذلك العنكبوت الذي كان يتأرجع قرب حذائه والذي اختفى بفتة تاركا صنيع اطرافه الشاسع » (٩٨) .

ويكشف خيط اخر في نسيج الفلسفة الوجودية الا وهو خيط الاحساس بالزمن عن بعض من اروع الصور التي ابتدعها خيال سارتر (٩٩) . ونقطة انطلاقها استعارة قديمة قدم الفلسفة نفسها : فكرة ان الزمن يسيل التي نص عليها هيراقليطس (١٠٠) فيستولي سارتر على هذه الفكرة ويتوسع فيها ويطورها الى وثي ادبي ، فمع حر صيف لا يطاق يسيل الزمن بطيئا وكثيبا .

(يقول سارتر) « كان الزمن يسيل بطيئا كشراب ادفأته الشمس » (١٠١) .

Ibid.' p. 43.

Les légumes joufflus.....

La Mort dans l'ame' p. 131.

Ibid.' p. 131.

Cf. R. Campbell, Jean Paul Sartre ou une littérature philosophique' Paris, 1945, chap. III.

Cf. B. Russell, History of Western Philosophy' London, 1948, p. 64.

La Mort dans l'ame' P. 70.

(٩٦)

الحضرات المتوردة الحدين

(٩٧)

(٩٨)

(٩٩)

(١٠٠)

(١٠١)

بل قد يبدو الزمن ثابتا تماما الا ان حركة مفاجئة تعيد اليه انتظامه (يقول سارتر) : « بل كان الزمن لا يسيل اطلاقا كان يرتجف ويتساقط على التل المحمر ، وحدثت حركة مباغتة واحس به ماتيو في عظامه كبادر معاودة رومانيزم قديم » (١٠٢) .

وفي صورة جريئة يقارن سارتر بين توقف الزمن وتجلط الدم (فيقول)

« احدث رحيلهم تمزقا مارقا في نقاء السماء وقطر قليلا من الزمن من هذا التمزق ثم توقف النزيف وتجلط الزمن ثانية » (١٠٣) .

والمستقبل هو الذي يحكم المفهوم الوجودي للزمن وليس هذا غريبا من فلسفة تضع الاختيار والحرية مكانا عليا . فبالنسبة للوجودي ، المستقبل عبارة عن « مشروع » بكل دلالات هذه الكلمة ، اي انه خطة وفي الوقت نفسه استكشاف . وقد كتب سارتر في مقاله « مفهوم الزمن عند فولكنز » ما معناه :

(حاولوا ان تتأكلوا وعيكم ثم تفحصوه ، ستجدونه مثقوبا يفتح على المستقبل . انني لا اتحدث اطلاقا عن مشروعاتكم وامالكم ولكن مجرد هذه الخطوة العارضة لن تكتسب في نظركم معنى الا اذا اطلقتم انجازاتكم امام وعيكم وامام انفسكم في ما لم يأت بعد » (١٠٤) .

كذلك لا يعدم سارتر موهبة تحويل المعاني المجردة التي يتمثلها الى صور ملموسة تبهرنا كما بهرتنا مهارته في تصوير الزمن ، ان ماتيو وقد افزعته احتمالات المستقبل المظلمة يحاول ان يستوقف الزمن ولو لبرهة - لمسافة لحظة - فيقول :

« انا هنا وسينهار الزمن وشبح المستقبل ولن يبقى الا استمرار مكاني مهزوز ، لم يعد هناك حرب ولا سلام ولا فرنسا ولا المانيا ، فقط لمعة ضوء شاحب تحت عقب باب ربما يفتح ، وهل سينفتح ؟ لا شيء اخر » (١٠٥) .

كانت تلك هي النسخة الوجودية من محاولة فاوست لايقاف الزمن وان اختلفت الاسباب ، ولكن آن للوهم أن يزول : (يقول سارتر) « وفي الحال عاد اليه مرور الوقت ، واخفت لؤلؤة الامل الصغيرة في مستقبل شاسع كريحه » (١٠٦) .



La Mort dans l'ame' p. 135.

(١٠٢)

1. id.' p. 137.

(١٠٣)

Cité par Campbell, op. cit., p. 51.

(١٠٤)

La Mort dans l'ame' p. 94.

(١٠٥)

Ibid. ' p. 94.

(١٠٦)

لا بد أن نوضح جانباً من صور الخيال عند سارتر لكي نفهم إبعادها الكاملة . أن توزيع الصور الطبيعي للغاية ويندر أن تظهر أحداها في وسط حوار ، وتلك التي تحيي على لسان إحدى الشخصيات ليست بالغة الخيال إلى درجة تلتفت نظرنا ما عدا تلك الجملة التي تحيي على لسان دانييل عندما يستدع المخطط الذي كان يقدم عليه « لأغواء » فيليب وهي « ستأبل من مرضك عندما تكون قد تخلصت مني وكأنني قشرة فاكهة مستهلكة » (١٠٧) .

وباستثناء تلك الجملة فإن الغريب في الرواية هو تلك الفجوة التي تفصل بين لغة السرد ولغة الحوار . ولسنا نبالغ إذا قلنا أن الحوار في رواية « الحزن حتى الموت » يحاكي أحاديث الحياة اليومية حرفياً ودون غريبتها وكأنه شريط تسجيل ، وأغلب الشخصيات سواء منها المثقف أو الأمي تتحدث بلغة خشنة حافلة بالالفاظ الدارجة ، وفي تصميمه على نقل لغتهم نقلاً أعمى فات سارتر أن يحني رأسه للذوق السليم أو لقيمة التنوع ، وهذا الإهمال قاسم مشترك بين سارتر وأغلب معاصريه من الروائيين الفرنسيين ، ولكن قل منهم من بالغ فيه إلى الحد الذي ذهب إليه سارتر ، وكون جمل الحوار « نيتة » إلى هذا الحد المركز قد فرش أرضية غريبة وليست مناسبة للتدفق الهائل للاخلاق المركبة التي سيظهرها فيها بعد داخل السرد ، كما أن الانتقال المتبادل بين خيالية السرد وجفاف الحوار يتم غالباً بطريقة غير متوقعة . وربما تعدد سارتر في رواياته أن يزيد التناقض بين لغة السرد ولغة الحوار وأن يجعل من هذا التعدد أحد جوانب ريادته الفنية في عالم الرواية . وقد ذهب « ريجون بيكار » في مقال ثاقب النظر إلى أن بين تشكيل سارتر والرمزيين قواسم مشتركة عديدة ، أي أننا نجد انتقالات وذكرًا لخبرات أليفة مبهمة وشبه ملهمة وتعامل ماهر مع دلالات الكلمات وموسيقيتها ، وفي نفس الوقت فالموضوع عند سارتر إلى حد ما قاسم مشترك مع « الطبيعيين » ، وهو يكتفي بأن يفيد من امكانات أسلوبه الثرية في مجرد وصف ظواهر كالغثيان وغيره مما يثير التفرز ، ويقول ريجون بيكار :

« أن الغريب عند سارتر هو أنه وضع عملاً فيه فن يعيد الرمزية إلى الازدهار . وضعه في قالب بلوح كأنه من المدرسة الطبيعية ، وقبل سارتر كنا نعتقد أن رامبو قد شجب جول رينار ، وأن فيرلين قد شجب زولا ، ولكن بفضل سارتر يمكن العدول عن هذا الاعتقاد » (١٠٨) .

لقد كتبت هذه الكلمات قبل نشر رواية « الحزن حتى الموت » ، ولكن يمكن تماماً تطبيقها على تلك الرواية ربما فيما عدا أن أحاسيس التفرز والغثيان قد دعمت أكثر من ذي قبل ووجد لها مبرر في الأحداث التاريخية التي مرت بها فرنسا في معمة ١٩٤٠ ، ولو أراد سارتر الرد على هذه الكلمات لقال دون شك « أن الغثيان مرحلة أساسية من مراحل نمو النفس البشرية وأن الوجودية التي تلج على الحرية والمستولية هي حتى النهاية فلسفة قوية وإنسانية » (١٠٩) .

Ibid. p. 130.

Raymond Picard, op. cit. p. 293.

J an. Paul Sartre L, existentialisme est un humanisme, Gallimord, Paris, 1946.

(١٠٧)

(١٠٨)

(١٠٩)

ومع ذلك فمن الصعب الجزم بأن رواية « الحزن حتى الموت » والمجلد الذي سبقها قد أملت بكل ملامح تلك الفلسفة وبصفة خاصة القوة والانسانية .

ومن الممكن توجيه نقد آخر الى رواية سارتر من حيث طبيعتها الصور الخيالية نفسها . ليس لان كثيرا منها منفرة وغير جمالية فذلك لن يكون نقدا جادا . فمن المسلم للغة الادب المعاصر ان تعبر عن واقع هذا الادب لا ان تقتصر على المجازية ، كذلك لا موضوع رواية سارتر ولا جو الرواية يفضي الى اخيلة تشرح الصدر لكي تكون لغة الرواية بالتالي جذابة ، ومن جانب آخر فان جودة الصور وقوتها تموض عن طابعها المنفر . ولكن النقد الذي يمكن توجيهه بجديته هو ان كثيرا من صور سارتر يمكن ان يبدو غريبا ومرغبا ، وقد تحدث احد النقاد عما اسماه « بتدفق صورلا رقابة عليها »^(١١٠) . والحق ان هذه الصور في الغالب مفهومة ويندر منها الصعب فهمه ، وحتى اكثرها غرابة يمكن تفسيرها على ضوء فلسفة سارتر ، ولكن القاري غير المتأهب الذي يقتحم الرواية دون معرفة مسبقة بالوجودية يمكن تماما ان يصدم بصور من امثال « تجلط الزمن » او « التمام جروح جسد المساء الممزق » او كون نهار الصيف له لحم طري ازرق » . ان مثل هذه الاستعارات لن يقدرها حق قدرها الا من تفهم طريقة التعبير التي تميز كتابات سارتر ، وفي الوقت نفسه يجب ان نتذكر ان اغلب الصور تكون نسيجا من حوار لا شعوري (مونولوج داخلي) يميزه اسلوب سارتر في استخدام الخطاب الحر اللامباشر ، وهذا الحوار يحاول ان يرصد تداعيات تولد تلقائيا في عقول الشخصيات والمفروض ان تلك الصور ملك لهم وليس للمؤلف .

ونحن من جانبنا لا نرضى بالاحتجاج بكون الخطاب حرا غير مباشر مبررا لنفكر لاي مؤلف شطحاته الادبية ، ولكنه يقينا دافع في محله حين يتعلق الامر بسارتر ، وذلك على الرغم من ان الصور الخيالية على اية حال لا تحتاج اي مبرر للدفاع . ويميز صور سارتر تراؤها وطاقتها واندلاعها الفكري ، وهو الكاتب الذي يجوب العالم باندھاش كاندھاش الاطفال ليكتشف ارتباطات جديدة بين الاشياء ويكتب اساطيره الخاصة ، فان سارتر « كيميائي » « Chimiste » على حد تعبير شارل برونو ؛ انه مفكر اهدف الفكر رؤيته . وقد تثير الوجودية من حيث هي فلسفة كثيرا من الشكوك ، ولكن لا شك انها هي التي أثرت سارتر برؤية جديدة للحياة وبطريقة اصيلة في النظر الى العالم ، فظهر هذا الثراء في صوره . والحق ان الصورة الخيالية هي من انجح الطرق لتوصيل تلك الرؤية الجديدة بشكل فني ملموس ، وعندنا في رواية سارتر مثل واضح على تكامل العنصر اللغوي مع البناء الداخلي في سبيل اتمام العمل الفني .



N. Corneau, *Littérature existentialiste Le roman et le théâtre de Jean. Paul Sartre* Liège, (١١٠) 1950 p. 45.

نبذة عن حياة الكاتبة العلمية

الدكتورة دولت صالح العرب استاذ مساعد بقسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب جامعة الاسكندرية . عملت بتدريس اللغويات والادب الفرنسي بكل من جامعات هارفارد وكوليبيا في الولايات المتحدة وجامعة القاهرة .

لها كتاب عن الشاعر « جيرار دي نيرفال » . .. صدر بالقاهرة سنة ١٩٧٩ باللغة الفرنسية . وبحث عن « بيكون وديدره ودالامير » باللغة الفرنسية ايضاً بحوليات كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . ومقالات عن كل من « فيكتور هوجو » و« بلزلك » و« رامبو » و« مدام دي ستايل » و« الاخوين جوتكور » و« مدام دي لافاييت » باللغتين الفرنسية والانجليزية .. نشرت في الدوريات الجامعية للولايات المتحدة .

BIBLIOGRAPHIE

- ADAM, J. M.
ALBERES, R. M.
ASTUC, A. et CONSTA
T, M.
BARTHES, R.
BAUDOUIN, D.
BEAUVOIR, S. de
BOSMAN, C.S.
BRINDEAU, S.
BROOK-ROSE, C.
BRUNEAU, C.
CAMINADE, P.
CAMPBELL, R.
CHAMPIGNY R.
COHEN, J.
COLVILLE, G.
CORMEAU, N.
CRUIKSHANK, J.
DIEGUEZ, M. de
EL ARAB D.
GODIN, R.
GENETTE, G.
GREENE, N.
HEIDEGGER, M.
HELBO, A.
- Linguistique et Discours littéraire' Larousse, Paris 1976.
Jean-Paul Sartre' Editions Universitaires, Paris, 1960.
Sartre' Gallimard, Paris, 1977.
"Rhétorique de l'image", *Communications*' 4, 1964, pp. 40-52.
"L'ancienne rhétorique", *Communications*' 16, 1970, pp. 172-223.
"Sartre et le langage", *Pacific Coast Philosophy*' U.S.A., 1972, pp. II-19.
L'Invitée' Gallimard, Paris, 1943.
Le Sang des autres' Gallimard, Paris, 1954.
"Sartre's nature : animal images in *La Nausée*", S. Summer, pp. 107-125.
„La Phénoménologie dans l'image d'après Jean-Paul Sartre et Gaston Bachelard", *L'Ecole des Lettres*' 15 novembre 1976.
A Grammar of Metaphors' Secker and Warburg, London 1965.
"L'image dans notre langue littéraire", *Mélanges Dauzat*' pp. 55-67.
Image et Métaphore' Bordas, Paris, 1970.
Jean-Paul Sartre ou une Littérature philosophique, Pierre Ardent, Paris, 1945.
L'Existentialisme, Foucher, Paris, 1960.
"L'expression élémentaire dans *L'Être et le Néant*", publications of the Modern Language Association of America. Vol. LXVIII, 1953, pp. 54-64.
"Théorie de la figure", *Communications*' 16, 1970, pp. 3-26.
"Éléments surréalistes dans *La Nausée* : une hypothèse de l'écriture", *L'esprit créateur*' printemps 1976, pp. 19-28.
Littérature existentialists' Le roman et le théâtre de Jean-Paul Sartre' Liège, 1950.
The Novelist as Philosopher : Studies on French Fiction : 1935-1960' Oxford University Press, 1962.
L, écrivain et son langage' Paris, 1960.
Aurélia de Nerval. Analyse stylistique structurals' Atlas Press Le Caire, 1979.
Les ressources stylistiques du français contemporain' Basil Blackwell, Oxford, 1948.
FIGURES' Seuil, Paris, 1966.
"La rhétorique restreinte", *Communications*' 16, 1970.
Jean-Paul Sartre : The existentialist Ethic' University of Michigan Press, Ann Arbor, 1960.
Qu'est-ce que la métaphysique?, Gallimard, Paris, 1942.
L'Enjeu du Discours' Lecture de Sartre' Editions comparées, Bruxelles, 1977.

ينطلق سارتر في فلسفته من « الكوجيتو الديكارتي » . والكوجيتو يقرر الأنا مبدأً أولاً وحقيقة أولى . ولكن سارتر لا يقف عند الكوجيتو كما فعل من قبل الفيلسوف الألماني هوسرل . فرغم اكتشاف هذا الأخير لفكرة القصد *L'intentionnalité* وهى الفكرة التى تربط ربطاً وثيقاً بين الذات والموضوع بما تقيمه بينهما من إحالة متبادلة ، قد انزلق إلى نوع من التصورية المطلقة ، وظل حبساً في نطاق الوعي دون الذهاب إلى ما يقصد إليه من موضوعات . كذلك لم يمس سارتر من الأنا إلى الوجود الواقعي العالمى كما فعل هيدجر . إن هيدجر قد مضى ، بنوع من الجدال الخالص ، وتجاوز الوعي وأغفله ليقرر الوجود وقيم الانطولوجيا . أما سارتر فلا يقف عند الكوجيتو ، ولا يتجاوزه إلى الوجود ، وإنما هو ينظر إلى الأنا الواعي وموضوعه معا في علاقتها التى لا تنفك . لقد كشفت له فكرة القصد ، التى هى أهم ما يعطيه الهندس الفينومولوجي ، عن مثل الموضوع أمام الوعي وعن اتجاه الوعي ضرورة نحو موضوع ما .

فلسفة جان بول سارتر

هكذا يكون « الوعي دائماً وعياً بشيء ما » ^(١) . وهكذا يتميز الكوجيتو عند سارتر عنه عند غيره من الفلاسفة . إن الكوجيتو عند ديكارت يدل على جوهر قائم في ذاته يعرف بالتفكير الداخلي . فحين يقول ديكارت : « أنا أفكر إذا أنا موجود » ينتقل بذلك من الأنا أفكر إلى الجوهر المفكر المتقوم بذاته ويمضي

حبيب الشاروني

أستاذ الفلسفة الحديثة بجامعة الاسكندرية وفاس

من ثمة إلى دراسة النفس ، كما يتضح من التأمل الثاني ، دراسة ميتافيزيقية تتناول النفس من حيث هي جوهر . وإذا كان كنتظ قد رفض جوهرية النفس فإنه قد اقتطع من الكوجيتو تعبيراً عن الصورة التي تجمع الظواهر في فكر واحد يعينه يترجم بأنها أفكر *ich denke* . وهذه الصورة هي مبدأ متعال وظيفته التفكير ، أى إيجاد التوافق بين المقولات الجوفاء وبين الحدس العمياء . فالأنا عند كنتظ هو مبدأ معرفة لا مبدأ وجود . أما سارتر فيرفض القول بجوهرية النفس كما فعل ديكارت ^(٢) ، ويرفض الوقوف عند المظهر الوظيفي للكوجيتو ، أعنى باعتباره مبدأ معرفة ويقين كما يجيء صراحة عند كنتظ . إنه يرفض ذلك لأن الكوجيتو عنده هو المعرفة الفعلية أى المعرفة كوجود . فليست المعرفة فعلاً من أفعال الوعي يتعلق بموضوع ، وليست هي شيئاً مختلفاً عن الوجود ، كما هو الأمر في الفلسفة التقليدية لدى المحدثين . وإنما هي فعل الوجود من حيث هو وعي ومعرفة . إن الكوجيتو يقرر الوعي أى الأنا العارف . والوعي عند سارتر هو الوجود بالذات والمظهر الأول للوجود . إنه فعل وممارسة وشعور فعل .

يبدأ إذا سارتر من وجود الوعي ليكشف لنا عن معنى ذلك الوجود . وابتداء سارتر من الوعي ، وهو الوجود بالذات ، إنما هو تقرير صريح وجازم بأولوية الوعي من حيث إنه وجود ^(٣) . وفي هذا التقرير لأسبقية الوجود يتفق سارتر - بصفة مبدئية - مع الكوجيتو الديكارتي . فيمقتضى الكوجيتو يتقرر وجود الأنا : أنا أفكر إذا أنا موجود . أن الكوجيتو لا يقرر المعرفة وإنما هو يقرر وجود العارف أى وجود الأنا .

ولكن سارتر يفتقر بعد ذلك عن ديكارت افتراضاً جوهرياً في تأويله للكوجيتو ولأسبقية الوعي . فيمقتضى الكوجيتو « أنا أفكر إذا أنا موجود » ينتقل ديكارت مباشرة إلى تقرير وجود الأنا كجوهر مفكر ، أى كجوهر ماهيته التفكير . كأن أسبقية الوعي - في فلسفة ديكارت - هي أسبقية الأنا باعتباره جوهر ، وكأن هذا الجوهر يمكنه من حيث هو سابق - أن يتصرف بعد ذلك بأية حال شعورية كأن يعرف أو يجهل وكأن يلتذ أو يتألم . فأولوية الأنا هنا هي أولوية جوهر حائز على قدرات متعددة مثل القدرة على التفكير وعلى المعرفة وعلى الالتذاذ ، ويمكنه بالتالى أن يمارس هذه القدرات وأن يحققها بالفعل ، كلّه يمكنه أن يتمتع عن ممارستها فتنظر قدرات أى قوى فحسب . إن الأنا بهذا الاعتبار هو ماهية أو طبيعة سابقة على الفعل وعلى الممارسة . وكذلك بكل حال من أحوال الشعور هو صفة سابقة على قيامها بالفعل .

Sartre, J.—P. : L. — etre et le Neant (Gallimard, Paris 1950) P. 115 (٢)

(٣) هذه الأولوية للوعي هي أولوية فينومينولوجية . أما من الوجهة الميتافيزيقية فيمكننا أن نقرر أولوية المفردات أو الوجود - فإنه على الرغم من - إن الوعي هو عدم يأتي إلى الوجود . إنه - كما يشبهه سارتر - دودة تتحرر في الوجود ويحدث فيه نوعاً من التصدع أو الشقوق .

L., Etre et le Neant, P. 57

وعلى عكس هذه النتيجة تماماً يذهب سارتر في تأويله للكوجيتو إن الكوجيتو عند سارتر لا يعني جوهرًا حائزًا على طبيعة أو ماهية معينة ويمكنه أن يفعل في حدود هذه الماهية ، وإنما هو يعنى نفس وجود الوعى أى نفس وجود المعرفة من حيث هى ممارسة ومن حيث هى شعور فعل . فكأن أسبقية الأنا - في فلسفة سارتر - هى أسبقية الممارسة ، وكأن سارتر حين يقرر وجود الأنا يقرر وجودا هو وجود الوعى العارف أو هو ممارسة المعرفة ، بحيث يصبح هذا الوجود سابقا على الماهية أو تصبح ممارسة المعرفة سابقة على ظهور طبيعة المعرفة ، وبحيث يكون في بزوغ الوعى أى في ممارسته للوجود خلقا متجددا لماهيته . فالوجود إذا هو ممارسة سابقة على الماهية ، وهو من ثمة فعل سابق وشرط أولى أساسى لكل ما يكونه أو يقوم به أو يمارسه موجود ما . بل شرط سابق لكل معرفة تحصل عليها من هذا الموجود . ومن غير فعل الوجود لا يوجد كائن عارف كما لا يوجد موضوع معرفة . وعلى ذلك فكل من الانطولوجيا أى علم الوجود والتوتيقا la noetique أى المعرفة الحديثة يجد له أساسا ونقطة ارتكاز دائمة في فعل الوجود ذاته . وعندما يقول سارتر بأن الوجود سابق على الماهية فهو يعنى بالوجود وجود الوعى ، والوعى في فلسفة سارتر هو وعى شيء ما . وإذا فأسبقية الوجود هى أسبقية الوعى أى الشعور أو المعرفة في ممارستها الحقة . وهذا يعنى أن الوجود عند سارتر ليس سابقا على المعرفة وعلى « أنا أعرف » كما أن المعرفة ليست سابقة على الوجود ، وإنما الأولوية هى لوجود المعرفة أو للوجود من حيث هو وعي (٤)

بهذا التأويل للكوجيتو تنتهي إذا إلى القضية الرئيسية في الفلسفة الوجودية عامة وفي فلسفة سارتر بوجه خاص وهى القضية التي تقرر سبق الوجود على الماهية . وقد انتهى سارتر مباشرة إلى هذه القضية بمقتضى ابتدائه من الكوجيتو الديكارتي بمقتضى تقريره لأولوية الوعى من حيث هو وجود . فالتضيتان : سبق الوجود على الماهية ، وأولوية الوعى من حيث هو وجود تعبران عن شيء واحد ، أوها بالأحرى قضية واحدة يستمد منها سارتر أصلا - وبشيء من التأويل - من الفلسفة الديكارتية . وبناء على هذه القضية تنقرر مباشرة - كما سنرى - الحرية الانسانية في فلسفة سارتر من حيث إن الوعى ليس حاصلا على أى ماهية يتحدد في نطاقها وجوده . إنه وجود أو هو ممارسة حرة لفعل الوجود وخلق متجدد للماهية . والحرية هى عين هذا التجدد أو هي حقيقته . فليس يمكننا إذا أن نفسر الوعى بواسطة طبيعة سابقة عليه أو ماهية خارجة عنه ، وإنما هو يفسر ذاته كوعى أو هو يدرك ذاته وعيا . ولكن هذا الإدراك أى هذا الوعى الثاني متضمن في الوعى الأول . بهذا المعنى نقول إن الوعى لا يمكن إدراكه إذ لو أدركنا هذا الوعى المدرك لانفتح باب التساؤل بأى شيء أدركناه وبدأت سلسلة لا متناهية . كأن أدرك أنه أعنى شيئا ما ، وأدرك كونه مدركا أنه أعنى هذا الشيء ، وهكذا إلى مالا نهاية . لذلك لا يمكن للوعى أن يصبح موضوعا لنفسه على هذا النحو ، ولكنه يعرف نفسه واعيا شيئا ، أى أنه أدركه فقط كوعى لشيء

آخر . وليس الأمر قاصراً في ذلك على الإدراك ، وإنما جميع أحوال الشعور ليست لها أى طبيعة أو ماهية قبل الشعور بها أو قبل قيامها بالفعل . فاللذة مثلاً والشعور باللذة واحد ، إنها ليست لذة بالقيّة تصبح لذة بالفعل عندما نحس بها ، وهى ليست صفة أو طبيعة سابقة على الشعور بها ، ولكن الشعور باللذة هو اللذة ذاتها .

هكذا يفسر الوعى ذاته من حيث هو وعى . إنه يعرف ذاته واعية . فالوعى - كما رأينا وكما تقتضي فكرة القصدية - هو وعى شيء ما ، أعنى هو وعى متجه إلى موضوع ما . وهذا يعني أن الموضوع ذاته موجود ، وأن الوعى في اتجاهه إلى الموضوع ليس إلا وعياً وشعوراً ومعرفة . وسارت يسميه « الوجود - لأجل - ذاته eoi - être-pour » . فالوعى هو وجود متجه إلى ذاته وإلى الموضوعات ، أو هو شعور منفتح على ذاته وعلى الموضوعات دون أن يكون حاصلًا على أى ماهية سابقة : « ليس في الوعى أى صفة جوهرية . إنه ظاهرة فحسب بمعنى أنه ليس موجوداً إلا بمقدار ما يظهر لذاته » .^(٥) إنه وعى حاضِر لذاته ولكنه ليس شيئاً قائماً بذاته . « إن الوعى موجود يثار بصدد وجوده إشكال وجوده من حيث إن هذا الوجود الأخير يتضمن وجوداً آخر سواء^(٦) . فالوعى شكل من الوجود يتضمن شكلاً من الوجود غير وجوده هو الخاص . وهو لا يوجد إلا بما يتضمن ، أى إلا بمقدار ما يرتبط بما يختلف عنه ، وليس الارتباط - على نحو ما سنرى - إلا النفي أو الانفصال .

الوعى إذا يفترض وجودين : وجوداً هو الوعى ووجوداً خارجياً متميزاً عنه يفترضه الوعى . وقد استخرجت المثالية الذات الواعية فحسب من فعل الوعى . أما سارت فقد قرأ أيضاً للموضوع الخارجي وجوداً مستقلاً لا يقوم على الوعى .

واستقلال الموضوع أو تقرير الوجود المستقل للموضوعات هو ما يميز فلسفة سارت بتمييزاً صريحاً وحاسماً عن الفلسفة الحديثة أو عن الاتجاه التقليدى في الفلسفة الحديثة وعن فلسفة ديكرات بصفة أخص . فنحن نعرف أن الفلسفة الحديثة هى في جملتها فلسفة تصورية ، والتصورية تبدأ ذاتها من الأنا العارف وتقف عنده بحيث تصبح الموضوعات كلها إضافية لا وجود لها إلا باعتبارها مدركات . وابتداء التصورية من الأنا العارف قد أدى بالفلسفة الحديثة إلى إغفال القيمة الوجودية للموضوعات وإلى اقتصارها بالتالي على النظر في بحث الایستمولوجيا وعلى

L'Être et le Neant, P. 23 (٤)

(٦) يرد هذا النص مراراً في مواضع متعددة من « الوجود والعدم » ، مثلاً صفحات ٢٩ ، ٨٥ ، ٢٢٢ . ويلاحظ أن كلمة الوجود والموجود يرادفها بالفرنسية لفظ واحد هو L'Être ولفظ الوجود يقال في العربية - كما مثل لفظ L'Être في الفرنسية - بهذين المعنيين : فهو يقال باعتباره مصدراً ويعنى فعل الوجود أو الوجود بالفعل ، ويقال باعتباره اسماً ويعنى الوجود نفسه . وسارت يعتمد أحياناً استعمال نفس اللفظ بالمعنيين مترجماً ما يثير ذلك من لبس يفسى على كتابه شيئاً من الصعوبة . ولكنه أحياناً أخرى يستعمل لفظ L'existence ليشير بصفة أخص إلى المعنى الأول أى إلى فعل الوجود وتحقيق الوجود ، بينما يستعمل لفظ être ليشير إلى الوجود بصفة عامة .

مسائل المعرفة . أما فلسفة سارتر فسنرى أن للموضوعات وجودا مستقلا لا يرجع إلى وجود الأنا . وبعبارة أخرى فإن سارتر يبدأ - مثل التصورية - من الأنا أو من الوعي ، ولكنه لا يقف عند الأنا أو الوعي كما تفعل التصورية ، وإنما هو يتابع الكوجيتو في تأويله الفينومولوجي وبالتحرر من هوسرل ويقرر للموضوعات وجودا قائما بذاته مستقلا عن الوعي . وتجدر سارتر من هوسرل وانزلاقه إلى الموقف الوجودي لم يكن فحسب عن طريق تأثير سارتر المباشر بفلسفة هيدجر ، وإنما كان كذلك وبنوع خاص عن طريق الحدس الأصيل لسارتر : حدس الوجود - في - ذاته الذي يفترضه الوعي أو الذي ينزلق إليه الكوجيتو . إن الكوجيتو أو الأنا أفكر يقرر مباشرة وعلى نحو ما ذهب ديكارت وجود الأنا أفكر ولكنه يقرر أيضا وفي نفس الوقت وجود الأنا أفكر في موضوع . فأسبقية الوعي في فلسفة سارتر لا تتعارض مع وجود الموضوع المستقل ، ولكنها بالعكس تؤكد ذلك الوجود . كان سارتر إذا قد نقل الدليل الانطولوجي من مجاله في فلسفة ديكارت إلى مجال آخر : فبينما ينتقل ديكارت - بمقتضى الدليل الانطولوجي - من الأنا أفكر إلى موجود خارجي كامل لامتناه هو الله ، نرى سارتر ينتقل من الأنا أفكر إلى موجود خارجي هو الموضوعات . إن الكوجيتو - في فلسفة سارتر - يقرر مباشرة مع وجودي ، أى مع وجود الأنا أفكر ، وجود الموضوع الذي أفكر فيه ، بحيث يصبح وجودي أنا الكائن المفكر مختلفا عما أفكر فيه ومتايزا عنه ، وبحيث يصبح وجود الموضوع الذي أفكر فيه موجودا فحسب لا تمايز بينه وبين ذاته .

وبعبارة أخرى يقوم الوعي من حيث هو متايز عن الموضوع ، أى من حيث هو ينفي ذاته عن الوجود الموضوعي وينفي في نفس الوقت الوجود الموضوعي عن ذاته . إن وجود الوعي كما رأينا سابقا على طبيعة الأنا كوعي ، أو هو يتطلب ، من حيث هو وجود ، ماهية الوعي من حيث هي شعور ووعي . ولكن وجود الوعي هو نفي لذاته عن الوجود الموضوعي . فالوجود الموضوعي إذا هو بعكس الوعي ما يتطلب ماهيته وجوده ، أى أنه ، من حيث هو موضوع خارجي ، الماهية فيه سابقة على الوجود وتتطلب الوجود .

وعلى ذلك فإذا امتاز وجود الأنا بالوعي فهو لأنه يوجد بالانفصال وبالتمايز عن الموضوع ، بينما يمتاز الموضوع بالانفصال المطلق وعدم التمايز المطلق أى بالانفلاق على الذات . وهذا الوجود الأخير بسميه سارتر « الوجود - في - ذاته » Ietre—en—soi^(٧) . وكلمة « في - ذاته » - تعنى معادلا أو مطابقا لذاته ، أى أنه لا يوجد لأجل ذاته مثل الكائن الواعي بل هو مجرد قائم هناك ، لا شك فيه ، جامد ، متكتل ، كثيف ، لا يعتوره أى فراغ ، ولا

(٧) ويشير إليه أحيانا باغفال كلمة الوجود فيقول « التي » ذاتة Ietre—en—soi و « أحيانا بإيراد كلمة هي » بدلا من كلمة جرد فيقول « التي » - في - ذاته Chose—en—soi . واستخدم كلمة هي بمعنى الوجود أو الموجود شائع في الفرنسية وبلي العربية ، فابن رشد يرى أن لفظ التي يقال على كل ما يقال عليه لفظ الموجود ... « تلخيص ما بعد الطبيعة ص ٦ » .

يحتمل أى مسافة بينه وبين ذاته ، فهو ملاء مطلق خال من الوعى . وإدراكنا له لا يعنى أن وجوده متوقف على الإدراك *esse est percipi* كما يقضى بذلك مبدأ الحسية التصورية ، وإنما نحن ندركه على أنه ما هو مستقل عن أنفسنا . إنه ليس إيجابيا ولا سلبيا ، وليس ثابتا ولا منغيا ، فهو أبعد من جميع مقولاتنا لأنه مجرد قائم لا يقال عنه ضرورى أو ممكن أو ممكن . إنه ما هو لا أكثر . الوجود - في - ذاته هو ما هو ؟ ، أهى أ ، أى أن أ توجد في تطابق تام مع نفسها دون أن يوجد فيها أدنى ثنائية أو أى فراغ بين جزء منها وجزء آخر ^(٨) . وهذا يعنى أن لا سبب له ولا غاية ، وإنما هو واقع جامد معطى جميعه دون انفصال عن ذاته . إنه ليس إمكانا في ذاته ، إنه في ذاته دون أن يكون لوجوده أى ضرورة . ومن أجل هذا يرى سارتر أن الوعى يخلع على الوجود - في - ذاته تعبيرا انسانيا هو الفضول *de trop* ، وإن الوجود - في - ذاته يثير لدى الوعى إحساسا كثيبا هو الغثيان *La Nausee* .

والواقع أن سارتر قد شعر في مرحلة مبكرة - وذلك أثناء تحريره لكتاب « الغثيان » عام ١٩٣٨ - بما في « الوجود - في ذاته » من فضول . فتاريخ سارتر الفلسفي قد بدأ بحدسه الواقعي « للوجود - في ذاته » . ولكن هذا الابتداء باكتشاف الوجود لا ينبغي إطلاقا أن يوحى إلينا بأية أسبقية للوجود على الوعى . بل إن هذا الاكتشاف للوجود هو تجربة وجودية تفترض قبل كل شيء وجودا أول هو الوعى الذى يحدس التجربة الوجودية . فالحدس الواقعي للوجود - في - ذاته ينحل ، في فلسفه سارتر ، إلى الأنا الحادس وهو موجود أول وإلى الوجود المفترض وهو موجود ثان .

وربما لم يكن هناك - بصدد تصوير سارتر لما في هذا الموجود الثاني من فضول ولما يثيره لدى الوعى من غثيان - أروع من كلمات أنطوان روكنتان - بطل قصة « الغثيان » حين يصف الأشياء وقد تحررت من أسانها ^(٩) . فهذه الكلمات التي تحجى في مذكرات أنطوان روكنتان تعبر في الواقع عن اكتشاف سارتر نفسه للوجود وعن شعوره بأن الوجود واقع عارض وأن الأشياء موجودة دون أن نعرف لوجودها سببا أو غاية ، كأنها فائضة عن الوجود *de trop* . يقول سارتر - على لسان روكنتان - في نفس القصة ^(١٠) : « إننى أسند يدي على المقعد الصغير ولكنى سرعان ما أسحبها . إن المقعد موجود . هذا الشيء الذى أجلس عليه والذى أسند عليه يدي يسمى مقعدا ... وأتفهم ... إنه مقعد ... ولكن الكلمة تبقى على شفتي : إنها تأبى أن تذهب لتحط على الشيء » . فليست الأشياء - قبل تدخل الوعى الذى يدركها - إلا كابوسا مبهيا يستثير الغثيان . إنها تتحول

L'Etre et le Neant, P. 116 (٨)

(٩) رابع قصة « الغثيان » ص ١٦٦

Sartre : La Nausee, (Gallimard, Paris 1954) P. 159 (١٠)

عندئذ إلى عالم متحجر أى إلى شيء - في - ذاته خال من معنى « الأدوات » الذى يضيفه الوعى عادة على الأشياء ، وعند تدخل الوعى يتحول هذا الشيء - في - ذاته إلى عالم لأجل الذات ، فيصاغ في ظاهرات تولد كائنات حقيقية يمكن إدراكها ، وهى ما تعنى الفينومولوجيا بوصفها .

هذان التحوان للوجود ، الوعى وموضوعه ، أو الوجود - لأجل - ذاته والوجود - في - ذاته ، ليس بينهما تقابل فحسب . فالوعى يأتي إلى الوجود على أنه « لا non » أى على أنه انفصال مما هو موجود ، فهو إذن يتطلب العالم الموضوعي المعطى ، ولكن دون أن يمكن استنتاجه منه لأن العالم مستقل ومكتف بذاته ، وإنما يتطلب الوعى وجودا - في - ذاته ينفصل عنه . فهناك أولوية للوعى باعتباره وجودا فحسب ووجودا يفترض موضوعا ، أى وجودا سابقا على أى ماهية وموضوع . أما العالم - فبمعكس ذلك - يمكن استنتاجه من الوعى دون أن يكون خارجا منه أو مكونا بواسطته ، بل لأن الوعى وعي بموضوع ليس هو . إن الوعى يأتي إلى العالم على أنه انفصال من العالم - على أنه ليس العالم ، فهو إذا لاشيء ، ولكنه يؤسس العالم ويعطيه قايما ، فهو « اللاشيء » الذى به تكون ثمة أشياء ^(١١) . وهذا اللاشيء هو الحقيقة الانسانية ذاتها باعتبارها النفي الأصل الذى بواسطته ينكشف العالم ^(١٢) ورغم أن الوعى ليس العالم فانه من جهة أخرى ليس « شيئا » خلاف العالم ، أعنى ليس « شيئا » قائما بذاته مستقلا عن العالم ما دام العالم ذاته أى الشيء - في - ذاته موضوعا للوعى . والإنسان ليس مادة تفكر ، وإنما هو انفصال عن كل مادة : إتنى لست شيئا إذا أنا أفكر . إتنى أسمع دقات الساعة ولكنى أنا الذى أسمع لست شيئا . وأنا أعلم أن هذه السحب الدكناء تنذر بالمطر ولكنى أنا الذى أتنبأ لست شيئا . وأنا بادراكى المحسوس لهذه القطعة من الورق لا أتحول إلى ورق بل بالعكس أعى عندئذ أتنى لست ماهية الورق إذ بواسطة النفي الأصل يؤسس الوجود « لأجل - ذاته نفسه على أنه ليس الشيء » ^(١٣) . أى أنه ليس الشيء الذى ينفبه وينفصل عنه . فالوعى يؤسس ذاته باستمرار على أنه خلاف العالم . إنه يتجه إلى الأشياء وينفصل عنها ويتدفق فوقها ليجعلها مجالا للاحساس وموضوعا للإدراك . وهذه هى سلبية الانسان negativite التى تكون بمقدار ما يقول إضهارا عند أدنى شعور : « إتنى أرى حجرا ، ولست أنا هذا الحجر فالإنسان إذا مثول وابتعاد في نفس الوقت ، وهذا هو ما يتيح له معرفته بالأشياء الخارجية وبنفسه ، بالأشياء الخارجية لأنه يتأى عنها ويحدها ، وينفسه لأنه يتميز بانفصاله عنها . فالوعى عند تعامله مع أى موضوع يدرك ذاته على أنه ليس هذا الموضوع . إنه يتراجع عن الموضوع ويضع نفسه خارجا عنه . ومن هنا نستطيع أن نقول إن الوعى في علاقته بالموضوع يحقق

L'Etre et le Neant, P. 502 (١١)

Ibid., P. 230 (١٢)

Ibid., P. 222 (١٣)

عمليتين في وقت واحد : التفكير في الموضوع والتميز عنه ، أى أنه يكون فكرة عن الموضوع : « إننى أرى حجرا » ويضع نفسه في الوقت ذاته خارج الموضوع : « ولست أنا هذا الحجر » .

الوجود - لأجل - ذاته إذا يأتي إلى الوجود بواسطة عملية انفصال . ووعيه لنفسه منفصلا ليس معناه إقامة وجودين منفصلين كما يلاحظ الرائي مثلا تميزا بين الريشة ودواة الحبر فيقول : « ان الريشة ليست هى دواة الحبر » وإنما هو انفصال وتبيز مدرك إضرارا كأن أقول : « إننى لست غنيا » أو « أننى لست جديلا » . فما أؤسس به ذاتي هنا هو نفى داخلي أى أنه علاقة قائمة بين موجودين بحيث إن ما ينتفي عن الواحد يصف الثاني في صميم ماهيته بواسطة نفس غيابه عن الأول . فانتفاء الغنى عن الأنا في المثال السابق يضع في نفس ماهية الوقت الغنى باعتبار هذا الغنى شيئا غائبا عني ويضعني باعتبارني غير غنى . وانتفاء الجمال عني يعطيني أيضا ماهية الجمال باعتباره شيئا غائبا عني ويقر ماهيتي باعتباري غير جميل . وكذلك عندما أقول : « أنا لست هذا الحجر » فأنا أنفى عن نفسى كونى حجرا ، أى أقرر ماهيتي باعتباري لست هذا الحجر ، وفي نفس الوقت أصف الحجر في صميم ماهيته ، أى كونه حجرا متميزا عني . وهكذا أؤسس ذاتي دائما باعتباري منفصلا ومتميزا أى بعملية انفصال وتبيز .

العلاقة إذا بين الوعى والموضوع هى علاقة مثول وابتعاد ، وهى تعنى حضور الوعى ازاء موضوع ليس إياه وتؤكد وجود العالم كما تؤكد وجود الوعى . هذه العلاقة هى أساس المعرفة والعمل وشرطها الوحيد . وإدراك الوعى لتمييزه عن الموضوع ، أى إدراكه لكونه « ليس - ذلك » ، هو أولى مراحل المعرفة - لذلك يعرف سائر الوجود - لأجل - ذاته « بأنه موجود يثار بصدد وجوده إشكال وجوده من حيث إن هذا الوجود هو أسلوب معين لعدم كونه وجودا آخر (آخر) يضعه في نفس اللحظة على أنه سواء . فالمعرفة إذا تبدو ككيفية للوجود وليست بأى حال علاقة قائمة بين موجودين كما أنها ليست نشاطا لأحدهما أو صفة أو ميزة له » .^(١٤) إنها تعنى وجود الأشياء ولكن بحيث يكون الوعى حضورا إزاءها ونفيا منعكسا لها . وسائر يسمى هذا النفى الداخلى الذى يكشف عن الوجود - في - ذاته أثناء تحديده للوجود - لأجل - ذاته بالتجاوز transcendence^(١٥) ، إنه يسميه بالتجاوز لأن الوعى ينفصل عن ذاته وعن الأشياء أو هو يفارق ذاته ويفارق الأشياء . فالوعى يكشف عن العالم بكونه هو غير العالم وفي نفس الوقت يقر وجود العالم دون أن يضيف أى شيء إليه ، وإنما يتصف هو متميزا بكونه ليس هذا

(١٤) L'Etre et le Neant, p. 222 et 223

(١٥) L'Etre et le Neant , P. 228 وقد أثرت ترجمة كلمة transcendence بالتجاوز لا بالتعال لما تتضمنه كلمة التعال من معنى أخلاقي غير مقصود هنا .

الوجود - في - ذاته . ومعنى ذلك أن الوعي يعرف ذاته بواسطة كشفه عن صفات الشيء - في - ذاته . وهكذا عندما يكشف الوعي عن تميز الوجود . في - ذاته بالامتداد يكشف في الوقت نفسه عن ذاته باعتباره حضورا وسلبا ، - على أنه - بعكس الأشياء - ليس امتدادا .

ويشبه سارتر هذه العلاقة بين الوعي والأشياء بنقطة التماس في الهندسة حيث يلتقي القوسان .^(١٦) ففي هذه الحالة إذا حجبنا القوسين بحيث لا نرى منهما إلا نقطة التقائهما عند التماس بدا لنا خط واحد متطابق لشيء يفصله وليس متصلا ولا غير متصل . وإذا كشفنا عن القوسين ظهرا لنا متميزين حتى عند التماس . فهنا لم يحدث أى انفصال مادي . وإنما إدراك نفس الحركتين اللتين ترسم بهما القوسين يتضمن نفيا أى انفصالا . وهذا النفي نفسه هو الفعل الذى يؤسس كلا من الخططين . وعلى نفس النحو تقوم العلاقة بين الوعي والأشياء : فالعالم كله يقوم كأساس وكمجموع لجميع عمليات النفي المقبلة والممكنة وهى ما يقابل الوجود - لأجل - ذاته في مجموعه الذى لم يتحقق بعد . ولا يكون الوعي حاضرا إزاء جميع مظاهر الموضوع معا ، ولكنه يحقق ذاته أى يؤسس الوجود - لأجل - ذاته بفعل واحد يكون دائما نفيا لصفة واحدة أو خاصة معينة للموضوع بحيث يترك للمستقبل مجالاً لاختيار صفة أخرى . والوعي إذ يختار بحرية أن ينفي صفة ما يؤسس تلقائيا وجوده في كل عملية نفي .

والعالم يبدو للوعي كمجموعة من الكيفيات مثل الألوان والأصوات ، تصورها الفلاسفة خطأ على أنها تحديد ذاتي وعلى أن وجودها ككيفيات اختلط بذاتية النفس . لذلك يقول سارتر : « ان الكيفية لا تصبح موضوعية إذا كانت أصلا ذاتية »^(١٧) . إن الكيفية كما يراها سارتر هى إشارة لما نحن ليس عليه ولنوع من الوجود مختلف عنا .^(١٨) والوعي كذلك لا يمكن أن يتطابق مع الأشياء وإلا لما كان وعيا ولا تمتعت بالتالي المعرفة . وعلى ذلك فالمعرفة نسبية .^(١٩) - إنها نسبية لأن انفصال الوعي هو الذى يتيح معرفة العالم . فهى إذا إنسانية ولا يمكن أن تكون غير ذلك . ولكن المعرفة تضعنا كذلك في حضور المطلق ، لأن ما هو هناك فهو حقيقي ، وما هو معروف حقيقة ليس إلا المطلق . المعرفة إذا نسبية وتضعنا في نفس الوقت في حضور المطلق .

وهكذا بقلب الموقف المثالي قلبا أصليا يرى سارتر أن الموجود نفسه هو الحاضر أمام الوعي في المعرفة . والوجود - لأجل - ذاته لا يضيف شيئا إلى الوجود - في ذاته . والوجود - في - ذاته هو ما هو ، وصفاته ليست ذاتية

L, Etire et le Neant, P.227 (١٦)

L, Etire et le Neant, P. 235 (١٧)

Ibid., P. 237 (١٨)

(١٩) لا بالمعنى الكتلتي الذى يجعل المعرفة قاصرة على الظاهر كما تقضى بذلك « التصورية النقدية » ، بل بمعنى أنها إنسانية بالطلاق . أى أن انفصال الوعي هو الذى يتيح معرفة العالم .

ولا مركبة فيه ، وإنما هو معطى بجميع صفاته ، حاضر أمامى دون سسافة وفي واقعيته التامة . وهو بالاطلاق ما يبدو للوعى ما دام الوعى في ذاته ليس شيئاً ولا يستطيع أن يؤثر على الأشياء ، إذ لا شيء يأتي من الوعى ، وليس ثمة غير ما يدرك الوعى وما يمكنه أن يدرك .

إن الوعى يذهب إلى الأشياء ذاتها ليعرفها في ماهياتها - ولكن ماهية الشيء لا تتقرر إلا بمقتضى انفصال الوعى عنه . وبما أن الوعى لا ينفصل عن العالم وعن كل ماني العالم دفعة واحدة ولكنه ينفصل عما يمثل أمامه على نحو زمني متجدد ، فمن المستحيل إذا أن يدرك الوعى الأشياء وقد اكتملت ماهياتها أو تحققت فيها حالاتها الماضية والحاضرة والمستقبلية ، كأن الزمان قد انتهى وكأننا بلغنا نهاية المستقبل . إن مثل هذا الاتحاد بين الوعى والأشياء أو بين الوجود - لأجل - ذاته والوجود - في ذاته هو أمر ممتنع . فالوعى إذا يدرك الموضوعات من حيث هى ناقصة . إنه يدرك الملل من حيث هو قمر غير مكتمل ، ويدرك البرعم من حيث هو زهرة ناقصة النمو^(٢٠) . وهكذا بالنسبة لجميع موضوعات العالم ، فإن الوعى يدركها من حيث إنها ناقصة . وهذا النقص - أى إحالة الشيء لما وراءه - يبدو إزاء الوعى في صيغة نداه للعمل ، إذ أن العالم هو عالم عمل وإنجاز .^(٢١) والأشياء التي في العالم ترتبط مع نفسها - بمقتضى طبيعتها ومقتضى مشروعات الوعى وإمكانياته - كوسائل وغايات . فالأشياء هى أشياء وفي نفس الوقت أدوات . إنها لا تكون أولاً الواحدة لتصبح بعد ذلك الأخرى ، وإنما هى ذاتها أشياء وأدوات معا . فوجود الوعى في العالم لا يعني فراره من العالم نحو ذاته ، وإنما فراره من العالم نحو ما وراء الحاضر من مستقبل . ولا يرجع مركب الأشياء - الأدوات إلى الوجود - لأجل - ذاته كما اعتقد هيدجر ، وإنما يرى سارتر أن هذا المركب في مجموعه يقابل بالضبط إمكانيات الوعى ، وترتيب هذا المركب أى نظامه ليس في ذاته ولكنه يرجع إلى ما يضيفه الوعى على أشياء بحسب إمكانياته .^(٢٢) فهذا الترتيب هو إذا صورة لامكانيات الوعى ، ولكنها صورة لا يستطيع الوعى أن يوضحها وإنما يلائم بين نفسه وبينها في العمل وبواسطة العمل .



عرفنا أن الوعى يأتي إلى الوجود بعملية انفصال . وانفصال الوعى عن العالم مشروط بانفصاله عن ذاته . فالتجاوز يعني أن ينفصل الوعى عن ذاته وعن الأشياء . والواقع أن هذا الانفصال أو الفرار من الذات - كما لاحظ سارتر بحق - هو من مميزات الفلسفة الحديثة . فنجد في الشك كما وصفه ديكارت ، وفي الروح المطلق

L'Être et le Neant, P. 245. (٢٠)

Ibid., P. 250 (٢١)

Ibid., P. 251 (٢٢)

الذى تكلم عنه هيجل ، وفي معاني التجاوز عند هيدجر والقصد عند برتنانو وهوسرل . فجميع هذه الفلسفات ترى في الوعى الانسانى نوعا من الفرار من الذات ، ولكنها لا تنظر إلى الحرية باعتبارها تركيبا أصيلا في مصيـم الوعى . (٢٣)

أما سارتر فيرى أن « الحرية هي الكائن البشرى الذى يفرز عدمه الخاص فيستبعد ماضيه (وكذلك مستقبـله) (٢٤) . ومعنى ذلك أن الوعى حاصل على قدرة الانفصال عن ذاته أو حاصل على قدرة الفرار من ذاته . وانفصال الوعى عن ذاته يعنى أن يقوم الانفصال بين الحاضر النفسى المباشر من جهة وبين الماضى أو المستقبل من جهة أخرى . وهذا الانفصال نفسه هو العدم إذ أن ما يفصل السابق عن اللاحق إنما هو لاشيء ، وهذا اللاشيء لا يمكن عبوره إطلاقا لمجرد أنه لاشيء (٢٥) . وهذا لا ينفي تعلق الوعى الحاضر بالوعى السابق من حيث إن الثانى يفسر الأول أو يغيره ، مع بقاء الوعى السابق على أساس هذه العلاقة الوجودية مستبدا أو موضوعا بين قوسين ، كما يوضع العالم في ذاته وخارج ذاته بين قوسين عندما يمارس الوعى التعليق الفينومولوجي . وإذا فليس ثمة حاضر للوعى إلا من حيث إن الوعى يملك القدرة على الملائمة . وهذه القدرة هي ما يتيح للوعى الإفلات من العلية لأن العلية تلزم التالى بما يكون عليه السابق ، بينما التالى هنا أى الحاضر منفصل عن السابق حر إزاء الماضى . وهذا هو معنى أن يكون الوعى قادرا على أن يدخل بين الحالة الواقعة والحالة السابقة هذا « اللاشيء » . وعلى نفس النحو السابق - وكما رأينا في العلاقة بين الوعى وموضوعه - « ليس ثمة وعى إلا من حيث هو حاضر إزاء موضوع ليس إياه ، أى من حيث هو انفصال عن الموضوع وإرتداد مستمر إزاء الموجودات .

هذا الارتداد أى الانفصال والملائمة هو ما يتيح الحرية الإنسانية . لذلك يتحدد الوعى باستمرار بسبب الملائمة بأنه انطلاق مما كانه في الماضى وحتى اللحظة الحاضرة تجاه المستقبل ، لأنه قد كان الماضى الذى تعداه وسيصبح المستقبل الذى لم يكن بعد . - وهذا هو معنى عبارة سارتر « أن الوعى هو ما هو ، وهو ما ليس هو » . فالوعى هو ماضية وكذلك مستقبله ، وهو في نفس الوقت ليس هذا الماضى أو هذا المستقبل . وهذا يعنى أن الكائن الواعى حر ، لأن رفض الماضى وتعيديه وكون الانسان متجاوزا لذاته متجها نحو امكانيات السلوك المستقبل ونحو ما يرسمه لنفسه إنما يعنى أن الانسان حر أو بالأحرى الانسان هو الحرية .

الحقيقة الإنسانية إذا هي الحرية الإنسانية - هي هذا الرفض المستمر وهذا التجدد المستمر ، بحيث لا يستطيع الانسان أن يقررها هو كائن ، لأنه بينما يحاول أن يتكلم فإن ما يتكلم عنه ينزلق إلى الماضى ويصبح ما

L'Être et le Neant , P. 62 (٢٣)

(٢٤) - البرية والعدم ص ٦٥ - إن الوعى يستبعد ماضيه حين يقول : « أنا لست هذا الماضى » ويستبعد مستقبله حين يقول : « أنا لست هذا المستقبل » .

وتنحصر هنا على تناول انفصال الوعى عن الماضى لأنه إذا تأكدت حرية إزاء الماضى فهي تتأكد بالأولى إزاء المستقبل .

L'Être et le Neant , P. 64 (٢٥)

كان وليس ما هو كائنه . ذلك إذا هو شأن الوعي عندما ينعكس على ذاته ، فإن النفس المنعكسة ليست هي النفس العاكسة . فالوعي ليس ما هو كائن بل ما هو لا يكون وما هو سيكون : إنه ليس ما هو كائن بمعنى أنه ليس حاضره ، لأنه دائما يتجاوز هذا الحاضر وينفصل عنه ، كما يفعل مثلا الطالب الراسب حين يقرر الخروج عن كسله مؤكدا حريته وتجدد خلقه بصفة دائمة ، وكما كان يفعل الرجل الفرنسي إبان الاحتلال الألماني حين يرفض هذا الاحتلال ويعمل على التخلص منه . والوعي هو ما - لا - يكون الآن ، أي هو الذي كان بمعنى ماضيه الذي تعده ، كما يفعل الرجل الذي يتوقف بارادته عند فترة من حياته ويرفض اعتبار التغيرات اللاحقة «^(٢٦)» وكما هو الحال لدى المصابين بأمراض نفسية والذي يرى التحليل النفسي أن حياتهم الوجدانية تقف بهم عند إحدى مراحل النمو الطفلية . والوعي هو ما سيكون بمعنى مستقبله الذي يتجه إليه ويتدفق نحوه في انفصاله عن الماضي ، كما يفعل في معظم الأحيان الرجل المتحرر الذي يؤمن بالمستقبل ويعمل على تحقيقه والتخلص من حاضره وماضيه ، أو كما يفعل كذلك الرجل الحالم الذي يأمل دائما في مستقبل وغد يحقق له أحلام يقظته . ومعنى ذلك أن سارتر ينظر إلى الوعي من وجهات متعددة ويطلق عليه ما يجتمع من هذه الوجهات من محمولات : فالوعي « هو الماضي » منظورا إليه كشيء محقق أي من حيث هو جود ، والوعي هو « المستقبل » منظورا إليه في تدفقه أي من حيث هو حياة وتدفق ، والوعي ليس « شيئا » منظورا إليه في حاضره . وهذه الاعتبارات هي التي يستخدمها سارتر في تعريف الوعي تعريفات مختلفة قد تبدو معقدة لأول وهلة إلا أنها تحل إلى قضايا بسيطة إذا راعينا في النظر إليها هذه الوجهات المختلفة . وجميع هذه الوجهات تجعل من الوعي كما يقول سارتر « الموجود الذي يكون مالا يكونه والذي لا يكون ما يكونه »^(٢٧) ، وتعني أن الوعي من حيث هو وعي ليس إلا القدرة على الملاحظة أو الانفصال أو كما يقول سارتر القدرة على إفراز العدم . بهذه القدرة يتحدد الوعي بأنه حرية - فالحرية هي قدرة الوعي على أن يفرز عدمه الخاص .

ولكن الحرية من جهة أخرى وفي نفس الوقت هي قدرة الوعي على أن يقر ذاته . ويتضح ذلك من النظر في الوعي الانساني من حيث هو يفكر في ذاته وفيما عداه من الأشياء ، فإن الوعي الانساني يضع بذلك خارجه كل ما هو ليس إياه . وإذا فئمة أنا فئمة عالم أضعه فيحيطنى ويشملنى ضمن نطاقه . والكائن الواعي يتجاوز العالم أي الوجود الحالم الذى يتحول بمجرد تجاوزه إلى وجود معقول ، فالتجاوز هو ما يمنح صفة الوجود للموجود بمعنى أن يصبح معقولا فيكتسب طابعاً معيناً ومعنى خاصاً ، كأن يصبح مرغوباً فيه أو مرغوباً عنه ، وكأن يصبح عائقاً أو

L'Etre et le Neant, P. 97 (٢٦)

(٢٧) هذا النص الذى يعبر عن التركيب الانطولوجي للوعي من حيث هو انفصال وملاحظة مستمرة واتجاه وشروع دائم يرد في « الوجود والعدم » مراراً ويكاد يتكرر في معظم فصوله . ونحن نشير إليه هنا كما جاء في ص ٩٧ و ص ١٨٣ من « الوجود والعدم » .

أداة . فالعالم يتحول عن طريق التجاوز من كايوس مبهم إلى أشياء ذات دلالات محددة . وبسبب هذا التجاوز يتصف الوعي بأنه حر . فالحرية هي قدرة الوعي على التجاوز بحيث يضع ذاته ويضع العالم والفعلين متلازمين .

وهنا ربما كانت المقارنة هنا بين معنى التجاوز عند سارتر ومعنى التجاوز عند هيدجر تتيح لنا أن نتيبن ارتباط فكرة التجاوز عند كليهما بتقرير الحرية الانسانية : ففي فلسفة هيدجر ليس الانسان ذاتا مغلقة على نفسها ، وإنما هو وجود أو وعى متجه ضرورة - وبحسب خاصية القصد التي قررها هوسرل - نحو موضوع ما . . واتجاه الوعي نحو الموضوع يعني أنه ليس وعيا فحسب ، أعنى وعيا بغير موضوع ، وإلا لم يكن وعيا ، وإنما هو وجود في حركة دائية يرتب عليها مباشرة أن يتجاوز الانسان ذاته ليتجه نحو شيء ما . ولكن هذا التجاوز لا ينتهي بالانسان إلى شيء أعلى منه كما في فلسفة كيركجارد مثلا أو جبريل مارسيل وإنما هو تجاوز نحو العالم . فالتجاوز إذا يعني عند هيدجر أن الموجود البشرى يفارق ذاته ليتجه نحو العالم حوله ، وبمقتضى هذا الاتجاه يقرر وجود العالم ويدركه الوعي ويستحوذ عليه . ومن هنا كانت الصفة الأصلية للوعي والمميزة له أنه وجود - في العالم ، ومن هنا أيضا كان العالم - من الناحية الأنطولوجية - يخص الموجود البشرى ويدخل ضمن تركيبه ومقوماته . وهذا يعني أن الانسان - في فلسفة هيدجر ليس منفصلا عن العالم وإنما هو بالعكس وجود - في - العالم . والوجود - في - العالم ليس بالتالي صفة تنضاف إلى الوعي وإنما هي ضمن تركيب الوعي . أعنى أنه يدخل في تركيب الوعي أن يكون موجودا - في - العالم وإلا لم يكن وعيا .

وهنا نرى الفارق بين فلسفة هيدجر وفلسفة سارتر : فالوعي عند سارتر هو وعي شيء ما ، لامن حيث هو وعى متصل بهذا الشيء ، بل بالعكس من حيث هو وعى منفصل عنه ، بينما الوعي في فلسفة هيدجر وعى متصل بشيء ما وبموضوع ما . وبناء على ذلك فالتجاوز عند هيدجر هو تجاوز الذات لنفسها وفي اتجاهها نحو العالم ، بينما التجاوز عند سارتر هو تجاوز الذات لنفسها وللعالم في اتجاهها نحو المستقبل . والتجاوز في الفلسفتين هو الذى يتيح للوعي أن يضع ذاته وأن يضع العالم : إنه يضع ذاته ويضع العالم في فلسفة سارتر من حيث هو متميز عن العالم ومنفصل عنه ، وهو يضع ذاته ويضع العالم في فلسفة هيدجر من حيث هو وعى متجه نحو العالم ومربط به - وهو في الحالتين يقضي بضرورة الحرية الانسانية من حيث هي خاصية جوهرية للذات .

إلا أن ثمة فارقا جوهريا نستطيع أن نلمحه بين معنى الحرية عند سارتر ومعنى الحرية عند هيدجر بالنظر إلى معنى التجاوز عند كل منهما : فالذات - في فلسفة سارتر - هي في مفارقة دائمة لنفسها وفي تجاوز مستمر لذاتها . وانفصال الذات عن نفسها يعنى عدم خضوعها لما هي تفترق عنه وما تتجاوزه ، فهي ليست إلا تجاوزا مستمرا لذاتها . وهذا التجاوز هو الذى يتيح للانسان أن يكون هو نفسه أساسا خالصا لذاته ، أعنى أن يكون هو نفسه الذى يصنع ذاته - وهذا هو معنى الحرية في فلسفة سارتر بصفة خاصة . أما في فلسفة هيدجر فبالرغم من أن

التجاوز هو الذي يتيح الحرية الانسانية إلا أن الإنسان في مجازوه وشرعه نحو المستقبل مرتبط بتحديدات معينة : فهو مرتبط أولاً بماضيه الذي لا بد له من أن يتقبله على نحو ما ، وهو مرتبط ثانياً بالعالم من حيث إن الوجود في فلسفة هيدجر هو وجود - في العالم ، وهو مرتبط ثالثاً بغاية قصوى يشرع نحوها وهي الموت من حيث إن الوجود في فلسفة هيدجر هو وجود - من أجل - الموت أو وجود لفناء Sein Zum Ende . وفي هذه الارتباطات جميعاً نשמع بما يمسك بالحرية في فلسفة هيدجر من قيود وما يبطئ عليها من عناصر الضرورة ، بحيث تبدلنا على أنها ليست فلسفة حرية كما هو الأمر في فلسفة سارتر .

والواقع أن ما نجد من فوارق بين فلسفة سارتر وفلسفة هيدجر يرجع في مجملته إلى اختلاف المقولة الرئيسية التي يتخذها كل منهما أساساً لفلسفته ويحيل منها أول وأهم مقومات الوجود الانساني . ففي فلسفة هيدجر لا يمكن أن يكون هناك وجود بشري مالم يكن مرتبطاً ارتباطاً أولياً بالعالم ، فالوجود - في العالم - هو أول وأهم مقومات الوجود الانساني . أما فلسفة سارتر فتقوم أساساً على اعتبار أن الوجود الانساني هو في جوهره انفصال وملاشاة . فالانفصال والملاشاة هما التركيب الانطولوجي للوعي .

فإذا نظرنا - في فلسفة سارتر - إلى هذا التركيب الانطولوجي للوعي بدا لنا الوجود الانساني في صورة حركة دائبة قوامها الانفصال من الماضي والاتجاه نحو المستقبل . وهذه الحركة عينها تعني أن الوجود الانساني ليس وجوداً موضوعياً متطابقاً مع ذاته وليس في وسعنا بالتالي أن نحدد ماهيته . إن الانسان في فلسفة سارتر ليس حاصلًا على أى ماهية ثابتة وإنما تتوقف ماهيته على سلسلة أفعاله واختياراته . ولكي يختار الانسان لا بد له أولاً من أن يكون موجوداً . ومن هنا كانت القضية الرئيسية التي تقرر في فلسفة سارتر أن « الانسان كائن أولاً ثم يصير بعد ذلك هذا أو ذاك » (٢٨)

ليس الانسان إذاً حاصلًا من الأصل على ماهية ثابتة . إن الماهية الانسانية كما يقول سارتر لاحقة للوجود . وقلنا بأن الانسان يتجاوز ذاته يعني أن الوعي ليس موجوداً متحجراً ثابتاً أو موجوداً خاضعاً لأية ماهية سابقة عليه ولكنه موجود قادر على الانفصال عن حالته الراهنة ليقرر لها معناها الذي يختاره بمحض حريته . وإذا « فما هية الكائن البشري معلقة بغيرته » ، وإنكار هذه الماهية ، أعني إنكار أن تكون سابقة على الوجود الانساني ، هو ما يتيح للانسان مجال الحرية - وهذا هو امتياز سارتر على الفلسفات التي تقول بالماهية فتقع في الجبرية ، وعبثاً تحاول الخروج منها ، فان الخروج إلى الحرية يقضى بالضرورة أن ننحى الماهية السابقة بحيث يصبح الوجود الانساني فعلاً انسانيًا هو فعل الانتقال أي الصيرورة من حال الى حال ، وبحيث تكون هذه

الضرورة مختلفة عن التغييرات المادية التي تكمن في علل سابقة تنبج مجال التنبؤ وتقضي بالآلية . أما الصيرورة لدى الانسان فتؤدي إلى جديد وتفترض ضرورة الحرية . ومن ثم يكون الوجود انتقلا مما كان الى ما لم يكن بعد . والوجود بهذا المعنى يصبح ميزة خاصة بالانسان - وحده ، بل ميزة مقصور عليها الانسان ، لان الانسان لا يأتي الى الوجود كموضوع في مكان وزمان بل كششاط مستمر للحرية . فليس هناك معنى لأن نقول ينبغي على الانسان أن يكون حرا إذ لا يمكنه كذلك ^(٢٩) . الانسان اذا مقسور - من حيث هو نشاط حر - على أن يكون حرا بصفة دائمة . إنه يمارس حريته في كل فعل وفي كل سلوك . « إنني مدان بأن أكون حرا » ^(٣٠)

هنا يبرز السؤال الهام : وماذا يفعل الانسان بهذه الحرية ؟ الواقع ان الاجابة على هذا السؤال لا تجيء في كتاب « الوجود والعدم » . ذلك أن سارتر قد وقف في هذا الكتاب عند اعتبار الانسان شروعا أي انفصالا مما هو كائن واتجاهها نحو مالم يكن بعد . بيد أن سارتر قد مضى في كتابه الأخير « نقد العقل الجدلي » إلى اعتبار الشروع فعلا تعود قيمته إلى ما يحدته من تغيير . فسارتر إذا يتحول هنا عن معنى الفصل بالاطلاق Le faire إلى معنى العمل بالتحديد La praxis أعني العمل الانتاجي الذي يهدف إلى اشباع احتياجات الانسان . وبعبارة أخرى أنه يتحول عن الحرية العفوية المطلقة إلى حرية كائن اجتماعي تاريخي يحبط به وسط مادي ويعمل في هذا الوسط بالتغيير . ومعنى هذا أن سارتر يترك المنظور المثالي - منظور الحرية المطلقة - ليتحدث عن حرية « محددة بحرية » بحيث تكون في كل واحد « بترا مقبولا » . ويعترف سارتر بأن الوجودية إذ تقتصر على دراسة الموجود البشري في نطاق القطاع الانطولوجي فإن من المسلم به أنها تثير مسألة علاقته الأساسية مع جملة الأنظمة الأخرى التي نجعلها تحت اسم الانثروبولوجيا ^(٣١) فلا بد إذا من استيعاب الظروف المادية والاقتصادية ومختلف العوامل التاريخية والاجتماعية والحضارية . فهذه كلها تشكل الوسط الذي يتأثر به الانسان ويعمل على تجاوزه . ومع استيعاب هذه الظروف والعوامل يعتقد سارتر أنه يذيب الوجودية بقطاعها الانطولوجي داخل الماركسية الأصلية : ماركسيه كارل ماركس . وإذا كنا نقول إن الماركسية الأصلية هي المادية التاريخية فذلك من حيث إن المادية التاريخية تعنى الفعل الانساني في علاقته مع العالم وعلاقته مع الآخرين .

وإعادة الانسان داخل الماركسية الأصلية يؤدي إلى وضع الأسس لأنثروبولوجيا حضارية حقيقية تبرر حضور الحرية بوصفها تجاوزا في قلب الاطار الزمني الشامل للتاريخ . إن سارتر يرى أن امتياز الانسان يكمن في المكانة التي يشغلها في هذا العالم ، وذلك لأنه الموجود الذي يمكنه أن يعيش تاريخيا ما ينتاب المجتمع من تقلبات ، أي أنه يتحدد دون انقطاع عن طريق عمله الخاص خلال ما يثارت من تغيرات . وهذا التعريف للانسان

(٢٩) هذا هو مفهوم الحرية عند سارتر بالمعنى الميتافيزيقي . ولكن سارتر يجمع بعده الحرية بين المظهرين : الميتافيزيقي والاخلاقي .

Le Être et le Neant, P. 515 (٣٠)

Sartre, J.— P.: Critique de la Raison Dialectique (Gallimard , Paris 1960) P. 104 (٣١)

هو بالضرورة تعريف بعدى *a posteriori* بمعنى أنه يجيء بعد التجربة - تجربة أن يكون للمجتمع تاريخ - ثم يمكن بعد ذلك أن ينسحب على مجتمعات بلا تاريخ. ^(٢٢) ومعنى هذا أن المعرفة الإنسانية تتحقق أول الأمر كمعرفة عملية ثم تكون بعد ذلك معرفة نظرية ، لكنها لا تتقف عند هذه المرحلة وإلا بقيت تصورية فارغة . بل هي تعود إلى الواقع الفعلي .

ويرى سارتر أن في هذا الربط بين الواقع والتصور تلتقي الوجودية بالماركسية . فعندئذ تتخذ الفلسفة من الإنسان ومن التحديدات المحسوسة لحياته الدعامة الحق والموضوع الأساسي للدراسة . فتتجنب بذلك ما تفتقر إليه النظرية الماركسية من أساس أنطولوجي صميم ، هو الافتقار الذي يطلق عليه سارتر اسم « فقر دم شامل » ^(٢٣) وعندئذ أيضا لا تغفل الفلسفة البعد التاريخي الاجتماعي بكل ما ينطوي عليه من مواقف اقتصادية وصراع طبقي وعلاقات بشرية جدلية . فهذه كلها تدخل في إطار حضارى وتشكل عناصر جوهرية من عناصر موقف الإنسان .

ومع التقاء الوجودية بالماركسية يعود الجدل جدلا إنسانيا يصنعه الإنسان إذ يصنع ذاته في حدود عالها الاجتماعي وإذا كانت العلاقة بين الإنسان والأشياء هي أول ما تكشف عنه التجربة الجدلية فإن هذه العلاقة تجيء في صورة عمل يقوم به الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي وتاريخي وينصب على تغيير الوسط المادى أى على الإنتاج .

وكان يمكن أن تقوم العلاقات بين الإنسان والإنسان على التبادل لو كان الإنتاج وأشكال المادة متوفرة وكافيا لأشباع متطلبات الإنسان . لكن الندرة تمنع إمكان التبادل . ومع التقاء الحاجة والندرة ينشب الصراع ويتخذ كل صور العنف ، فتصبح العلاقة بين البشر علاقة تبادل مستلب يتهدد الإنسان فيها غيره بالعداء والموت . وليس يشترط أن تكون الندرة دائما أمرا صريحا ، فإن إدراك الحاجة يتسلل إلى أعماق الوعي الإنساني ، ويستقر فيه على مر العصور شعور بمحايث بالندرة يسميه سارتر استبطان الندرة ..

ولكن يحتاج للإنسان أن يحدث ما يهدف إليه من تغيير في الوسط المادى لا بد من التقاء الحريات الفردية على نحو أو آخر : قد تلتقي في تجمعات *collectifs* كتجمعات الناس على محطة أتوبيس بينهم علاقة عداء بالقوة بسبب ندرة الأماكن . وقد تلتقي في عمل مشترك يشكل جماعة *groupe* كالجماعة الثورية . بيد أن اشتقاق الفرد عن الجماعة أمر محتمل لانه يحتفظ بحريته لاسيا وإن براكسيا الجماعة ليست حاصل جمع براكسيا الافراد . فيلزم منع

Critique la Raison Dialectique , P. 103—104 (٢٢)

Critique de la Raison Dialectique, 109 (٢٣)

الاستغناء عن طريق العنف . هكذا يصبح الرعب ملزماً بالأخاء وينمقد بين الأفراد قاسم مشترك هو قاسم الولاة (٣٤) ، يبيى صريحاً أو ضمناً ليعضن التهامهم في براكسيا مشتركة .

يبقى لنا أن نتساءل عن تحول سارتر : تحوله عن الفعل الفردي إلى البراكسيا المشتركة . لقد اهتم سارتر في « الوجود والعدم » بالموقف اليتافيزيقي وبالذاتية الخاصة . ثم اتجه في « نقد العقل الجدلي » إلى الاهتمام بالواقع الاجتماعي والتاريخي . اتجه إلى موضوعية تعهد في الخروج من الذات لتلتحق بالآخرين وبالتاريخ . فهل معنى ذلك أن سارتر قد تحول عن موقفه الأساسي إلى موقف جديد معارض للموقف الأول ؟

هناك أن لاشك تغير واضح في الكتابين من حيث المنهج ومن حيث المصطلحات : أما المنهج فلم يعد كما كان في « الوجود والعدم » منهجاً فينومولوجياً يقتصر على دراسة الوعى وعلى الموضوعات الماثلة له . ولكنه أصبح المنهج الصورى والجدلي الذى يهدف إلى دراسة النطق الهى للفعل الانساني للكشف عن بناءاته الأولية . وليست الغاية من الكشف عن بناءات العمل الأولية الحصول على العناصر التي يمكن ابتداء منها أن نعيد تكوين التاريخ ككل تام ، فإن التاريخ ليس كلاً ولكنه عملية تجميع مستمرة . ولكن الغاية هى ايضاح ما يجعل التاريخ معقلاً ، لأن هذه البناءات المجردة الصورية التي نكتشفها هى ما يحتوى عليه التاريخ . وعلى هذا فالمنهج ارتدادى تقدمي : ارتدادى أو تحليلي يكشف عن بناءات العمل ، وبذلك يتيح التركيب التقدمي ويعمله ممكناً أو على الأقل صحيحاً . فالجانب التقدمي التركيبي يبيى إذا لاحقاً على الجانب التحليلي ولا يجوز من ثمة الاقتصاد عليه كما تفعل الماركسية العلمية .

وأداة هذا المنهج التراجمي التقدمي هى العقل الجدلي الذى هو عند سارتر نفس حركة التاريخ في سياق تكوينها وفي وعيها لذاتها . فالعقل الجدلي هو إذا علاقة بين الوجود والمعرفة ، أى بين التجميع التاريخي والحقيقة المجتمعة . وأياً ما كان من النقد الذى يمكن توجيهه إلى هذا المنهج الجدلي من حيث إنه بغض من قيمة المعرفة العلمية الخالصة التي هى نتاج للعقل التحليلي ، فما يهنا هو أن سارتر يبيى بموجب العقل الجدلي في نطاق قضيته الرئيسية التي قررها في « الوجود والعدم » ، وهى قضية التمييز بين الانسان والعالم أو بين الوجود لأجل ذاته والوجود في ذاته . صحيح أنه يصبح في نقد « العقل الجدلي » أكثر اهتماماً بالوجود في ذاته من حيث إيساده الاجتماعي والتاريخية . لكننا نستطيع أن نقول إن سارتر لم يهجر الكوجيتو . أية ذلك أن سارتر لا يكف عن أن يعيد إلى الانتروبولوجيا البعد الوجودي للمدارج التي يدرسها . إنه يعيد إدخال الباطنية في الجدال مما يعنى أنه يستعيد الانسان . فالجدل عند سارتر هو أولاً وبالذات جدل انساني .

إذا فاختلاف المنهج لم يؤد إلى تنازل سارتر عن قضيته الرئيسية أو خروجه عنها ، وهى قضية العلاقة بين الانسان والعالم . إنه قد أتاح له فحسب أن يتخذ منظورا جديدا يتناول في ضوئه هذه العلاقة . وهذا المنظور الجديد الذى انصب على العالم الاجتماعي وألح على البناء الطبقي قد اقتضي من سارتر أن يستخدم مجموعة جديدة من المصطلحات .

١ ونحن إذا نظرنا في هذه المصطلحات الجديدة وجدنا أنها جاءت عنده مساوية لمصطلحاته القديمة ومقابلة لها في الوقت ذاته . فهو يتحدث عن الانثروبولوجيا الفلسفية بدلا من الانطولوجيا الفينومولوجية وهو يستخدم في هذه الانثروبولوجيا ألفاظ « الانسان » و « العمل » و « المادة » في مقابل « الوجود لأجل ذاته » و « الوعى » و « الوجود في - ذاته » .

فاذا وقفنا عند هذه الألفاظ الثلاثة مع بدائلها تبين أن القضية الرئيسية عند سارتر واحدة ، وهى قضية العلاقة بين الوجود لأجل ذاته من حيث هو وعي أو شعور وبين الوجود في ذاته . لكن هذه القضية تشير في مصطلحاتها الجديدة التي نجح في « نقل العقل الجدلي » إلى اهتمام سارتر وإلحاحه في بيان أن هذه العلاقة لا تقف عند السلب والرفض كما كان الشأن في « الوجود والعدم » ، ولكنها علاقة عمل يقوم به الانسان ويرمي أساسا إلى التغيير : تغيير العالم المادى . إن مقولات سارتر واحدة وأبتداءه من الكوجيتو وتحويله له بموجب القصدية إلى وجودية تنصب على الوجود العالمى قد بقي في « نقد العقل الجدلي » وإنما منظورا إليه من خلال ما يحدثه الانسان من تغيرات في العالم المادى بموجب نشاطه الانتاجي . هذا المنظور الجديد يبين في مفهوم الشعور أو الوعى عند سارتر . وإذا كنا قد رأينا أن الوعى عند سارتر يقوم من حيث هو بمنازعة الموضوع فانا قد رأينا أيضا أن هذا المنازعة هو أساس العمل وشرطه الوحيد . فالمنظور الجديد لدى سارتر هو إذا مجرد إلحاح أكثر على مفهوم العمل . وهو إلحاح يبق على أرضية واحدة من فلسفة سارتر هى الكوجيتو من حيث هو وعى بشيء ما . لكن سارتر رغم بقاءه على هذه الأرضية ينطلق إلى تفصيل معنى العمل والنشاط الانتاجي إلى أن يبلغ بنا إلى قضية رئيسية جديدة هى قضية الندرة وما يرتبط بها من عنف .

أن مقولة العمل عند سارتر هى أولا ما يتيح الاتصال بين الأنا والآخر وعلى أساس من علاقات إنتاج محددة .^(٢٥) ثم تأتي فكرة استعالة الاشباع بسبب الندرة مما يعني الصراع والعنف . ويرى سارتر أن استيطان الندرة وهى مجرد واقعة عارضة ، هو ما يفسر العنف الذى يتسم به التاريخ البشرى كله .

ومعنى ذلك أن كل ما يشرع نحوه الانسان يقوم في نهاية الأمر على واقعة عارضة هي الندرة ، بحيث إذا انتفت الندرة أمكن عندئذ أن نتصور مجتمعا خاليا من العنف تتحقق فيه الحرية بمعناها الحقيقي . فهل يمكن أن يتحقق مثل هذا المجتمع ؟ ليس هناك عند سارتر ما يمنع من أن تلغى عملية التجميع المستمرة في نهاية الأمر إلى وحدة التاريخ ووحدة البشرية . أما كيف يفضي التجمع إلى الوحدة فهذا ما يشكل صعوبة لا سبيل إلى اجتنابها في فلسفة سارتر . إن الفعل هو عمل فردى ، وكثرة الضواهر الفردية تبقى من حيث هي كذلك أمرا فرديا لا يتيح للتاريخ أن يضي في صورة حركة تجميع تبلغ غايتها . فالعالم إذا يبقى ذريا ما دمنا نلجأ إلى العمل الفردى نلتبس فيه تفسير العالم .

فإذا غضضنا النظر عن هذه الصعوبة وافترضنا أن جدل التجمع والمجاعة كما عرضه سارتر يتيح إمكان الانتهاء إلى وحدة التاريخ بزغ لنا ما يردنا من « نقد العقل الجدل » إلى « الوجود والعدم » مرة ثانية ، لأن السؤال سيكون عندئذ عن الانسان من حيث هو شروع : هل يعود إلى القلق الوجودى ؟ وهل يصبح الانسان انفصالا وملاشاة دائمة كما وصفته أنطولوجيا سارتر ؟

إن هذه النتيجة تعنى على الفور أن « الوجود والعدم » كان ينبغي أن يبيى لاحقا على « نقد العقل الجدل » : لاحقا زمنيا لأنه يتناول الوعى أى الوجود لأجل ذاته في مجتمع انتهى إلى وحدة التاريخ البشرى فانهى منه الاستلاب . ولكن لا ينبغي أن ننسى هنا أن فلسفة سارتر برومته قد بدأت أصلا من حدس سارتر للوجود - في ذاته - ، وأن هذا الحدس قد كشفت عنه أول رواية ظهرت لسارتر وهي قصة « الغثيان » .

واضح أن ما عرضناه عن تحول سارتر لا ينطوى على أى نقض لقضايا « الوجود والعدم » ، ولكنه يتخذ منظورا جديدا يبرز على نحو أكثر تفصيلا موقف الانسان الاجتماعي والتاريخي . صحيح أنه لا يغفل العمل الفردى praxis ولا يهضم من قيمته . ولكنه يرى أنه مشروط بنسق من العلاقات الاجتماعية ولا يتاح للانسان أن يتغير أو يتعدل إلا في نطاق هذا النسق . وإذا كان هذا المنظور الاجتماعي لاسيا في جانبه الاقتصادي هو الوحيد الذى اقتصر عليه الماركسيه المعاصرة فيما يرى سارتر ، مما انطوى على اهمالها للموجود البشرى ، فان امتياز سارتر يكمن في التأكيد على اهماله أيضا بالبعد الانطولوجي داخل الاطار الاجتماعي . فهل أراد سارتر بذلك أن يعيد للماركسيه الحياة أم أن يفجرها من الداخل ؟



لقد صرح سارتر في أخريات حياته بأنه « كتب بالضبط عكس ما كان يريد أن يكتب » . وليس هذا التصريح سوى تعبير عن رفض سارتر للارتباط بأى من مواقف السابقة ارتباطا يحيل فلسفته إلى مذهب منغلق ويسد عليه ينبوع التجدد والتحول . لكن هذا الينبوع كان مصيره حتما أن يتوقف . ففي التاسعة من مساء الأربعاء ١٥ إبريل سنة ١٩٨٠ في مستشفى بباريس لفظ سارتر أنفاسه الأخيرة . وموت سارتر انقطع « طريق الحرية » ، الطريق الذى ارتاده ابتداء من عام ١٩٤٣ حين ظهر كتابه « الوجود والعدم » ، وظل يتابع منعطفاته حتى نهاية العقد الثامن من هذا القرن ، « دون أن يمضي في أى منعطف إلى نهايته .

« استلهمت الفكرة من فرويد الذي وضع الداعي في مكان شائك ، ثم قيده برباط يصل ما بين « هذا » و « الأنا العليا » فأصبح في وضع الرئيس الفرنسي شارل ديغول أزاء القوتين الأعظم : الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية . »^(١)

جان بول سارتر

ان التحليل النفسي عند جان - بول سارتر يمكن أن يوضع في منطقة تتأرجح بين المد والجزر . فهو يشكل لدى هذا الفيلسوف المعاصر شعورا عميقا مغلفا بالحب والكراهية وبالأعجاب والمقت معا ، وهو ما يبدو جليا في مؤلفاته العديدة المختلفة .

والتحليل النفسي الذي يعتبره سجموند فرويد وسيلة علاجية ومرجعا ذهنيا قوي الفاعلية ، يراه سارتر مجرد شكل موضوعي بحث قابل للمناقشة مرفوضا تارة ومقبولا تارة أخرى ، داخل اطار يحير أنماطا حديثة في صور مختلفة ومتشعبة ، تتركز كلها لتكون عدده أسس علم النفس الظاهري « الفينومينولوجي »^(٢)

مفهوم التحليل النفسي عند جان بول سارتر

نفسية عبد الفتاح شاش

(١) مجلة ل'Arc رقم ٣٠ لعام ١٩٦٦ ص ٦٧ .

(٢) Psychanalyse Phenomenologique الفينومينولوجيا أو علم الظاهريات يعني من ناحيته الاشتقاقية علم أو مذاهب الظواهر - وأول من استخدمه هو الفيلسوف الألماني لمبرت (١٧٢٨ - ١٨٧٧) . ثم استخدمه بعد ذلك هيغل للدلالة على المراحل التي يمر بها الإنسان ، ابتداء من المعرفة الحسية ، حتى يصل إلى المعرفة المطلقة ، أي الشعور بالروح . أما سارتر فلم ينظر إلى الفينومينولوجيا على أنها فلسفة بقدر ما هي منهج استعان به في إقامة ما أطلق عليه اسم « علم النفس الظاهري » . ويقصد سارتر بعلم النفس الظاهري : دراسة الظواهر النفسية أو وقائع الشعور دراسة وصفية مباشرة لا تعتمد على الأفكار والنظريات السابقة .

والتحليل النفسي الذي يعتبر نوعاً من التفسير لما يحور في النفس البشرية ، كما جاء في قول فرويد ، يعتبر بالفعل من أدق السبل التي تسمح بالحصول على نتائج مجزية في مجالات الانعطاف المستقصية والعقد النفسية . فهو يصل الى أي فرع من الفروع الداخلية بالجسم ويستخدم كأداة اكتشاف تبحث عن الجذور الدفينة في اللاشعور ، ويتمكن من العثور عليها .

وإذا لاحظنا في بعض الأحيان أن سارتر اتخذ موقفاً معادياً تجاه هذه الأبحاث والدراسات إلا أننا ، إذا أمعنا في أدائه ، لوجدناه لا يرفضها رفضاً باتاً كما صرح في كتابه « تخطيط في نظرية الانفعالات »^(٣) ، خاصة عندما حصل على نتائج مرتبطة بالادراك : تلك الوحدة الخفية التي تسلطت على جان بول سارتر فحولت معظم أفعاله الى نظريات فلسفية عميقة . وانا لواجدون في نواحي عدة من كتاباته التفسيرات التحليلية التي قدمها لشخصياته الروائية . ويجدر بالذكر الإشارة الى اهتمامه الخاص بتوضيح استخدام التفهم لدى المحلل النفسي ، وذلك في مجالات تفسير الشعور . فقد بين بجله أن كل ما يتلج النفس من أحاسيس لا يمكن تفسيرها أو شرحها الا بواسطة الشعور نفسه . ويتوقف سارتر أحياناً عند هذا الحد مستكراً كل قيم وتفهم خاص « بالنظرية المستترة للفاعلية النفسية » . ولما كان كاتبنا العبقري قد قرأ مؤلفات « يونج » و « ادلر » و « فرويد » وغيرهم من فطاحل علماء التحليل النفسي الكلاسيكي ، فقد فكر كثيراً في قيمة وفاعلية ومدى هذا التحليل النفسي التقليدي ، فقد أبان بجله أنه ليس « صديقاً مزيفاً » للتحليل النفسي ، وأنه لا يهدف للسخرية ، انما هو « رفيق طريق في مجال النقد » . وبهذه الكلمات عبر سارتر عن آرائه ونواياه ، تجاه التحليل النفسي .

ففي عام ١٩٢٧ قام هذا الكاتب بمراجعة كتاب « بحث علم الامراض النفسية » لجاسبرس^(٤) ، وكان قد ترجم آنذاك . فراح يستنصف مبادئ « الادراك »^(٥) البسيط والمركب لدى افراد يتعرضون لتجارب علم النفس التحليلي . وكشفت الادبية الفرنسية سيمون دي بوفوار صديقة سارتر ورفيقة عمره عن كل ما كان يعمل بداخله فكتبت تقول :

« كنا نلوم جميع المحللين النفسيين لأسلوبهم في تقسيم الانسان . وكان الاجدر بنا أن نحاول أن نفهم بأن تفهمهم منطبق على نظمهم ، ونستخدم مفاتيحهم للاستفادة من تجاربهم بطريقة منطقية وان كانت في حقيقة الأمر طريقة مخادعة . ومع ذلك فما زالوا بكل أسف يملكون نفس السبل »^(٦)

(٣) Esquisse d'une theorie des Emotions او كما ترجمها البعض : « محاولة لنظرية في الانفعالات » .

Traite de Psychopathologie de Jaspers (٤)

La comprehension (٥)

(٦) سيمون دي بوفوار - « قوة العمر » - باريس - جالبار سنة ١٩٦٠ (٦٢٣) ص ١٣٣ .

Simone de Beauvoir — La Force de L'age — Paris —

Gallinard — 1960 623 Pages — P. 133.

وتسترسل هذه الكاتبة الوجودية في سرد آرائها ومفاهيمها هي رفيقها سارتر ، في كتابها « قوة العمر » مؤكدة أن التحليل النفسي الذي شد أذهان العالم بأسره لم يكن يجذبها بصورة جوهرية ، اذ كانا يتلقيان ما يدور حول الأمراض العقلية والتوترات العصبية من آراء ، ويستمعان بطريقة عفوية لما يقال عن أعراضها وما تحمله من معاني تعود الى أيام الطفولة . وكانا أيضا متفتحين على أن التحليل النفسي لا يمكن استخدامه الا في الحالات المرضية فحسب ، اما بالنسبة للأشخاص الطبيعيين فلا يصح تطبيق هذه المناهج والنظريات عليهم لأنها لا تلائمهم قط ، ولذلك فهي يرفضانها رفضا باتا جازما .

وبدأ جون - بول سارتر يهتم بهذا المجال فأخذ يبحث عن منهج جديد للتحليل النفسي ، يستبعد فيه مبدأ اللاشعور طبقا لما أشارت اليه سيمون دي بوفوار في هذا الوقت . لم يكن سارتر قد قرأ لفرويد حتى عام ١٩٢٩ سوى كتابي « تفسير الأحلام » و « علم الأمراض النفسية في الحياة اليومية » ^(٧) وحتى عام ١٩٣٢ ظل مذهبه مذبذبا ، مبها ، غير واضح المعالم ، وهنا كتبت زميلته تقول : ان جوهر تناقضاتها مع فرويد يكمن في انكارها للاشعور . ولقد أكد فرويد في تحليلاته النفسية هجوع وجود ما أطلق عليه : « نواة الليل التي لا تكسر » ^(٨) وانها نواة صلبة تكمن في اعماق الانسان ولا يمكن اختراقها أو التطفل في أعماقها ، كما لا يمكن تحطيمها ، وليس في قدرة المجتمع او اللغة اقتحام جذرائها المتينة . ويرى سارتر أن الحرية هي المخرج او البديل الوحيد لتفجير هذه النواة الصلدة لتبدو عندئذ الحقيقة واضحة جلية . ثم يستمر سارتر في بحثه وراء هذه المجهول الذي يمكن أن يحل محل اللاشعور . وبعد عدة سنوات يقع في يده كتاب ويلهلم ستيكل « المرأة القاسية » ^(٩) فيعجب ايماء اعجاب بما جاء فيه من لون جديد من التحليل النفسي يستبعد كلية فكرة اللاشعور .

ويركز سارتر اتهامه كله بهذا المجال الجديد ويظل مشددا اليه فيندفع في دراسته بحماس حتى عام ١٩٣٥ حين يقابل الطبيب النفسي « لاجاش » ويطلب أن يعاونه في هذا السبيل ويأخذ بنصائحه وارشاداته ثم يجري على نفسه تجربة ذاتية تحت اشراف « لاجاش » نفسه فتناول عقارا من المكيفات اسمه « المساكالين » ليقترع عالم اللاشعور الغامض هذا العالم الذي طالما استهواه ...

وعلى مدى ستة أشهر تقريبا ظل سارتر تحت تأثير هذا المخدر ، يعاني من أنواع « الهلوسة » مما سمح له اخيرا باختراق حجب ظلمات الامراض النفسية ، ويتلمس ما أضفاه عليه هذا العقار من تغييرات في الحواس : منها تخيله أحيانا أنه مطارد .

(٧) Sigmund FREUD — L'interprétation des rêves

— Psychopathologie de La vie quotidienne

„Infracassable nouyou de nuit"

Wilhelm Stekel — La Femme rigide

(٨)

(٩)

أما التجربة الثانية التي اجتازها فكانت في عام ١٩٣٦ عندما زار إحدى المصحات النفسية بمدينة روان الفرنسية وقام بدراسة بعض الحالات المرضية . ومعلوم أن علم الامراض العقلية والتحليل النفسي صنوان لا ينفصلان عن بعضهما البعض ، بل من الممكن اعتبار كل منهما مكملًا للآخر من حيث الاهتمام بالعوامل الوراثية والنفسية بغية الوصول الى النتائج المجدية .

فالتحليل النفسي يتيح للباحث التعرف على الخلجات الدقيقة عندما تتذبذب داخل العقل البشري .. وهو يرتبط بعلم الامراض العقلية الذي يركز على الامام الجيد بالدوافع العميقة الكامنة في اللاشعور . وهنا يدرك جان بول سارتر أن مجال التحليل النفسي حين يسلط عليه مثل هذا الضوء الباهر يعبر تمامًا عن الانارة والايضاح لما هو مسلط عليه ، وفي هذا يقول :

« انه ليس لغزًا يعجز عن تفسيره ، فالجأسل الواعي والتفكير العميق قادران على ادراك الغرض المطلوب . (١٠)

ويعود سارتر ليقول ان التأمل والتفكير قد يقدمان المادة الاولى الضرورية لاجراء التحليل النفسي ، الا أنها غير قادرين على القيام بدور أساسي في هذا المجال . وفي عام ١٩٤٠ تقريباً أخذ سارتر يشعر تجاه التحليل النفسي باستياء شديد ، بيد أنه لم يصرح بشعوره هذا الا في عام ١٩٧٠ عندما سجل في كتابه « مواقف » (الجزء التاسع) أنه عجز عن تفهم التحليل النفسي بسبب نشأته الفرنسية الخالصة وتشبعه بأراء ومعتقدات المفكر الفرنسي « ديكارت » اذ أن اتجاهات هذا المفكر الفرنسي تميل كلها للواقعية ، وبالتالي لم تكن لتتفق مع فكرة اللاشعور . (١١)

عندئذ اتخذ جان بول سارتر تجاه التحليل النفسي موقفاً ملؤه القلق والريبة والشك . واستطاع ان يتلمس أنواع القصص الروائية التي تأثرت بهذا اللون من الأدب التحليلي . وفي عام ١٩٧٠ راح يقول أن ظهور نزعة التحليل النفسي أبرزت نوعين من الروايات : « الاول منها هو النوع الساخر الذي يقوم على تسجيل الاساليب التحليلية ليضفي عليها ما يحاول اخفاء سذاجتها . أما النوع الثاني فيمكن أن يطلق عليه اسم : « الروايات الزائفة » (١٢) مثل روايات « جبروفيز » (وهي تختلف عما يمكن أن يسمى بـ « الروايات المضادة » (١٣) مثل

(١٠) جان بول سارتر - الوجود والعدم - ص ٦٥٨

(١١) جان بول سارتر - مواقف (الجزء التاسع) ص ١٠٤ - ص ١٠٥

(١٢) Les Faux — romans — (GONBROWIEZ) (١٣)

Les anti — romans — (Nathalie SARRAUTE) (١٤)

تلك التي كتبها « ناتالي ساروت ») وهي نوع معين من الرواية له طابع خاص يهتم بالشكلين التحليلي والمادي معا « ^(١٤) ويرجع الفضل كله الى التحليل النفسي لأنه ننسق بين هذه الموضوعات ورتبها في اطار مركزي خاص .

واستطاع جان بول سارتر أن يضع أساسا تركيبيا وموضوعيا للرواية لتركز عليه بثبات ، كما اهتم باللغة وما تعكسه أساليبها ومضامينها . تلك الفكرة كانت موجودة من قبل ، نادى بها (لاكان) ^(١٥) وغيره من المحللين النفسانيين مؤكدين ان الانسان لا يفكر ولكنه يدع نفسه نهبا للتفكير ، وانه لا يتحدث ولكنه يترك النفس على سجيبتها عند الحديث . وسواء عليه أن ترك نفسه للتفكير (متأثرا بالمفكرين) او ترك نفسه للحديث (متأثرا بالغويين) فالعنصر الاساسي عندئذ هو المنهج التركيبي ، إذ أن المحلل النفسي لا يطلب من مريضه ان يتصرف بحرية مطلقة ، بل يدعه مسترسلا مع نفسه ليتصرف به هو عن طريق ما يوجهه اليه من كلمات تحدث لديه الانفعالات الناشئة . وفي هذا يقول « فرويد » ان هذا الاسلوب من التحليل يهيء للمرء أنجح وسيلة تنجم عنها التأثيرات المتبادلة بين المحلل النفسي والداعي ^(١٦) . ويمكن جان بول سارتر أن يجمع العديد من الموضوعات حول مضمون اللغة . ووجد أنها تبدو كما لو كانت انكاسا لرؤى تحول في أعقاب الداعي . وكان فرويد قد اهتم بهذه القضية على الخصوص وتكمن من الوصول الى لها والى جذورها المزوجة التي امتدت ليس فقط الى الفرد في المجتمع ، بل والى البشرية جمعاء ^(١٧) .

وواصل جان بول سارتر تجاربه خلال سلسلة من الابحاث المتتالية ، فرتب المعايير المختلفة لعالمنا المعاصر . واذا يؤلفاته تبدو وكأنها تصورات واقعية تبرز فيها الشخصيات الروائية أو المسرحية في صور متناسقة ومدرسة دراسة وافية وقادرة على خدمة نظرياته الفلسفية .

وبدا موقف جان بول سارتر واضحا تجاه آراء كبار الكتاب والمفكرين أمثال « فوكو » ^(١٨) الذي اهتم بالعلوم الانسانية وأثارها ، وأرتوسير ^(١٩) في مجال أصول السلالات البشرية ومميزاتها ، و« بارت » ^(٢٠) في المنهج التركيبي ومراجعة مفهومه التاريخي وتوارث الاشكال . و« ليفي استراوس » ^(٢١) و« لاكان » ^(٢٢) اللذين اهتمتا اهتماما خاصا بالمفهوم الحركي لكل هذه الموضوعات .

(١٤) جان - بول سارتر - مواقف (الجزء التاسع) ص ١٢٣ .

Lacan	(١٥)
S. Freud — Internation à La Psychanalyse — P. 7.	(١٦)
Pierre Vaerstraeten — Violence et ethique — P. 299.	(١٧)
Michel Foucault.	(١٨)
ARTHUSSE	(١٩)
Levie — Strauss	(٢٠)
Locan	(٢١)

وظل هؤلاء جميعا يعملون في مجالات محددة تشعب جذورها وتمتد لتلتقي كلها عند هدف واحد هو : البحث عن جوهر « الانسان المركب » - وتطور الموضوعات كلها حول محور يهدف الى تدوين الفكر من خلال الرواية الحديثة ، مع العمل على ابراز العلوم الانسانية وعلى الاخص « الانثولوجيا » وهو علم أصول السلالات البشرية وميزاتها . ثم يعقب ذلك محاولة نشر الابحاث اللغوية والتحليلية المختلفة .

ويرفض جان بول سارتر ادعاءات العلوم الانسانية والعلماء واللغويين والمحللين النفسيين بسبب تحريمهم من الموضوعات وتحريمهم من الداعي - ورأى انه من الأفضل ان تنظم الآراء في اطار منهج تركيبي سليم يخضع لقوانين داخلية محكمة . ويعتبر هذا المنهج التركيبي أن الاشياء كلها تختلف عن بعضها البعض ، وأن هناك روابط تشد أزرالعناصر المختلفة . ويتركز نشاط هذا المنهج التركيبي في الامكانيات المتاحة والموضحة لهذه الروابط ومدى علاقتها بعضها ببعض حتى تتضح النماذج التي تحدد الاعمال .

ويقول « بارت » ان نشاط المنهج التركيبي يقتضي مراجعة نوعية لمبادئ القصة او التاريخ « حيث ان هذه القصة أو التاريخ يسردان في شكل سلسلة منسقة ومرتبطة من الانماط - ويستخلص سارتر من هذه النظريات افكارا وآراء تتعلق بالمفهوم التحركي او الوظيفي ، (٢٢) يفتبرها فلسفة نظرية حديثة أكثر منها فلسفة وجودية . وفي ذلك يقول مشيراً الى الأبحاث التحليلية في كتابه : « الوجود والعدم » :

« ان الابحاث المتعلقة بالتحليل النفسي ، تشير الى إعادة بناء حياة الداعي منذ مولده وحتى اللحظة التي يباشر فيها علاجه . وتستخدم هذه الابحاث ما تيسر من مستندات موضوعية كالحطابات والمذكرات الخاصة ومعطيات الحالة الاجتماعية في شتى صورها . » (٢٣) .

عندئذ نجد سارتر معتقدا لونا خاصا من التحليل النفسي اطلق عليه اسم « التحليل النفسي الوجودي » . وهذا النوع من التحليل النفسي يركز على الفرض التالي : يعتبر الانسان وحدة متكاملة ومتجانسة لأنه ليس مجموعة او تشكيلة من المشاعر المتناثرة ، وعلى هذا الاحساس يعد المرء متكاملًا في تصرفاته كلها مهما كانت بسيطة او تافهة . وعليه ان يدون الى جانب هذه التصرفات ميوله وأهواءه في كشف واضح ثم يعمد الى تفسير ذلك كله محاولا استجوابها واستنباطها .

وبهذا النوع من التحليل النفسي نلاحظ أن جان - بول سارتر ينتهي جانباً فكرة « اللاشعور » و يبحث ويتقن عن « الحادث النفسي » الذي يعتبره نوعاً من التخطيط القابل للامتداد بالنسبة للشعور ، ويهدف هذا

Conception Fonctionnelle

(٢٢)

(٢٣) جان بول سارتر - الوجود والعدم - ص ٦٥٧

Prendre „Connaissance“ et non pas pendu „conscience“

(٢٤)

التحليل النفسي الى تفسير معظم التصرفات بجلاء ووضوح تامين . وذلك بالعمل على وضع الظواهر النابعة من كل منها وتحديد مفاهيمها بصفة خاصة - فانها تبدأ دائما بالتجربة المرتكزة على تفهم علم الكائنات ومدى حقيقتها عند الانسان . ففي التحليل النفسي الوجودي تتأثر الميول العميقة بظروف اوضاعها . ولما كانت واعية ومدركة فهي تساعد الداعي على معرفة اهدافه لا أن يلم بها ويدركها فحسب . عندئذ يصبح هدف المحلل النفسي التوصل الى « الوجود » ، وإلى معرفة وجود الانسان في مواجهة هذا الوجود » (٢٥)

وهذا التحليل الذي يتطلب قدرا من المرونة والشفافية قد يؤكد مدى تفهم الفردية (المستقلة والمؤقتة . وهو يفرض على كل داع اسلوبا خاصا يشكل ما سيكون عليه الداعي نفسه في الفترات اللاحقة - ويحدد سارتر كيف تتولد الحقائق البشرية لدى الانسان اخذا بالطريقة « الانطولوجيا الظاهريانية » (٢٦) فنقوم ابحاثه على الرغبات التطبيقية المائلة أمامه . فالقائمة التي ذكرناها والتي احتوت على الملاحظات والادلة والتجارب المختلفة لدى الداعي قد تسمح بتوضيح الاتصالات التي تربط بين الرغبات والتصرفات المختلفة . فالروابط الجامدة والكامنة في المواقف التطبيقية قد يمكن طرحها تحت الأضواء - وهذا النوع من التحليل النفسي - الوجودي - يسعى الى توطيد الرغبات الاساسية ، كما يعمل على ترتيبها ثم تفسيرها وتوضيحها .

وليس عسيرا أن نوضح بعض التناقضات بين التحليل النفسي الوجودي لسارتر والتحليل النفسي التجريبي - لفرويد ذلك ان التحليل النفسي الاخير غير قادر على أن يقدم نفسه بنفسه بشكل بديهي ومؤكد . اما التحليل النفسي الوجودي فهو اذ يرفض قاعدة اللاشعور ، انما يعتبر أن الحدث النفسي كامنا في الشعور . وعلى النقيض من ذلك تماما ، نرى ان التحليل النفسي الفرويدي يبدأ دائما من قاعدة تؤكد على وجود شعور مستتر وغير مدرك لما يجول بأعماق نفس الداعي .

ويشير جان - بول سارتر في كتابه مواقف (الجزء التاسع) الى أن فرويد قد استخدم لغة خاصة ذات أسلوب ومعاني أسطورية يتحدث بها عن اللاشعور ، ويعد هذا في الواقع أحد مهبات « خداع النفس » أو « ضعف الثقة بالنفس » (٢٧) ويعني سارتر بذلك « التدليس » أو « الكذب » على أنه يفرق بين الكذب الدارج المعروف وهو أن يكون المرء مدركا وواعيا هذا الصدق الذي يخفيه عن الناس ، وبين الكذب بمعنى « خداع النفس » ويكون الشخص قد غشها في حين انها واعية بهذا الكذب ، اي انه في حالة خداع النفس لا يخفي الصدق عن شخص آخر وانما يخفيه عن نفسه . ويقول سارتر ان خداع النفس هذا مثل ما أصاب « شارل

(٢٥) جان بول سارتر - الوجود والعدم - ص ٦٦٢

(٢٦) « الانطولوجيا الظاهريانية » يقصد بها سارتر « وصف ظاهرة الوجود كما تتجلى - اي دون وسيط » .

Mauvaise foi.

(٢٧)

بودلير^(٢٨) الشاعر الفرنسي الشهير حين اتخذ قراره الاول في مستهل حياته الأدبية ، ذلك القرار الذي حدد فيه بمحض نفسه هويته وشخصيته وماهيتها ووضعها جميعا ازاء العالم . وهكذا يمثل حالة بودلير استطاع سارتر ان يعرض فكرته الجديدة التي استعرض بها وضع هذا الشاعر ، وبذلك ادخل فكرة -خداع النفس على التحليل النفسي بدلا من فكرة اللاشعور . وبينما يبحث التحليل النفسي الوجودي عن تحديد « الاختيار الاول »^(٢٩) الذي يسبق المنطق ، فالتحليل النفسي الفرويدي يعمل على تحديد العقدة النفسية . وما يشير اليه كل المعاني المتعلقة بها . وهنا يقول جان - بول سارتر ان العقدة النفسية ليست الا « اختيارا نهائيا »^(٣٠) ذلك لأنها اختيار للوجود الذي فرض نفسه عليها .

وهذا يتضح ان التحليل النفسي الوجودي لا يبحث عن العقدة النفسية الاساسية (اي الاختيار النهائي للوجود) ولكنه يجري وراء المعنويات نفسها . وتحليل هذا أن قوة الشهوة « لليبيدو »^(٣١) ارادة طاغية . تشكل نوعا من الرواسب النفسية التي لا يمكن التغلب عليها - ويقول سارتر في ذلك :

« ان التجارب التي تقوم على أسس من العقد النفسية التي هي الارادة القوية الطاغية للشهوات أو « لليبيدو » - لا تعطي الا نتائج طارئة فحسب ، لانها غير قادرة على الاقتناع ، وما من شيء يحول بين الاخذ برأي الحقيقة الاساسية وبين تفسير تقدمه هذه الارادة الشهوانية القوية غير القادرة على أن تشكل للمرء مجالات اختياره الاصيلي » .^(٣٢)

ومن هنا يتضح ان العقد النفسية من الامور القوية القاهرة غير القابلة للمهزية لانها تأخذ سمة الاختيار الأولى او الأصلية . ويستنتج سارتر من ذلك ان الليبيدو او ارادة الشهوة انما تدل في مجال التحليل النفسي الوجودي على الصفات العامة والمشاركة بين جميع الافراد ، وبالتالي فهي قوية طاغية لا تقهر وترتكز مهمة التحليل النفسي الوجودي في البحث عن الاختيار الاول للشخص ، وتحديد الخطوة الاولى التي رسمها لحياته بعد ذلك ، بمحض اختياره الحر .

وهذا يكون البحث عن الاختيار الاول ليس بحثا عن عقدة خفية ، وهو ما يميز التحليل النفسي الوجودي عن التحليل النفسي الفرويدي .

على أننا نلاحظ في مواقف كثيرة من التحليل النفسي الوجودي مدى التشابه الكبير بينه وبين التحليل

Charles BAUDELAIRE

(٢٨)

Choix originel

(٢٩)

Choix ultime

(٣٠)

(٣١) Libido يعني سارتر بهذه الكلمة كل ما يمثل الامكانيات المموسة لتثبيت اي شيء بأي طريقة كانت .

(٣٢) جان بول سارتر - الوجود والعدم - ص ٦٥٩

النفسى الفرويدي فكلها يبحثان عن الوضع الأساسي لأي من المواقف ، على أن يؤخذ في الاعتبار مكانة الانسان ازاء هذا العالم . وكلاهما يؤكد على أن هذا المخلوق ليس الا مجموعة من قصص مسترسلة ، كما انها يعلنان على تتابع هذه القصص وتوجيهها وتبادلها بدلا من الجري وراء المعلومات الاحصائية المتعلقة بها . فاذا ما قارنا بين هذين النوعين من التحليل النفسى لوجدنا تشابها كبيرا بينهما ، ولستنا ما أضافا سارتر من اضافات طفيفة وتحريفات بسيطة لم تكن الا وسيلة يهدف من روايتها الى الوصول الى غاية يخدم بها اغراضه الخاصة في مذهبه الوجودي . فجان بول سارتر ليس محللا نفسيا يمارس التحليل النفسى ولا هو صاحب نظرية سيكولوجية متكاملة ، وانما هو فيلسوف يوجه اكبر جانب من فلسفته تجاه الانسان . وهو مفكر راح يجول بأفكاره في كل ما أنتجه من سبقوه من المفكرين ، وكان من المحتم عليه ان يلتقي المحلل النفسى الشهير ، دكتور سيجمون فرويد ، وأن يدلي برأيه فيه ويتخذ تجاه فكره موقفا خاصا ومميزا .

على أنه من الملاحظ أن سارتر وقف من فرويد موقف المواجهة تجاه بعض نظرياته ، وخاصة في المسألة الجنسية التي حظيت منه - كما هو معلوم - باهتمام مركز ، وفي ذلك تقول « سيمون دي بوفوار » :

« ان التحليل النفسى والمحللين النفسيين جعلونا نمتلئ بالنفور من أساليبهم الرمزية واصطلاحاتهم الفكرية التي تتناول الجنس . فهذه ناحية تبناها فرويد ، وهي كفيفة ببث الضيق والسأم فينا لأنها تخدش حيائنا وتعال من معنوياتنا » (٢٣)

لهذا رأينا سارتر يتجه صوب « ادلر » ذلك المحلل النفسى الذى ناصب فرويد العداة : وكان اهتمامه ينصب على الشعور فيركز عليه بدلا من التركيز على الجنس . وقد أرجع هذا العالم النفسى علة الامراض النفسية والعصبية الى عدة الشعور بالنقص ، وأوضح ذلك كله في كتابه المسمى « الطابع العصبى » (٢٤) . وقد نال هذا الكتاب اعجاب جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار ، وظلا يفضلانه على كل ما كتبه فرويد في التحليل النفسى ، ذلك أن هذا الكتاب لم يجعل من الجنس محور كل شيء في التحليل النفسى . ورغم تأييد « سارتر » لافكار « الفرد ادلر » الا أنه لم يقتنع تماما بنظريته القائلة بعقدة الشعور بالنقص « كفكرة أساسية ومسيطرة في مجال التحليل النفسى . وذلك ما أعلنه سارتر بصراحة ورأى أن من العسير تطبيقها في جميع الاحالات . بعد ذلك أخذ سارتر يستعرض آراءه ونظرياته الخاصة في شتى مؤلفاته من قصص وروايات ومسرحيات ومقالات . ففي قصة طفولة رئيس يروي سارتر قصة شاب عاش متأثرا بذكرى مشوشة لمشهد قديم رآه في طفولته المبكرة : هو مشهد لقاء جنسى بين والديه . لقد ظلت صورة هذا المشهد محفورة في ذهنه تطارده ، وقد أرادت ان تبتلع بصورة أخرى أكثر

(٢٣) سيمون دي بوفوار - قوة العرس ٢٥

Simone de Beauvoir — La Force de L'aye — P. 25.

(٢٤) الفرد ادلر - الطابع العصبى - Alfred Adler — Le tempérament nerveux

منها قدما حدثت عند نشأته الأولى وهو ما يزال بعد جنينا في رحم أمه ^(٣٥) . فلما شب وغدا غلاما يافعا تجلت عنده العقدة التي كانت مستكنة في أعماقه . فجعلته يرفض الاعتراف بالتفرقة بين الجنسين . وكان يتخيل أمه أحيانا متنكرة على هيئة أنثى بينا هي في واقع الأمر رجل له شارب يحاول أن يخفيه . ونلاحظ أيضا أن الكاتب يجعل من « لوسيان » بطل هذه القصة انسانا قلقا في كثير من المواقف . فانه يبدو مترددا عند موضوع جنسه هو الآخر فراء يتساءل مرارا : هل أنا ذكر ؟ أم تراني أنثى ؟ ، وبهذا التساؤل يشير جان بول سارتر الى قانون الامر الواقع ، والحقيقة الماثلة وهو ما يلاحق الاطفال في سن مبكرة ويتسلط على عقولهم ويهيمن على مداركهم في مطلع حياتهم . بعد ذلك تتلاحق شتى الميول وتترى على وجدان « لوسيان » فهي تارة تمون ناحية « السادية » اذ يحس بلذة بالغة قصوى حين يلحق الآلام والضرر بالآخرين ، وتارة تمون ناحية المازوشية فيحس ببالغ السرور والغبطة عندما يتلقى من الآخرين صنوفا من الاذلال والهوان على أي من الصور شاووا ، وأفعية كانت أم رمزية .

وهنا نلاحظ تشابها في الاعراض والتجارب التي تبدو على لوسيان بطل قصة « طفولة رئيس » والاعراض والتجارب التي عرضها فرويد في كتابه « خمس حالات في التحليل النفسي » الذي تحدث فيه عن « رجل الذئب » الذي كان يعاني من حالات المازوشية والسادية ... وهي نفس الاعراض التي أبرزها سارتر في شخصية لوسيان . بعد ذلك ، يتأدى سارتر في ابراز نفس المشاعر التي تحدث عنها فرويد في كتابه السالف الذكر ، فنلاحظ ان « لوسيان » تهتم حينما بالشذوذ الجنسي ومنطقة الشرح خاصة ، وهو يذكر مشهدا غريبا رآه في إحدى دورات للمياه التي دخلها في احد الفنادق . ويذكر ما كان ينبعث منها من « رائحة عبق » لم تكن سوى رائحة الفضلات . ثم تشير أيضا الى صورة السحابة من الضباب التي صورها « سارتر » كهامة قاتمة اللون تغلف الكون من حول « لوسيان » - وهنا يبدو التشابه جليا وواضحا بين قصة « طفولة رئيس » ونظرياتها « رجل الذئب لفرويد » وهنا أيضا نرى سارتر يعلق على هذه السحابة بقوله : أن الشعور بالعيش داخل سحب من الضباب انما هو رمز التجربة الوجودية وما يترتب عليها من معاني ، كما نلاحظ ان الكاتب يبدي اهتماما خاصا بابراز التشبه بين لوسيان وأبيه ، موضحا بذلك بلوغه مرحلة النضوج الفكري والنفسي يدفع به الى الهروب من هذا الوجد والسعي الى الدخول في « الموجود - في ذاته » . أو « ماهية الذات » ^(٣٦) .

ومن الممكن أن نفس العناصر الاساسية في هذه القصة إما بطريقة التحليل النفسي وهي طريقة تحليلية ، وإما بالطريقة الوجودية البحتة ، وهذه الطريقة الاخيرة تنقذ الى تدمير الطريق الى كلية وفرض نفسها عليه فرضا ، وبعد ذلك « بيرز » سارتر في قصته موضوعا هاما هو :

(٣٥) جدير بالذكر ما ابرزه الكتاب الفرنسيون أمثال (بليز سندرار » والمحللون النفسيون أمثال « أنا فرويد » الذين اشاروا الى حواس الطفل وهو في طوره الجنيني وهو داخل الرحم ويهيم سارتر كذلك بابراز مثل هذه المعاني ويتحدث عنها باسهاب .

(٣٦) « L'en - Soi » يعني بهذا المصطلح العالم والمادة ويفسر سارتر هذا المفهوم بأنه الموجود في ذاته أي أنه لا يميل الى ذاته مثل الشعور بالذات فانه يجد أن هذه الذات موجودة ... والموجود معتم بالنسبة الى ذاته كنفس هذا السبب وذلك لانه يمثل بذاته .

براءة الاطفال - وإذا كان سارتر قد رحب أحيانا بالتحليل النفسي الفرويدي فهذا الترحيب يقتصر فقط على الحالات المرضية - أما في الحالات الطبيعية فقد رفضها رفضا باتا . وذلك هو مضمون الفكرة كما أراد ان يجعلها بوضوح في قصته « طفولة رئيس » اذ عرض لنا شخصية انسان طبيعي تكيف مع المجتمع المحيط به . ولكنه سرعان ما يتجه صوب الفكرة القائلة بأنه ليس هناك طفل برىء براءة محضة ! وهنا يتفق سارتر وفرويد على أن الدراسات المختلفة المعنية بالاطفال ترتبط معظمها بالجنس برابطة قوية . فضلا عن أن فرويد يؤكد ان الاطفال ليسوا أبرياء تماما ، فهو على يقين من أنهم منذ الشهور الاولى يشعرون بالامارة الجنسية وبالاتفاعلات المختلفة التي تنشط قبل سن البلوغ . ففي سن الثانية عشرة والثالثة عشرة قد يحس البالغ بأحاسيس أخرى جديدة تحتاج بنيتها الجسدية وطاقته الروحية . ولكنها ذات صلة بوظيفة التكاثر او القدرة على الانجاب ، انها الغريزة الجنسية التي تتطلب استخدام أجهزة جسدية ، ونفسية وعقلية ملائمة لها . لذلك فلا يميز الخلط بين موضوعي « الجنس والتكاثر » الانجاب) لقد ركزت الابحاث التحليلية جهدا كبيرا في دراسة الحياة الجنسية عند الاطفال .

- فالمذكرات والآراء التي تظهر عند الدعاة اثناء تحليلهم ، كثيرا ما ترجع دوافعها ومحركاتها الى السنوات الأولى من العمر ، وإلى ما رأوه من صور ومناظر انطبعت وظلت مخفورة في أذهانهم في هذه الفترة المبكرة من العمر - والحالة التي يعرضها لنا سارتر في قصته ، قد يحاول من خلالها استنكار واستبعاد معظم النظريات التي نادى بها فرويد - كما أنه يرفض كل آراء المؤلفين الآخرين الذين عتوا واهتموا بابرار النواحي النفسية عند الاطفال منذ القرن الثامن عشر وحتى اليوم . وهم الذين أشادوا بالأسطورة القائلة بأن كل الاطفال أبرياء - ونلاحظ ان سارتر يعدد الى تدمير هذه النظرية . وهو في ذلك يقترب من رأي فرويد رغم اضافته لبعض التعديلات على آراء هذا العالم النفسي . ومن ثم فاننا نجد أن قصة « طفولة رئيس » تقوم على نوع غريب من التحليل النفسي قد نعتبره نوعا من التحليل النفسي الساخر ، جمع فيه سارتر عددا من الآراء والاساليب والنظريات الفرويدية ثم رتبها ليقدمها من خلال قصة يمكن أن يطلق عليها « القصة التعليمية او القصة التدريبية » . وأراد بذلك ان يستغلها في توضيح فلسفته الوجودية .. وهو اذ يرجع بقصة « لوسيان » في اطار مخطط تحليلي عابر اما يعطي للنص طابعا خاصا بدور حول أحداث بسيطة وعادية . بيد أن نص القصة يعطي تفسيرا جديدا لكل حدث من أحداثها . ثم ان المؤلف يستعرض تحليلا نفسيا تقليديا وكأنه يلهو ويعمد للتسلية ، ذلك انه كثيرا ما يشير الى عقدة أويوب مستندا في ذلك الى نظريات فرويد ، فهو يجعل « برلياك » احد شخصيات القصة يتحدث بنوعية خاصة مع « لوسيان » عن امه فيقول : « انني اشتهيت امي حتى سن الخامسة عشرة » وهنا يبدو الارتباك على وجه « لوسيان » عند سماع هذه الكلمات المخزية - فيحمر وجهه ولا يستطيع التلفظ بأي كلمة - ثم يتابع « برلياك » حديثه في ثبات وتأكيد فيقول

« وأنت أيضا » لا بد وأنك شعرت بمثل هذه الرغبة تجاه أمك ! » (٣٨) ويتردد « لوسيان » في الرد على « برلياك » ولكنه في النهاية يهزأ بكتافه في حركة لا مبالاة ويقول : « هذا شيء طبيعي !!! » على أنه يتضح لنا بعد ذلك أن « لوسيان » لم يكن مقتنعا على الإطلاق بأي كلمة من أقوال « برلياك » وربما « برلياك » نفسه لم يكن هو الآخر يشعر بأي شيء مما يقول ، وإنما هي فقط محاولة لتبرير موقفهما كمراهقين لا يريدان سوى التقليد الأعمى لزملائهم ولما سمعوه منهم ولما قرأوه في كتب التحليل النفسي ، وبهذه الطريقة يحولها المؤلف الى أداتين تستخدمان الاصطلاحات الفرويدية بطريقة لا تخفى من التهكم والسخرية . ثم يستمر جان بول سارتر بعد ذلك في عرض سلسلة من جلال تلك القصة فيجعل « لوسيان » ركيزة السلسلة من العقد النفسية تبدأ بعقدة أوديب ثم تتلوها عقدة السادية والمازوشية ويختتمها بالعقدة الشرجية . وهي ممارسة اللواط على أننا اذا تدبرنا أمر لوسيان أمكننا توضيح كل المواقف والظروف التي مر بها . فكل تصرفاته لا تدل بأي حال من الأحوال على أعراض مرضية . فكل شيء يوضح أنه كان يحيا حياة طبيعية ، فهو يعيش بين أفراد أسرة مترابطة وحادثة تحت رعاية أب متزن وورثين يملك زمام الأمر في الأسرة ويدير أمورها برشد ويمارس سلطاته بهدوء تام . وبعد وفاة هذا الوالد التي ذكرها الكاتب أكثر من مرة خلال القصة ، يحاول ابنه « لوسيان » أن « يحل محله وإن يتصرف تصرفاته داخل المنزل . كل هذا يوضح موقف البطل وإمكاناته القوية في التخلص من عقدة أوديب ، هذا إذا افترضنا جدلا وجودها - ولكنه حاول في بعض الأحيان الهروب من الوجود متشبها في ذلك بالصورة التي رسمها له الآخرون . وفي نفس الوقت فقد ظل فريسة للصورة الاولى التي انطبعت في ذهنه - تلك الصورة التي شاهدها في طفولته المبكرة بين أمه وأبيه وظلت بصابتها العميقة تهيم عليه ، باعثة فيه شتى الاضطرابات النفسية والجنسية العنيفة - فان جزءا كبيرا من ذكريات « لوسيان » ظلت غامضة غير واضحة المعالم ، وإن كانت تمتد الى أعماق الوعي وإلى الشعور . وهي إذ تتصل بأعماق الوعي والشعور إنما تستند على نظريتين منفصلتين نادى بها العالم « برجسون » الذي قال :

« النظرية الاولى تمتد جذورها الى علم النفس وعلم الأحياء »

والثانية تتصل بالميول العقلية والروحية » (٣٩)

وبهذه الكلمات يرفع « برجسون » الستار عن عالم يحيط بنا ، وهو عالم مركب من عدة صور تختلط فيها الألوان فتتقارب وتناسب مع الشعور .

إن هذا العالم يربط ما بين « الصورة » والواقع وما يظهر بشكل واضح - ويناقضه في قوله هذا « هيوم » إذ يطلق كلمة الصورة على جميع ما يمكن إدراكه . فهو يهتم بصفة خاصة بما تتلقاه المشاعر من أحاسيس تتصل

Jean Paul Sartre — Le mur — L'enfance d'un chef— P. 186.

(٣٨)

Jean Paul Sartre — L'imagination — P. 419.

(٣٩)

بالتواحي النفسية والعقلية المتأثرة بنوع معين من المحتويات الحساسة - ولم يتوقف « هيوم » عند هذا القدر من وصف محتويات الصور ومدى تأثيرها بالمحسوسات والمدارك فحسب ، بل أخذ أيضا يحدد مدى فاعلية عالم الشعور بواسطة هذه المحتويات الحساسة نفسها ، واستطاع بذلك ان يظهر الصور في أشكال مكثفة ومهيأة دائما للاستقبال .

وإذا ما تحدثنا عن وجهة نظر « ديكرت » في هذا المجال فسنجد ان هذا المفكر الفرنسي الكبير يرى أن الصورة ليست الا فكرة شكلتها النفس كما شكلها العقل بجيوها وانعطافاتها الجسمانية . ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى بعض المراكز النفسية والحسية ، طبقا لعوامل محركة داخلية وخارجية وهو يستخدم لفظ « صورة » للتعبير عن الحالة التي ترتبط بأول نوع من الالائة ، ويطلق كلمة « حاسة » على النوع الثاني منها . وقد يحرص « ديكرت » على وصف ما يعتلج بداخل الجسد منذ اللحظة التي تدفع فيها النفس الى الرغبة في تغليف الروابط الجسدية القائمة بين كل الحقائق الجسمانية التي يسميها « صور » الى ان تصير تركيبات أخرى جديدة لها فاعليتها ومدى انتاجها . لذلك فان « ديكرت » لا يعمل على تشخيص الافكار بل على توضيح التركيبات التي تتعلق - على حد قوله - بعالم الاشياء المشتركة .

أما عن « سبينوزا »^(٤٠) فقد حاول أن يوضح مفهوم « الصورة » بطريقته الخاصة . فقد رأى أن مثل هذا الموضوع يتطلب أسلوبا معيناً يسيطر عليه « التفاهم » المطلق - بيد أن سارتر استخلص من هذه الفكرة أن « التخيل » او التعرف عن طريق الصورة قد يختلف تماما عن « التفاهم » . ذلك لأن « التخيل » قد استشكل أفكارا خاطئة وزائفة تظهر الحقيقة في أشكال مبتورة ومنقوصة وغير مكتملة . ويؤكد سارتر حينئذ ان الشعور الواعي لا يحوي « صورا - لأن الصورة نفسها تعتبر نوعا من الشعور ، كما انها أمر قائم بذاته ومن الممكن ان نطلق عليها فتوى . وبذلك تبدو الصورة وكأنها واعية بشيء ما^(٤١) - ويؤكد جان - بول سارتر ان الصورة لا تتلاءم مع ضروريات الاساليب المركبة حيث أنها في واقع الأمر مضمون نفسي ساكن لا يقتحم تيار الوعي او الشعور لانها هي نفسها أسلوب مركب وليس عنصرا بسيطا - وحيث ان « الصورة » تعتبر حقيقة نفسية مؤكدة من العسير عليها الرجوع الى المحتويات الحساسة ولا الى التشكيل الاسامي لنفس هذه المحتويات .

من خلال هذا كله تتضح حالة « لوسيان » بطل « قصة » طفولة رئيس » كما صورها الكاتب ساخرا وهازئا ، بالتحليل النفسي الفرويدي - وجدير بالذكر ان قصص « ايمروسترات » و « الهجرة » وغيرها من القصص تمادى فيها الكاتب لاثبات نظرياته الخاصة مستبعدا بذلك آراء فرويد . ففي عدة قصص لم يشر جان

بول بأي حال من الاحوال الى أسباب الامراض النفسية والعصبية التي عانت منها شخصياته الروائية . فلم يشرب بأي صورة من الصور الى طفولتهم .

فعمد بداية قصة ايروسترات نلاحظ أن البطل ، وهو رجل في مقتبل العمر ويدعى « بول هيلبير » يظهر أحوالا غير طبيعية ، وإن شعورا خفيا يسيطر عليه فيجعله يمقت البشرية بأكملها . وأهم شيء يسعى اليه هو محاولة اهانة واذلال انسان يقابله وخاصة لو كان هذا الانسان امرأة !! فعند مقابلته لاحدى النساء ، يركز كل اهدافه في الاساءة اليها ومعاملتها بطريقة حازمة وبهينة . وفي تلك اللحظة كان يشعر بسعادة بالغة وبلذة لا تعادلها لذة . ولتحقيق هذه النشوة كان يلجأ الى بنات الليل فيختار احداهن ويمارس معها هوايته المريضة الشاذة . فاذا ما خلا اليها طلب منها خلع كل ثيابها ثم يأمرها بأن تتمشى أمامه وهو جالس في هدوء بل وفي لا مبالاة تامة . ويتحدث مع نفسه فيقول :

« أكثر شيء يضايق المرأة هو ان تتمشى أمام شخص وهي عارية تماما ... وهذا الشعور الذي تتألم هي منه يشكل عندي المتعة ، بل أعلى درجات اللذة . » (٤٢)

وكان هذا الرجل يحاول أحيانا اثارة الشعور بالحجل والحرج عند هؤلاء الفتيات والمبالغة فيه ، فكان ينفجر في الضحك أثناء هذا العرض الغريب وقتله ضحكاته وحركاته بالاستهزاء والسخرية فيزيد شعورهن بالمهانة والدلل بينما يشبع رغبته الشاذة ... وإذا بهذه الميول الغريبة الاطوار تقوده في نهاية الأمر الى ارتكاب الجريمة ، جريمة قتل النفس التي حرم الله سبحانه وتعالى قتلها . ويحدث نفسه قائلا :

« ليتني استطعت قتل كل نساء العالم ... لو كان في مقدوري . لصوبت مسدسي الى قلوبهن جميعا . بل الى أحشائهن بل وإلى سيقانهن ، فأشاهدهن يتأيلن كالراقصات ثم يسقطن جننا هامة » . (٤٣)

وبدأت هذه الصورة تهيم على فكره وعقله الى أن قرر - الوصول الى هدفه : لا بد وإن يقضي على أكبر عدد ممكن من البشرية رجالا كانوا أو نساء !

ولكي يضع حلا لهذه الرغبة الجارفة بدأ في كتابة عدة رسائل صرح فيها بتنفيذ خطته وباطلاق الرصاص على أول ستة أشخاص يقابلهم بعد ارسال الخطابات الى مشاهير الكتاب في فرنسا .. ويبدأ في تجهيز وتنظيم خطة ارتكابه الجريمة التي قرر أن يخطمتها بانتحاره . وتبدأ مرحلة التنفيذ التي وصفها الكاتب الفلسفي جان بول سارتر بمهارة فائقة . فقد عرض من خلالها كل الظروف النفسية والانفعالات المختلفة والاضطرابات والقلق والخوف التي

Jean Paul Sartre — Le mur „Erostrate“ P. 84.

(٤٢)

Ibid — P. 86 — 87

(٤٣)

انتابت بطل القصة : « بول هيلبير » . ولم يتمكن الا من تنفيذ الجزء الاول من الخطة فقتل الاشخاص الستة ، ثم خائنه اعصابه بعد ذلك وعجز عن تنفيذ الجزء الثاني من خطته ألا وهو الانتحار .

ونجد بطبيعة الحال أن المؤلف استبعد كل الاسباب التي توضح جذور مرضه هذا فلم يشر الى اساس هذه المقد النفسية الدفينة التي حولت هذا الانسان الى شخص شاذ وقادته الى ارتكاب أشنع الجرائم بقتل نفوس بريئة لا حول لهم ولا قوة ...

وإذا تتبعنا أحداث قصة أخرى من قصص جان بول سارتر : وعنوانها : « الحجرة » لوجدنا أن هذا الفيلسوف الوجودي قدم لنا حالة أخرى مرضية مشابهة للحالة السابقة دون الانصاح ايضاً عن أسبابها .

فبطل هذه القصة ويدعي : « بير » يعيش في عالم خاص شبيه لنفسه عن طريق عقله المختل ، وعالمه هذا ملو بالخيلات والاشباح والهلوسة ، ويضع المؤلف نفس الاسلوب الذي اتبعه من قبل فنقتصر قصته على القاء الضوء على فترة محددة ومحددة من حياة هذا المريض : انها فترة زيارة والد زوجته له وما ترتب عليها من حديث بعد ذلك . فهذا الشخص المعنوي يعيش في منزل اغلقت كل نوافذه فأصبح مظلماً ، معاً ... وزوجته الشابة « ايف » اصبح لا يناديها الا باسم جديد أطلقه عليها : « آجات » فربما فقد اسمها هي الأخرى وضمنتها لمجموعة الاشباح التي يعيش بينها . ويصل والد « ايف » فيتأثر لهذه الاوضاع الشاذة ويطلب من ابنته الابتعاد عن هذا المريض ، تاركة للطب والعلاج النفسي المجال ليلعبا دورها ، ولكنها ترفض ، ترفض بشدة هذا العرض الذي يبدو لها قاسياً ، وتأبى أن تبعد عن زوجها الشاب . وإذا بالموضوع يتضح بصورة بيّنة فقد يشير الكاتب في هذه القصة الى الجنس ومدى قوته في التغلب على هذه الشابة . وهنا يلتقي جان بول سارتر : بأراء التحليل النفسي الفرويدية ويؤكد أن السبب الوحيد الذي جعل « ايف » ترتبط بهذا الرجل المختل ما هي الا العلاقة الجنسية : هذه الغريزة التي تفوق كل الغرائز . ويوضح المؤلف هذه المعاني من خلال الحديث الذي دار بين والدي « ايف » الزوجة الشابة حتى وصل بها التفكير الى أن يقولوا : « ليت ابنتنا تتخذ أي عشيق آخر فضلاً عن معاشرتها لهذا المجنون . فهو غير قادر على التعرف عليها واصبح يناديها باسم غير اسمها » . وإذا أكد فرويد أهمية الانفعالات التي تنبئها تلك الغريزة القوية الا وهي غريزة الجنس فهو يشير أيضاً الى أنه في أغلب الاحيان قد تتلقى هذه الانفعالات نوعاً من الارتقاء اذا تمكن أصحابها من ترويضها وابعادها عن أهدافها الجنسية ، وذلك عن طريق توجيهها نحو أهداف اجتماعية سامية تبعد تماماً عن الجنس . ولكنه يعترف في النهاية أن الغريزة الجنسية تعتبر من الغرائز التي يصعب ترويضها . لذلك فإن معظم المفكرين الذين يشتركون في الاعمال الفهنية قد يتعرضون لمثل هذه المقاومة . ونلاحظ أن جان بول سارتر يقف موقفاً معادياً تجاه فرويد . ويصرح بالفعل في عام ١٩٢٩ أن معظم آراء فرويد عن الجنس تنفره ، وإذا به في عام ١٩٣٧ يتقدم الى احد مديري دار نشر بمؤلفاته وهو يقول :

« أرجو المعذرة ، فروايتي وقصصي هذه قد تكون خارجة عن التقاليد وتقس الناحية الجنسية في بعض الاحيان ^(٤٤) » وبالفعل امتد الجنس الى اجزاء كثيرة منها وأصبح يلعب ادوارا أساسية ورئيسية فيها - والغريب ان كثيرا من المواقف في هذه الكتابات قد تعبر عن الافكار الفرويدية ، فتارة تكون منقولة واضحة ، وتارة أخرى تستر وراء نظريات مختلفة « لسارتر » . فمقدمة الحصى ^(٤٥) ورمزية الاحلام ^(٤٦) والتكافؤ الحسي ^(٤٧) ، كل هذه النقاط تشير الى العالم الفرويدي ومصطلحاته التحليلية المختلفة . وإذا لاحظنا أن كثيرا من شخصيات سارتر قد ترفض الجنس فهذا يرجع الى تأثرهم بنوع معين من القلق الواعي أو من العقد النفسية غير الواعية والخاصة بعقدة الحصى الرمزية - وتعتبر حالة « لوسيان » التي ذكرناها من قبل من أهم الموضوعات التي تبدأ بالتعبير عن حالة الحصى الرمزي : فالجميع يعاملونه على انه فتاة وتكرر هذه المعاملة ويضاف اليها نوع جديد من الحصى الرمزي عندما يتعرف هذا الشاب « بيرلياك » المراهق المنحرف الذي يجرفه تيار الشذوذ الجنسي ، فيجعله يتخبط في مجال التكافؤ الحصى مواجهها للصراع الشديد الذي يدور بداخله ، كل هذا يعود أيضا الى الميول المضادة التي هيمنت عليه كلية ، وبالتالي نلاحظ أن كل هذه المفاهيم تشير الى نظريات فرويد وتلقي عليها الأضواء بطرق غير مباشرة . وعندما يحاول جان بول سارتر تحريف نظريات هذا العالم النفسي فانه يظهر المدرسة الفرويدية في اطار فسق وفجور . ولكن ألم يدخلها سارتر نفسه بحجة توبيخها وادانتها ؟ وإذا تحدث في يوم ما عن بشاعة الفاظها ومفاهيمها الموضوعية والجنسية ، فلماذا انساق هو الآخر في نفس الاتهام ، مغالبا ومكررا بل مجددا ومبتكرا لمحتوياتها ؟ واذا جان بول سارتر يردد آراء فرويد بالنسبة للحالات المرضية وما يترتب عليها من تشخيص موضوعي من حيث مداومة المريض على تكرار عقده النفسية . وبدا هذا الوضع واضحا في قصة « طفولة رئيس » التي تناولت كل هذه التفاصيل التي رمت الى هذا الغرض . ويقول الكاتب عن « لوسيان » :

« لقد خيل اليه أنه كان يعرف منذ أمد بعيد بعض المشاعر المماثلة وانه كان يشعر أيضا أنه يعيش تحت تأثير صورة مبهمه كانت تطارده دائما : فكان يرى صورته دوما وهو طفل صغير يرتدي ثوبا طويلا أبيضاً مثل ثياب الفتيات ، وله أجنحة جميلة مثل أجنحة الملائكة » . ^(٤٨)

وتريد وتكرار هذه المعاني يؤكد لنا أن المؤلف يستخدم حالة موضوعية في ضوء التحليل النفسي مؤكدا بذلك الاساليب السابقة المستعملة في المجال النفسي والجنسي التي ذكرها وفسرها وحللها « سجموند فرويد » . ويقول جان - بول سارتر مستندا على آراء فرويد :

Simone de Beauvoir -- Lu Force de L'age -- P. 306.

(٤٤)

Complexe de castration

(٤٥)

Symbolisme des rêves

(٤٦)

Ambivalence affective

(٤٧)

Jean -- Paul Sartre. Le Mur. ..L'enfance d'un chef"" P. 200.

(٤٨)

« كل المظاهر اللزجة والرخوة والبخارية الخ .. وكل حفر الرمال والطين وكذلك الكهوف والاضواء وظلام الليل الخ ... كل هذه النماذج تتصل بالمجاليين النفسي والجنسي في آن واحد » .^(٤٩)

ويؤكد سارتر أن المحلل النفسي ملزم باختراع رموز جديدة بصفة مستمرة كي تتلائم مع الحالة الماثلة أمامه ، ذلك لأن الحياة النفسية تتصل دائما بروابط دقيقة تتطلب ما يمكن تسميته بـ « رمزية الرموز » . وتقوم كل هذه النوعيات على تركيبات أساسية وشاملة لتشكل الانسان البشري بطبيعة الحال^(٥٠) . فان الارتباطات العنصرية الرمزية تبدو له في أغلب الاحيان وكأنها قادرة على ضم معنى ثابت لكل حالة . هذا معناه أنها تظل غير قابلة للتغيير اذا رغبتنا في الانتقال من مجموعة ذات معنى الى مجموعة أخرى (ومثال لذلك : يرمز الذهب الى الفضلات أو البراز - وترمز كرة الحائط الى ثدي المرأة الخ ..) ويلاحظ سارتر أن التحليل النفسي اهتم بصفة خاصة بالاختيار الحيوي الذي يسهل على الداعي الذي يجري عليه التحليل النفسي عملية التذكر .

وقد ظهرت لنا المفاتيح المختلفة للرموز المأخوذة عن فرويد في وضوح تام عند تطبيقها على نصوص سارتر . وقد أشار فرويد الى أساليب المحللين النفسيين في فصل « الرمزية » في الاحلام « والى مناهجهم المتعددة التي تمكنا من تطبيقها على كثير من مؤلفات جان - بول سارتر . وأهم هذه الرموز ، ما انتمت اليه الناحية الجنسية . فقد نلاحظ ان أشياء كثيرة ترمز الى الاعضاء التناسلية عند الذكور طبقا للعناني الفرويدية : فالسدس مثلا الذي استخدمه « بول هيلبر » في قصة « إيروسترات » والذي ظهر مرة أخرى في قصة « طفولة رئيس » عندما اكتشفه « لوسيان » في وسط الملابس الداخلية الخاصة بوالدته ، هذه الاداة التي ظهرت ملقاة فوق « الحرير الوردى » لها معنى خاص ، وكذلك العصاة التي استخدمها هذا الشاب في تدمير الحشائش ، وأيضا نبات « الهيلونة »^(٥١) الذي كان مصدرا غريبا لحفله على الدوام والذي تسلطت صورته عليه خلال كل تجاربه المتتالية ... كل هذه الصور أتاحت المجال للرمزية الفرويدية التي استخدمها سارتر في نصوصه . ونجد أيضا أن الكلمات والصور والمعاني التي ترمز الى الاعضاء التناسلية الانتوية متوفرة هي الأخرى في معظم كتاباته . ففي قصة « ألفة » يتناول سارتر الفقرة التالية فيقول :

« وجذبت لولو ايهام قدمها من « الشق » الموجود في فراشها وحركت قدميها فيه قليلا فاذا بها تشعر بلذة مفاجئة ونشاط غريب رغم أنها كانت بجوار هذا الجسد الساكن » .^(٥٢)

وتبدو صورة « الشق » الموجود بالفراش وكأنها جاءت خصيصا لتحمل تلك المعاني الرمزية - وفي نفس

Jean -- Paul sartre -- L'Être et Le néant P. 704.

(٤٩)

Ibid. P. 657

(٥٠)

Asperge من الحضرات الشائعة في فرنسا

(٥١)

Jean-Paul Sartre -- Le mur „Intimité“ --- P. 105.

(٥٢)

القصة - يستخدم الكاتب كلمات أخرى تشير الى بعض اجزاء الجسم مثل الأذن والابط الذين يظهرها لدى شخصية « ديرت » : الفتاة المتحررة . ويعلق عليها قائلا انها ظهرت وكأنها « قم » مستعد أن يلتهم أي شيء . ونفس كلمة « قم » استخدمها الكاتب بطريقة متكررة في قصة « ايروسترات » عندما لاحظت أمام أعين « بول هيلبير » طية قفا « الرجل البدين . ومنظر « طية القفا » هذه بدت هي الأخرى وكأنها أيضا « قم » يرسم أمامه بانسامة عريضة وغريبة فهي ابتسامة مملوءة بالمرارة والألم - ويثير هذا المنظر « بول هيلبير » فاذا به يحتل بالزعج والخوف والهلع فيصوب مسدسه نحو هذا الفم ليسكت تلك الانسامة ويحطمها فيضغط على الزناد محولا الرجل الى جثة هامدة . (٥٣)

كل هذه الاساليب الرمزية قد تبدو غطية وتقليدية وغالبا ما يظهر الرمز عدة مرات ، تارة بفردية وتارة أخرى مشتركا مع أدوات أخرى تساعده أو تنوب عنه . لذلك فان جان بول سارتر يعرض في وصفه نوعا معيناً من التسلسل الجنسي الذي يتعلق بطبيعة الحال بمجال التحليل النفسي . ولكنه مع كل هذه فالتحليل النفسي عند سارتر لا يظهر وكأنه جهاز متاسك أو مجموعة صريحة من البديهيات الجوهرية ، انما يبدو في شكل تفسيري وتحريفي أكثر منه جادى - وما يثير دهشتنا في طريقة عرض الحالات المرضية عند هذا الكاتب ، هو عدم الاهتمام بتوضيح المراحل الهامة التي تتكون فيها نواة هذه الامراض النفسية . اي فترة طفولة هؤلاء المرضى (هذا باستثناء قصة « طفولة رئيس ») . وهنا ، اذ يكون هدف سارتر واضحا تمام الموضوع ، فانه يعمل على استبعاد كل محاولة لتطبيق التحليل النفسي الفرويدي - ولكنه رغم هذا لم يتمكن من عدم استخدام أو ذكر بعض الاساليب والتعبيرات التي جاءت بين سطوره عفوا مثل ما سبق أن عرضناه - واننا اذ نجد كلمات كثيرة مثل كلمة « قم » أو « ثقب » أو « حفرة » تهدف كلها الى عدة تفسيرات ذات صدى عميق في مجال التحليل النفسي - ويتم جان - بول سارتر بما ترمز به « الحفرة » أو « الثقب » بصفة خاصة مؤكدا أن هذه الكلمات تعتبر من أهم ، بل من أقوى المؤشرات التي تدل على الميول للواقع وللحقيقة الانسانية : انه الميل او الرغبة في ملء الحفر وسد الثقوب (٥٤) . ويؤكد هذه الفكرة بناء على تصرفات كل من الطفل والمراهق والبالغ الذين يقضون جزءا كبيرا من حياتهم في محاولة « سد الثقوب » وملء الفراغات محققين بذلك الرغبة في توفير « المملوء » . هذه الغريزة الطبيعية تولد عند الطفل منذ اللحظة التي يدرك فيها أنه هو نفسه « يحتوي على ثقب » . فعندما يضع هذا الكائن الصغير اصبعه في فمه محاولا سد الثقب المائل في وجهه فانه يحاول اغلاقه حتى يستطيع الوصول بهذا التصرف الى الامتلاء التام المتساوي الكروي لشكل الرأس » (٥٥) .

Ibid — „erostrate“ — P. 97.

(٥٣)

Jean — Paul sartre — L'etre et le néant P. 705

(٥٤)

Ibid.

(٥٥)

ويحلل جان بول سارتر هذا المفهوم بقوله ان الطفل عندما يحس اصابه فهو يحاول تزويب هذا الجزء من جسده أي اصابه جاعلا اياه نوعا من المعجون اللزج او الاسمنت الذي يسمح له بسد هذه الفتحة .

ويعتبر سارتر هذه الفكرة مطلع وبداية النواحي الجنسية ^(٥٦) وطبقا لقول هذا الفيلسوف فاننا نلاحظ ان كل انسان في عالمنا هذا يتطلع دائما للوصول الى المطلق . وهذا يعني تحمل شهوة « الموجود لذاته » لتجهيز وتصميم وانقاذ « الموجود في ذاته » . وهذه النزعة الاساسية قد تدفع الانسان الى تناول الطعام من ناحية والى ممارسة الجنس من ناحية أخرى . وهذا يهدف المداومة على البقاء - ويعلق سارتر على هذا المفهوم بقوله أن المحللين النفسيين يقومون بعمل دراسات واسعة للمرأة بالذات مفترضين منابعها عند معظم الاطفال - فالاطفال يتمتعون بأي ثغرة ويمارسون التجارب المختلفة من خلالها . ويؤكد جان بول سارتر هذا القول متبنيا فكرة تجارب الاطفال فيقول أن الطفل يهتم دائما بالثقب لا لشيء سوى للمثته - ولكن من المحتمل أيضا أن اهتمام الطفل بالثقب يتصل ايضا برغبته في استكشافه او توسيعه - ونلاحظ من ناحية أخرى أن هذا الفيلسوف يشير الى أن « الثقب » يعتبر قبل كل شيء « تخصيص جنسي بحث ونوع من الانتظار القبيح والنداء الدائم للجسد » .

وإذا صرح سارتر بهذه التعبيرات في كتابه « الوجود والعدم » فانه يقتحم بذلك غياهب عالم الجنس . ويتغلف فيه هو الآخر ... وكان من الممكن ان يركز كاتبنا هذا على تجارب أخرى قد تأتي قبل الجنس ، ولكن أهميته البالغة جعلته يضعها في المقام الاول قبل الرغبة في تناول الطعام او قضاء الحاجة ، او غيرها - فإذا افترضنا على حد قوله ان « الفم » عبارة عن ثغرة يحاول الطفل سدّها او اغلاقها فاننا اذا نلاحظ ان هذا الفم لا يلاّ الا بطريقة عابرة ، فهو يمثل بذلك فتحة تلتهم الطعام وتخفيه نهائيا بداخلها . وبناء على هذا القول نعتقد أن بعض المواضيع التي ترادف مؤلفات وافكار سارتر بطريقة تسلطية وملحة قد تكون بوجه التحديد ممثلة في صورة « التزيف » الدومي . وهنا يبدو حجم الخوف والفرع واضحا : الخوف من أن يبرز من الداخل . وتظهر أيضا صورة أخرى هي صورة « حفرة الانزاع » التي تسمح بتسرب كل ما كان بداخلها لحظات قليلة » . ^(٥٨) وإذا بكل ما كان يتلي بالحياة وكل ما كان موجودا في ذاته ينساب ويزول ويتلاشى في الحال ... فصوره « التزيف » وصوره « الانزاع » وكذلك صورة « الميل الى الملء » تشير جميعها الى الدلالة المفاجئة لاختفاء العالم الذي يهرب

Ibid

(٥٦)

(٥٧) الموجود لذاته (أو ما هو - لذاته) « Le Pour . soi » : هو الشعور منظورا اليه في ذاته ، كما لو كان في حالة انغماله ، « قانون وجود ما هو من أجل ذاته ، كأساس انطولوجي للشعور ، وهو أن يكون هو نفسه على شكل الحضور لذات ... والحضور لذات يفترض ان شقا غير ملموس قد اندس في الوجود . فان كان حاضرا لذاته ، فذلك لانه ليس ذاته تماما . انعطاطا مباشرا للتطبيق لانه يفترض الانفصال . وهكذا نجد أن الآنية (= الموجود الانساني) ما هي إلا رغبة في الوجود - في ذاته - ومن حيث الشعور فهو يريد أن يكون له عدم قابلية النفوذ والكثافة اللامتناهية لما في ذاته

Jean — Paul sartre — L'ore et le néant — P. 705.

(٥٨)

من الشعور فيزول منه في لحظة» (٥٩) وطبقا لما قاله المحللون النفسيون أن الأطفال في أغلب الاحيان وفقا لمفاهيمهم الاولى قد يهتمون بفتحها ، بثغرة معينة الا وهي فتحة الشرج . وهذا يعود بطبيعة الحال الى وظيفتها حيث تسمح بخروج الفضلات منها ، ومن المرجح ايضا أن الأطفال يهتمون كذلك بموضوع معين يشغل المقام الاول في أذهانهم ألا وهو : من أين يأتي الموليد ؟ اذن فهذا الموضوع الجوهري في مفاهيمهم يفوق بكثير موضوع العلاقة الجنسية - وينتقل جان بول سارتر من هذه الفكرة الى فكرة أخرى وهي تدور حول المرأة وحول ما يصنفها به بقوله أنها « ثغرة في الحياة » . وبأن وضعها في الكون ما هو الا « نداء » . ويتحول بذلك من نظرية « الثقب » عند الأطفال اليها عند الاناث ومنها الى التجربة الجنسية عموما ... ويوضح هذا الفيلسوف أن فكرة الثقب التي ترتب عليها عدة مواضيع مختلفة هي رمز لاحد الاساليب الوجودية ، وأن من واجب التحليل النفسي الوجودي الاهتمام بها والعمل على توضيحها . (٦٠) ويتناول جان - بول سارتر موضوع العملية الجنسية الذي يعتبره نوعا من « الخصي » أو « البتر » الموجه الى الرجل من المرأة ويقول أن الجهاز التناسلي لدى الانثى ما هو الا « قم يلبسهم » أو « فك يفترس » العضو التناسلي عند الرجل . (٦١)

وتستشف من هذه المعاني كلها أن سارتر يضع الاحتمالات العديدة لما فیرتها وينسجها بطريقة مبتكرة حتى يتسنى له ابراز نظرياته الشخصية . فأي شخص يعتاد التعامل في مجال التحليل النفسي يستطيع اكتشاف الاسلوب المضلل الذي يستخدمه هذا الفيلسوف في كتاباته حيث ينتقل من موضوع التحليل النفسي « للثغرة » الى التحليل النفسي الوجودي ، محاولا بذلك خدمة اهدافه وتبرير نظرياته الخاصة . وهنا يعتقد كثير من النقاد مثل « جوليت بوتونييه » ان التحليل النفسي الوجودي يقوم على نظريات مزيفة وغير مقنعة فيقول :

« باختصار اننا لا نجد في التحليل النفسي الوجودي أي فكرة محكمة ولا نلاحظ فيه أي شيء جديد أو أكثر ابتكارا او فيها من التحليل النفسي الكلاسيكي وكذلك لا يبدو أقل منه فسقا او فجورا كما اطلق عليه سارتر هذه المعاني . (٦٢)

وربما أرشدتنا افكار سارتر هذه الى بعض مواقف الشخصية . وتظهر لنا آراؤه وحالته النفسية وسلوكه ومذهبه وفكره عن الانسان بصفة عامة وعن عالمه الشخصي بصفة خاصة . فبمحاولة تطبيق التحليل النفسي على هذا

Francis Jeanson -- Sartre pa lui meme -- P. 133

(٥٩)

Jean -- Paul sartre -- L'etre et le néant. P. 706.

(٦٠)

جان بول سارتر - الوجود والعلم ص ٧٠٦ .

(٦١) كثير من المحللين النفسيين اهتموا بهذا الموضوع من قبل ومن أهم الدراسات دراسة Marie BONAPART عن « اذجار الآن بو » فهذا الكتاب يعتبر من أهم المراجع التي ناقشت هذا الموضوع وعالجته بعق وجدية - (الجزء الاول ص ٢٨٢) - وكثير من الكتاب الفرنسيين امثال « بلز ستندار » و « فرنسوا ساجان » وغيرهم تناولوا هذا الموضوع وعرضوه في كثير من مؤلفاتهم .

Juliette Boutonier. L'angoisse. P. 126.

(٦٢) جوليت بوتونييه - القلق ص ١٢٦

الكاتب والفيلسوف والعقري تمكن البعض من توضيح عدة نواحي نفسية لديه . وأشارت معظمها الى ميله للبعد عن الجنس . وجدير بالذكر ما اكتشفه أحد المحللين النفسيين الشبان عندما قام بأداء دراسة تحليلية للفيلسوف الفذ ، وبعد دراسات عديدة وأبحاث علمية عميقة دامت حوالي عامين كاملين توصل هذا الشاب الأمريكي الجنسية الى توضيح معظم الأسباب الحقيقية التي عاشت مع هذا الكاتب الشهير .^(٦٣) لقد توصل الى معرفة نوعية سارتر النفسية وقال انه ينتمي الى مجموعة الاشخاص الذين يقعون تحت تأثير العقد النفسية غير المرضية . ففي طفولته وبالتحديد وهو في سن الثانية من عمره وقع تحت تأثير مشهد فظيع شامت الظروف أن تضعه فيه . انه مشهد العلاقة الجنسية بين والديه . لقد أحدث هذا المنظر الغريب اضطرابا رهيبا بداخله وانطبع صورته في ذهنه وكأنها وشم لا يمكن بأي حال من الاحوال محوه . وتسلسلت تلك الصورة عليه جعله يعاني عواقبه العديدة ومن بينها الشك المريب الذي ظل يطارد طول حياته . ومن هنا تتجلى لنا نفسية الفتاة المريية وشاعره التي تلوذ بعقدة الذنب رغم عدم ارتكابه لاي ذنب جوهري ، ولازمته رغبة ملحة في معاقبة نفسه حيث ان كان يدرك مدى خطيئته وسوء تصرفه . ومن هنا أيضا رغبته في ابراز انواع الفواحش واشكال الفجور مما يؤدي الى الميول للشذوذ الجنسي . ويرتبط على هذا كله رغبته في معاقبة نفسه والاساءة اليها . وبدأ يزهّد في كل شيء حتى في التكريم الذي يستمناه كل البشر . ها هي باختصار معظم آراء العالم النفسي الأمريكي الذي اختتم بحثه بقوله ان جان بول سارتر ظل رغم هذا كله انسانا طبيعيا وفي غاية الاتزان العقلي . واذا لاحظنا أنه اتقه في بعض كتاباته الى اظهار النواحي المرضية ، فربما لكي يتخلص من شبح الصورة المخيفة التي تطارده منذ طفولته رغم وضوح عقله وذهنه وفكره . واذا وجدنا ان مؤلفاته الروائية تتصل بمجالات علم النفسي والتحليل النفسي فهذا لانه يفقد الرغبة في ابداء الافكار المستترة ، والتعبير عنها . ويصرح المحلل النفسي الشاب بهذا عندما قال اذا افترضنا ان سارتر لم يكتب لينفس على يمول بداخله فربما اصابه الجنون رغم أننا لا نستطيع الجزم بتعرضه لهذا الخطر - حقا ان معظم شخصيات سارتر الروائية انما تبدو في حالة قلق نفسي وجذب ونفور مستمر . ففي قصة « الحائط » يعرض لنا شخصية « بابو » في اللحظات الاخيرة قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه . فاذا به يشعر بشيء غريب للغاية : انه نوع من الاستمزاز الشديد تجاه واحدة من أعز أصدقائه : انها حبيبته « نوتشا » ولكنه لم يلبث أن قدم الدليل على حبه المفقود في صورة قلقة ومتردة . واذا به يستخدم الكلمات المختلفة في التعبير عن صورة « البشر » و « القطع » و « التشويه » فيقول :

« انني على أتم استعداد لأن أقطع ذراعي بضربة فأس واحدة في سبيل رؤيتها ولولمة خمس دقائق فقط » .

Revue du Samedi Soir --- du 7 -- 13 octobre 1950. article ,, Une étude sans Précédent (٦٣) dans L'histoire Littéraire. une psychanalyse perçue les moires secrets de sartre.

مقالة في جريدة « سامدي سوار » بتاريخ ٧ - ١٣ اكتوبر سنة ١٩٥٠ عنوان المقال : « دراسة هامة في تاريخ الادب » . تحليل نفسي لاسرار سارتر الحقيقية .

وكذلك في قصة «الحجرة» نشاهد «بيير» الذي لا يتحمل ملامسة أي شخص أو أي شيء، ولا حتى أنامل زوجته إيف التي تحبه ولا تفارقه رغم حالته المرضية التي تستدعي بعدها عنه. وتستفعل معه هذه الحالة المرضية إلى أن توصله للخوف من ملامسة كل شيء حتى التاتيل الضخمة التي يحبها ويراهها جميعا في صور نسائه يردن الاقتراب منه. لقد أصبح الآن يخشاهم ويخافهم رغم انتظاره الحار لهم.

ونرى أيضا «بول هيلبير» بطل قصة «ايروسترات» الذي يشعر بوعي تام لما يحول بداخله من جذب ونفور ليس فقط تجاه النساء فحسب بل وأيضا تجاه البشرية بأكملها. هذا الشخص المختل يخاف من النساء ويخشى الاقتران بهن، وإذا وجدناه يتصيد المواقف لاذلالهن فهذا يعتبر نوعا من الحصى الدفاعي الذي يستخدمه تجاه الآخرين بدلا من أن يوضع هو في نفس الموقف. وقصة «ألف» أيضا الدليل على هذا النوع من المرض النفسي. فترى إحدى شخصيات القصة وتدعى «لولا» وهي تتصرف تجاه زوجها بطريقة غريبة. فهي ترفض الخوض أو الاستجابة له، أو حتى مصافحته لأنها تعتقد أن أي شيء من هذا سيحولها في الحال إلى أداة «لا حول لها ولا قوة»، يفعل بها ما يشاء.

فهي ترى في العلاقة الجنسية نوعا من «الجراح» العميقة التي يوجهها لها الجنس الآخر فتصيبها وقرق مشاعرها، وردا على ذلك فهي تتمنى أن تصيب زوجها بنفس الجراح التي تولها. وهنا تحاول هذه السيدة التقليل من شأنه فتعاطله بطريقة مهينة وبكبرياء وتعال، حتى جعلته كالطفل الضعيف، وتحاول «لولو» التصرف بطرق شاذة تثير الاشتزاز العنيف تجاه أحد اصدقائها الاعزاء. انها تبدي نوعا من الحب المفقود، فتظهره في صورة قلقة ومتردة، ويستخدم الزوج عدة كلمات تدل على الحصى مثل «البتة» و«القطع» و«التشويه». أما الزوجة فتشبع رغبتها المرضية تجاه كل الشخصيات المختلفة التي تقابلت معهم، مثل «ربرت» والقس والرجل الذي قابلها على الطريق... كل هذه التناقضات تبدو أكثر وضوحا عند «لوسيان» بطل قصة «طفولة رئيس» فكل تصرفات هذا الشاب تجاه جميع من قابلهم سواء كان «ريزي» أو «برلياك» أو «برجير» أو مجموعة اليهود التي قابلتهم أو النساء الكثيرات اللاتي تعرف عليهن كل تصرفاته تجاه هؤلاء تدل على القلق المتناهي ومدى الجذب والنفور في معظم مواقفه نحوهم.

وربما أراد جان بول سارتر التخلص والتحرر من بعض الأحاسيس والمشاعر الدفينة. فالتحليل النفسي يسمح بوجود نظرية هامة هي تكييف الحرية التي يخضع نبوغ الثقافة وشموها للبشرية بأكملها وفي صورها المختلفة. فالحرية تظهر من خلال طاقة حيوية هامة تهيمن على مستقبل البشرية والانسانية. والتحليل النفسي يهتم بمبدأ المستقبل ومصيره التاريخي بالنسبة للإنسان وهو يعمل على تحديد الاسلوب وتحقيقه. وعن طريقه تتوضع الاسرار والقوانين التي تربط بين الانسان ونفسه، وبين الانسان والعالم وبين الانسان والآخرين من

البشر . وبالتالي يستطيع التحليل النفسي الحصول على نتائج منظمة وخاضعة لقوانين وروابط واضحة . وقد يأخذ في الاعتبار اهمية السيادة الخاصة بكل فرد ، وكذلك بالمجتمع ككل ويقول سارتر :

« ان الانسان محكوم عليه أن يعيش حراً . أقول محكوم عليه لانه لم يخلق نفسه بنفسه ، فها عدا ذلك فهو حر ، لانه مجرد أن يلقي في الدنيا فقد أصبح مسئولاً عن كل أفعاله . (٦٤)

ويوضح لنا سارتر في كتابه الوجود والعدم ان كلمة « حرية » لا يمكن فصلها عن كلمة « الرجود » و « الحقيقة الانسانية » او « الواقع الانساني » . فبطبيعة الحال لا يمكننا ان نقول عنه انه لم يكن في « أول الأمر » حراً كي يصبح « فها بعد » حراً . اذن « وجود الانسان » و « وجوده حراً لا يمكن بأي حال من الاحوال الفصل بينهما (٦٥) وفي امكان التحليل النفسي ان يحول كل ما عجز عنه علم الاجتماع الى مجاله ، وهذا بصدد طرح الموضوعات الجذرية التي تخص الحرية والاختيار الاولى الذي يسمح بالارتباطات المختلفة - وهنا تتحول الحرية الى ظاهرة كاذبة لتركيبية ايديولوجية فردية سامية لا تقع تحت ادنى تأثير وبالتالي تتحول الى فعل صريح . ففكرة الاختيار الاولى التي تعمق فيها التحليل النفسي الوجودي يشير الى تقسيم اصلي لأن التقسيم الاختياري يعتبر ظهر أو عكس الحرية .

وقد لا يعترف بأي شيء قبل الظهور الحقيقي والاصلي للحرية الانسانية . اما التحليل النفسي الكلاسيكي او « التجريبي » كما يسميه سارتر فهو يتم بصفة خاصة بالأحاسيس الاولى التي يشعر بها الانسان والتي يمكن تشبيهها بالشمع البكر الذي يرسم ويطبع عليه أي أثر طارئ ، فالتكييف لا يمكن ان يرتدي مظاهر الحرية لانه هو الذي يمل اللحظة الهامة في تحليل ودراسة التصرف . وبما أنه منهج تحديدي نفسي يبدأ من هذه النقطة فاننا لا نستطيع اعتناقه في الحال ومنذ اللحظة الاولى . فالحرية لا يمكن أن تلقن بطريقة التزوير المستترة تحت ستار مظاهر التناقض والتضليل . فهي تحتفظ بنظام هذا المنهج . والمفاهيم التي تتناول لب وجوهر موضوع الحرية انما تشير الى امكانيات متعددة لتحطيم كل ما تحتويه . وقد تمتنع في الحال عن الفصل بين النشاط الحر والنشاط العصبي ، وتعتبر الحرية في نفس الوقت أيضاً اساساً هاماً وقاعدة راسخة لظهور الامراض النفسية . ويؤكد جان بول سارتر انه بدون الحرية البحتة لن يكون هناك امراض نفسية او عصبية . فهذه الامراض لا تنشط الا في ظل مرونة النفس البشرية التي تتيح لهذه الاضرار النفسية . ومن هنا ينتج التقارب الواضح بين المرض النفسي والحرية .

Jean — Paul Sartre — L'existentialisme est un humanisme. P. 37.

(٦٤)

جان بول سارتر - الوجودية فلسفة انسانية . ص ٣٧

Jean — Paul Sartre — L'être et le néant — P. 67

(٦٥)

وبناء على هذا يؤكد سارتر ان الامكانيات الخاضعة للواقع البشري والحقيقة البشرية قد تكون قادرة على افراز « العدم » (٦٦)

ويعتقد هذا الفيلسوف المشهور أن الحرية تبدو من وجهة نظره وكأنها مخلوق بشري يستبعد ماضيه في الوقت الذي يفرز فيه عدمه الشخصي . وبذلك يصل الى تشبيه الحرية بالمرض العصبي او السلطة الجارفة التي تفوق كل نشاط خلاق فتتير لدى الانسان كل ألوان القلق النفسي . ويؤكد جان - بول سارتر أن معظم المفكرين في العالم اجمع محكوم عليهم باليأس والقفوط ، فهم يكتشفون في نهاية الأمر أن كل الانشطة البشرية تتساقط ، ويلاحظون انها ما دامت تخضع لتلك الحرية فهي مسخرة لجميعها للفشل . فسواء كان الانسان يحيا حرا في ظل تعاطي المكيفات ، او يحيا حرا في ظل قيادة الشعوب فالأنتان يصلان في آن واحد الى نفس المؤثرات . ويجدير بالذكر ما جاء به سارتر في قصة « طفولة رئيس » عندما عبر عما أحس به البطل من شعور غريب وكأنه يعيش بداخل طبقة كثيفة من الضباب . ويرمز الكاتب بهذه الصورة الى التجربة الوجودية للحرية وما تتضمنه في مجال العدم من فقدان وضياح للشعور .

ويهتم سارتر بابرار هذا المفهوم خاصة من خلال أعماله المسرحية . فاذا اطلعنا على مسرحية « الذباب » لوجدناه يطرح هذا الموضوع ويعرض جوانبه المختلفة في اطار أدبي رفيع ، فيلقي الضوء على عدة نقاط نظرية من بينها ما يدور حول الافكار العملية المرتكزة على الوجودية ، وخاصة موضوع الحرية ، في هذه المسرحية يعرض لنا شخصية « أورست » ابن الملك « أجامنون » والملكة كليتمنتر « الذي ينفيه القائد « ايجيست » الى مدينة « كورانت » . وهو طفل بعد أن يقتل أباه ويحكم بلده « أرجوس » ويتخذ والدته عشيقة له ... وقر الاعوام ويصبح « أورست » في السابعة عشرة من عمره شابا مرموقا متألقا بكل الصفات الحميدة مزودا بالدراسات الادبية الرفيعة والامكانيات العقلية والعضلية الفائقة . هذه صفات اذا تجلى بها أي شاب في مثل عمره جعلته يشعر بالسعادة التامة والحرية الكاملة . ولكن « أورست » عكس هذا كله فهو مهموم وحزين لانه لا يفكر الا في الانتقام والتأثر لأبيه ولنفسه ولأخته التي عاشت غريبة في بلدها « أرجوس » وسط الاجواء الفاسدة التي تشع بالفسق والفجور والخيانة ... ويعود الابن الغائب وتلوح له المدينة من بعيد . واذا بها تظهر تحت غمامة هائلة من الذباب الذي تجمع في صورة بشعة ليظلل سكانها المشحونين بالسواد ... ومن بين هؤلاء تطل أخت البطل التي ظلت تتوقع من اخيها التأثر لأسرته وبلده . وقد طال غيابها عنها ليحررها من الذباب ويطهرها من الدناسة والفسق محققا بذلك له ولأخته حلمها المنشود . وبعد قيام « أورست » بتنفيذ خطته وتحريض بلده من تلك

(٦٦) العدم : « Le neut » هو السلب الجذري للوجود في مجسده وقد أشاع « هيجر » هذا المصطلح بهذا المعنى . وأخذ عنه سارتر بقوله : « ان العدم الذي ليس شيئا » لا يمكن أن يكون له غير وجود معار : فهو يستمد وجوده من الوجود .. والاختفاء التام للوجود ان يكون الا بيجي . حكم اللاوجود ، بل والاختفاء المساوي للعدم « ليس له وجود الا على سطح الوجود » - جان - بول سارتر - الوجود والعدم ص ٦٦

الحشرات الفتاكة التي ترمز إلى المعاني المختلفة للضغط النفسية يشعر في نفس اللحظة بأنه يستطيع تذوق الحرية . وكم كانت دهشته عندما وجد نفسه في حالة غريبة من اللامبالاة التي سيطرت عليه وهيمت على أحاسيسه ومشاعره !! وبدلاً من أن يحظى بامتلاكه « للحرية » فإذا بتلك « الحرية » نفسها تبثله تماماً إلى مالا نهاية !... فيقول :

« انني أشعر وكأنني شيء لا وزن له . فالخيط الرفيع ربما كان له وزن أكثر مني .. انني اهييم في الفضاء .. هذا قدرتي واني مدرك لما اعني » . (٦٧)

نعم انه يدرك أنه محروم من الاختيار ، ملتزم بطريق مخطوط مقيد بقبو المصير المعتم فيردد هذه الكلمات قائلاً :

« هناك اناس يولدون ملتزمين . هؤلاء ليس لديهم ادنى اختيار لمصيرهم . فقد أُلقي بهم في طريق ما ليجدوا في نهايته عملاً ينتظرهم : هذا العمل هو عملهم » . (٦٨)

ويقدم لنا الكاتب من خلال هذه المسرحية التصرفات والاحداث والمخطوطات التي تبدو جميعها وكأنها مخططة ومدفوعة بطريقة مباشرة وواضحة .. ويساند جان بول سارتر قضية « الحرية » في كل الاتجاهات ومن كل الجوانب ويؤكد ان التحليل النفسي الفرويدي يسحقها ويقضي عليها تماماً . فانه يلاحظ ان الدور الهام الذي يسند الى اللاشعور وما يترتب عليه من تسلط في الأداء يسلب الانسان حريته الشخصية في الاحتفاظ بأسراره الخاصة . ويقول فرنسيس جونسون في كتابه عن مسرحيات جان بول سارتر وكذلك « بيتر فيرستين » ، « (٦٩) أن هذا المسرح يحاول العمل على معارضة الواقع فهو بذلك يثير المجتمع متفجعاً كان أو قارناً ، فيبث فيه روح المعارضة ، وبهذا النوع من المؤثرات يستطيع سارتر الوصول الى أهدافه من خلال ممثلين يقومون بتزييف الواقع ، فيشيدون بهذا الاتجاه الى الحقيقة الواقعة . وهذا الأسلوب قد يوصله الى الامتنان والى جذب المشاعر نحو ما يريد هومن معان مختلفة . وانا نؤكد ان جان - بول سارتر قد أقام معبداً هائلاً منوعاً ومركباً في شتى فروع الآداب . فقد جمع بين الفيلسوف والروائي ، والمحرر والكاتب المسرحي ، والناقد والخطيب ، والمخرج والمصور - واستطاع من خلال هذه الاعمال كلها أن « يتحرر » هو الآخر من التزامات كثيرة .. ولكن ، على ضوء التحليل النفسي نجد أن هذه الاعمال تبدو قلقة ومهيمة . فإذا افترضنا مثل بعض النقاد أن سارتر كان يعاني من بعض العقد النفسية الدقيقة غير الواعية التي أثرت على حياته ومؤلفاته فيمكننا القول أن الكتابة بغيرها غير قادرة على تخليصه منها . فالكتابة وحدها لا تتساوى مع التحليل النفسي ، ولا يمكنها السباح له بتدارك تلك العقد ومعالجتها دون الرجوع

Jean - Paul Sartre - Les mouches - P. 77.

(٦٧)

Ibid

(٦٨)

Pierre Vaerstraeten , Violence et éthique - P. 303.

(٦٩)

للعلاج النفسي . ولكننا إذا راجعنا أعمال سارتر وحاولنا تفسيرها وترجمتها بواسطة التحليل النفسي لاكتشفنا نوعا خاصا من التحليل النفسي التشخيصي (٧٠) يطبق عليه . فقد حاول هذا المفكر الكبير أن يثبت للعالم أن نظريته الفلسفية الخاصة بالتحليل النفسي إنما تدل على ما أشار إليه التحليل النفسي التقليدي مع مراعاة عدم الاستعانة باللاشعور حيث تستخدم الأساليب المعرجة والجارحة . فبينما افترض عدم اهتمامه بما جاء قبل التجربة المعاصرة نلاحظ أنه وصل في نهاية الأمر الى عدة موضوعات أساسية تأتي في جوهر التحليل النفسي التقليدي . وهنا يقترن به التحليل النفسي الوجودي . ففي الأسلوب والمذهب والطريقة ومعظم النظم المتبعة في التحليل النفسي التقليدي تلتقي النظريات الفلسفية الكامنة في التحليل النفسي الوجودي . فالأول اهتم بصفة خاصة بالأفكار والاحلام وأحلام اليقظة والأفعال والأسلوب وغيرها . وقد تناول كل الموضوعات المختلفة إلى أن توصل الباحثون الى التعمق في دراسة « الأنا » والاهتمام بها بدرجة فاقت اللاشعور .. وجدير بالذكر ما قاله فرويد بأن « الطبيعة البشرية تميل دائما الى رؤية كل ما لا يروق لها في صور باهتة وخاطئة ، فتبدأ حينئذ في احضار الادلة والاثباتات المختلفة لتبرير وجهة نظرها » .

وإذا افترضنا ان معظم نظريات جان بول سارتر تبدو على شكل طرق متفرقة تريد الابتعاد عن منطقة تعتقد أنها مظلمة ، الا وهي التحليل النفسي فنستطيع القول ان نفس نظرياته الفلسفية وتقديدها بطريقة خاصة اعتقادا منه انه استوفى كل النقاط ، فقد استطاع بالفعل أن يقدم الجديد والجيد الى قرائه ، فانه وضع آرائه وأفكاره في اطار سليم وجميل يحيط بوجهات نظر مختلفة ونسبية تهدف الى التفوق على أصحاب النظريات والتبشير . بصيغ جديدة يستند عليها الانسان في هذا الكون .

ويعتبر الادب بالنسبة لهذا الفيلسوف العبقري وكأنه نوع خاص من البيانات والعبادات . فهو يؤكد أن وجوده في هذا الكون أظهر له مدى تفاهته وتناقضه مع الحياة . فيقول في كتابه : « الوجودية نزعة إنسانية » ما يلي :

« لقد كانت هناك الحياة اليومية ، لتلك الحياة التافهة وغير المعقولة ، التي نعيشها بأي صورة من الصور ، محاولين التعرف من خلالها على أكبر عدد ممكن من التجارب . ثم توجد هنالك حياة أخرى : الحياة التي نستطيع دخولها عن طريق الكتابة . وعندما تدون أي عمل كتابي ، فالاعمال الادبية لها قيمة الهية لانها تناقش في مجال شبه مطلق وغير كهنوتي ، والهدف من ذلك هو اقتحام عالم غير عالمنا هذا . ويعتبر الادب بالنسبة لي وفي بادئ الأمر وكأنه محاولة للبحث عن تبرير للمستقبل وجلو حياة أبدية أفضل توافق على الوجود الغامض والطارئ وغير

الصريح الذي يحيط بنا في الحاضر . وبذلك يستطيع الانسان أن يحيا بعد موته من خلال كتاباته فيتعرف عليه المجتمع » (٧١)

وطرح هذا المفهوم نلاحظ أن جان - بول سارتر يفكر بطريقة خاصة وخالية تماما من أي عقيدة دينية تقربه من الله سبحانه وتعالى . فهذا الفيلسوف لم يضع نصب عينيه سوى الانسان ، ولم يتطلع الا اليه - وظل الانسان أمامه بمثابة لغز أراد أن يصل الى حله بفلسفته الشخصية وعقائده الخاصة . فقد كان دائما يؤمن بأن الانسان هو الوحيد والأول والآخر الذي يستطيع « اختراع » الانسان . وقد يتجلى هذا بواسطة عقد يوقع مع هذا الكائن أو عن طريق شعور داخلي يوفق بينه وبين نفسه . ويؤكد سارتر أن هدفه هو العثور على شيء ملموس وليس معنويا وجب العثور عليه . ومن المحتمل أن يكون هذا الشيء قائما وموجودا بداخل الانسان وثبته نحو هذا المخلوق وعلاقته الاصلية بشخصه وبالعالم وبالأخرين . ويلتقي هذا كله داخل وحدة من العلاقات الداخلية لمشروع أساسي يرمي الى الفردية . لذلك نجد ان جان بول سارتر كان أول من أبد رأي الشاعر الفرنسي المعاصر « فرانسيس يونج » الذي صرح بقوله أن « الانسان هو مستقبل الانسان » .

ولكن اذا ظل سارتر حتى النهاية يحاول التوفيق بين المتطلبات الجمالية في الادب . والافكار المؤثرة التي تشمل فاعلية خاصة في مجال التحليل النفسي فان هذا العبقري رغم عبقريته الفذة توقف عند الانسان ، وهذا المخلوق الضعيف الذي لا حول له ولا قوة دون الخالق عز وجل ، ولم يستطع بكل مداركه أن يصل الى ما فوق الانسان : الى الحق : الى الله جلّت قدرته ، الذي « خلق الانسان . وعلمه البيان .. فبأي آلاء ربكما تكذبان . تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام » (٧٢)

صدق الله العظيم



المراجع

(١) المؤلفات الفلسفية لجان بول سارتر

(١) جان بول سارتر، الخيال ١٩٣٦

1. — L'imagination

(٢) محاولة النظرية في الانفعالات ١٩٣٦

2. — Esquisse d'une theorie des émotious 1939.

(٣) الخيال، دراسة سيكولوجية فينومينولوجية للخيال ١٩٤٠

3. — imaginai — Psychologie phonomenolog. que de L'imagination 1940.

(٤) الوجود والعدم، محاولة لتأسيس علم الوجود الفينومينولوجي ١٩٤٣

4. — L' etre et le neaut, essai d'ontologie phenoménologique 1943.

(٥) الوجودية فلسفة إنسانية ١٩٤٦

5. — L'existentialisme est au humanisme 1949.

(٦) نقد العقل الجبلي - الجزء الاول ١٩٦٠

6. — Critique de la raison dialectique tome 1960.

(٢) القصص والروايات

١ - العتيان ١٩٣٨

1. — La nausée 1938.

٢ - الجدار أو الحائط ١٩٣٩ - مجموعة قصص مختري على الحائط، الغرفة - ايروسترات، الفة - طفولة رئيس

2. — Le mur 1939 — Le mur — La chambre — erostrate,
intimité — L'enfance d'un chef.

(٣) أعمال مسرحية

١ - اللباب ١٩٤٣

1. — Les mouche 1943.

(٤) الدراسات الادبية

(١) ديكرات، قدم له واختار نصوص جان بول سارتر سنة ١٩٤٦ .

1. — Descartes introduction et choise de textes par J.P. Sartre.

2. — Situations I.³ 1947.

(٢) مواقف « الجزء الأول » ١٩٤٧

3. — Qu'est-ce que la littérature : 1947

(٣) ما الأدب ؟ ١٩٤٧

4. — Baudelaire 1947.

(٤) بولير ١٩٤٧

5. — Situations IX 1970.

(٥) مواقف الجزء التاسع ١٩٧٠

المراجع المختلفة

- Beauvoir — (Simone de) — La Force de l'âge 1960
- Boutonier (Juliette) — L'Angoisse 1963.
- Freud (Sigmunde) Introduction A La psychanalyse 1962.
- „ „ Essais de Psychanalyse 1951.
- „ „ Le rêve et son interprétation 1972.
- „ „ Trois essais sur la théorie de la sexualité 1925.
- „ „ Mo vie et la psychanalyse 1975
- I S T (Genevié) — le mur de Jean — Paul Sartre 1972.
- Jeanson (Francis) Sartre par lui — même. 1957.
- JVNG (Carl — Gustave) — Essais d'exploration de L'inconscient 1965.
- JVNG (Carl — Gustave) — dialectique du moi et de L'inconscient 1964.
- VARET (GILBERT) — L'ontologie de Sartre 1948.
- VERSTRAETEN — (Pierre) — Violence et éthique 1972.



المراجع الصحفية

- ١ - مجلة لآلة العدد رقم ٣٠ لعام ١٩٦٦ (بالفرنسية)
- ٢ - مجلة الفكر المعاصر - العدد الخامس والعشرين لعام ١٩٦٧ (باللغة العربية) .
- ٣ - مجلة العصر الحديث لعام ١٩٧٠ .
- 3. — Les Temps modernes. 1970.



كتب جان بول سارتر أولى أعماله المسرحية وهي «الذباب» عام ١٩٤٢ إبّان الحرب العالمية الثانية . تناول فيها أسطورة أورست والكثير سليل عائلة «الأثرية» الملعونة .. أن موضوع المسرحية قد تناوله العديد من الكتاب المعاصرين قبل سارتر وبعده .. نذكر منهم على سبيل المثال الكاتب المسرحي الكبير جان جيرودو وروايته «اليكتر» ، ومارجريت بورسنار- أول سيدة تنضم الى الاكاديمية الفرنسية ومسرحيتها «الكرت أو سقوط الاقنعة» .

وتروي مسرحية سارتر قصة «أورست» ابن أجاممنون وكليتمسترا الذي أبعد عن بلده «أرغوس» وهو طفل في الثالثة من عمره بأمر من «أيجيست» قاتل أبيه ومغتصب عرشه وعشيق أمه ويعود أورست الى موطنه بعد انقضاء عشرة أعوام على حياته في المنفى ، فيجد بلده غارقة في الندم مثلاً في اسراب الذباب والسواد الذي ترتديه سيداتها . يقابل أورست اخته التي تنتظره وهي غارقة في أحلامها متوقعة منه أن ينأى لأبيها ويخلص بلده من ثقل «الندم والخوف» الجاثمين على الصدور

سارتر والأسطورة اليونانية

وبعد تردد يقوم أورست بتنفيذ ما كان يراوده ، فيقتل أمه وعشيقها ، ويمرر بلده من الذباب بأن يغادرها في حركة مسرحية ، مقلدا عازف الناي الذي خلس بلده سكيريوس من هجوم القتران .

أما الكتر فلم تتحمل نتيجة ما فعله أخوها وسقطت فريسة سهلة للندم والخوف طالبة الرحمة والغفران من جوبيتر كبير الآلهة .

حفيفة محمد عبد النعم

لقد تضافرت لأورست عدة عوامل في حياته سببت له نوعاً من اللامبالاة ، منها النفي المبكر بعيداً عن وطنه ، والثقافة الفلسفية التي تلقاها على يدى معلمه أو « المربى » كما يسميه سارتر ... تلك اللامبالاة التي يفخر المربى في وصفها قائلاً لأورست :

« ... الم أجعلك منذ حداثتك ، تقرأ جميع الكتب ، لكى تألف اختلاف الآراء الانسانية ، واجعلك تطوف مائة مقاطعة ، مقدماً لك الدليل ، وفي كل مناسبة ، على مدى ما في اخلاق الناس من تغير ، وها أنت الآن شاب غنى وجميل ، بمنح كالشيوخ ، متحرراً من كل العبوديات ومن كل المعتقدات ، لا عائلة ، لا دين ، لا مهنة ، حر ، ملتزم بما شئت ومدرك انه لا ينبغي للانسان أن يلتزم ابداً ، وأخيراً ، ها انت رجل ممتاز وجدير فوق ذلك بان تعلم الفلسفة والتحت في مدينة جامعية كبرى »^(١)

لكن اورست يشعر بالفراغ الذى اوجدته في داخله ومن حوله تلك الحرية المثلى ... إنه يحس بنفسه كشيء صغير تأخذه الرياح في مهبها الى حيث تشاء ، لا رابطة له ولا ارتباط في أى مكان :

« اورست (للمربى) : ... لقد تركت لى حرية كحرية هذه الخيوط التي تنتزعها الرياح من بيت العنكبوت ، فأتأرجع على ارتفاع عشرة اقدام من الارض ، اننى لا أزن أكثر من هذا الخيط ، انى اعيش معلقاً في الهواء ، انا اعرف ان هذا حظى ، وأقدره حق قدره »^(٢)

ولكن بطلنا لا يلبث ان يشعر بإمكانية وجود وجه آخر للحياة اكثر التزاماً وارتباطاً بالواقع فيستطرد قائلاً :

« ... من الناس من يولدون ملتزمين ... ليس لهم خيار ، قذف بهم في طريق ما ، وفي آخر الطريق فعل ينتظرهم ، فعلهم ، انهم يصيرون وارجلهم العارية تطفأ الارض بشدة فتتسلخ جلودها على الحصى ... »^(٣)

في بداية دخوله البلدة يشعر اورست بالغربة ، بعدم الانتهاء الى مسقط رأسه حيث الدور والدروب تبدو غير معروفة لديه ..

ان ما يثير في نفسه من شعورهم بالاسى هو ذلك الواقع الذى يجعله « يسأل عن طريق كهابر سبيل^(٤) ... في نفس البلدة التي رأت عيناه فيها النور ، وحتى ذلك لم يفلح فيه ، فقد باءت جميع محاولات السؤال بالفشل ، ذلك لأن النسوة اللواتي كان يقصدهن بسؤاله كن خائفات ، مرتعدات ، موليات الادبار أمام ذلك الغريب .

(١) Jean — Paul Sartre, Les MOUCHES, 1945, Gallimard, P.95

(٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٣) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٤) نفس المصدر ص ٨٢ .

كان الخوف إذن حاجزا سميكا بينه وبين مواطنيه ، حتى عندما غاب الخوف بقى الاتصال بابنائه بلدته مستحيلا وقشل اللسان في مخاطبة أى فرد منهم . فنعندما توجه المربى بالسؤال الى شحاذ القرية لم يستطيع الاجابة فتعجب المربى في يأس :

« ليس لنا حظ ! ان أول من لم يهرب اذا به معتوه ... »^(٥)

لقد شعر اورست بالغثيان نتيجة الاحساس بالقرية فطلب الخروج من أرجوس وقال للمربى :

« ألا تدرك اننا نتهرب في حر الآخرين ؟ »^(٦)

تلمب أرجوس وابنائها بالنسبة لاورست دور « الآخر » في مواجهة الذات ، وهذا « الآخر » ليس الا وجودا مبها ، منطلقا مثيرا للضجر وللحرج ، انه وجود جهنمى لا يقوى بطلنا على احتاله . ولكن الشعور والاعتراف بوجود « الآخر » يثير في نفس الوقت قضية علاقة « الوعى بالذات - والعالم » ، حينئذ يشعر اورست « بالحاجة » الى تخطى حدود ذاته والذهاب لملافة العالم كوجود شامل ، وهذا ما يشرحه سائر في كتابه « نقد العقل الجدلى »

: Critique de la raison dialectique

« الحاجة هي علاقة الكون ذي الانجاء الأروحد بالمادية المحيطة ، بقدر ما يبحث البدن عن التغذية بها ، وتكون حينئذ شمولية مرتين :

ذلك انه لا تكون سرى الشمول الحى الذى يبدو كشمول ويكشف المحيط المادى الى مالا نهاية كحقل شامل لامكانيات ارضاء الحاجة »^(٧)

ان « حاجة » الاتصال بالآخرين تدعو اورست الى احياء ذكرياته لانيجاد روابط ببلدته تتيح له مشاركة مصير مواطنيه ، لذلك فهو يعلن لجوبيتر ، للمربى ، لاخته الكثر ، لكل الذين كانوا يحثونه على مغادرة أرجوس ، عزيمه على البقاء في بلده ، انه يريد ان ينتمى الى مكان ما ، ويرغب في ان يصبح رجلا بين الرجال مواطن بين المواطنين - انه يصبو الى الاحساس بحرارة بلدته وأبنائها من حوله ، وهو يعبر عن ذلك في صورة بالغة الشاعرية :

« أورست : ... ان العبد حين يمر متعبا ، عابس الوجه يثن تحت حمله الثقيل ، جارا ساقية وناظرا الى قدميه ، الى قدميه فقط ، لكى يتحاشي السقوط ... يكون في مدينته ، كالورقه بين لفياف الاوراق ،

(٥) نفس المصدر صـ ٨٣ .

(٦) نفس المصدر صـ ٩٧ .

J.P.Sartre, Critique de la raison dialectique, 1960, (٧)
Gallimard, Livre 1, P.166.

كالشجرة في الغابة .. أرغوس من حولى بكل ثقلها وحرارتها ، بكل امتلائها بذاتها ، أريد ان اكون هذا العبد ، الكثر ، أريد ان الف المدينة حولى وان التف بها كالغطاء ، لن ابرحها »^(٨)

ان اورست يزنى الى أن يصير انسانا « في العالم » غير منفصل او غريب عنه . أنه يكتشف وجود حرية أخرى غير حرية اللامبالاة التي لم تجعل منه سوى فرد يشكو من عدم الانتهاء والوحدة ، حرية أكثر واقعية وأكثر قيمة .

هكذا يطلب من مربيه التخل عن تلك الفلسفة التي اصابته بالضرر.^(٩)

يفهم اورست انه يجب عليه ان يتخطى مفهومه للوجود L'etre ، للطبيعة ، للشيء في ذاته L'en — soi ، لكى يبلغ وجود شعوره L'etre De La conscience او الشيء لذاته Le Pour — soi انه ينفو الى الخروج من الكون L'immanence الى التجاوز او السمو Transcendance لذا فهو يتحدى جوبيتر الذى يدعوه الى السكينة والخضوع لتوانين عالمه :

« اورست : خارج الطبيعة ضد الطبيعة ، دون عذر ، دون اى ملجأ سوى نفسى ، ولكننى لن ارجع الى قانونك : انتى مقضى على بان لا يكون لى سوى قانوني الخاص . لن ارجع الى طبيعتك : ان فيها ألف طريق مرسومة تقود اليك ، ولكننى لا استطيع ان اتبع الا طريقي »^(١٠)

هذا الطريق هو الحرية ، فأورست يعلم ان « الناس احرار »^(١١) كما يعترف جوبيتر نفسه بذلك .. وهو يميز بان الحرية « ماهية » أو « جوهر » الانسان بقوله : « انتى حريتى »^(١٢)

ولقد اعاد سارتر شرح تلك الفكرة في كتابه الوجود والعدم L'etre et le neant

« ان الحرية ليست صفة او خاصية مضافة الى طبيعتي ، انها بكل تحديد خاصية وجودي »^(١٣)

عندما شعر اورست بحريته اراد ان يلتزم بمصير أرجوس ولكنه ارتطم بالواقع الاليم : ان بلدته فريسة الندم الدائم للتكفير عن الجريمة التى ارتكبتها ابيست وكليتمنستر وراح ضحيتها أجا ممنون والد اورست . وخطيئة

(٨) J—P.SARTRE,Les Mouches ,P 137

(٩) راجع نفس المصدر ص ٩٤ .

(١٠) نفس المصدر ص ١٨٢ .

(١١) نفس المصدر ص ١٥٥

(١٢) نفس المصدر ص ١٨١

(١٣) J.P.Sartre,L'Etret et le neant Gallimard,1943,P 514 .

اهل أرجوس هى السكوت على الجريرة وادعاء الصمم وعدم إغاثة الملك . لذلك ارسل عليهم جوبيتر لعنة على هيئة اسراب الذباب التي تكبر حتى يصير حجمها « كالضفادع الصغيرة » .

أما إيجيست وكليتمنستر فهما يحكما أرجوس ويجلسان على العرش الذي اغتصباه بيثا أورست بيدي تعجبه حيال الآلهة التي تركت المذنب حرا بدون عقاب متمتعا بالسلطة ، ولكن جوبيتر يتصدى له مدافعا عن الآلهة وإحكامها :

« جوبيتر : رويدك ! لا تعجل بادانة الآلهة - أمن الواجب دائما انزال العقاب ؟ ألم يكن من الافضل تحويل هذا الصخب لصالح النظام الاخلاقي ؟ (١٤) »

ان الآلهة لا تبغى من الانسان سوى الخضوع والندم وتأنيب الضمير الذين يمثلون في نظرها دعائم الاخلاق ، فهي تدعو البشر الى التكفير عن الخطيئة الاولى ، خطيئة آدم ، وحواء ، طالبة منهم الخوف من الحساب في يوم الحشر . وهى لا تجعل لهم هما سوى فكرة النجاة والخلاص عن طريق الرهبة ومسائلة النفس وطلب القفران ... ان جدران أرجوس المملوطة بالدم ، واسراب الذباب ، ورائحة الجيفة والحراة المجهنية ... كل هذا يهدف الى الحفاظ على ما يطلق عليه جوبيتر « التقوى الصحيحة ، القائمة على سنة الاقدمين ، والمتينة الارتكاز على الرب » (١٥) .

ذلك الرب السائد في النفوس في « عيد الموتى » الكتيب ، الذي يقع في يوم عودة أورست الى بلده ، من شأنه الحفاظ على الشعور بالذنب باقيا في الصدور ، وجذوره مغروسة في القلوب البرينة التى توهما الالهة بارتكاب جرم فظيع ، يجب التكفير عنه والشعور بالحجل والندم عليه ، لذا نجد مجاميع الاطفال في عيد الموتى تطلب العفو مستغفرة عن ذنب لم ترتكبه :

« الاطفال : الرحمة ! اننا لم نولد قصدا ، ونحن جميعا خجلون من اننا نكبر ... كيف يمكن لنا ان نجرح شعورهم ؟ انظروا ، اننا بالجهد نعيش ونحن نحفاء شاحيون وجد صفار ، اننا لا نحدث ضجة ، وتترلق انزالا ، حتى ان الهواء حولنا لا يضطرب . ونحن خائفون منكم ، أوه ! خوفا عظيما » (١٦)

امام واقع بلده الممزي ، لم يستطع أورست سوى الشعور بالحيرة أبقى أم يمضي ؟ إنه حر في الاختيار ، بل ان هذا الاختيار هو دليل حريته ، ودور اليكتر هو وضعه امام الموقف الذي يتبع له اتخاذ القرار : الرحيل أو الفعل ، الهروب أو الالتزام بمصير بلده باعطائها حريتها .. لذلك فاليكتر تعرض عليه الأمر بشقيه :

J.P.Sartre, Les Mouches, P.87 (١٤)

(١٥) نفس المصدر ص ٨٣ .

(١٦) نفس المصدر ص ٨٩ .

« اليكتر: افترض ان شابا من كورنثيا ، من هؤلاء الشبان الذين يلهون مع الفتيات في المساء ، وجد لدى عودته من سفره ، أباه مقتولا ، وأن القاتل في حرية ، واخته في العبودية ، هل ينسحب بهدوء ؟ هذا الشاب الكورنثي ، - هل يعود ادارجه وهو ينحني احتراما ، فيلتمس السلوى لدى صديقاته ؟

ام انه يستل سيفه ويقرع القاتل حتى يفجر راسه ؟ الا تهجيب ؟ »^(١٧)

اورست يبدو في قمة الحيرة وضياح الامل واليأس .. ولكن ألا يكون اليأس سببا في ايجاد ثغرة ، في خلق امل جديد ؟ ان اليأس يتيح لنا اكتشاف معنى لوجودنا ... لذا فأورست يقرر اقتسام رأسه مع اهالي أرجوس حاملا اياهم الى الحرية والحياة :

« اورست : لماذا امتع عنهم اليأس الذي في نفسى ، وهو نصيبهم ؟

جوبيتر: ماذا يصنعون به ؟

اورست : ما يشاؤون انهم احرار والحياة الانسانية تبدأ في الناحية الثانية من اليأس »^(١٨)

ان حياة اورست ومواطنيه لم تخلق بعد ، لانهم كانوا يكتفون حتى هذه اللحظة بوجود كامن في إحضان الطبيعة إن هم اورست البحث عن « فعل »^(١٩) محرر وخلاق ... ذلك ان « الفعل » هو الذى يتيح الخلق ، فيفعله يخلق الإنسان معنى لوجوده يسمى به عن الكون :

افعل ، وبينما تفعل افعل نفسك ، ولا تكن سوى ما فعلت »^(٢٠)

الفعل الذى اختاره اورست لاثبات ذاته وحرية يفوق كل عمل آخر في بشاعته ، اذ انه لا يكتفي بالتأمر من قاتل ابيه بل انه يقتل امه تلك التي وهبت الحياة . ولكن لماذا اختار بطلنا هذا الفعل المدمر لانقاذ أرجوس ؟ ذلك ان الدمار والشر لازمان لكل تغيير جذرى ، انه الجانب السلبي للحياة ، الجانب الذى يدمر كى يتيح الفرصة لخلق جديد .. لبناء جديد ... وسائر يشرح لنا فكرة التدمير اللازمة للخلق التي تذكرنا بالديالكتيكية عند هيجل في كتابه Saint Genet, comédien et Martyr فهو يقول :

(١٧) نفس المصدر ص ١٠٥ .

(١٨) نفس المصدر ص ١٨٣ .

(١٩) راجع نفس المصدر ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢٠) Faire et en Faisant se faire et n'etre rien
que ce qu'il se Paît. — J—P. Sartre, Miseau
point in Action du 29 De,cembre,1944.

« ايا كان الفعل فهو يغير ما يكون باسم مالم يكن بعد ، وبما انه لا يمكن ان يتحقق بدون تحطيم النظام القديم ، فانه ثورة دائمة . انه يهدم لكي يبنى ولكي يُجْمَع بفرق الشمل :

ان كل بناء يمتوى - على الاقل - على نصيب مماثل من الدمار »^(٢١)

ان المجتمعات الانسانية تخاف عواقب الدمار ، تخشى من التغيير ومن النتائج الوخيمة التي قد تعقبه ، فتتشأ الرغبة في القضاء على ما يطلق عليه سائرر « محرك السلبية » Le ressort de negativite الكامن في النفس البشرية . عندئذ يقطع الانسان جزءا من نفسه ويحرم حريته من « اللحظة المدمرة » Le moment negatif ، من الشر . ولا يتيقن له سوى الجانب الذي يدعو الى قاتل الخير والكيونة ، عندئذ يسمى الانسان خيرا كل ما هو قائم فعلا .

باسم هذا « الخير » يطلب جوييت من اورست الرحيل وعدم اطلاق « النظام » السائد في بلده :

« جوييت : ... ايها الشاب مع السلامة ، ان نظام المدينة ونظام الارواح لا يستقران : اذا مستهها احدثت كارثة ... كارثة هائلة تقلب عليك »^(٢٢)

عندما ايقن اورست ان الحرية هي جوهر نفسه بدأ ينظر بتقزز لذلك « الخير » الذي يدعو الى الخوف والرضوخ لجوييت ، انه لا يصدق عينيه ، اهذا ما يسميه الناس « خيرا ؟ أيمكن في الطاعة الدائمة والحمد وطلب المغفرة ؟ اورست يقرر « الفعل » فعل الشر الذي يتخطى الطبيعة ، الكيونة ، ويحقق حريته ، ذاته . ان قتل امه ، ذلك الائم العظيم وهو اذن الفعل المخلص الذي يجد اورست بواسطته معنى لوجوده ، لحياته ، وحياة اخته . ان فعله الشرير بمثابة عمل خلاق بالنسبة له :

« اورست : لقد مضى الليل . وهذا اول النهار . نحن احرار ياالكتور . يجبل الى انتي جعلتك تولدين ، وانتي ولدت معك ، الآن ، انتي احبك وانت لى . بالامس ، كنت وحيدا ، واليوم انت لى ، ان الدم يربط بيننا برباطين ، اذ اننا من دم واحد وقد سفكتنا الدم »^(٢٣)

جوييت يشجب فعلة اورست ، ويسهر على بقاء النظام في أرجوس ذلك لان لحظة الشعور والوعى التي يفهم فيها الانسان ان الحرية هي جوهر وجوده ، هي لحظة حاسمة بالنسبة لكبير الآلهة ، انها تعنى نهاية سلطته ، ان

J.P. SARTRE, SAINT GENET, COMEDIEN ET MARTYR, (٢١)
GALLIMARD, 1952, LIVRE 1, CHAP. 1, P. 22.

J.—P. SARTRE, LES MOUCHS, P. 92. (٢٢)

(٢٣) نفس المصدر .

مسرح سارتر الوجودى يعلن نهاية الآلهة وتولى البشر الحكم والسيطرة على مصيرهم . جوبير يعلن بنفسه تلك الحقيقة :

« جوبير : اذا انفجرت الحرية ، مرة ، في روح انسان ، لن يبقى للآلهة على هذا الانسان أية سلطة ، اذا انها قضية انسانية ، وللناس الآخرين ، لهم وحدهم - ان يتركوه طليقا او يخنقوه »^(٢٦)



في مسرحية سارتر ، التي يحاول فيها اعطاء البشر كل وسائل التحكم في مصيرهم ، يأخذ الانسان ممثلا في اورست ، دور البطل والمثل الاعلى بيتا جوبير يبدو كإله للذباب والموتى « عيناه بيضاء » « وجهه ملطخ بالدم »^(٢٧) انه يشبه السحرة ، فهو ينطق بكلمات يبدد بها الذباب . وهو فوق ذلك شديد الكراهية للناس ، انه « لا يجب احدا » ويعترف بانه مرتكب « أول جريمة » ذلك « عندما خلق الانسان فانها »^(٢٨)

جوبير ار إله الذباب هو قوة باطشة ظالمة مستبدة تعمل على ان يظل الانسان خاضعا لها ، ماضيا من مولده الى موته في ذلة واستغفار وتدم . كل ما يدعو ذلك الانسان للتفكير ، يقلق جوبير لانه يعلم « السر الاليم الذى عند الآلهة والملوك ، وهوان الناس احرار »^(٢٩)

لقد اعلن اورست بادراكه وفعله هزيمة جوبير والانتقال مما يسميه اوجست كونت المرحلة الدينية L'etat positif الى المرحلة الايجابية L'etat theologique

« جوبير : وهكذا يا اورست ، فكل هذا كان مقدرا ، كان يجب ان يأتي رجل فيعلن أفولى . أنت هو ذا ؟ من كان يصدق ذلك بالأمس ، لدى رؤيتك بوجه كوجه الفتاة ؟ »^(٣٠)

ويبقى لنا بعد ان اتم اورست فعلته ان نتساءل هل نجح في مهمته ؟ هل حرر حقا اهل أرجويس ؟ ان هؤلاء قد بقوا في نهاية المسرحية على ما كانوا عليه : خائفين ، خاضعين ، صارخين ، ومطالبين بـ « الكافر » .

ان جموع الشعب الغاضبة تصيح في وجه ذلك الذى يريد اعطائها حريتها :

« الموت له ! الموت له ! ارجوه ! مزقوه ! الموت له ! »^(٣١)

(٢٤) نفس المصدر - ١٥٧ .

(٢٥) نفس المصدر - ٨١ .

(٣٦) راجع نفس المصدر - ١٥٣ .

(٣٧) نفس المصدر - ١٥٥ .

(٣٨) نفس المصدر - ١٨٣ .

(٣٩) نفس المصدر - ١٨٨ .

مشكلة أورست ليست مفهومة للحرية او الفعل الذى قام به بل فى علاقته ذاتها بشعب أرجوس ، فيبدو لنا انه لم يحس الاتصال والاندماج بأهل بلده ، وهذا الاتصال شديد الاهمية فى فلسفة سارتر الذى يشرح ذلك فى الوجود والعدم :

« أن اول خطوة فى اى فلسفة ، يجب أن توجد لتطرّد الاشياء من الشعور ولتقيم العلاقة الصحيحة بينه وبين العالم » (٢٠)

أورست لم يفلح فى الاتحاد والاندماج بأهله . لقد بقى نفس ذلك الغرب ايا كان الفعل الذى اتى به . ان اخته نفسها تصرّح له بذلك رغم تعلقها به فى النصف الأول من المسرحية .

« الكثر : لو اقمّت مئة سنة بيننا ، فلن تكون ابدا ، إلا غربيا ، أشد وحدة من وحيد على الطريق .. ان الناس سينظرون اليك باطراف عيونهم من خلال جفونهم نصف المغمضة وسيخفّفون اصواتهم حين تمر بقرهم » (٢١)

ان الفعل الذى قام به أورست لم يكن فى الحقيقة سوى برهان على حرية ذاته هو ، على الوحدة والتسويق بين شعوره وواقعه الخارجى . فنجدّه بعد قتل امه يقول فى أنانية :

« أورست : ... ماذا يهمنى : اننى حر ، وراء القلق والذكريات .

حر . ومنسجم مع نفسي ... » (٢٢)

لقد أخفق بطل الذباب « فى تغطّي فرديته » Individualisme لكى يلتقي بالكل الشامل ممثلا فى شعب أرجوس وبقي فعله بلا نتيجة للآخرين ذليلا على الفردية المطلقة . ذلك ان « العمل الجماعى » L'action collective يتطلب تضامر كل الحريات الفردية بعد ان يتحقّق كل عضو فى الجماعة من اقتناعه وحاجته الشخصية الى الثورة على موقف ما .. فى تلك اللحظة تفرّج الجماعة الى الوجود لكى تغير من واقع احست بضرورة تغييره . ولكن ذلك ما لم يحدث فى حالة أورست وأهل بلده . لقد قام هو بالفعل بينا كان أرجوس يعيش فى عالم خاص به ، قائم على مبادئ ومعتقدات مختلفة تماما عن افكار أورست وأحلامه :

« أورست : أه ! لو كان هناك فعل ، أترى ، فعل يمنحنى حق الوطن للديم ، لو كنت استطع ولو بجريمة ، ان استولى على ذاكرتهم ، ورعبهم ، لأملأ فراغ قلبي ، حتى لو اضطرت الى قتل امى ... » (٢٣)

J.P.SARTRE, L'ETRE ET LE NEANT, P.18. (٢٠)

J.P.SARTRE, LES MOUCHES, P.137 (٢١)

(٢٢) نفس المصدر - ١٧٢ .

(٢٣) نفس المصدر - ٩٧ .

هكذا يعترف اورست بأن فعله كان نتيجة رغبة شخصية لشغل فراغ نفسه التي اعيائها شعور اللامبالاة الناتج عن تعاليم مرييه ، ان ما قصده اورست من تخليص شعبه نتيجة فعل يقوم هو به منفردا يذكرنا بوسائل السحر والشعوذة Exorcisme التي تقوم على تخليص الجسد من الجان نتيجة لأعمال يقوم بها الساحر وحده . إنها وسيلة تفترض ربما الاتصال الروحي بينه وبين شعبه ، ومن الممكن ان تكون مجدية في عالم الشعوذة او في بعض الفنون كالسبوكودراما Psychodrame ولكنها غير ذات نفع في تحديد وتغيير مصائر الشعوب ، لذا اتخذ فعل اورست شكلا مسرحيا أو رمزيا بعيدا كل البعد عن الواقع . ولقد تحول هو في آخر المسرحية الى شخص أسطوري يخرج من البلد حاملا حريته. والآباء من الذباب وراءه ، انه يخرج وقد شعر بأنه شخص جديد مستعد للحياة تكون ملكا له بعد ان حدد هو معناها ومصيرها . اما اهدافه الاصلية - الحرية الجماعية لشعبه - فلم تكن سوى برهان على حريته هو وعلى سلامة تفكيره وفعله .

ان الثورة الجماعية قد اخفقت وبقي اورست « الفرد » . لقد كان منفصلا عن اهل أرجوس وسيتبقى دائما غريبا عنهم . لذا كان يجب عليه الرحيل وتركهم يجابهون مصيرهم وحدهم . اذا اردنا تقييم مسرحية الذباب على ضوء شخصية بطلها وموقفه من الحرية فنستطيع القول بأن تلك المسرحية تعبر عن مرحلة انتقالية او تحضيرية في تاريخ حياة سارتر وهي تتم عن صعوبة العمل الجماعي وتهدد الطريق للمسرحيات التالية « كالأيدى القذرة » . Les mains sales وموتى بلا قبور « morts sans sepulture » بجانب اورست تقف شخصية تسانده في البداية ثم تنقلب عليه بعد ان أتم فعله ، تلك هي اخته الكثر وهي تمثل غطا معيناً من شخصيات سارتر . انها تنتمي الى الفئة الشاعرية ، الحساسة من البشر التي تهرب من الواقع الأليم الذي حرّمها الحنان الى عالم الخيال . وسارتر يبين لنا تلك النوعية من الشخصيات في كتابه المتخيل L'imaginaire

« تفصيل المتخيل لا يعنى فقط تفصيل ثراء او جمال او ترف خيالي على رداءة الواقع رغم صفتهم غير الواقعية . انه ايضا تبنى احاسيس وسلوك « خياليين » بسبب صفتها الخيالية . فنحن لا نختار فقط صورة أو أخرى بل نختار الحالة الخيالية بكل ما تشتمل عليه . اتنا لا نهرب وحسب من محتويات الواقع (فقر ، حب مصدوم ، فشل في مشاريعنا ... الخ) بل نهرب من الشكل الواقعي نفسه ، من صفة حضوره ، من رد الفعل الذي يتطلبه منا ، من خضوع سلوكنا للاشياء ، من عدم نظوب المحسوسات ، من استقلالهم ، من طريقة تطور احاسيسنا نفسها ... » (٣٤)

الكثر تميش موقفا مؤلما ، فهي تعامل كالمخادمة في قصر والدعا الذى قتله اعيجيست زوج امها الحال ، وهى تبر هذا الواقع القاسي الى الخيال والاوهام . انها تحلم بالنار لأبيها من قاتليه ، وقد اخفت في اعماق اللاشعور حبا لامها وطبيعتها الشاعرية الحنون ووضعت قناع الكراهية للجميع :

« الكثر : اتراني مغفلة ؟ ذلك أنه يصعب عليّ كل الصعوبة ان انجيل نزهات وأناشيد وابتسامات ، فالتاس هنا يقرضهم الخوف . وانا

اورست : وانت ؟

الكثر : البفض » (٣٥)

ولكن ذلك البفض ليس سوى وجه واحد لشعور مزدوج . فالكثر تنشد في الحقيقة ان تسترعى انتباه امها لكى تولد في قلبها الحنان المغفود عن طريق الرفض والعناد ... ان ابنة اجائنون لا تستطيع ان تتألم مع العالم الذى يجبرها في بعض الاحيان على مقارنة أحلامها بالواقع المرير ... لذا فهي ترفض أن تعترف بعودة اخيها وتستمر لفترة في النداء عليه باسم « فيلاب » حتى بعد ان عرفت حقيقته ، ذلك ان شخصه لا يطابق الصورة التي رسمتها في مخيلتها . ولكنها عندما أيقنت عزمه على النار لأبيها لم تجد بدا من الاعتراف به وكل عباراتها تفصح خيبة امها ... فالواقع يختلف تماما عن الصورة التي في ذهنها .

« الكثر : اجل ، انك هو حقا ، انت اورست لم اعرفك لاني لم اتوقع ان اراك هكذا .. » (٣٦)

ينشط خيال الكثر المحصب ليلتلع الواقع فتحس بنفس المشاعر التي كانت تراودها في أحلامها : ذلك المذاق المر والخوف من لحظة الانتقام المنشودة . فالرغبة في النار يشوبها الرهبة والجبن ، تلك هي سيات شخصية الكثر : تنتمي ولا تقوى على التنفيذ ، حتى عندما يسألها اخوها عن سبب عدم هروبها القتل من القصر حيث تعامل كخادمة تحببها معلنة جبنها : « ليس لدى مثل هذه الجرأة : فلسوف اخاف ، وحيدة في الطريق » (٣٧)

ان مرارة واقصها هي الدافع اللازم لتنشيط خيالها واغلاق اوهامها عليها ، حتى ان تحقيق تلك الاوهام لا يجلب لها السعادة ، ذلك أن الواقع مهما بلغ من جمال فهو يبقى دائما أقل متعة من الخيال ، ويحتوى خيال الكثر مجرد آمال ترغب في هي بقائها على شكل امنيات . فبطلتنا تذكرنا بنوع من المفكرين المتصمين في ابراجهم العاجية متأملين في أفكار مجردة بدون ارتباط بواقع أو فعل :

J—P.SARTRE, LES MOUCHES, P104, (٣٥)

(٣٦) نفس المصدر ص ١٤٢

(٣٧) نفس المصدر ص ١٠١

« الكثر : ... اتعرف لماذا كنت افكر قبل ان أعرفك ؟ بأن الحكيم لا يتمنى في الحياة الدنيا ، الا أن يرد الأذى يوماً الى من أوقعه به » (٣٨)

ولكن الكثر ليست مستعبدة رغم معاملة ذويها لها كخادمة ، انها تتمتع بكل حرية ذاتها بكل حريتها في التخيل وفي الخلاص من الواقع لتعيش عالمها الذى تحب ، ذلك ما يشرحه لنا سارتر نفسه :

« لكى تقوى ذات على التخيل يجب ان تفلت من المعالم بطبيعتها نفسها ، يجب ان تستمد من ذاتها القدرة على الرجوع الى الخلف بالنسبة الى العالم . باختصار يجب ان تكون حرة » (٣٩)

فالعودة الى الوراء تعنى الخطوة اللازمة للتحرك من العالم والحكم عليه ثم اصدار القرار بتحويله الى « عدم » meant واستبداله يدنياً اخرى من صنع التخيل ومن منطلق ذاته وحرية الشخصية ، وشعور الكثر بحريتها الداخلية هو الذى دعاها الى اتخاذ موقف رافض من ايجيست وجويتر ، ولكنها مع ذلك لا تستطيع ان تتعدى مرحلة الاحتقار والسباب الى العمل الفعال . انها تيرهن على حريتها ، وعلى عجزها عن الفعل فهى تقول لجويتر يوم عيد الموتى الذى فرضه على ارغوس :

« ... عيد سعيد ، هيا ، عيد سعيد ، وتتمنى ان يكون الاخير .

ليست لى القوة الكافية ولا استطيع ان اطرحك على الأرض ، استطيع ان أبصق عليك ، هذا كل ما اقدر عليه » (٤٠)

عندما يقوم اورست بأداء « فعله » ، عندما يثار من قاتل والده ، تظهر الكثر على حقيقتها فينفجر حبها لامها وترفض أن تقر بحدوث الجريمة ثم تعترف بأنها لم تكن تريد حقاً « الفعل » بل كانت تكتفى بالاحلام :

الكثر : بل ! لم اعد اعرف ! لقد حملت بهذه الجريمة . ولكلك انت ارتكبتها يا جلد امك » (٤١)

الكثر تستمر في رفضها للواقع رغم تحقيق احلامها ذلك انها تعودت الحياة على مستوى آخر ، ألا وهو المستوى الخيالى الذى ارتضته واختارته لنفسها وبكل حرية . ان الفعل الذى ينزعها من عالمها الخاص لينقلها الى الواقع يفقدها اتزانها ، ويشعرها بعدم الألفة فتتهار وتفقد حريتها تتسامل في أمى أمام أخيها :

(٣٨) نفس المصدر ص ٢٨

J.—P.SARTRE, L'IMAGINAIRE, P.325 (٣٩)

J.—P.SARTRE, LES MOUCHES, P.99 (٤٠)

(٤١) نفس المصدر ص ١٧١

« ... أنا أضر أننى حرة . هل تستطيع ان تجعل كل ما حدث كأنه لم يحدث ، ان أمرا قد حدث ، ولم نعد احرارا في تبديله . هل نستطيع ان نحمو عنا كوتنا ، الى الابد قاتلى أمنا ؟ »^(٤٧)

بعد ان فقدت الكثر جناحيها لم يبق لها الا السقوط في شباك جوييتير لتصبح فريسة الندم والاستغفار والخضوع وقد ولت عنها الحرية الى الابد . ان بطلتنا تنتمى الى غمط مأسوى من ابطال سارتر ، غمط يحاول تحقيق ذاته بالهرب الى دنيا الأوهام ولكن « فعل » اورست يبيها على الخروج من ذلك الخيال الذى كانت تدور فيه ، تفقد سيطرتها على نفسها وتسقط بائسة على ارض الواقع ...

ان الكثر نوع من الشخصيات التي ظهرت واصبحت اكثر تبلورا في اعمال كتبت بعد الذباب وتذكرنا ببطل مسرحيتي الشيطان والرب *le diable et le bon dieu* سجناء الطونا *les sequestres D'ALTONA* اللذين يحققان في آخر الروايتين تطورا جدليا قائما على انحلال كل القيم الاخلاقية .



ان مسرحية الذباب تمثل مرحلة في فكر سارتر وقد اختار الكاتب للتعبير عن تلك الفترة اسطورة اورست والكثر ، وذلك يدعونا الى ان نتساءل عن سبب اختيار الأسطورة لتوصيل الفكرة للجمهور وان نتدارس الاسلوب الذى تناول به تلك الأسطورة .

انتا اذا تاملنا الاساطير بصفة عامة لوجدنا أنها نتاج الخيال والذكاء البشرى ، وانها تعبر الى حد بعيد عن مفهوم رمزى للكون .

لذا فهي تتطور تبعاً للفعل والحضارة الانسانية . حتى في اثينا القديمة لم تبق الاسطورة في اطار جامد بل تغيرت تبعاً للكتاب والزمن ، ان كبار شعراء المسرح الاغريق وهم اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس قد نهلوا من الاساطير المدونة في ثيوغونيا THEOGONIE هزيبود وفي اشعار هوميروس واعادوا لها الرونق والشباب من خلال اعمالهم الجديدة . وفي فرنسا المعاصرة تطورت الاساطير الاغريقية تبعاً لحضارتنا بدون ان تفقد الاسطورة روحها او معناها . فهي ما زالت تعبر عن مشاكل الانسان في علاقته الجذرية بالشر وبالقوى الكونية .

ان المؤلف يحترم هيكل الاسطورة ويبقى على خطوطها الاساسية وله مطلق الحرية بعد ذلك في اضافة أو تبديل المواقف الثانوية .

فندنا تناول اسخيلوس وسوفوكليس اسطورة اورست والكثر ، اضاف كل منها « خيرا كاذبا » وهو موت اورست - لتسيير الاحداث في المسرحية ، بينما اضاف يوربيدس خيرا آخر وهو تصنع الكثر الحمل والوضع من

زوجها الراعى وهو بدوره شخصية جديدة ابتدعها الشاعر وادخلها على الأسطورة . اما جان بول سارتر فقد اضاف بدوره شخصية المربى واطهر جوييتر على المسرح حيث جعل له دورا مباشرا ، كما ابتدع حدثا جديدا وهو عيد الموتى .

ان التغيير في مواقف الاسطورة يتبعه حتما تبديل او اضافة في المضمون ، ان الاساطير التي كانت تتمتع بقديسية ومعنى دينى عند الاغريق ، صارت الان تنتمى الى عالم الفن والادب ، والعمل الاسطورى اصبح يتكون من موضوع تقليدى يضيف اليه المؤلف معانى جديدة . الاسطورة تشبه المرأة التي تعكس فكر الكاتب ، فاذا ما غاب ذلك الفكر بقيت خاوية واصبحت الاسطورة مبتورة ، ناقصة ، ذلك ان الهيكل التقليدى لا يكون سوى نصفها وهى لا تكتمل الا بالمعنى او التفسير الجديد .

يحدد الكاتب الفرنسي جان توماس نوعية المؤلفين الذين يفضلون الأساطير كموضوع لأعمالهم فيقوله في مقاله « الاساطير القديمة في المسرح الفرنسي » :

« نستطيع ان نتبين الفائدة التي يجنيها كتاب هم فلاسفة اكثر منهم فنانون - من الاساطير القديمة . فكما تعود المراء على العيش مع الافكار المجردة صعب عليه ايجاد المواضيع اللازمة لمسرحياته من خلال تجربته الشخصية ويكون اكثر ميلا الى البحث عنهم في التراث الثقافي المشترك »^(١٣)

في وقت بدأت فيه الوجودية الملحدة في التبلور ، اراد سارتر ان يعبر بواسطة اسطورة اورست عن معنى غريب على الفكر الاغريقي ، ألا وهو فكرة الثورة التي تنفجر في قلب انسان يعلم انه حر في عالم لا معقول ، ويريد ان يثبت حريته عن طريق « فعل » يختاره . ان المسرحية تثير كثيرا من المشاكل المعبرة عن تساؤلات سارتر مثل شرعية العنف ، وعواقب الفعل ، والغاية والوسيلة ، وعلاقة الفرد بالجماعة ... كل ما بهم سارتر هو توصيل فكره الى الجمهور العريض وقد اختار المسرح وسيلة لذلك ، فكانتبا يعبر عن فكره بثلاثة اساليب : المسرح وهو الاكثر انتشارا لانه يجمع بين التسلية والثقافة وتجسيد الفكرة ، والرواية والمقال او البحث الفلسفي البحث . لذا نجد ان مسرحية « الذباب » معاصرة « لسن الرشد » L'age de raison وهو الجزء الاول من روايته « الطرق الى الحرية » والوجود والعدم وقد ظهرت كلها في عامى ١٩٤٢ - ١٩٤٣ . وقد سار فيلسوف آخر على نفس درب سارتر فنجد ان البير كامى يعبر عن ذات الفكره في ثلاثة اشكال : المسرحية وهى « سوء التفاهم » LE MALENTENDU والرواية وهى الغريب L'ETRANGER والمقال الفلسفي « اسطورة سيزيف » Le mythe de Sysiphe .

(١٣) Jean Thomas, Les Mythes antiques dans le theatre

Francais contemporain , in Lettres d'Humanite, t. III, Paris, 1944, P.156

ان سارتر لا يقدم لنا في مسرحه القائم على « الفكر » اشخاصا بالمعنى المسرحي المعروف ولكن اناسا في مواقف معينة وهم يتصرفون ويتطورون طبقا لتلك المواقف . ففي « الذهاب » يعرض لنا المؤلف موقف انسان امام ميراث وحر في قبوله أو تركه ، وهو فوق كل شيء حر بسبب ثقافته وبعده عن منشأه منذ طفولته المبكرة .

ولكنه امام تعاسة بلده يشعر ان هذا العالم الخاضع الخانع حيث تسود التقاليد والرهبة هو عالم بلا معنى ، لا معقول . لذلك فأورست يثور على جوبيتر ويعلن حريته ويبدأ في البحث عن معنى لوجوده ويجهده في « الفعل » الذي يخلصه من آثار الماضي ويتيح له حياة جديدة قائمة على الحرية والاختيار . ان اورست في الواقع لا يمثل سوى فكرة معينة هي فكرة الحرية - اثناء ولادتها في النفس البشرية وتطورها . لذا فالذهاب تنتمي الى ما يطلق عليه Pièce a thèse أى المسرح القائم على عرض الفكرة ومناقشتها وإثباتها . لذا فان القيمة الدرامية لتلك المسرحية قابلة للمناقشة وهذا ما يعبر عنه رأى الناقد F.Jouan :

« لقد كان ينقص المسرحية الحركة الدرامية .. ، كان ينقصها على الاخص حرارة الحياة ... اكثر الشخصيات فردية هو بلا شك جوبيتر . ان الكثر وأورست يبقون مثل دُمى تحركها يدا المؤلف ، او اذا اردنا - مثل كائنات فلسفية اكثر من كونهم أبطالاً من لحم ودم . ان المسرح يتأثر من لا يقدم له سوى الافكار »^(٤٤)

ان اختيار شخصيات اسطورية كأورست والكتر يرجع الى أن هذه الشخصيات أكبر بكثير من الواقع ؛ فهم ليسوا باناس واقعيين ، ولكن كائنات غير عادية ، او فوق العادة ، تنبج للمؤلف ان يستخدمها كرمز للانسان المجرد وان يناقش من خلالها القضايا الخاصة بالانسان وعلاقته بالوجود والقوى العظمى فيه كالأمة والقدر ، كما يتنبج عرض ومناقشة الافكار المجردة كالحرية والالتزام .

ولكن الاسطورة في ذات الوقت تحد من خطورة الانزلاق في مسرح فلسفي بحت ، فهي نقطة التوازن بين الفكرة والخيال ، بل هي نقطة التقاء الفلسفة بالشاعرية ، لذا فهي الوسيلة لتحقيق المسرح المتكامل .

فاذا كانت الاسطورة « حلم يقظة » بالنسبة للبشرية جمعاء ، فهي ايضا خير وسيلة للتعبير عن الفكرة . ان ذلك يبدو متناقضا مع الاسم الاغريقي للاسطورة فكلمة Mythos مشتقة من الكذب ولكن ألا يتحدث جان كوكتو عن « حقيقه الكذب » ؟ ان الاسطورة مثلها كمثل الوجود حيث تستحيل معرفة الحقيقة المطلقة ، فهي توحى لنا بفكرة ولكنها لا تقدمها على أنها الحقيقة الوحيدة :

F.GOUAN, le RETOUR AU MYTHE GREC dans le theatre (٤٤)

Francais contemporain , in le Bulletin de L' Association

Guillaume Bude , N,1952 ,P.45

« الاسطورة .. هي اسلوب في التفكير يتلاعب بالواقع والحقيقة ، انها تنفى الواقع وتتخطاه ، وتقدم نفسها بلا تمييز كحقيقة ، او كشيء ممكن الحدوث ، أو كأمنية ، انها الرقص مع الحقيقة ... » (٤٥)

ان الاسطورة سؤال يبقى بلا جواب محدد ، اوهى تنبئ اجابات عدة وتبقى دائما منتظرة لمسائل جديد وفلسر يستشف من ورائها معنى من معاني الوجود . ذلك الطابع « الإيماني » كان يلائم سائر في فترة لم تكن فلسفته قد تبلورت فيها بعد ولم يكن قد وجد همزة الوصل بين العمل الفردي والعمل الجماعي ، لذا اتخذ فعله مظهر الشعرة والسحر اللذين يدعيان القدرة على التأثير على الغير « عن بعد » .

« اورست يدعى تحرير اناس ارغوس باستعراض حريته الفردية امامهم : ان فعله يجب ان يفتح اعينهم . ظاهريا لا يبدو مثل ذلك الامل غير معقول ، ولكن يجب ان نتبين انه يقوم على مفهوم العدى في لحظة الوعى :نحن اذا متوغلون في السحر على مستوى علم الاخلاق التقليدى القائم على المثل العليا ، والعوى بالمثل » (٤٦)

الاسطورة بما لها من وجود خارق للطبيعة - اذ أنها تتناول قصصا لا يطاق فوق مستوى البشر والآلهة وقوى عظمى كالقدر- تخلق من حولها اجواء اشبه بالسحر . لذلك اطلق جوبير على نفسه في المشهد الاول من الفصل الاول لقب « ساحر الذباب » واخذ في نطق الكلمات السحرية : ابرا فزاس ، جالا ، جالا ، جالا ، تسي ، تسي ، (٤٧)

ان نقل المواقف الى مستوى فوق الواقع يتبع لسائر فرصة ادخال المشاهد الى عالم الالهة حيث يفهم سرها ، فعندها يقول جوبير جلته السحرية :

« بو زيدون كاريون كاريون لولاي » (٤٨) وتتطلق الصخرة التى كانت تسد باب مغارة الموتى معلنة غضب كبير الالهة . فان المشاهد يعلم ان جوبير لم يفعل ذلك اعلاء لكلمة حق او انصافا لمظلوم بل ليحافظ على النظام القائم ، على الحرف ، والندم والاستسلام انه يعرف وجهة نظر الآلهة ذلك انه قد دخل في سرهم . والمسرحية تشبه في ذلك بعض الطقوس الوثنية حيث كان المتصد يدخل في اسرار إله كاريونوس مثلا . ولكن افشاء اسرار الآلهة عند سائر له هدف عكس ، فهو يريد ان يفهم المشاهد سوء نية الآلهة التي تدبر كل شيء لصالحها .

Pierre Albouy, Mythes et MYTHOLOGIES DANS LA (٤٥)
LITTÉRATURE FRANCAISE, Edit. Armand Colin, 1968,
P.63.

F. jeanson, Sartre, Edit. du Seuil, Coll. Ecrivains de, toujours (٤٦)
1955 p.21

Sartre , Les Mouches, P.93 (٤٧)
(٤٨) نفس المصدر ص ١٢٨

ان اورست يدعى القدرة على « شفاء » اهل ارجوس بواسطة « فعله » ويبقى بذلك تغليصهم من الندم والخوف ، وهكذا يهدف « فعله » الى تطهير شعبه ، وسائرر يتبع في ذلك خطى ارسطو الذى اعلن في كتاب الشعر La Poetique ان تطهير النفس من آثامها Catharsis بالتأثير على المشاهدين هو واحد اهداف المسرح . وبما يذكر ان لفظ المأساة باللغة اليونانية Tragodia مشتق من Tragos وتعني « الجدى » ، اذ أن في كل مسرح يوناني يوجد « مذبح » لتقديم القرابين ، وكان الجدى يقدم نداء ورمزا لتطهير سكان اثينا من كل شرورهم ، وقد امتدت فكرة المسرح « المطهر » للنفس البشرية في القرن السابع عشر وقد صارت قانونا من قوانين المأساة الكلاسيكية واتخذت في كتاب « فن الشعر » لبوالو Boileau مظهرا آخر : فهي تقوم على اشارة الخوف TERREUR لتوليد الشفقة في قلب المشاهد . وفي القرن العشرين قامت موجة فنية تدعو الى تطهير نفوس المشاهدين بواسطة « مسرح القسوة » ، ورائد تلك المدرسة هو انتونان ارتو Antonin Artaud ، وامتد تأثيرها على مدارس فنية اخرى فنجد ان هناك مسرحا يسمى « الحدث » Happening يقوم فقط على فكرة التطهير والمشاركة الوجدانية بين الممثل والمشاهد .

لذا فان فعل اورست لا يهدف فقط الى تطهير أهالي ارجوس وايقاطهم من غفلتهم ، بل انها دعوة الى الشعب الفرنسي الواقع تحت تأثير الاحتلال النازي . فالمسرحية قدمت لأول مرة عام ١٩٤٣ وسائرر يستخدم وسائل عدة لاجياد القلق والرعب في قلب المشاهد وتخليصه من خوفه وخضوعه ، مثل المؤثرات الصوتية في المنظر الاول من الفصل الثاني حيث تدق الطبول الافريقية ^(٤٩) Tam Tam خالقة جوا اشبه بحفلات « الزار » ، فيشعر المشاهد بأنه مأخوذ مع الايقاع للمشاركة فيما يدور على المسرح ، ويضاف الى الطبول صوت التوسلات الصادر من جموع شعب ارجوس رجالا ونساء وأطفالا للتعبير عن خوفهم العظيم ، يزيد على ذلك مشهد المرأة التي تؤخذ عنوة الى التعذيب بأمر من جوبيتر، هذا الرعب ينتقل الى المشاهد بواسطة ما سمي في عالم المسرح « بالمعوى او المشاركة الوجدانية » Communication ed Conscience ، ويبلغ الرعب الذروة في الفصل الثالث ^(٥٠) عندما تظهر جنيات الانتقام الالهى Les Erinnyes على المسرح وهذا لم يكن يحدث عند الاغريق او في عصر المأساة الكلاسيكية في فرنسا ، فان وجود تلك الجنيات كان معنويا ولا يراها سوى مرتكب الجريمة نفسه ، اما في مسرحية الذهاب للمشاهد يرى كل شيء فلم تعد هناك مقدسات ، والجنيات تبدو بمظهرها البشع ، فهي آلهة لها شكل الكلاب تكلم رأسها التماثيل الحية ، وتحيط بالبطلين من كل جانب فيشعران بالمحصار ، وهذا المحصار له ايضا مدلوله في دنيا المسرح ، ان البطلين محاصران وبالمشاركة الوجدانية يشعر المشاهد بأنه محاصر ايضا وانه يبحث عن مخرج وعن متنفس لذاته ويزيد من هلع المتفرج تلك الكلمات المخيفة التي تنطق بها

(٤٩) نفس المصدر ص ١٢٦

(٥٠) نفس المصدر ص ١٦٥ الى ١٨٨ .

الجننيات وتتم عن سادبة Sadisme فظيعة ثم يأتي نشيد الجننيات يصحبه نوع من الطنين يعود بنا الى ذكرى
الذباب وانتقام جوبيتر :

« الجننيات (كورس) - بزز، بزز، بزز، بزز، بزز ، سنقع على صدرك العفن كالذباب على قرص
الحلوى ، وكالتحل ، سوف تمتص القيح والصدید من قلبك وتصنع منها عسلا ، سوف ترى ، عسلا جميلا
اخضر .

ای حب یفعمنا ، کالیفض ؟

بزز ، بزز ، بزز

سنكون عيون البيوت الثابتة

وزيجرة الكلب الشرس الذي يكثر عن انيابه لدى مرور

والطنين الذي يحوم في السماء ، فوق رأسك واصوات الغايه ،

والصغير ، والطقطقة ، والتعب والتعبق

سكون الليل ،

الليل الحالك في روحك

بزز ، بزز ، بزز ، بزز ، بزز

هاياه ؟ ! هاياه ، ! هاياه !

بزز ، بزز ، بزز

نحن الذبابات ، ماصات القيح

سوف نشاطرک کل شيء

سنأخذ طعامنا من فمك ، وشعاع النور من اعماق عينيك ،

وسنكون حاشيتك حتى القبر ،

ولن نترك مكاننا الا للدود

بزز ، بزز ، بزز ، بزز ، بزز » (٥١)

كل ذلك الرعب ينقل الى المشاهد ، وكما رأينا في نشيد الجنيات ، فان سارتر يبني التأثير على المتفرج بواسطة البصر والسمع ، فالمنظر بشع والأزيز تقشعر منه الابدان ، حتى كلمات الجنبية تذكرنا باصوات الطبيعة المخيفة كالصغير ، والطفلة في سكون ليل الغابة والتعب والتعبق .

كل ذلك يهدف الى تخليص الفرنسيين انفسهم من عقدة الشعور بالذنب او الحظيطة بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية واحتلال النازي لارضيتهم ..

وكانت حكومة فيشي برئاسة بيتان Pétain تدعو الفرنسيين الى إقرار الامر الواقع ومساءلة النفس والاعتراف بالذنب .

يذكر سارتر تلك الايام بجرارة بالغة في كتابة (مواقف) Situation مما يتيح لنا معرفة مدى تأثير تلك الاحداث عليه ورد الفعل الذي خلفته في نفسه .

« في نفس اللحظة التي كنا فيها على وشك ان ندع انفسنا نهيا لتأنيب الضمير كان قوم فيشي - وهم يدفعوننا الى ذلك - يمنعوننا ايضاً . ان الاحتلال لم يكن فقط ذلك الوجود الدائم المنتصرين في مدتنا . لقد كان ايضاً على كل الجدران ، في الصحف في تلك الصورة المقرزة التي كانوا يريدون اعطائها عن انفسنا .

وكان المتعاونون مع العدو يدعون اولاً الى حسن نيتنا قائلين « نحن مهزومون فلنظهر روحنا الرياضية » ثم يضيفون بعد ذلك مباشرة : « فلنصترف ان الفرنسي سطحي ، قليل التركيز ، متباه ، أناني لا يفهم شيئاً من امور الدول الاجنبية ، وان الحرب قد فاجأت وطننا وهو في حالة تحلل تام . كانت هناك ملصقات فكاهية تتدثر بأخر آمال لنا ... امام كل ذلك الانحطاط والخذع الوضعية كنا نياكس وكنا نشعر برغبتنا في الفخر بانفسنا » (٥٦)

ان الكثر وهي ترفض لعبة الندم والاعترافات العلنية تمثل المقاومة الفرنسية ضد العدو النازي . وبما يجدر بالذكر ان سارتر ليس اول من لجأ الى الاسطورة للتعبير عن احداث بلده ، فالكاكس بول كلوديل يسخر من الحرب عشية الحرب العالمية الاولى في مسرحية (بروتيه) Protee اما جان جيرود فهو يعبر عن قلق أمته وقد توترت العلاقات في اوروبا قبيل الحرب العالمية الثانية ، ففي الفصل الثاني من رواية « حرب طروادة لن تقع » la guerre de troie n'aura pas lieu يتنبأ بقرب القتال العالمي ويعرض مباحثات طرفي العداة . ان مسرحية جيرود تظهر قلق وحيرة الاوروبيين في وقت بدت فيه المفاوضات السلمية عقيمة . وفي مسرحية الكثر Electre يجسد جيرود من النزعة العدوانية والتطرف اللتين ستؤديان حتماً الى القتال العالمي . اما جان أنوى فهو يعرض

علينا في روايته أنتيجون Antigone طرازاً للفنيات الثائرات ، المقاومات للظلم ، تلك الفتاة التي تعرف كيف تقول « لا » لكل قوى باطشة ولكل سعادة مهينة وسهلة المنال .



ان سارتر لم يكن إذن أول من لجأ إلى الاسطورة ليعبر عن الحاضر السياسي وقلقه وقد اتخذ بطله اورست رمزاً للمقاتل الشجاع ضد ظلم وطغيان النازي قبيل منتصف القرن العشرين . وهذا يدعونا إلى التحدث عن نوع من المغالطة التاريخية Anachronisme في مسرحية سارتر ، إذ انه يحافظ على المظهر الخارجي القديم للأشخاص والديكور ولكن ميول وأفكار أبطاله تمثل القرن العشرين باتجاهاته الفكرية والعلمية المعاصرة ذلك ان مسرحية الذباب تحتوي على بعض التلميحات إلى علم حديث هو التحليل النفسي فإضافة مفهوم نفسياني إلى الشخصية الاسطورية يتيح للمؤلف إعطاء صورة متكاملة للإنسان :

« ان الاسطورة - كما يقول باشلار - تغطي كل مساحة النفس التي اكتشفها علم النفس الحديث ، والشخصية الاسطورية تتكون من فوق شعور وذات وعقل باطن . ان لها محور تساميهها وخط سقوطها الرأسى في اعماق اللاشعور » (٥٣)

الاسطورة هي خط حياة وقدر مرسوم . انها تمثل تطور النفس وكل الصراعات الداخلية ، لذا فهي تصلح كموضوع درامى والمؤلف حينئذ لا يملك سوى ان ينهل من مادة خصبة أعدها له الاولون .

لذلك يستطرد باشلار في شرحه قائلاً :

« الاسطورة دراما انسانية مركزة ، لذا فمن السهل ان تصلح رمزاً لموقف درامى معاصر » (٥٤)



ان القرن العشرين وفلسفة الوجودية تعلن سيادة الانسان وسيطرته على مصيره ، فيصبح مفهوم « القدر » انسانياناً الى ابعد حد ، بمعنى انه صار جزءاً من الانسان ذاته نابعا من نفسه ، ولكنه مع ذلك يبعد من حرية الانسان . فالقدر قوة متدفقة من اللاشعور ولا يمكن الصمود امامها . وتلك القوة مكونة من دوافع غريزية وميول ورغبات mobiles تتحدى الإرادة البشرية ، علماً بأن الإرادة تعتمد على العقل فقط في قراراتها Motifs والإنسان اذا لم تحرکه الإرادة ، اصبح عبداً لشهوته وفقد بذلك حرته . لان الحرية والإرادة مرادفان في كثير من الفلسفات .

Gaston Bachelard, Preface du livre de Paul Diel (٥٣)
le Symbolisme de la Mythologie grecque, Petite Bibliothèque.
Payot, Paris, 1966, P. q

(٥٤) نفس المصدر ص ٦ .

والقدرة في مفهومه الحديث يمثل وجودا عدائيا للانسان . ذلك ان هيجل يعرف بانه « شعور الانسان بذاته كعدو » . وقد تناول فرويد تلك الفكرة فاكتشف القوى اللاشعورية المسيطرة والمسيطرة للانسان واطلق عليها اسما مستمدة من الاساطير . فأطلق اسم « الكتر »^(٥٥) على العقدة الكامنة في حب الفتاة لابيهما وقتها لامها . وعلى الرغم من ان سارتر لا يقدم مسرعا يقوم على دراسته الشخصيات Caracteres فانه يلجأ في الذباب الى تلك العقدة مشيرا الى ان الكتر ليست شخصية سوية :

« الكتر : كيف تجرؤ ان تتكلم عن آجائمنون ؟ هل تعرف انه كان لا ياتي الا في الليل ويسر كلاما في اذني ؟ هل تعرف كلمات الحب والحسرة التي يهيمس بها صوته المنكر ؟ ... »^(٥٦)

تلك الحقيقة النفسانية تبرر سلوك بطله الذباب . فالكتر ترغب في التآمر وتطلب موت امها وعشيقها لا حبا في العدل او الحرية ، بل ارضاء لحاجة املاها عليها اضطرابها النفسي ولهذا السبب لم تحتل عواقب فعلة اورست . سارتر يشير ايضا الى دور الوراثة في تكوين الشخصية . ففي بعض الاحيان يبدو لنا انه يذكر فكرة اللعنة التي تصيب اسرة اخطأ احد افرادها خطأ فاحشا فتوارث ابنائها اللعنة ، ذلك عندما يسب ايجيست الكتر قائلا :

« انظروا اليها ، في ثوب البغي ، حفيذة أترية ، أترية الذي ذبح ابناء اخيه بنذالة . ماذا تكونين ، ان لم تكوني ثمرة ذلك العنصر اللعين ؟

لقد اشفقت عليك ، فاحتملتك في قصري ، ولكنني ، اليوم اكتشفت خطأي ، اذ ان دم الاتريدين القديم اللتين ، مازال يجري في عروقك ... »^(٥٧)

ولكن الكتر تترث^(٥٨) من امها اكثر من ابوها ، لقد ورثت عنف الرغبات ذلك هو وجه الشبه الذي لاحظته اورست بين امه وأختها :

« اورست : ماذا اقول ؟ ان وجهها كحقل خربته الصاعقة والبرد ، ولكن على وجهك مثل نذير العاصفة ، في يوم من الايام ستحرقه الرغبة حتى العظم »^(٥٩)

(٥٥) Sigmund Freud, AN outline of psychoanalysis edit.

W.W. NORTON Company, Inc., New York, 1949, P.99

Sartre, LES MOUCHES, P. 125 (٥٦)

(٥٧) نفس المصدر ص ١٢٤ - ١٢٢ .

(٥٨) الطبيب للمجرى Lipot Szomdi اكتشف في عام ١٩٤٧ « لا شعور لاسرى »

مكون من الصفات التي بقيت في حالة كائنه Genes Recessifs (الجينات الكامنة) وهي على الرغم من ذلك الكون تعد اختياراتا وحرمانا .

(٥٩) Sartre, Les MOUCHES, p. 107

وبعد ان اتم اورست فعله نظر الى أخته فرأى وجهها وقد اصبح « خربا » ، وراعه التحول السريع في الشبه بين الكثر وامها . هكذا يستمد سارتر من علم النفس الحديث سمات بعض شخصياته . مبرهنا على ان الاسطورة صالحة لكل العصور ولجميع الحضارات .

ان عرض القضايا المعاصرة والاعتداد على العلوم الحديثة ليسا هما « المغالطة التاريخية » الوحيدة في المسرحية ، بل هناك ايضا اللغة . فالمرى يتحدث عن « الفنادق » الموجودة في عواصم اليونان و « إيطاليا » وغيرها من البلدان ، كما يعيب على اهل ارغوس خوفهم من الاغراب كأنهم لم يشاهدوا « سياحا » قط . ولكن تلك المغالطات التاريخية تختلف بوصف واقى لبلدة يونانية قديمة ولثياب وعادات نساء الشرق . ان ما يسترعى الانتباه هي الكلمات الغليظة ، السوقية التى تنطق بها بعض الشخصيات . ان مثل تلك الالفاظ ليست بغريبة على المسرح الاغريقي .

ففي حاملات القرايين LES choephores لاسخيلوس تقول المرسعة :

« ... الطفل الذى لم يخرج من لفائفه بعد ، لا يعرف كيف يعبر متى كان جوعانا او ظمأنا او راغبا في التبول ، ويظنه الصغيرة تريخ نفسها تلقائيا ... »^(٦٠)

ولكن تلك اللغة الدارجة تنطق بها شخصيات سوقية وهى تتم عن حرص الشاعر الاغريقي على نوع من الواقعية في مسرحياته . بينما سارتر يضع مثل تلك اللغة على شفاء شخصيات من النبلاء والمتقنين كالمرى الذى ينعت نساء ارغوس بقوله :

« يا للعجائر التنتنة ! أحسين اننى أخذت بسحرهن ؟ »^(٦١)

جوبيتر نفسه يسب امرأة عجوز : « حسنا ، فاذهبى ، ابتها القذرة العجوز ، واجتهدى ان تتفقى بالندم »^(٦٢)
أن تلك اللغة السوقية وذلك الاسلوب الماجن يعبران عن فقد الاسطورة لمعناها الدينى . ففى وقت اصبح فيه المسرح لادنيايى يتم المؤلف باعطاء الاسطورة طابعا حديثا بالقضاء على قدسيته القديمة .

ESCHYLES, LES CHOEPHORES, theatre complet, Garnier (٦٠)
Flammarion, 1964, P. 196 .

Sartre, LES MOUCHES, P. 82 (٦١)

(٦٢) نفس المصدر - ٨٩

وبما يذكر ان المغالطة التاريخية وذلك التلاعب بالاسطورة يخلقان ما يطلق عليه Berthold Brecht لفظ التباعد Distanciation وهو أسلوب يعتمد اخراج البطل الاسطوري من ثوبه الواقعي لاعطائه معان وتفسيرات جديدة . هكذا يصبح اورست رمزا للانسان في كل زمان ومكان ، انسان يسعى الى تحقيق ذاته واثبات وجوده في الكون .

وهكذا اعلن سارتر بمسرحية « الذهاب » نقطة تحول جذرى في عالم التراجيديا فلم تعد المأساة قائمة على علاقة الانسان بالالهة والقدر بل اصبحت تعبر عن فكرة وجود وحرية البشر .

بعض المراجع :المسرحية موضوع الدراسة :

—Jean-Paul Sartre, **LES MOUCHES**' GALLIMARD, 1943.

كتب أخرى لجان بول سارتر :

- L,IMAGINAIRE' PSYCHOLOGIE PHENOMENOLOGIQUE' coll. "Bibliothèque des Idées", Gallimard, 1940.
- L,ETRE ET LE NEANT' ESSAI ONTOLOGIQUE PHENO-MENOLOGIQUE' Coll. "Bibliothèque des Idées" Gallimard, 1943.
- L,AGE DE RAISON (Les Chemins de la Liberté' t I), GALLIMARD, 1943.
- L,EXISTENTIALISME EST UN HUMANISME' Coll. „Pensées", Nagel, 1946.
- SITUATION III' Gallimard, 1948.
- SAINT GENET' COMEDIEN ET MARTYA' Gallimard, 1952.
- CRITIQUE DE LA RAISON DIALECTIQUE' Gallimard, 1960.

مقالات كتبها سارتر :

- "MISE AU POINT", in **ACTION**' 29 décembre 1944.
- "MYTHE ET REALITE DU THEATRE", in **LE POINT** No 7, 1977, Bruxelles.
- "JEAN-PAUL SARTRE REPOND", Entretien réalisé par Bernard Pingaud, in **L,ARC**' No. 30, numéro spécial sur Sartre.

دراسات عن جان بول سارتر :

- Jeanson (Francis) : **SARTRE**' Ed. du Seuil, Coll. Ecrivains de toujours, 1955.
- Audry (Colette) : **SARTRE**' Ed. Seghers, coll. Philosophes de tous les temps, Paris, 1966.
- Verstraten (Pierre) : **VIOLENCE ET ETHIQUE**' N.R.F., Gallimard, 1972.
- IDT (Geneviève) : **Le MUR DE JEAN-PAUL SARTRE**' Edit. Larousse Université, Coll. Thèmes et textes, Paris, 1972.

مقالات عن جان بول سارتر :

- Merleau-Ponty (Maurice, „**LES MOUCHES PAR JEAN-PAUL SARTRE**", in **CONFLUENCES XXV**, septembre-octobre, 1943.

- GUYON (BERNARD) : "SARTRE ET LE MYTHE D'ORESTE", in **BULLETIN DE L'ASSOCIATION GUILLAUME BUDE** avril 1964.

كتب أخرى :

- Albouy (Pierre) : **MYTHES ET MYTHOLOGIES DANS LA LITTÉRATURE FRANÇAISE** EDIT. Armand Colin, Coll. U 29 Paris, 1968.
- Barrucand (Dominique) : **LA CATHARSIS DANS LE THEATRE** Edit. E.P.I., 1970.
- Brunel (Pierre) : **LE MYTHE D'ELECTRE** Edit Armand Colin, Coll. U 2 Paris, 1971.
- Diel (Paul) : **LE SYMBOLISME DE LA MYTHOLOGIE GRECQUE** Préface de Gaston Bachelard, Edit. PETITE Bibliothèque Payot, Paris, 1966.
- Eschyle, **LES CHOEPHORES** Théâtre complet, Edit Garnier Flammarion, 1964.
- Euripide, **ELECTRE** Théâtre Complet, Edit. GARNIER Flammarion, 1965.
- Freud (Sigmund) : **AN OUTLINE OF PSYCHOANALYSIS** Edit W.W. Norton & Company, New York, 1949.
- Politzer (Georges) : **LA PHILOSOPHIE ET LES MYTHES** Edit. Sociales, Paris, 1969.
- YOURCENAR (MARGUERITE) : **ELECTRE OU LA CHUTE DES MASQUES** Plon, Paris, 1954.

مقالات عن المسرح والاسطورة :

- Gide (André) : "CONSIDÉRATIONS SUR LA MYTHOLOGIE GRECQUE", in **LA NOUVELLE REVUE FRANÇAISE** 1 septembre, 1919.
- BROCHARD (Pierre) : "LE MYTHE OU LA TRAGÉDIE", in **LES CHAIERS DU SUD** No. 242 Février, 1942.
- Thomes (Jean) : "LES MYTHES ANTIQUES DANS LE THEATRE FRANÇAIS CONTEMPORAIN", in **LETTRES D'HUMANITE** t.III, Association Guillaume Budé, Société D'édition „Les Belles Lettres", Paris, 1944.
- Lodovicy (Edmond) : "LE MYTHE GREC DANS LE THEATRE FRANÇAIS CONTEMPORAIN", in **LA REVUE DES LANGUES VIVANTES** No. 50, Bruxelles.
- Jouha (F.) : **LE RETOUR AU MYTHE GREC DANS LE THEATRE FRANÇAIS CONTEMPORAIN**", in **BULLETIN DE L'ASSOCIATION GUILLAUME BUDE** troisième série, No. 2, Juin 1962.
- Flacelière (Robert) : "LA GRECE ANTIQUE ET LE POUVOIR DE L'HOMME", in **LES ANNALES** No. 159, Janvier 1964.

—Prévost (Claude) : "MARX ET LE MYTHE", in **LA MOUVELLE CRITIQUE** avril 1965.

—Trousson (Raymond) : "SERVITUDE DU CREATEUREN FACE DU MYTHE," in **CAHIERS DE L'ASSOCIATION INTERNATIONALES DES ETUDES FRANÇAISES**

No. 20, mai 1968.

شخصيات وآراء

رولان بارت R. Barthes رائد النقد
البنوي ، هو واحد من ألمع النقاد الجدد في فرنسا .
ولّد في بايون عام ١٩١٥ ، وظل بها حتى بلغ العاشرة
من عمره . ثم انتقل الى باريس ، حيث أتم دراسته
الثانوية والجامعية . الا أنه اضطر الى قطعها عام
١٩٣٣ ، عندما أصيب بالسل . أسهم بارت في انشاء
« جماعة المسرح القديم » بالسوربون ، وقام
بتدريس الأدب في نهاية عام ١٩٤١ . وأصيب بنكسة
اعقبتها فترة طويلة من العلاج انتهت عام ١٩٤٦ .
وعمل مدرسا في بوخارست فيما بين ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ،
وفي الاسكندرية عام ١٩٥٠ . وجدير بالذكر أنه كان
أحد الذين ساهموا في انشاء قسم الادب الفرنسي
بكلية آداب جامعة الاسكندرية . كما انتدب للعمل
بإدارة العلاقات الثقافية فيما بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢ .
وحصل على منحة من المركز القومي للبحوث
C.N.R.S. ، لكي يقوم بأبحاث في علم المعاجم ،
والعلامات ، والرموز الاجتماعية . وفي عام ١٩٥٨ ،
قام برحلة الى الولايات المتحدة استغرقت عدة
شهور . ومن أهم الرحلات التي قام بها أيضا رحلة
الى الصين تركت فيه أعظم الأثر . وتوجت حياة
بارت الأدبية بدخوله « الكوليج دي فرانس » ، وهي
جامعة حرة يرجع تاريخها الى القرن السادس عشر .
وفي مارس ١٩٨٠ ، صدمته سيارة وهو سائر على
قدميه في أحد شوارع الحي اللاتيني ، وتوفي بعد
الحادث بثلاثة أيام عن ثلاثة وستين عاما .

رولان بارت رائد النقد الجريء في فرنسا

سامية أسعد

يعد رولان بارت من أبرز نقاد عصره وأكثرهم
احساسا . وتدل مؤلفاته على فهم عميق لقضايا النقد

شكل : تنوع المؤلفات وتشمعها ، مما يجعل الحديث عنها ككل مهاسك متجانس ضربا من المستحيل ، ولا يتعارض هذا مع استمرارية الكاتب في البحث والتحليل . فضلا عن أن الدور الرائد الذي لعبه بارت مرتبط بالتجديد والابتكار ، سواء في الفكر أم في اللفظ . لذا ، يتعذر نقد بارت « الآن » ، لأن القارئ لا يعرفه معرفة جيدة فهاستثناء « درجة الصفر في الكتابة » Le Degre Zero de L'écriture لم يترجم شيء له حتى الآن ، في حدود معلوماتنا على الأقل . ولعل إحدى العقبات الأساسية التي تعترض سبيل الترجمة هنا هو خلق بارت المستمر لمصطلحات والفاظ جديدة . لذا ، كان السبيل الوحيد الذي يمكن أن نسلكه هو التعريف بكتابات هذا الناقد الرائد ، حسب تسلسلها الزمني ، لبيان التطور الذي تتميز به .

وجدير بالملاحظة أن قراءة نصوص بارت كثيرا ما تكون صعبة نتيجة لوجود كثير من الالفاظ غير المعروفة أو غير المتوقعة فيها . وهذه ظاهرة خاصة ببارت ، ونتيجة عن نزعتين : الابداع وتحريف المعنى . وفي كلتا الحالتين ، نلمس بوضوح حب الابداع والمخلق الذي قال عنه بارت أنه ضروري : « التصور عنصر من العناصر المكونة للاسطورة . اذا أردت تفسير أسطورة ما ، اضطرت الى تسمية بعض المفاهيم التي أجد في القاموس بعضها منها : الطبيعة ، الاحسان ، الصحة ، الانسانية ، الخ ... لكن هذه المفاهيم ليست تاريخية ، من حيث المبدأ ، ما دام القاموس هو الذي يقدمها لي . وما احتاج اليه ، في

والأدب الذي لعب دورا هاما في تطويرهما . ولربما كان الوحيد بين النقاد المعاصرين الذي اعترف بمحاسن النقد القديم والجديد وعيوبهما على السواء . وكثيرا ما تميزت آراؤه بالصحة والعمق ، والسمة الشخصية المبتكرة .

إن كلمة « قاريء » تعد أفضل ما يلخص الوظائف التي قام بها بارت في اطار الطليعة الفكرية والأدبية منذ ما يقرب من ثلاثين عاما . ونحن نستخدمها هنا للدلالة على الشخص الذي يقرأ بصوت عال لحسابه الخاص ، والشخص الذي يقرأ بصوت عال أمام مستمع واحد أو عدة مستمعين . ونستخدمها أيضا بمعناها التكنيكي الحديث ، للدلالة على الأدوات التي تستخدم في نقل الأصوات ، كالاسطوانات وشريط التسجيل . وأثناء عملية النقل هذه ، ينتقل القارئ من مجموعة الى مجموعة أخرى من العلامات . فالقراءة تعيد تشكيل المادة المراد توصيلها . ويعني هذا أن القضية الأساسية ، بالنسبة لبارت ، كانت ، وظلت دائما قضية المعنى ، ومن خلال بحثه الدائب في هذا المجال ، يتضح أمران : أولا أن من يقرأ بارت يشعر دائما بوجود ذلك الكاتب ، وجود يلمسه من خلال صور البحث المتتالية . والثاني أنه يجد ، في كتابات بارت ، انعكاسا للمناقشات النظرية التي تميز بها العصر : النقد الجديد ، الرواية الجديدة ، البنيوية ، علم العلامات semiologie الخ ...

ولعل القراءة أفضل منهج يمكن أن يتبعه الناقد في حديثه عن بارت ، لاعتبارات عدة ، أهمها بلا

أما الأسلوب ، فكلية تدل على لغة تفوق في أساطير المؤلف الشخصية المخفية .^(٢) الأسلوب إذن ملك للكاتب ، لكنه لا ينتج عن تفكير في الأدب أو اختيار معين ، بل « يتصاعد من أعماق الكاتب الأسطورية ، وينتشر ويمتد » .^(٣) وإذا نظرنا إلى أصل الأسلوب ، وجدناه يحتل مكانا خارجا عن نطاق الفن ، أي عن العقد الذي يربط الكاتب بالمجتمع . نتيجة لذلك ، يوجد من الكتاب من يفضل « أمان الفن على عزلة الأسلوب » . ويسوق بارت اندريه جيد كمثال نموذجي للكاتب الذي يفقر إلى الأسلوب ولا يسعى إليه . بينما الشعر الحديث - على سبيل المثال ، هيجو ، ومبوء Rimbaud ، ورونيه شار R.Char - متشعب بالأساليب .

بين اللغة والأسلوب ، يوجد مكان لواقع شكلي ، ألا وهو الكتابة . وأيا كان الشكل الأدبي الذي يختاره ، فإن الكاتب يستخدم لهجة يتفرد ويتميز بها . اللغة والأسلوب معطيات سابقة . أما الهوية الشكلية للكاتب ، فلا توجد إلا عندما تصبح الكتابة علامة Signe كاملة ، واختيارا لسلوك إنساني « يربط الشكل الطبيعي الفريد لكلام الكاتب بتاريخ الآخرين الواسع » .^(٤) والكتابة ، كما أسلفنا ، فعل يعبر عن التضامن التاريخي ، لكنها تقيم أيضا علاقة بين الإبداع الأدبي والمجتمع .

أغلب الأحيان ، هو بعض المفاهيم الزمنية ، المرتبطة بظروف محددة : لا مناص إذن من الابتكار .^(٥)



صدر أول كتاب لبارت عام ١٩٥٣ ، وكان عنوانه « درجة الصفر في الكتابة » . في هذا الكتاب ، يهتم المؤلف بالأدب والكتابة ، لا كمنتج ، وإنما كناقذ ومستهلك . ويرى أن عملية الكتابة والانتاج الأدبي توجد عند النقطة التي يلتقي عندها محوران : محور اللغة Langue ومحور الأسلوب Style . ويعرف اللغة بما يمكن أن نسميه اليوم قانونا أو قاعدة Norme . أما الأسلوب ، فيشير إلى الكاتب ، بل إلى « جسده وماضيه » . وندكرنا هذا بقوله بوفون Buffon الشهيرة « الأسلوب هو الانسان » . بين اللغة والأسلوب ، هاتين القوتين اللتين لا تبصران ، يندس فن الكتابة . ومن ثم ، تصبح الكتابة مكانا للاختيار ، أو لحظة يمارس فيها الكاتب حريته ، أي فعلا يعبر عن « التضامن التاريخي » .

واللغة كما يقول بارت ، « أشبه بطبيعة تمر كلية عبر كلام الكاتب ، ولا تعطيه شكلا معينا » .^(٦) وهي ملك للبشر ، لا للكاتب ، أي أنها مادة اجتماعية ، من حيث البداء .

(١) « أساطير » Mythologies ، ص ٢١٨ .

(٢) « درجة الصفر في الكتابة » ، ص ١٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٧ .

لكن ، ما هي الكتابة ؟ مجرد طرح هذا السؤال يذكرنا بنص هام سبق أن سناه ج . ب . سارتر J.P. Sartre « ما هو الأدب ؟ » يرى سارتر ان الكاتب معنى بالكتابة دائما ، مهما فعل ، ومهما كانت عزله . وما يكتبه الانسان ملزم له . هذا ما يقوله أبطال سارتر . ويؤيدهم بارت بقوله أن الكتابة لا يمكن أن تكون ساذجة . ولطالما تحدث بارت عن الالتزام السياسي والتاريخي للغة الأدبية . يلتقي الكاتبان إذن في الهدف ، وان اختلفا في السبل المؤدية اليه . يقول سارتر ان الكاتب معني بالأمر لأنه يستخدم اللغة ، في حين يقول بارت أن اختيار الكاتب يظهر في الطريقة التي يستخدم بها اللغة ، أي في كتابته . وسوف نرى أن بارت أخذ عن سارتر مفهومه للالتزام ، وجعله أيضا على علاقة وثيقة بالكتابة .

يقول بارت أن الكتابة ، أساسا ، « اختيار للمساحة الاجتماعية التي يقرر الكاتب أن يضع فيها طبيعة كلامه *Langage* » .^(٦) ولا يعني هذا أن الكاتب يختار المجموعة الاجتماعية التي يكتب لها . فالكتابة واقع يتضمن شيئا من اللبس . فهي تنشأ عن مواجهة الكاتب لمجتمع . من ناحية ، وتعيد الكاتب الى الأدوات التي كانت مصدرا لا بداعه من ناحية أخرى . واختيار الكاتب لنوع معين من الكتابة ، وتحملة مسؤوليته دليل على حريته . لكن حدود هذه الحرية تختلف باختلاف اللحظات

التاريخية . وإذا نظرنا الى تاريخ الكتابة ، وجدنا أنه يتسم بالازدواجية : « ففي اللحظة التي يفرض فيها التاريخ العام اشكالية جديدة للغة الادبية ، تظل الكتابة مليئة بذكرى استخداماتها السابقة ، لأن الكلام لا يمكن أن يكون بريئا أبدا . ان للكلمات ذاكرة ثانية تمتد الى قلب المعاني الجديدة . والكتابة ، على وجد التحديد ، حل وسط بين الحرية والذكرى . »^(٧) ويسوق بارت مثال ميرييم Merimee وفنون Fenelon ، اللذين عاشا في زمنين مختلفين . ويرى أن كتابتهما واحدة ، أي أنها يرجعان الى مفهوم واحد للشكل والمضمون ، ويقبلان تقاليدا وأدوات فنية واحدة . بيتا يستخدم كل من كامو Camus وكلوديل Claudel ، اللذين عاشا في زمن واحد ، كتابتين مختلفتين كل الاختلاف وان كانتا قابلتين للمقارنة ، لأنها تابعتان من مفهوم الكاتب لاستخدام الشكل استخداما اجتماعيا .

وأنواع الكتابة التي يتحدث عنها بارت في « درجة الصفر في الكتابة » ترتبط ارتباطا وثيقا بالتاريخ وتطوره . للكتابة تاريخ ، الا وهو تاريخ علاقتها بالتاريخ . لكل نظام كتابته ، وتاريخ هذه الكتابات لم يكتب بعد . ولا يهدف بارت الى كتابته ، بل الى ابراز فكرة الالتزام كما طرحها سارتر . فالكتابة شكل ملتزم من أشكال الكلمة . وهي تشمل ، في نفس الوقت ، على « ظاهر السلطة وباطنها ، أي ما هي عليه وما تريد أن تكونه في نظر الآخرين . »^(٨)

(٦) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٧) المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٨) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

ظهرت فيها الرؤسالية . كانت هذه الكتابة ، في البداية ، كتابة القربين الى السلطة . ثم تطورت وأصبحت كتابة الذين يملكون جزءا من السلطة ، هي السلطة الثقافية . واستولى هؤلاء على السلطة السياسية منذ عام ١٧٨٩

عندما قامت الثورة الفرنسية ، لم يتغير شيء في الكتابة البورجوازية ، لأن الايديولوجية البورجوازية استمرت حتى عام ١٨٤٨ . لم تهتز هذه الايديولوجيا عندما مرت بها الثورة . فالثورة أعطت البورجوازية السلطة السياسية والاجتماعية ، ولم تعطها السلطة الثقافية التي كانت قد استولت عليها من مدة طويلة . « (١٠) ولما قامت الثورة الرومانسية احتفظت بالكتابة البورجوازية . ولم يشذ عن القاعدة سوى ف . هيجو الذي استطاع أن يمارس نوعا من الضغط على الكتابة الكلاسيكية - أي البورجوازية - ويقرّبها من مرحلة الانفجار .

وفي عام ١٨٥٠ ، التقت ثلاث وقائع تاريخية كبرى : التطور الذي طرأ على توزيع السكان في أوروبا ، ونشأة الرؤسالية الحديثة ، وانقسام المجتمع الفرنسي الى ثلاث طبقات متعادلة . هذه الوقائع الثلاث وضعت البورجوازية في موقف تاريخي جديد . لم تعد الايديولوجيا البورجوازية تنقسم بالعالمية ، وأصبحت واحدة من الايديولوجيات الأخرى الممكنة . وتحول وعي الكاتب الى وعي شقي ، فأصبح الكاتب نفسه فريسة للغموض ، ما دام وعيه

تابع بارت تطور ارتباط التاريخ بالكتابة من القرن السابع عشر الكلاسيكي الى القرن العشرين . وقال أن الفن الكلاسيكي كان فنا شفافا يلتقي فيه فكر عالمي وأداة زخرفية خالية من الأبعاد والمسئولية . وكان هذا الفن مغلقا من الناحية الاجتماعية . كان مادة متداولة بين أناس تجمعهم طبقة اجتماعية واحدة ، ومنتج ينقل شفاهة ، واستهلاك ينظم وفقا للمتطلبات الاجتماعية آنذاك . وكان هذا الفن كلاما شفويا ، أساسا ، بالرغم من قوانينه الصارمة » . (٩)

والكتابة ، في نظر بارت ، دليل على الانتهاء الى طبقة معينة . وإذا رجعنا الى العصر الكلاسيكي ، وجدنا أن كتابه ينتمون الى الطبقة البورجوازية التي تميزت آنذاك بوحدة أيديولوجية أدت الى ظهور كتابة واحدة . كانت هذه الكتابة إذن « طبقية » ، لأنها كانت ، منذ البداية ، لغة طبقة تمثل الاقلية صاحبة الامتيازات . كان الكاتب آنذاك وعيا لا يعترف التمزق ، وشاهدا عالميا بادر الى اختيار الالتزام بشكل خاص به . كان الوحيد الذي يبدي رأيه في شقاء الآخرين ، ولم يكن موزعا بين وضعه الاجتماعي ومهمته الثقافية ، لكن ، ما لبثت الكتابة الكلاسيكية أن انفجرت ، وأصبح الأدب في مجموعه - منذ تلك الفترة حتى اليوم - اشكالية خاصة بالكلام . ونلمس استمرارا في الكتابة البورجوازية في الفترتين السابقتين للثورة الفرنسية واللاحقة لها ، حتى اللحظة التي

(٩) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(١٠) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

لا يطابق وعيه الاجتماعي مطابقة تامة . وأصبح وضع الادب مأساويًا ، واستبدلت الكتابة الواحدة بكتابات متعددة . وبعد أن ظلت الكتابة الكلاسيكية كتابة متأسكة لعدة قرون ، حلت محلها الكتابات الحديثة المتعددة . وأرادت كل واحدة أن تكون الفعل الذي يقبل الكاتب بقتضاه وضعه البرجوازي . أو ينكره .

في عام ١٨٥٠ أيضا ، بدأ الشك يشوب استخدام الكتابة ذاته . فاستبدلت طبقة من الكتاب « الحريصين على تحمل مسئولية التقاليد تحملا تاما قيمة استخدام الكتابة بقيمة أخرى ، هي العمل . هكذا أنفذت الكتابة ، بفضل العمل الذي تطلبه . وبدأت ترسم صورة أخرى للكاتب الصانع الذي يحبس نفسه في مكان أسطوري ، كما يحبس العامل نفسه في غرفته ، ويختار الشكل ويصقله . » (١١) ويذكر بارت ، من بين ممثلي هذه الكتابة الحرفية جوتييه Gautier ، وجيد Gide ، وفلوريسر Flaubert صاحب « مدام بوفاري » بصفة خاصة .

أسس فلوريسر هذا النوع من الكتابة الحرفية ، وجعل من الشكل هدفا لحرفة أو صناعة أشبه بصناعة الحرف وصياغة الجواهر . فكتاباتة تقول لقارنها : أنا شيء مصطنع . واذا تقول ذلك ، تحمل صاحبها مسئولية الشكل الذي اختاره . هكذا يعطي الكاتب للمجتمع فنا يراه الجميع من خلال قوانينه ، ومقابل هذا ، يستطيع المجتمع أن يقبل الكاتب .

هناك أيضا الكتابة الواقعية التي يمثلها موباسان Maupassant ، وزولا Zola . وهي ، حسب تعريف بارت لها ، مركبة من علامات الأدب الشكلية وعلامات الواقعية الشكلية أيضا : « ما من كتابة أكثر اصطناعا من ذلك الأدب الذي يدّعي تصوير الطبيعة عن قرب » . (١٢) والكتابة الواقعية بعيدة كل البعد عن الحياء . بل هي ، على عكس ذلك ، محملة بكل ما يشير الى صنعتها إشارة واضحة سافرة . وهي لا تقدر على الاقتناع ، أبدا ، وبحكم عليها بالتصوير فحسب .

واكبت الكتابة الحرفية والكتابة الواقعية الثورة الصناعية ونشأة الرأسمالية اللتين أوجدتا تعددا في الايديولوجيات جعل الادب يواجه قضية هامة هي تبرير وجوده ذاته . وتلك هي مأساة الكتابة والكاتب الحديث . فهو ، بحكم كتابته ، في موقف متناقض لا مخرج له : اما أن يتفق العمل الادبي مع التقاليد الخاصة بالشكل ، ولا يستمع الى الحاضر ، أو أن يعترف الكاتب الحاضر ، وجدته وابتكاره في هذه الحالة ، لا يجد أمامه سوى لغة راتعميتة : « أمام الصفحة البيضاء ، في اللحظة التي يختار فيها الكلمات التي تعبر صراحة عن مكانه في التاريخ ، يلاحظ الكاتب تناقضا مأساويا بين ما يفعله وما يراه . فالطبيعة تتكلم أمام عينيه ، وتصنع لغات حية يستبعد هو منها . في حين يضع التاريخ بين يديه أداة زعفرية ، هي كتابة موروثة عن تاريخ سابق لم يسأل

(١١) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

والزخرف ، لأنها قد يعيدان الزمان الى عالم الكتابة ، والزمان قوة تحمل التاريخ .

أما الكتابة الشفوية ، فظهرت مع بروسـت Proust الذي تخيل شخصيات رواياته ، أخذاً بعين الاعتبار كلامها ، والأشكال المتعددة التي يتخذها هذا الكلام . فبينما كانت شخصيات بلزاك Balzac تقتصر على علاقتها بالمجتمع ، نجد شخصيات بروسـت تتركز في لغة خاصة بها . وهذا المستوى هو الذي يحدد موقعها التاريخي : المهنة ، الطبقة ، الثروة ، الوراثة ، الخ ... في الوقت نفسه ، اتجهت الكتابة الى كلام البشر الحقيقي ، وأصبح الأدب عملية اعلامية متبصرة ، تستهدف التعبير مباشرة عن موقف البشر « المسجونين في لغة طبقتهم ، ومنطقتهم ، ومهنتهم ، ووراثتهم ، وتاريخهم » .^(١٥)

وبعد بروسـت ، جاء كينوه Queneau الذي رسم الحدود الخاصة بكلام كل شخصية من شخصياته . وعودة الكتابة الى الكلام عبّرت ، في نهاية المطاف ، عن مضمون التناقض الاجتماعي . ويشير بارت الى أن جزءاً كبيراً من المؤلفات الادبية الحديثة يتخلله حلم بكلام طبيعي يحاكي الكلام الاجتماعي بكافة أنواعه .

ويتضح هذا الحلم في الشعر الحديث خاصة . فالشعراء المحدثون يفهمون الشعر ، لا على أنه ممارسة ذهنية ، او حالة نفسية ، وإنما حلم بلغة رائمة

عنه «^(١٦) ويقترح بارت حلين اثنين لهذه القضية : أظنهما الكتابة البيضاء ، وشايفها الكتابة « الشفوية » ، اذا جاز التعبير .

الكتابة البيضاء كتابة « محايدة » ، تحررت من كافة ألوان العبودية ، كتابة « في درجة الصفر » قد يقال عنها أنها « صحفية » . « هذه الكتابة المحايدة الجديدة تقع وسط الآراء والاحكام ولا تشارك في أي منها . وهي توجد ، بالذات ، نتيجة لعدم وجودهم ... انما ، بالاحرى ، كتابة بريشة »^(١٧) تتميز هذه الكتابة بشفافيتها التامة التي ترك للتفكير مسئوليته كاملة . مما يجعلها تتعارض تماماً مع الكتابة الثقافية او الذهنية . في الوقت نفسه ، تستبعد درجة الصفر في الكتابة هذا التاريخ باستبعادها للشكل ، وترفض كل القضايا التي يطرحها الكلام او المجتمع . أي أنها ترفض الموضوع لايديولوجيا معينة ، وبالتالي ، ترفض الالتزام ، بالمعنى العميق لهذه الكلمة . ويسوق بارت كمثال نموذجي لهذه الكتابة المحايدة البيضاء كتابة كاسو لرواية « الغريب » L'Etranger ، تلك الرواية التي قرأها بارت وهو في الصفحة وقدم عرضاً لها في إحدى المجلات الطلابية . ويلاحظ بارت أن هذه الكتابة تعود بنا الى الفن الكلاسيكي ، عندما كان هذا الاخير مجرد أداة . لكن الاداة الشكلية هذه المرة لا تستخدم ايديولوجيا منتصرة ، ولا تلجأ طواعية الى الأناقة

(١٣) المرجع السابق ، ص ٧٥ .

(١٤) المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

المجسم ، المقدسات ، الطفولة ، الجنون ، المادة الخالصة ، الخ ... » (١٨)

في « درجة الصفر في الكتابة » ترسم الملامح الأولى لمنهج بارت . ويتضح الهدف الذي ظل يسعى اليه في كل مؤلفاته ، ألا وهو البحث عن الايديولوجيات خلف الاقنعة التي تتخفى وراءها سواء تعلق الأمر بتاريخ الكتابة ، أم تعلق بالالتزام ، والكتابة كدلالة للالتزام الى ايديولوجيا معينة .



وإذا ففتحنا كتاب بارت الثاني « أساطير » Mythologies (١٩٥٧) ، وجدناه مكونا من جزئين : أحدهما تطبيقي ، والآخر نظري . يتكون الجزء الاول من ٤٥ دراسة قصيرة حول موضوعات الساعة ، كتبها بارت خلال فترته « الصحفية » التي استمرت بضع سنوات . يقول المؤلف في المقدمة إن هذه الدراسات « كتبت شهريا على مدى عامين تقريبا ، من ١٩٥٤ الى ١٩٥٦ » . ويحدد بدقة الهدف الذي تسعى اليه : « كانت نقطة بداية هذا التفكير ، في أغلب الأحيان ، احساسا بالضيق ازاء الطابع الطبيعي الذي يضفيه كل من الصحافة ، والفن ، والرأي العام ، على الواقع . في حين أن هذا الواقع الذي نعيشه تاريخي تماما . باختصار كنت أتألم عندما أرى في كل لحظة ، الخلط بين الطبيعة

نضرة . لذا ، يرى بارت انه من الصعب ، بل من العسير الحديث عن الكتابة او الأساسيس الشعرية . ويعلق على ذلك بقوله : « عندما تجعل لغة الشعر من الطبيعة مادة للتساؤل ... ولا تلجأ الى مضمون الحديث او تتوقف عند ايديولوجيا معينة ، تنعدم الكتابة ، ولا تبقى سوى الأساليب » . (١٩)

فالشعر الحديث يهدم تلقائيا طبيعة اللغة الوظيفية . في هذا الشعر ، العلامات مجرد امتداد للكلمة ، و « الكلمة الشعرية الحديثة فعل بلا ماض مباشر » ، (٢٠) وكلمة تشتمل على كافة المعاني التي يتحتم عليها اختيار احداها . ويلاحظ بارت أن هذه الكلمة أصبحت تنتج وتستهلك بفضل خاص ، وبهم غريب . والتعطش اليها جعل منها كلمة « لا انسانية مخيفة » . فالشعر الحديث شعر خاص بالأشياء ، شعر « تصبح الطبيعة فيه مجموعة غير متسقة من الأشياء المنعزلة المخيفة ... ما من أحد يختار معنى أو استخداما متميزا لهذه الأشياء ، ما من أحد يفرض عليها تسلسلا معينا ، ما من أحد يقصرها على سلوك ذهني معين ... ان انفجار الكلمة الشعرية يوجد شيئا مطلقا ... وهذه الكلمات - الأشياء المزدانة بعنف انفجارها وقوته ... تستعيد البشر وحديثها حديث مليء بالربح ، بمعنى أنه لا يقيم علاقة بين الانسان وسائر البشر ، بل يقيم علاقة بين ذلك الانسان وما تحويه الطبيعة من صور لا انسانية : الساء ،

(١٦) المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

النص التطبيقي ، طريقة توجه القارىء وترشده . ويمثل هذا النص النظري مرحلة هامة في تطور بارت الفكري . صحيح أنه يصف أساطير اليوم ، لكن هذا لا يتعارض مع ما عمد إليه في « درجة الصفر في الكتابة » ، بل يكمله ، خاصة أن المؤلف اكتسب في الفترة التي تفصل بين الكتابين مزيدا من الخبرة في المجالين السياسي والنظري . قبل أن يدخل مجال اللسانيات Linguistique نهائيا .

و « الأسطورة اليوم » نص يأتي في نهاية الكتاب ، ويشير الكاتب صراحة إلى أنه كتبه بعد النصوص التطبيقية التي نشرت في شكل مقالات في مجلات مختلفة .

والسؤال الذي يفرض نفسه نتيجة لوضع الجزء التطبيقي قبل الجزء النظري هو : هل يمكن الفصل بين النصوص النظرية وسلسلة طويلة من القطع الوصفية ؟ أو ليس هذا الفصل يعتبر تجاهلا للعلاقة الوثيقة بين النظرية والتطبيق ؟ والرد هو أن هذا الترتيب يكشف عن مسيرة بارت الذهنية . فهو يبدو دائما وكأنه في معركة بين التطبيق وتنظيره . ونلمس هذا بوضوح في مؤلفاته التي تتميز بحركتها وتطورها الدائم المستمر ، كما أن مراكز اهتمامه تبدو متباعدة إلى أقصى حد ، ويبدو منهجه في تطور دائم مستمر .

قد تختلف النظرية اذن ، من كتاب لآخر ، لكن الهدف الذي يسعى إليه بارت يظل واحدا . هذا الهدف هو البديهيات الزائفة ، وكل ما يسدو

والتاريخ ، عند الحديث عن حاضرتنا . كنت أريد أن أمسك ، في العرض الزخرفي لكل البديهيات ، بالاستفلال الايديولوجي الذي يختبئ وراءها . « (١٩) وفي عام ١٩٧١ ، كتب يقول أن الهدف من دراسات « أساطير » ليس سياسيا ، بل هو أيديولوجي ، وأنها تستهدف ذلك الوحش الذي يسميه « البورجوازية الصغيرة » وإذا كان بارت يكتب عن الاساطير المعاصرة فليس موضوعي هو أن المجتمع الفرنسي المعاصر مجال مختار للدلالات الأسطورية . والمجتمع الذي يتحدث عنه هو المجتمع البورجوازي : « فرنسا كلها تسبح في هذه الايديولوجيات التي لا تسمى : الصحافة ، السينما ، المسرح ، الادب ، الاحتفالات ، العدالة ، الدبلوماسية ، الاحاديث ، الجو ، الجرائم التي ترتكب ، الزواج الذي يقابل بالتأثر ، الطعام الذي نحلم به ، الملابس التي ترتديها ... كل شيء في حياتنا اليومية يرجع الى تصور البورجوازية لعلاقة الانسان بالعالم ، نحن نعيش القوانين البورجوازية وكأنها قوانين بديهية لنظام طبيعي . وكلما نشرت الطبقة البورجوازية تصوراتها ، اتخذت تلك التصورات شكلا طبيعيا » . (٢٠)

هذه النصوص الشهيرة القصيرة كانت في حاجة إلى شيء آخر يتوجها . لذا ، كتب بارت الجزء المسمى « الأسطورة اليوم » ، وهو نص نظري يحاول أن يقدم فيه وصفا شاملا للأسطورة ، ويعتبر طريقة لقراءة

(١٩) « أساطير » ، ص ٧ .

(٢٠) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

ثم أصبحت الأسطورة عملية « تضليل ، وشيئا عابثا ، مخادعا » ، وفي النهاية ، تحولت الى سمة أو « كود » Code . وإذا تركنا مجال المعاجم ، وجدنا بارت يستخدم في حديثه عن الاسطورة العبارات التالية : الاسطورة « كلام » ، و « رسالة » Message ، و « نظام للتواصل » ، الاسطورة « لا يمكن ان تكون شيئا أو تصورا ، أو فكرة ، بل هي شكل ومعنى » .^(٢١) والاسطورة لا تعرف بمادة رسالتها ، وإنما بالطريقة التي تنتقل بها هذه الرسالة . اذن ، كل شيء يمكن أن يكون أسطورة ؟ يقول بارت : « نعم ، فيما أظن ... أي مادة في العالم يمكن أن تنتقل من الوجود المغلق الصامت الى حالة كلامية مفتوحة يمكن أن يملكها المجتمع » .^(٢٢) وبما أن الكلمة الاسطورية رسالة ، فهي يمكن ان تكون شيئا آخر غير الكلام : الكتابات ، والصور ، والكلام المكتسب ، والتصوير ، والسينما ، والريورناج الصحفي ، والاعلانات ، ... كل هذا يمكن أن يكون أساسا للكلمة الأسطورية .

الأسطورة ، في رأي بارت ، تنتمي الى علم العلامات Semiology . وهو يعرفها من وجهة نظر ذلك العلم بقوله : « الأسطورة كلمة فقدت طابعها السياسي »^(٢٣) . ولا بد من اعطاء كلمة سياسة هنا معناها العميق ، واعتبارها مجموعة من العلاقات الانسانية في بنيتها الحقيقية ، الاجتماعية .

« طبعيا » . تلك أمور تخضع دائما للايديولوجيا السائدة . ومن ثم كان الاتهام الذي وجهه بارت الى نوع معين من النقد ، هو النقد الجامعي « البورجوازي » . وبها اختلفت الاقنعة ، فان البدييات سالفة الذكر تعمل على افقاد التاريخ طابعه التاريخي، وتزعم الوصول الى العالمية . ويرتبط هذا السعي في حد ذاته ارتباطا وثيقا بالقمع الايديولوجي . اذن مطاردة البدييات الزائفة وتعقبها يمثلان استمرارية فكر بارت ورغبته في الكشف ، هنا وهناك ، عن الالتزام التاريخي بكل ما هو حديث ، سواء كان الكلام مادته الواضحة - كما هو الحال في الأدب - أم مادته الكامنة تحت شيء آخر كالزني ، والاعلان ، والصورة ، الخ ... تقابل هذه الاستمرارية استمرارية ماثلة في المجهات التي تعرض لها بارت ، خاصة تلك التي شنها عليه ريجون بيكار R. Picard صاحب المدرسة التقليدية في النقد ، وج . مونان G. Mounin . والملاحظ أن بارت يتوقف من أن لآخر أثناء مسيرته التي تلتزم بالخط المستقيم لكي ينظر التطبيق ، ويقيم استراتيجيته ، ويصحح مسارها .

ما هي الأسطورة ؟ انها ، أولا ، ما يعرفها به القاموس : « تقليد يكشف عن واقع طبيعي ، أو تاريخي ، أو فلسفي ، من خلال المجاز أو الاستعارة » . وهذا هو معنى الأسطورة عند اليونان .

(٢١) المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .

الأسطورة نظامان من العلامات : أحدها لغوي ، وهو الكلام الذي تستولي عليه الأسطورة لكي تبني نظامها الخاص ، والآخر هو الأسطورة ذاتها ويسميه بارت « ما وراء الكلام » *Meta — Langage* ، لأنه لغة ثانية يجري بها الحديث عن لغة أولى . لذا ، يُخضع علم العلامات الكتابة والصورة لنفس المعاملة . فهو ينظر الى كل منها على أنها علامة تصل الى الأسطورة وهي محملة بذات الوظيفة الدالة .

على مستوى اللغة ، يسمى بارت الدال « معنى » *Sens* ، وعلى مستوى الأسطورة يسميه « شكلا » . أما المدلول فيسميه « تصورا » *Concept* . والدال في الأسطورة شكل ومعنى ، في آن واحد . وعندما يصبح المعنى شكلا ، يتحول الى فراغ . ويوجد هنا ، حسب قول بارت ، « تراجع غير طبيعي من المعنى الى الشكل ، من العلامة اللغوية الى الدال الأسطوري » .^(٣٦) ولا يعني هذا التحول أن الشكل يلغي المعنى . كل ما هنالك أنه يجعله فقيرا ، ويفقده قيمته . يظل المعنى حيا ، ومن حياته هذه يتغذى شكل الأسطورة . والانتقال المستمر من الشكل الى المعنى هو الذي يعرف الأسطورة .

أما التصور ، فيشتمل على معرفة معينة للواقع ، وإن كانت مشوشة أساسا ، والتصور يؤدي وظيفة تذكرنا بفرويد ومذهبه النفسي . وكما يمكن أن يكون

والأسطورة لا تنكر الأشياء ، بل تتحدث عنها ، كل ما هنالك أنها توضحها ، وتنظم عالما خاليا من التناقضات لأنه خال من العمق بالفعل ، يرجع جزء كبير من الأبحاث المعاصرة الى قضية الدلالة *Signification* . فالتحليل النفسي ، والبنوية ، وبعض المحاولات الجديدة التي قام بها باشلار *Bachelard* في مجال النقد ، لا تدرس الواقعة الا بالقدر الذي تدل به على شيء ما . والتسليم بدلالة معينة يعني الالتجاء الى علم العلامات . وجدير بالذكر أن « علم العلامات علم أشكال ، ما دام يدرس الدلالات بغض النظر عن مضمونها » .^(٣٧) وينتهي بارت الى أن الأسطورة جزء من علم العلامات ، بوصفه علم شكلي ، والايديولوجيا ، بوصفها علم تاريخي .

يسلم علم العلامات بالعلاقة بين الدال *Signifiant* والمدلول *Signifié* ، ويكتسب وحدته وقاسمه على مستوى الاشكال ، لا المضامين . ومجاله الضيق لا يمتد الا الى الكلام . وهو لا يخضع الا لعملية واحدة : القراءة أو التفسير .

في الاسطورة ، نجد الدال والمدلول والعلامة *Signe* . لكن الاسطورة نظام *Systeme* خاص « يبني ابتداء من سلسلة من العلامات الموجودة سلفا ، أي أن العلامة في النظام الاول تصبح دالا في النظام الثاني ، وعلم جرا » .^(٣٨) ويوجد في

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(٣٦) المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

كالمحرر الصحفي الذي يبدأ من التصور ثم يبحث عن شكل له .

٢ - اذا نظرت الى الدال الملائن ، ميزت فيه الشكل بوضوح ، وبالتالي ، التغيير الذي طرأ عليه ، واستطعت أن أحلل دلالة الأسطورة ..

٣ - اذا نظرت الى الدال على أنه مجموعة مكونة من شكل ومعنى ، تلقيت معنى غامضاً . (٢٧)
الطريقتان الاولى والثانية ثابتتان تحليليتان . كل منهما تهدم الأسطورة ، اما بإبراز هدفها أو بالكشف عنها ، اما الطريقة الثالثة فدينامكية . وهي تجعل القارئ يعيش الاسطورة كما لو كانت حقيقة وغير حقيقية في آن واحد ، والانتقال من الايديولوجيا الى علم العلامات يحتم اعتماد الطريقة الثالثة ، لأن قارئ الاسطورة هو الذي يقع عليه عبء الكشف عن وظيفتها الأساسية . « فالاسطورة تقرأ على أنها مجموعة منتظمة من الوقائع ، بينما هي لا تعدو أن تكون مجموعة منتظمة من العلامات » . (٢٨)

ويصف بارت الأسطورة بأنها « لغة مسروقة » . فعندما يكون المعنى ملائناً ، تستولي الاسطورة عليه كله . هذا ما يحدث للغة الرياضيات مثلاً ، فهي ، في حد ذاتها ، لغة غير قابلة للتغيير ، لغة اتخذت كافة الاحتياطات اللازمة ضد التفسير . لذا ، تستطيع الاسطورة أن تستولي عليها استيلاء تاماً . وذلك لأن الأسطورة قادرة على الوصول الى أي شيء ، قادرة

للمدلول الواحد أكثر من دال ، يجسد التصور الاسطوري أمامه عدداً غير محدد من الدالات . ويقابل فقر الشكل الكيفي ثراء التصور المفتوح على التاريخ كله . ويقابل كثرة الأشكال الكمية عدد صغير من التصورات وتكرار التصور في أشكال مختلفة يمكن القارئ من تفسير الاسطورة . ويؤكد هذا عدم وجود أية علاقة منتظمة بين حجم الدال وحجم المدلول . ففي الأسطورة ، يمكن أن يند التصور الى كمية كبيرة من الدالات . على سبيل المثال ، يمكن ان يكون كتاب بأكمله دالاً لتصوير واحد .

والأسطورة لا تخفي شيئاً ، وتتمثل وظيفتها في تغيير الشكل ، لا الغائه ، عند فرويد ، يغير المعنى الكامن للسلك معناه الظاهر . كذلك في الاسطورة ، يغير التصور شكل المعنى ، لكنه لا يلغي المعنى ذاته . هكذا لا يوجد أي صراع بين الشكل والمعنى ، لأنها لا يوجدان في نفس النقطة أبداً .

قلنا إن الدال الاسطوري هو شكل ومعنى . وحسب التركيز على الأول أو الثاني أو الاثنين معاً نجد أنواعاً ثلاثة من القراءة يقول عنها بارت :

١ - اذا نظرت الى الدال الحالي (من المعنى) تركت التصور يلاً شكل الاسطورة ، بلا لبس أو غموض ، ووجدت نفسي أمام نظام بسيط ، تصبح فيه الدلالة حرفية . هذه الطريقة هي ، على سبيل المثال ، الطريقة التي يتبعها منتجو الاساطير ،

(٢٧) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

ليجعل من تلك البلاغة شكلا لنظام جديد . أما الدلالة النهائية ، فهي الرواية ذاتها . وبسببه بارت العملية التي قام بها فلوير هنا بترسيم الآثار . واستطاع فلوير أن « يوجد لمضة الواقعة مخرجا صريحا ، من وجهة نظر علم الدلالات Semantique . فلقد تجنب ، على الأقل ، الخطأ الأكبر الذي قع فيه المستعملون بالادب ، ألا وهو الخلط بين الواقع الايديولوجي والواقع العلمي » (٣٠) . من الناحية الايديولوجية ، لا تتوفر واقعية الأدب على اللغة التي يتحدث بها الكاتب فقط ، فاللغة تشكل ، وكل ما يمكن أن تكونه هو أن تكون أسطورية أم لا ، كما هو الحال في « بوفار وبيكونيه » . ازاء هذا الوضع ، يضطر النقد الى استخدام منهجين مختلفين : إما أن يعالج واقعية الكاتب على أنها مادة أيديولوجية ، أو أن يعالجها على أنها مادة علامية . وقد يتمثل الحل الأمثل في تضافر المنهجين معا ، وعدم الخلط بينهما ، لأن منهج الايديولوجيا يختلف عن منهج علم العلامات .

قال بارت ، عندما عرّف الاسطورة ، أنها كانت أولا مجازا أو استعارة ، ثم أصبحت عملية تضليل وخداع ، وأخيرا سّنة . وإذا رجعنا الى النصوص التطبيقية في « أساطير » لسنا نطور الاسطورة وفقا لهذا المفهوم .

تتمدد « الأسطورة » الاستعارة « أولا الى ما يسميه بارت « عالم الآلهة » ، ذلك العالم الذي يؤمه

على افساد أي شيء . ولغة الشعر لغة أخرى تقاوم الاسطورة بعذر الامكان . على سبيل المثال ، يحاول الشعر المعاصر جاهدا أن يحوّل العلامة الى معنى . ولربما كان هدفه الأمل هو الوصول ، لا الى معنى العلامات ، وإنما الى معنى الأساء ذاته . نحاول لغة الشعر أن تستحضر طاقة المدلول . ومن هنا ، كان افتتاح الشعر الحديث بأنه وحده لم بالأشياء ذاتها . لذا ، « يؤكد .. ذاته دائما على أنه عمله قبل اللغة ... ومقاومة الشعر هي التي يجعل منه فرصة سهلة للأسطورة : تأسر الاسطورة فوضى العلامات الظاهرية ، وتحولها الى دال خال ستستخدم للدلالة على الشعر . » (٢٩)

ويتساءل بارت : ما داء الأمر كذلك ، ألا يوجد سلاح يمكن استخدامه ضد الأسطورة ؟ ويرد قائلا : « أجمل ، وأفضل سلاح هو انتاج الاساطير الصناعية . يكفي أن نجعل من الأسطورة ذاتها نقطة انطلاق نحو سلسلة أخرى من العلامات ، أي أن نجعل من دلالاتها بداية لأسطورة نانية . ويقدم لنا الأدب أمثلة لهذه الاساطير المصطنعة . ويذكر بارت من بينها رواية ج . فلوير « بوفار وبيكونيه » - Bouvard et Pecuchet . يملّ بطلا هذه الرواية بورجوازية معبسة . ويمكن اعتبار حديثها حديثا أسطوريا . ومن التشاء التصور والمعنى ، في هذا الحديث الاسطوري - وهو بمثابة نظام أول - تتكون دلالة ثانية هي بلاغة البطلين . هنا ، بتدخل فلوير

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

وردد فعله ، ونوياه . اما في مجال المصارعة الحرة فلا نجد شيئاً كهذا ، لأن المصارعة الحرة ليست رياضة ، وإنما عرض يظهر فيه كل شيء ، كما هو الحال في المسرح الاغريقي او البانتومي . فالمصارع الحر يفرض علينا قراءة معينة ، من خلال مظهره : فهو يلبس قناعاً يلتصق بوجهه ، ويجرد ظهوره يعلن عن الطريقة التي سيتم بها لقاءه مع الخصم . وكل شيء مما يجري بعد ذلك يؤكد ما سبق ان أعلن عنه ذلك القناع : الحركات ، التعبير عن الحقد أو الألم ، الخ .. ولا بد من المبالغة ، بطبيعة الحال ، لكي تتحول الحركات الى علامات . تلك هي ، مثلاً ، ركلة القدم التي ينتقم بها المصارع من زويله المهزوم المطروح أرضاً . وهذا هو الغرض من الضربة المفاجئة التي تسدد أثناء التوقف ، ضربة لا يراها الحكم ، وإنما جعلت لكي يراها الجمهور . ولا بد من أن يراها الجمهور لكي تبلغ غايتها . مما يؤكد أن الملائكة رياضة ، بينا المصارعة الحرة عرض في المقام الاول .

والكاتب شأنه شأن الممثل والمصارع . فهو أيضاً آلة . ويتحدث بارت عن الطريقة التي يقضي بها اجازته فحسب . فهو يأخذ اجازة كالعامل ، والموظف ، وغيرها . لكنه يختلف عنها ، لأنه يعد دائماً كتاباً جديداً أثناء الاجازة : فهو يقرأ بروفات ، ويدون ملاحظات ، ويقرأ كتباً . ومن ثم ، يأخذ اجازة تختلف عن اجازات سائر البشر .

قلنا ان بعض العلامات قد تنفكر الى الصراحة والوضوح ، لكن هذا لا يخفي وظيفتها عن

المصارعون ، والممثلون ، ونجوم السينما ، والادباء ، الخ ... وعلمية التأليه التي تقوم بها الأسطورة هي ما يلتفت النظر لأول وهلة . ومن المعروف ان الأسطورة تشتمل ضمناً على الاستعارة والرمز . فيما يتعلق بالمصارعة الحرة ، مثلاً ، القضية هي تعارض الخير والشر . وفيما يتعلق بالممثل ، القضية ، هي نوع من التحييد . فالممثل معروف على المسرح ، او الشاشة . وهو يقوم بدور أو أدوار محددة . لكن الصورة الفوتوغرافية تقدمه في صورة زائفة ، يفقد فيها صوته ، ودوره ، ويصبح صامتاً غامضاً . هكذا تقلب الصورة الاوضاع . فهي لا تقدم الممثل كبطل ، من خلال الادوار التي يقوم بها ، وإنما من خلال حياته الخيالية التي تعبر عنها الصورة .

وتظهر «الأسطورة - الاستعارة» من خلال بعض العلامات . الا أن هذه العلامات تنفكر أحياناً الى الصراحة والوضوح . ويسوق بارت مثلاً لذلك فيلم منكيفيتش «يوليوس قيصر» ، حيث يعرف الرومان من خلال قصة شعرهم التي تغطي الجبين ، وعرقهم (باستثناء يوليوس قيصر) . والعرق هنا علامة : الكل يعرق لأن الكل يناقش شيئاً ما بداخله . تأثر الشعب بموت قيصر والادلة التي ساقها انطونيوس ، وعرق الشعب هي علامة لدى انفعاله وعجزه في أن واحد .

ففي مجال الملائكة يتحول كل شيء الى علامة . اذا شاهدنا مباراة في الملائكة ، استطعنا أن نتساءل عما اذا كانت الضربات تؤلم المتلاكمين أم لا . واستطعنا أيضاً أن نتساءل عما يفكر فيه المتلاكم ،

ونجد موقفاً مماثلاً في العلاقة بين القذارة والمنظفات الحديثة ، وهي علاقة قد تبدو مادية بحتة لأول وهلة . عندما تتدخل الاعلانات بين المنظفات ، وإدراك المرء لها ، تعطي رؤية مختلفة كل الاختلاف عن هذه العلاقة . « أومو » Omo و « برسيل » Persil مثلاً يهاجمان القذارة من زوايا مختلفة ، بأسلحة مختلفة . كلاهما « يغسل أكثر بياضاً » ، بطريقة مختلفة لكن المنتجين لا يتنافسان حقاً في الواقع . بل انهما بالأحرى حليفان في معركة واحدة : من أجل النظافة ، على كافة المستويات ، ما دامت تنتجها شركة واحدة . ومهمة الاعلان هنا هي إعادة توجيه رؤية المستهلك لوظيفة المنظفات ، وحجب القضية الحقيقية ، ألا وهي : تشجيع البيع .

و « الأسطورة - الكاذبة » على علاقة أيضاً برؤية اجتماعية معينة . قد يتظاهر الناقد بعدم فهمه لبعض المؤلفات لأن هذه المؤلفات تدل على عبث النقد وعدم جدواه . وإذا فعل ، يدافع عن نظام معين تعبر عنه الأسطورة . والكذب دائماً حقيقة ، على مستوى أعلى أو مستوى آخر ، بشرط أن تكون هذه الحقيقة قابلة للتفسير ، أي بشرط أن تنتمي الأسطورة الى سمة معينة . وهنا تنتقل الى المرحلة الثالثة ، أو الوجه الاخير الذي تتخذه الأسطورة عند بارت .

ويمكن الحديثة عن « الأسطورة - السمة » لأن بارت يبدأ بتكديس قطع وصفية مستقلة لا يربط بينها ، في البداية ، الا تناوباً لموضوعات الساعة ، ويتكون منها « المعنى » شيئاً فشيئاً . يقول بارت في

المستهلك . فإذا كانت قصة الشعر في فيلم « يوليوس قيصر » سالف الذكر لا تغي بالغرض ، أي لا تقول في كل لحظة : « انا قصة شعر رومانية » بمعنى هذا أن مصفف الشعر ، ومصمم الديكور قد فشلوا في مهمتها ، بل ان الفيلم كله قد فشل . والعلامة هنا قناع بالمعنى الذي كان يعطي لهذه الكلمة في المأساة الاغريقية . أي انه لا يخفي شيئاً ، بل على عكس ذلك يساعد على إبراز ذلك الشيء .

وسرعان ما تحولت « الأسطورة - الاستعارة » الى « أسطورة كاذبة » . نلمس هذا التحول ، وإن كان كامناً ، في مقال « الكاتب في اجازة » ، الذي سبقته الإشارة اليه . تندس الأسطورة بين الواقع وإدراكنا له ، كما أسلفنا : هذا هو وضع الجريدة بين الحدث والقارئ ، والاعلان بين المنتج والشاري ، والناقد بين العمل الادبي او الفني والمتلقي . هذا التدخل هو موضع الكذب ، أو « الاتسواء الايديولوجي » كما يسميه بارت . ولا ينبغي ان تؤخذ كلمة كذب هنا بمعناها المطلق ، بل على أنها مخالفة للحقيقة . الناقد ، مثلاً ، قد يصاب بالعمى ، ولا يفهم كتاباً فلسفياً شهيراً . لا غرابة في ذلك . لكن الغريب هو أن يعترف بأنه لا يفهم شيئاً . ولو أنه فعل ، لتلاشت أسطورة الناقد العالم بكل شيء ، وحلت محلها صورة انسان عاجز يعترف بعجزه . لكن ... هذا الاعتراف في حد ذاته تضليل وخداع . لأن الناقد لا يقول ما يراه ، ولا يرى ما يقوله . ففي كل مرة يقول فيها : « لا أفهم شيئاً » ، يعني بقوله هذا شيئاً آخر : « لا يوجد شيء يستوجب الفهم » .

الاساطير تتكون ، شيئا فشيئا ، عناصر علم
العلامات الخاصة بالبورجوازية .



وكتاب بارت « عن راسين » Sur Racine

(١٩٦٣) يعتبر من أهم مؤلفاته . يتلخص منهج
هذا الكتاب في الآتي : « على الناقد أن يضع نفسه
في عالم راسين المأساوي ، ثم يحاول أن يصف
سكانه . » (٣١) هذا ويسعى بارت فيه الى نوع من
الانثروبولوجيا البنيوية والتحليلية في آن واحد ،
انثروبولوجيا بنيوية من حيث المضمون ، لأن المأساة
تعالج هنا على أنها مجموعة منتظمة من الوحدات
والوظائف ، وتحليلية من حيث الشكل ، لأن التحليل
النفسي ، فيما يبدو ، هو اللغة الوحيدة التي تبدي
استعدادا لتلقي خوف العالم . » (٣٢) وهكذا يتفق
بحث بارت مع تقاليد المدرستين التحليلية والبنيوية
ويرسم لراسين صورة متكاملة متعددة الوجوه
والأبعاد . يقول بارت في باديء الأمر : « يكاد يكون
من المستحيل من الإبداع الادبي بدون التسليم
بوجود علاقة ما بين العمل الادبي وشيء آخر سواء ،
ولطالما رأى الناس ان هذه العلاقة سببية . العمل
منتج Produit . لكن ، شيئا فشيئا ، حلت محل
هذه الفكرة فكرة العلامة . قد يكون العمل علامة
لشيء كامن وراءه ، ومن ثم ، يعمل النقد على جلاء
المعنى والكشف عن مداه ، خاصة مداه

مقدمة « أساطير » : « الأشياء المتكررة تعني شيئا
ما » ، لا مرة واحدة ، بل مرتين ، لأنها تتكرر على
مستويين مختلفين : أولا ، مستوى الشيء الموصوف ،
أي مستوى المجتمع ، وثانيا مستوى من يصف ذلك
الشيء .

هناك أيضا علاقة بين الاسطورة وخالفها .
فبالأسطورة يرسلها شخص ما ، ويتلقاها آخر . وقراءة
الاسطورة تدل على المتلقي ، بينما يدل بناء الاسطورة
على مرسلها . وهذا هو ، أصلا ، مفهوم بارت للسنة .
وتتأسك الاساطير منذ اللحظة التي يستخلص
فيها الهدف الذي تسعى اليه ، وهو البورجوازية
الصغيرة . ونلاحظ انها غير موجودة في النصوص
الاولى من الكتاب ، لكن سرعان ما تطل برأسها في
بداية كل نص من النصوص الاخرى تقريبا . واهتمام
بارت بالبورجوازية الصغيرة ، أو البورجوازية فقط ،
هو اهتمام « احصائي » ، بمعنى أن مرسل الاساطير
ينتمون الى هذه الطبقة ، من وجهة نظره ، وأن هذه
الطبقة هي أيضا العدو الذي يسلم بالدينيات . ولقد
حدد بارت في بداية كتابه الهدف الذي يرمي اليه وهو
« العلامة العامة للعالم البورجوازي » . والمهم هنا ،
لمن يتبع فكر بارت ، هو نشأة السنة عن البناء ، أي
الانتقال تدريجيا من علم الاساطير الى علم
العلامات . فكل مقال وصفي يسهم في البناء الكلي .
مثلا ، وراء سباق الدراجات السنوي في فرنسا ، نجد
التناقض بين المثالية والواقعية . ومن مجموعة

(٣١) « عن راسين » ص ٩ .

(٣٢) المرجع السابق ص ٩ .

الخفي»^(٢٣) . وتعوق سبيل هذا النوع من النقد عقبات خاصة به : « في الواقع ، معرفة الذات العميقة أمر وهمي ، ولا توجد سوى طرق مختلفة للكلام . ورأسين يتيح الفرصة لألسوان عدة من الكلام ، منها التحليلي ، والوجودي ، والمأساوي ، والسيكولوجي ... واعتراقنا بالعجز عن قول الحق عن رأسين هو بالذات اعتراف مناس بحالة الادب الخاصة . »^(٢٤) . وبارت معجب ، بطريقة ما ، بكل ما كتبه النقد الجدد عن رأسين ، الا أنه يوضح الآتي : « اذا أردنا التأريخ للأدب ، تنازلنا حتماً عن رأسين الفرد ، وانتقلنا طواعية الى مستوى التكتيك ، والقواعد ، والطقوس ، والعقليات الجماعية » .^(٢٥)

وعندما يحلل بارت عالم رأسين تحليلاً بنوياً ، يبدأ بهذا العالم نفسه ، دون أن يستند الى نظم قائمة سلفاً . والنظم هنا كامنة داخل العمل نفسه ، وتتبع منه ، وتنتج عن الاتصال به .

يرى بارت ثلاثة أساكن مأساوية في مسرح رأسين : الغرفة ، حيث السلطة أوجورها ، والسر أو الصمت الكامل ، والمدخل ، حيث ينتظر الناس عند الباب ، وتصيح اللغة قوية قديرة ، والمخرج الذي يحذ من مدى المأساة . ويتخذ كل من الموت ، والحرب والحدث ، من المكان الاخير مقراً له . لكن حوادث المأساة ذاتها تقع في مكان مغلق ، وبطل المأساة « سجين » . وعندما يتحدث بارت عن

الشخصيات ، يلجأ الى الاسطورة البدائية : الأب الذي يحكم العشيرة ، ويمتلك كل النساء ويسعى أبناؤه الى خلعهم ليتنازوا أشلاء مملكته . في مثل هذا السياق ، نفهم لماذا جعل رأسين من الحب الحرام حب الأب لأبنته ، أو الأم لابنها أو العكس - وقتل الأب ، وتأمر الأبناء عقدة أساسية مسرحياته . والأسطورة هي التي تمنح عالم رأسين - من خلال عقدة المسرحيات - تماسكه النهائي . يحكم هذا العالم نوعان من الحب . الاول حب يرجع الى أمد بعيد ، فيما يبدو ، أو على الأقل الى الصغر ، وهو حب منحه الوقت صفة شرعية ، ووافق عليه الآباء . والثاني حب مباشر قائم على الرؤية . مثال ذلك حب

فيدرا هيبوليت ، ونثرون لجونييه . وفي رأي بارت ان هذا الحب الأخير هو الحب الحقيقي ، وهو الذي يتطور في شكل مأساة . وتقد جذور الحب - الرؤية الى النزعة الجنسية العميقة التي تسود مسرحيات رأسين ، تلك المسرحيات المتأرجحة بين القوة والضعف ، والذكر والأنثى . لكل شخصية وجودها الجنسي ، وموقفها من النزاع المأساوي هو الذي يحدد الجنس الذي تنتمي اليه . وينشأ الاضطراب بمناسبة هذا النزاع ، ويعبر عنه اهايل الملبس أو تغيير ملامح الوجه أو احمراره ، كما يعبر عنه الكلام أو الصمت ، والحرب من الكلام ، كما يقول بارت ، هوهرب من المأساة .

يرى بارت ثلاثة أساكن مأساوية في مسرح رأسين : الغرفة ، حيث السلطة أوجورها ، والسر أو الصمت الكامل ، والمدخل ، حيث ينتظر الناس عند الباب ، وتصيح اللغة قوية قديرة ، والمخرج الذي يحذ من مدى المأساة . ويتخذ كل من الموت ، والحرب والحدث ، من المكان الاخير مقراً له . لكن حوادث المأساة ذاتها تقع في مكان مغلق ، وبطل المأساة « سجين » . وعندما يتحدث بارت عن

(٢٣) المرجع السابق ص ١٥٧ .

(٢٤) المرجع السابق ص ١٦٦ .

(٢٥) المرجع السابق ص ١٦٧ .

الإنسان (عند راسين) الخير أو الشر . كل ما هنالك أنه يتخبط بينها » (٣٨) والموتولوج تعبير عن الانقسام ، ووعي لفظي به ، لا مداولة حقيقية .

ثم تبين بارت الأب في مسرح راسين . يمثل الأب ، في نظر البطل ، الماضي الذي لا يستطيع الخلاص منه أو الانفصال عنه ، ما كان كائن ، تلك هي سنة الزمان عند راسين . يولد البطل بريئاً . لكنه يسعى الى الاثم بنفسه لينقذ الأب . وإذا كانت سلطة الأب أئمة ، فعلى الضحية أن تتحمل مسئوليتها . هذا ويقاس بطل مأساة راسين بالجهد الذي يبذله لكي يقطع صلته بمرز السلطة . وهنا تنقسم الشخصيات الى مجموعات ثلاث : شخصية تظل متعلقة بالأب ، وشخصيات تظل خاضعة للأب ، لكنها تشكو بطريقة غير مباشرة من هذا الاخلاص ، وشخصيات أصيلة ترقى الى مرتبة الحيانة . وتتلخص القضية في الآتي : متى وكيف تقطع الشخصية صلتها بمرز السلطة ؟ يفشل البطل . وينتج فشله عن مفهومه للزمان . فالزمان في نظره تكرار خالص . لذا ، يقول بارت أن الزمان عند راسين « دائري » ، والفعل عنده يتحول الى نوع من الطقوس .

أمام البطل حلول ثلاثة : الهرب ، أو الانتظار ، أو الحياة ، وكلها حلول لا مأساوية . ثم من كان سلوكه سلوكاً لفظياً ، أساساً . الكلمة ، في هذا

يفحص بارت بعد ذلك ما يسميه « موقف العشق » ، مبيناً أن الحب عند راسين يعبر عن نفسه من خلال السرد . على سبيل المثال ، عندما تذكر الشخصية أول لقاء استيقظ فيه الحب ، تذكره وكأنه مشهد حقيقي . ويشبه بارت مسرحيات راسين باللوحات ، مبيناً أن الصراع بين الظلمة والنور هو الصراع الغالب عليها .

ويرتبط الحب الراسيني بجوهر أهم منه : « العلاقة الأساسية علاقة سلطة ، ولا يستخدم الحب الا للكشف عنها » . (٣٩) لا يعد الحب إذن أساساً لمسرح راسين . ان موضوعه الحقيقي هو تدخل القوة في موقف غرامي عادي . ويقوم هذا المسرح على العنف ، مما يقربه من المسرح اليوناني القديم والمسرح الاليساباثي . والعلاقة بين الرجل والمرأة عند راسين هي علاقة جلد بضحيته . لذا ، يلعب العدوان فيه دوراً هاماً : « يرتبط كل من الضحية والطاغية بالآخر ، ويعيش من أجل الآخر ، ويستمد كينونته من موقفه من الآخر » (٣٧) والبصر سلاح الطاغية كذلك ، يمكن أن تتخذ الضحية موقفاً عدائياً ، باذنة بالتدبير بالظلم ، مهددة بوضع حد لحياتها . وجدير بالملاحظة أن العدوان هنا هو لفظي بحت .

ويرى بارت في الانقسام البناء الأساسي لعالم المأساة . والانقسام عند راسين مزدوج : « لا يصارع

(٣٦) المرجع السابق ص ٣٤ .

(٣٧) المرجع السابق ص ٣٨ .

(٣٨) المرجع السابق ص ٤٦ .

رأسهم ر. بيكار ، على المدرسة الجديدة أو « النقد الجديد » . اندلعت نيران هذه الحرب عندما رد بيكار على بارت في كتيب عنيف شديد اللهجة كما يتضح من عنوانه : « نقد جديد أم خدعة جديدة ؟ » ورد بارت بكتابه « نقد وحقيقة » (١٩٦٦) ، حيث تحدث عن النقد الجديد عامة وعيليتي القراءة والكتابة خاصة .

يتساءل بارت : لم هذا الهجوم الذي يشن اليوم على النقد الجديد ؟ هل يتعلق الأمر برد فعل لا أهمية له ؟ أم عودة الى لون آخر من الجهالة ؟ أم يتعلق ، على عكس ذلك ، بمقاومة أشكال الحديث الجديدة عن الاعمال الادبية ؟ ، يلاحظ بارت أن ما يستوقف النظر ، في الهجمات التي شنت على النقد الجديد ، هو طابعها الجامعي ، وكان شيئاً بدائياً أخذ يتحرك في نفوس الذين قاموا بها ، و « كأننا نشهد طقوس إعدام تمارسها جماعة بدائية ضد شخص خطير . » (٤١) كأن المهاجمين قد حلّموا بجرح النقاد الجدد ، وقتلهم ، وضرهم ، وجرهم أمام محكمة الجنابات والمشنقة . باختصار ، بدأ اعدام النقد الجديد وكأنه عملية تطهير تجري من أجل الصحة العامة . وما يؤخذ على النقد الجديد ليس جدته ، وإنما كونه نقداً بكل ما في هذه الكلمة من معاني ، أي نقد يعيد توزيع الادوار ، دور المؤلف ودور الناقد .

لكن ، ما هو الجديد في النقد الجديد ؟ يدرك هذا النقد ان الوقوف على بنية الأعمال الادبية هي عملية

المسرح تعادل الفعل . وهذه الكلمة - الفعل هي واقع المأساة الأساسي لأنها تلعب دور الوسيط : « في العالم المنقسم ، عالم المأساة ، لا يتصل البشر فيما بينهم الا بلغة العداة : يصنعون لغتهم ويتحدثون عن انقسامهم » .. (٣٩) وفي خاتمة كتابه ، يربط بارت بين مأساة راسين والأسطورة قائلاً : « مأساة راسين هي إحدى المخاولات الذكية التي تسعى الى منح الفضل بُعداً جمالياً . إنها فن الفضل حقاً . لذا تحارب الأسطورة فيما يبدو ، كلما استولى راسين على أسطورة ليحوّلها الى مأساة ، شلّها وجعل منها حكاية منتهية . لكن رفض الأسطورة على هذا النحو يصبح بدوره أمراً أسطورياً » . (٤٠)

يسهم هذا الكتاب مساهمة كبيرة في معرفتنا لعالم راسين وابتنيه ، ويعد في حد ذاته عملاً أدبياً خلافاً . فقد استبعد بارت ، منذ البداية ، كل تحيز وكل نظرة عقائدية ، ووضع نفسه في عالم مسرحيات راسين اكثر مما وضع نفسه في عالم راسين ، او عالمتنا نحن . ثم اكتشف الابنية الأساسية لعالم المأساة .

لقد أثبت منهج بارت فاعلية خاصة في حالة راسين . لكن ، هل يصلح هذا المنهج للتطبيق على كاتب أقل تحايّساً وأكثر تنوعاً من راسين ؟



كان كتاب بارت « عن راسين » بداية حرب شعواء شنها أنصار المدرسة القديمة في النقد ، وعلى

(٣٩) المرجع السابق ص ٦٦ .

(٤٠) المرجع السابق ص ٦٨ .

(٤١) نقد وحقيقة ص ٩٠ .

يهتم بها بعض الباحثين ، وفقا لمنهج أو مناهج لا يتحدث عنها النقد القديم قط .

يرى هؤلاء الباحثون ان عملية القراءة يجب أن تتم على مستوى العمل الأدبي ذاته . لكن ، من ناحية ، كيف يمكن تجنب لقاء المضامين بعد الوقوف على الأشكال ؟. ومن ناحية أخرى ، التحليل البنيوي يكلف الكثير ، لأنه لا يمكن أن يجري الا على مستوى اليازج المنطقية : « في الواقع ، لا يمكن التسليم بخصيصة الأدب الا في نطاق نظرية عامة عن العلامات . لكي يكون لنا الحق في الدفاع عن قراءة متأصلة للعمل ، يجب أن نعرف ما هو المنطق ، والتاريخ ، والتحليل النفسي . باختصار ، لكي نعيد العمل الى الأدب ، لابد من الخروج منه والاتجاه الى ثقافة انتروبولوجية . »^(٤٢) ومنذ اللحظة التي يعتمز النقد فيها التعامل مع العمل ذاته ، من حيث تكوينه ، يستحيل عليه عدم التعرض لمتطلبات القراءة الرمزية . وهذا ما قام به النقد الجديد بالذات . ويقول بارت في هذا الصدد : « يعلم الجميع أن هذا النقد الجديد انطلق بوضوح من طبيعة الاعمال الادبية الرمزية » .^(٤٣) وما قام به هو في « عن رأسين » من عمليات تحليلية ينتمي الى نوع من المنطق الرمزي ، وفقا لما صرح به في مقدمة الكتاب .

ومع النقد الجديد ، أصبح الناقد كاتباً بدوره .

وما الكاتب سوى ذلك الشخص « الذي ينظر الى الكلام على أنه مشكلة يشعر بعقمها ، ولا يعتبره أداة أو زخرفاً » .^(٤٤) نتيجة لذلك وجدت كتب في النقد ، تقرأ كما تقرأ الأعمال الأدبية ، وان كان مؤلفوها من النقاد ، لا الأدباء . هكذا التقى الكاتب والناقد ، وأصبحت في وضع واحد يواجهان فيه نفس الشيء ، ألا وهو الكلام ، وفي الوقت نفسه ، أي الوقت الذي انتقل فيه النقد الى الكتابة ، توصل الفكر ، في قرنا العشرين الى منطق آخر ، ودخل نطاق « التجربة الداخلية » . وبدأ البحث عن حقيقة واحدة ، تشترك فيها كل أنواع الكلام ، الخيالي منه ، والشاعري ... لأنها حقيقة الكلام ذاته .

عندما يتكلم لكان Lacan مثلاً عن التحليل النفسي ، يستبدل تجريد المفاهيم التقليدي بصورة تنتشر انتشاراً تاماً في مجال الكلمة ، بحيث لا يمكن الفصل بين المقال والفكرة ، وتصبح الكلمة ذاتها حقيقة . في مجال آخر ، عندما تخلى ليفي - ستروس « Levi Strauss » في « النيم . والمطبوخ » Le Cru dt le cuit عن فكرة « التطور » العادية اقترح لغة جديدة للتغيير . وقال ان الكاتب مسئول عن الشكل الذي يختاره ، وكان هذا شيئاً جديداً لم يعتده الناس في العلوم الانسانية . هكذا تدخل ، فيما يرى بارت ، أربة عامة ربما كانت لها أهمية انتقال

(٤٢) المرجع السابق ص ٣٧ .

(٤٣) المرجع السابق ص ٤١ .

(٤٤) المرجع السابق ص ٤٩ .

وأيا كان رأي المجتمعات ، تقرأ الأعمال الأدبية بها بوصفها اشكالاً تتخذ معاني مختلفة : « العمل خالده ، لا لأنه يفرض معنى واحداً على أناس مختلفين ، وإنما لأنه يوحي بمعانٍ مختلفة لرجل واحد ، يتكلم نفس اللغة الرمزية ، في أزمته متعددة » .^(٤٧) لو كان للكلمات معنى واحداً سجلاً في القاموس ، ولو لم تكن هناك لغة ثانية تحرر « يقين اللغة » ، لما وجد الأدب . واللغة الرمزية التي تنتمي إليها الأعمال الأدبية لغة « جمع » من حيث البنية ، فكل كلمة - المقصود بالكلمة هنا العمل الأدبي - تنشأ عنها معانٍ متعددة . ولعل أفضل تعريف للعمل الأدبي هو الآتي : « لا يحيط بالعمل ، أو يوجهه موقف معين . ولا توجد حياة عملية تقول لنا ما هو المعنى الذي يجب أن نعطيه له ... لأن غموض العمل غموض خالص ... فهو مفتوح على كافة المعاني ... طبعاً ، إذا أضفت موقعي إلى قراءتي لعمل معين ، استطعت التغلب على غموضه .. فالعمل لا يستطيع الاحتجاج على المعنى الذي أعطيه له ، ما دمت أخضع أنا نفسي لقواعد اللغة الرمزية التي يقوم عليها ، أي ما دمت أقبل أن أسجل قراءتي في مجال الرموز » .^(٤٨) وإذا ابتعد العمل عن أي موقف ، أصبح أمام من يقرأه أو يكتبه سؤالاً مطروحاً ، وبجالة لبحت دائم عن الكلمات .

وإذا كان للعمل معانٍ متعددة ، من حيث المبدأ ،

أوروبا من العصر الوسيط إلى عصر النهضة . وأصبحت هذه الأزمته « حتمية » منذ اللحظة التي اكتشفت فيها طبيعة الكلام الرمزية : « هكذا ، أعيد النظر في كل ما يسمه الكلام : الفلسفة ، والعلوم الإنسانية ، والأدب . وهذا بلا شك هو السياق الذي يجب أن نضع فيه النقد الأدبي اليوم ... فما هي علاقة العمل الأدبي باللغة ؟ وإذا كان العمل رمزياً ، فما هي القواعد التي يجب أن تخضع لها قرائته ؟ وهل يمكن إيجاد علم خاص بالرموز المكتوبة ؟ هل يمكن أن يكون كلام الناقد كلاماً رمزياً ؟ »^(٤٩) .

وما لاشك فيه - وفي هذا تنفق مع بارت كل الاتفاق - أن القراءة الجمع Plurielle التي حلت محل القراءة المفردة هي من أهم ما جاء به النقد الجديد . قد يظن كل عصر أنه وقف على المعنى الأمثل للعمل الأدبي . لكن ، يكفي أن نوسع نطاق التاريخ لكي يتحول المعنى المفرد إلى عدة معانٍ ، والعمل المغلق إلى عمل مفتوح . هكذا « يتغير تعريف العمل الأدبي ذاته . ولا يبقى واقعاً تاريخياً وإنما يصبح واقعاً انثروبولوجياً ، ما دام التاريخ ، أيما كان نوعه ، لا يستغنى عنه . وتنوع المعاني يشير إلى استعداد العمل للانفتاح . وفي الوقت نفسه ، يكتسب العمل عدة معاني ، نتيجة لبنائه ، لا نتيجة لعجز الذين يقرأونه . في هذا تكمن رمزيته . فالرمز ليس الصورة ، بل تعدد المعنى ذاته . »^(٥٠)

(٤٥) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٤٦) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٤٧) المرجع السابق ص ٥٢ .

(٤٨) المرجع السابق ص ٥٥ .

انتهى حتماً الى نوعين مختلفين من النقد . قد يستهدف النقد فيه كافة المعاني التي يشتمل عليها ، وقد يستهدف معنى واحداً من هذه المعاني . ولا ينبغي الخلط بين هذين المحدثين بأي حال من الأحوال ، لأن مادة كل منهما وأحكامه مختلفة عن مادة وأحكام الآخر . ويقترح بارت إطلاق اسم « علم الأدب » أو الكتابة على النقد العام الذي يتناول تعدد المعاني ، واسم « النقد الأدبي » على النقد الآخر الذي يعبر صراحة عن نيته في إعطاء معنى خاص للعمل الأدبي . لكنه التفرقة لا تكفي ، لأن إعطاء المعنى لا يمكن أن يكون مكتوباً أو صامتاً ، ولابد من الفصل بين « قراءة » العلم الأدبي و « نقده » . فالقراءة عملية مباشرة ، أما النقد فيلجأ الى كلام وسيط هو كتابة الناقد .

كيف ومتى يمكن أن يوجد علم الأدب ؟ يقول بارت إن تاريخ الأدب موجود من مدة طويلة ، لكن علم الأدب لم يوجد بعد ، لأننا « لم نعرف بعد اعترافاً كاملاً بطبيعة المادة الأدبية ، وهي مادة مكتوبة . ومنذ اللحظة التي تسلم فيها بأن العمل الأدبي مادة مكتوبة ... يمكن الحديث عن علم الأدب ... ولا يمكن أن يكون ذلك العلم علم مضامين ... بل يكون علم الظروف التي أوجدت المضمون أي الاشكال ... وسوف يهتم بالتغيرات التي تطرأ على المعنى ... ولن يفسر الرموز ، بل تعدد معانيها . » (٤٩)

يمكن أن يستند علم الأدب في البداية الى الباذج التي تقدمها اللسانيات . فعالم اللسانيات يقبل نموذجاً افتراضياً للوصف ، يستطيع ، انطلاقاً منه ، الوقوف على الطريقة التي تنشأ بها الجمل الى مالا نهاية ، في لغة ما يمكن تطبيق مثل هذا المنهج على الاعمال الأدبية . فهذه الاعمال أشبه بجمل كبيرة مشتقة من لغة الرموز العامة : « تستطيع اللسانيات أن تقدم للأدب هذا النموذج التوليدي ، وهو مبدأ أي علم ، ما دام الأمر يتعلق دائماً بالالتجاء الى بعض القواعد لتفسير بعض النتائج . إذن ، لن تكون مادة علم الأدب : لم يجب أن نقبل هذا المعنى أو ذاك ، بل لماذا يمكن قبوله ؟ » (٥٠) هذا بالنسبة للعمل الأدبي . لكن ، كيف يتحدث علم الأدب عن المؤلف ؟ لا يستطيع ذلك العلم إلا أن يربط بين العمل الأدبي والأسطورة . فنحن « نغفل عامة ... الى الاعتقاد أن الكاتب يستطيع أن يطالب بمعنى عمله الأدبي وأن يعرف ذلك المعنى بأنه شرعي . من ثم ، كانت الاسئلة اللامعقولة التي يوجهها الناقد الى الكاتب الميت ، الى حياته ، ونواياه ، لكي يؤكد لنا معنى عمله : نريد بأي ثمن أن نحمل الموتى ، أو من يقوموا مقامهم ، على الكلام : الفترة الزمنية التي عاش فيها الكاتب ، والأنواع الأدبية ، والمعاجم المعاصرة له ، الخ .. أكثر من هذا ، يطلب منا أن ننتظر حتى يموت الكاتب لكي نتسكن من الحديث عنه بموضوعية ، وهذا قلب غريب للأوضاع » . (٥١)

(٤٩) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٥٠) المرجع السابق ص ٥٨ .

(٥١) المرجع السابق ص ٥٩ .

كما سبق أن قلنا على لسان بارت ، يحتل مكانا وسطا بين العلم والقراءة . وعلاقة النقد بالعمل الأدبي علاقة شكل بمعنى . لا يستطيع الناقد أن يدعي « ترجمة » العمل ترجمة واضحة ، لأن ما من شيء أوضح من العمل ذاته . كل ما يستطيعه هو « توليد » معنى معين مشتق من شكل معين هو العمل . فالناقد يجعل العمل مزدوجا ، ويجعل لغة ثانية تطفو فوق لغة العلم الأولي . والناقد يجب أن يقوم بعمليات ثلاث : أن يحول كل شيء ، وأن يحوله وفقا لبعض القوانين ، وفي نفس الاتجاه دائما .

ويذكرنا بارت بأن المعنى ، من الناحية البنيوية ، لا ينشأ عن التكرار ، وإنما عن الفوارق . هكذا تكتسب العبارة النادرة المعنى الذي تكتسبه العبارة المألوفة ، حالما تدخل نظاما معنايا من العلاقات . كذلك ، يمكن أن تذكر عبارة ما مرة واحدة في العمل كله ، ومسح هذا توجد فيه « دائما » وفي « كل مكان » ، نتيجة لعدد من التحولات التي يعرف بها الواقع البنيوي .

ولا يمكن أن يحمل الناقد محل القارئ بأي حال من الأحوال . حتى لو قلنا أن الناقد قارئ يكتب ، فهذا يعني أن القارئ يلقي على طريقة وسيطا مخفيا : الكتابة . هناك فرق آخر بين القارئ والناقد : نحن لا نعرف كيف يتحدث القارئ إلى الكاتب ، في حين يضطر الكاتب إلى الحديث بلهجة معينة ، لا يمكن ألا أن تكون لهجة الاثبات . فالناقد لا بد وأن يلجأ ، في نهاية المطاف ، إلى « الكتابة الملائمة » « لأن الكتابة » تصريح « بشيء ما . كيف

لا بد إذن من إعادة توزيع المواد التي سيتناولها علم الأدب . المؤلف والعمل الأدبي مجرد نقطة انطلاق لتحليل يجري في مجال الكلام . لا يمكن أن يوجد علم عن دانتى ، أو شكسبير ، أو راسين . كل ما يمكن أن يوجد هو علم الحديث عن هؤلاء . وسيكون لذلك العلم مجالان كبيران حسب العلامات التي سيتناولها . يشتمل المجال الأول على العلامات الأصغر من الجملة ، أي سيات اللغة الأدبية في مجموعها . ويشتمل الثاني على العلامات الأكبر من الجملة ، أي أجزاء الحديث التي يمكن أن نستخلص منها بناء السرد أو الرسالة الشعرية ، الخ ... هكذا يخضع النص الأدبي لتحليل أكيد ، لكن ، من الواضح أن هذا التحليل لن يمتد إلى فائض هائل من حيث الكم .

ولن تنصب الموضوعية المطلوبة في هذا العلم الجديد على العمل الأدبي مباشرة ، وإنما على طريقة فهمه . ولن يتم علم الأدب بالطريقة التي أوجدت العمل ، وإنما بالطريقة التي تم فهم بها في الماضي والتي يفهم بها اليوم . لن يقدم علم الأدب معنى معيناً ، بل يصف الطريقة المنطقية التي تنشأ بها المعاني بحيث يقبلها منطق البشر الرمزي . عندما عبر بارت عن هذه الآراء ، أي عام ١٩٦٦ انتهى إلى أن الطريق أمام نشأة علم الأدب ما زال طويلا . والسؤال الآن هو : هل وجد علم الأدب أم لا ، وأي مرحلة من الطريق قطع ؟

أما النقد : فشيء مختلف عن علم الأدب . فالنقد يعالج المعاني . أما العلم فينتجها . والنقد ،

على بذوره . ويتحدث بارت ، في كتابه هذا ، عن موضوعين هامين : أولها البنيوية ، وثانيها العلامة عامة ، والعلامة المسرحية خاصة .

يقول بارت عن البنيوية إنها ليست مدرسة أو حتى حركة بعينها ، لأن أغلب المؤلفين الذين يمثلونها غير متضامنين فيما بينهم ، من حيث النظرية أو الفكر . بل أن كلمة بنية Structure ذاتها أصبحت قديمة بالية ، لأن كافة العلوم الاجتماعية أكثر من استخدامها . ويوضح بارت أن البنيوية ، في نظر من يستخدمون هذه الكلمة ، هي أساسا « نشاط » ، أي تتابع منتظم لعدد معين من العمليات البنيوية . يهدف هذا النشاط إلى إعادة بناء شيء ما ، إلى إعادة خلقه ، وإعطائه مجموعة من الوظائف : فميتولوجيا ليفي - ستروس أو رسم موندريان يدلان على نشاط مشترك ، بنوي ، يمكن أن نستخلص منه بعض الوظائف والسمات المتعارضة ، أي بنية معينة . ويمكن الحديث عن النشاط البنوي كما سبق الحديث عن النشاط السيرياي مثلا . أما الهدف الذي يسعى إليه النشاط البنوي فهو إعادة تكوين شيء ما ، بحيث تظهر في عملية إعادة التكوين هذه القواعد التي تحكم وظائف ذلك الشيء . البنية إذن صورة أو ظل لهذا الشيء ، لكنها صورة موجهة ، لأن الشيء المقلد يظهر شيئا كان خافيا أو غير مفهوم في الشيء الأول . أي أن النشاط البنوي يأخذ الواقع ، ويفككه ، ثم يعيد تركيبه . لذا ، يمكن القول بأن

يمكن أن يكون النقد إذن تساؤلا أشكا ؟ بالتالي ، عندما تمس الكتابة نصا ، توجد هوة حقيقة بين القراءة والنقد ، هوة كذلك التي تفصل بين الدال والمؤول . القراءة وحدها تعبر عن حب العمل الأدبي ، وتقيم معه علاقة « رغبة » : « القراءة معناها رغبة العمل ، الرغبة في أن تكون العمل ، ورفض الحديث بلغة أخرى غير لغة العمل ... والانتقال من القراءة إلى النقد معناه تغيير في الرغبة ، معناه رغبة لغة العمل لا العمل ذاته ... هكذا يردّ العمل إلى رغبة الكتابة ... هكذا يدور الكلام حول الكتاب : قراءة ، كتابة ... الأدب كله انتقال من رغبة إلى أخرى . وما النقد سوى لحظة من لحظات ذلك التاريخ الذي ندخل فيه ويقودنا إلى وحدة الكتابة وحقيقتها . » (٥٢)



يتضح ، من خلال كل ما كتبه بارت ، اهتمامه بالأدب من ناحية ، ونظرية العلامة وعلم العلامات من ناحية أخرى . لكن « مقالات في النقد » Essais Critiques (١٩٦٤) يكشف عن اهتمام المؤلف بموضوع ثالث ألا وهو مسرح برخت . نلمس أيضا في هذه « المقالات » فكريا علميا يبحث عن ذاته ، لأن العلامة أصبحت ، في نظر بارت ، محور الاشكالية الأساسية . فمن التفكير في هذه النقطة تنشأ صيرورة العمل الأدبي . هكذا أفسحت الأسطورة المجال للنظام العلامي الذي كانت تشتمل

(٥٢) المرجع السابق ص ٧٩ .

تمكس العالم كما هو . وهنا تكمن أهمية النبوية . فهي تظهر صورة جديدة للشيء ، صورة لا هي بالواقعية ولا بالعقلانية ، وإنما هي صورة وظيفية . كما أنها توضح العملية الانسانية البحتة التي يعطي البشر بمقتضاها معنى للأشياء . لكن ، هل هذا شيء جديد ؟ يرد بارت قائلا : الى حد ما ، فالعالم ظل وما زال يبحث عن معنى ما يعطي له وما ينتج . أما الجديد ، فهو الفكر الذي يبحث ، لا عن المعنى الكامل للأشياء التي يكتشفها ، وإنما عن السبل التي تجعل المعنى ممكنا .

ونجد في « مقالات في النقد » ثنائي مقالات خاصة بالعلامة المسرحية ، يتحدث فيها بارت عن برخت ، وبودلير ، والمأساة الاغريقية ، وبلزاك . وكان لابد من ذكر راسين هنا ، لأن بارت يتحدث أول ما يتحدث عن العلامة المسرحية بمناسبة حديثه عن راسين . فهو يقول أن الممثل في مسرحيات راسين ربط دائما بين عالمين : عالم سيكولوجي يتمثل في الشخصية بجوانبها المعقدة ، وعميقها ، وجانب لغوي يتمثل في النص والحوار . وهذا في رأيه خطأ أول يترتب عليه خطأ ثان هو : الاعتقاد بأن هناك توازيا بين حديث الشخصية ونفسيتها ، توازيا يكلف الممثل بإبرازه ، مما أدى الى طريقة الأداء والالقاء التي تميز بها المسرح الكلاسيكي عامة ، ومسرح راسين خاصة . عندما يبرز الممثل بعض الكلمات ، مثلا ، يتدخل بين المسرحية والجمهور . وهكذا يتعدي على حق المتفرج لأنه يتولى التفكير بدلا منه . والنتائج التي تترتب على هذا الخطأ المزيج وعلى هذا الأداء

النبوية نشاط يحاكي الواقع أولا وقبل كل شيء . من هذه الناحية ، لا يوجد أي فرق فني بين نبوية العلوم والأدب خاصة والفن عامة . وتعتمد هذه النبوية وتلك على المحاكاة التي تقوم على تشابه الوظائف ، لا تشابه المواد .

هذا ولا يعرف الفن بطبيعة الشيء المقلد ، وإنما بما يضيفه الانسان الى ذلك الشيء عندما يعيد بناءه . والطريقة التي يعاد بها هذا البناء هي الابداع ذاته . أيا كان المجال ، اذن ترتبط غاية النشاط النبوي ارتباطا وثيقا بتكنيك معين . مما يجعل للنبوية وجودا متميزا بالنسبة لطرف التحليل والابداع الاخرى . فهي تعيد تكوين الشيء لكي تبرز بعض الوظائف . ويتمثل النشاط النبوي في عمليتين متميزتين : التقطيع والتركيب . العملية الأولى تقطع الشيء ، وتجد فيه اجزاء متحركة يختلف موقعها ، وينتج عن اختلاف موقعها هذا معنى معين . فالجزء لا معنى له في حد ذاته . لكن أي تغيير يطرأ عليه يترتب عليه تغيير في المجموع . تنتج عن هذه العملية اذن حالة أولى ، مبعثة للصورة أو الظل . ولا يعني هذا أن وحدات البنية « فوضوية » . أما العملية الثانية فتكتشف وتحدد القوانين التي تترابط هذه الوحدات بمقتضاها ، وهذا هو النشاط التركيبي . وفي هذه المرحلة الثانية ، تدور معركة ضد الصدفة . لذا ، يكتسب تكرار الوحدات قيمة شبه ابداعية . فعودة الوحدات بانتظام وتربطها يبنسي العمل الادبي ويكسبه معنى معينا .

وعندما تبني الصورة أو الظل ، على هذا النحو

ويلاحظ بارت أن انتاج الاشكال أو الدالات يظهر من خلال عملية الاخراج في مجموعها . ويدرس ذلك بصفة خاصة من خلال الزي المسرحي . يقول بارت في هذا الصدد أن المسرح حركة اجتماعية ، و « تمثيل خارجي » مادي ، عن الصراعات الاجتماعية . والزي ، ضمن عناصر أخرى ، له وظيفة معينة بالنسبة لتلك الحركة . ويقضي هذا الى معيار مناسب في النقد : « في الزي ، كل ما يضفي طابعا غامضا أو زائفا على حركة العرض الاجتماعية شيء سيء ، وكل ما يساعد على قراءة هذه الحركة - الاشكال ، والالوان ، والمواد وتركيبها - شيء حسن . » (٥٣) ونلمس هنا اتجاها وظيفيا مكن بارت من عمل قائمة بالاطفاء ، والامراض التي يصاب بها الزي المسرحي .

الأدب أيضا موجود في « مقالات في النقد » . لكن تناول بارت له يقل جدّة وإبتكارا عن تناوله للمسرح . ويشعر القارئ ازاء المقالات الخاصة بالأدب أن بارت يكرز ما سبق أن قاله في « درجة الصفر في الكتابة » ، مع تغيير طفيف . ففي مقال عن « أدب اليوم » ومقال آخر عن « الأدب والمعنى » يتناول الحديث عن الأدب من وجهة نظر الكاتب دائما ، ولا يتحدث عنه على أنه نظام يمكن تحليله من الناحية البنوية . لماذا لم يتوصل بارت ، بالنسبة للأدب ، الى ما توصل اليه بالنسبة للمسرح عامة ومسرح برخت خاصة ؟ في رأي بارت ، الأدب مشتق

عديدة . ويذكر بارت من بينها انعدام التواصل بين المثليين ، ومخاطبة هؤلاء المثليين لجمهور مجرد يفرضون عليه علاقة معينة بين النص والشخصية : « يظن الممثل أن دوره هو إيجاد علاقة نفسية معينة ولغة معينة ، وفقا لذلك الرأي المسبق الذي يقول أن الكلمات تترجم الفكرة دائما » . (٥٣) ويرجع هذا الانحراف الى الترجمة ، أساسا ، الى كون الممثل يتحد مع الشخصية ، في حين عليه ان يتخل عن « فكرة الشخصية التقليدية ، وان يصل الى فكرة الصورة ، أي شكل وظيفة مأساوية معينة . » (٥٤)

أما من يمثل مسرحيات برخت فيناقض تماما من يمثل مسرحيات راسين . يسوق بارت مثالا لذلك « الأم شجاعة » ، ويقول أن الذي لفت نظره في عرض هذه المسرحية عندما قدمها « البرلينسر انسامبل » عام ١٩٥٥* هو أن المتفرج ليس الأم شجاعة . فهو لا يتحد معها ذاتيا ، بل « يراها » . أما هي فلا ترى ، وتكاد تكون عمياء كما يقال في العنوان . فهي منغمسة في الحرب ومتأثرة بأضرارها ، لكنها لا ترى اسبابها ، ولا ترى النظام الذق أوجد تلك الحرب . والمتفرج يرى هذا العمى ، لأنه يظل خارج شخصية الأم شجاعة . وباتباعه هذه الطريقة ، يهدد برخت الى المتفرج بهمة رؤية الدلول تحت الشكل ، بدون ان يفرض عليه شيئا بعينه . فهو يدعو الى التحليل ، لكنه لا يحلل بدلا منه .

(٥٣) « عن راسين » ص ١٣٦ .

(٥٤) المرجع السابق ص ١٠ .

(٥٥) « مقالات في النقد » ص ٥٣ - ٥٤ .

أولئك هم الكتبة . حديث الأدباء حركة ، واستعراض ، وسلوك . أما حديث الكتبة فنشاط . الكتابة الأولى لا يبرر وجودها إلا ذاتها : أما الثانية فيبرر وجودها شيء آخر . صحيح أن مثل هذا الفصل تعسفي ، إذ يلاحظ بارت نفسه أن من يكتب « يكتب فقط » ، لكنه يكتب شيئاً ما ، أيضاً . على سبيل المثال ، عندما كتب ريمون كينوه روايته « زازي في المترو » انتج عملاً يحتمل قراءتين ، فالرواية رواية جيدة ، متقنة البناء ، ورثت تكنيكاً ثبتت تجربته . ومن ثم ، يمكن أن تقرأ على أنها رواية تقليدية . لكنها ، في الوقت نفسه ، تهدم هذا التكنيك ، وترفض ما ورثته عن الرواية التقليدية . ويأتي هذا الهدم من الداخل ، أساساً ، إذ يكشف كينوه عن المادة الأدبية أنشاء عملية الأعداد والصياغة . هكذا يقف المؤلف عند التناقض الذي يعرف به أدب اليوم في فرنسا . فهو « بليس القناع الأدبي ، لكنه في الوقت نفسه يشير إليه بأصبعه » . (٥٦)

ونلاحظ أن في الفترة التي انفضت بين مقال « تصور العلامة » ومقال « النشاط البنوي » أي الفترة بين ١٩٦٢ و ١٩٦٣ ، ظهرت وتبلورت ثورة بارت الداخلية . بعدها تمجد حقاً مفهومه لعلم العلامات . وانتقل إلى الوصف العلامى المحسوس ، أي دخل مرحلة « عملية » بمعنى الكلمة يشهد عليها كل من « نظام الموضة » - Systeme de la mode و « عناصر من علم العلامات » Elements de Semiologie .

من نظام دال سلفاً ، ألا وهو اللغة . وهذا يجعل التحليل أكثر تعقيداً . لكن مثل هذه العقبة وهمية . ولقد أكد المؤلف فيما بعد أن اللغة توجد دائماً ، على مستوى أو آخر ، تحت أي نظام علامي . أما العقبة الحقيقية فتتعلق بالمنهج ، وكيفية التصنيف خاصة . لذا ، تعتبر بعض النصوص التي وردت في « مقالات في النقد » نصوصاً أساسية بالنسبة لقضية العلامة . ففي مقال عن « تصور العلامة » نراه يطرح قضية الوحدة العلامية وعلاقتها بالوحدات الأخرى . ويقول في هذا الصدد إن من يحلل العلامات لديه ثلاثة أنواع ممكنة من الوعي العلامي : الوعي الرمزي الذي يرى فيه العلامة بعدها العنيق ، والوعي الاستبدالي Paradigmatique الذي يظن حالماً تعقد مقارنة أو معارضة بين علامتين مثل التعارض بين الصليب الأحمر واللال الأحمر والوعي التوزيعي Syntagmatic وهو وعي بالعلاقات التي تربط بين العلامات على مستوى الحديث .

وتتوقف لحظة عند مقال يقترح فيه بارت التفرقة بين Ecrivains و Ecrivains ، ويمكن أن ترجمه العبارتان إلى العربية بكلمتي « الكتاب = الأدباء » و « الكتبة » . منذ الثورة الفرنسية ، لم تعد كلمة « كاتب » حكراً على الأدباء . وأصبحت اللغة ملكاً لأخريين ولأغراض أخرى . مما أدى إلى ازدواج في الوظائف . فهناك من يرون أن عملية الكتابة لا تقضي إلا نفسها . هؤلاء هم الأدباء . وهناك من يرون في عملية الكتابة وسيلة للوصول إلى شيء آخر .

« نظام »
 Le Systeme de la mode (١٩٦٧) كتاب منهجي في المقام (٥٧) الاول . ويؤكد كاتبه طابعه هذا بقوله : « هذا الكتاب كتاب منهجي ، محكوم عليه بتقدم نفسه بنفسه » . لكن الشيء الذي يلتفت النظر ، أكثر من هذا الهدف ، هو ظهور المنهج النظري والتطبيقي معا ، لأول مرة . قبل ذلك ، كانت محاولات التطوير تلي الممارسات الوصفية ، أي أنها كانت لحظات توقف نظرية ، ونظرة الى الورا . لكن « نظام الموضة » كتاب لا يشتمل على ممارسة سابقة . فهو كتاب كامل ، شامل ، تذكر فيه النظرية قبل التطبيق .

وجدير بالذكر هنا أن بارت أكد أنه يسير وراء عالم اللسانيات سوسور Saussure ، لكنه اختلف معه في نقطة هامة . وتأكد هذا الاختلاف فيما بعد عندما كتب « عناصر من علم العلامات » (١٩٦٥) . تتحدث سوسور عن علم العلامات باعتباره علما يشمل اللسانيات . لكن بارت في « نظام الموضة » يؤكد عكس ذلك : « لا بد من التأكيد على أن علم العلامات هو جزء من اللسانيات » (٥٨) وهذه إحدى المكتسبات الأساسية التي نجدها في « نظام الموضة » .

يبدأ بارت بوصف الزي ، مما يعني ، بطبيعة الحال ، وصف مادة ما ، وشكلا يلبسه فعلا عدد من الأشخاص . هذا هو « الزي الحقيقي » . لكن الزي

لا ينقل البنا ففط عن طريق ادراكنا لما يلبسه الناس . فإذا فتحنا مجلة للأزياء ، وجدنا فيها عددا كبيرا من الرسومات والصور . وهذا هو « الزي - الصورة » . وكثيرا ما نجد تحت هذه الصور والرسومات عناونا رئيسية وفرعية تحولها الى نوع من الكلام ، وذلك هو « الزي المكتوب » . توجد اذن ثلاث مستويات من الأزياء . وكل من الزي الثاني والثالث مشتق من الزي الاول ، عن طريق سلسلة من التحولات التي تضمن الانتقال من البنية التكنولوجية (الزي الحقيقي) الى البنية التصويرية (الزي - الصورة) أو الكلامية (الزي المكتوب) . ويتم هذا الانتقال بواسطة أدوات وصل يسميها بارت Shifters وتنقلنا هذه الادوات من « الزي الحفيفي » الى « الزي المكتوب » أو « الزي - الصورة » ، وبالعكس . ويرى بارت أن ادوات الوصل هذه ثلاث : « الباترون » الذي يميّن من الانتقال من « الزي الحقيقي » الى « الزي - الصورة » و « الوصفة » أو « خطة الحياة » التي تمكن من الانتقال من « الزي الحقيقي » الى « الزي - المكتوب » . . وعناصر أخرى تمكن من الانتقال من « الزي المكتوب » الى « الزي - الصورة » .

ثم يطرح سؤالا وجيبها : كيف يختار المدارس مادة بحثه ودراسه ؟ الابنية الثلاثة قابلة للوصف . لكن كل واحد منها يفترض مسيرة معينة ، مما يجبر

(٥٧) « نظام الموضة » ، ص ٢ .

(٥٨) المرجع السابق ص ٩ .

الدعائم ، في إطار هذه الشريحة . وتتمثل هذه الدعائم في مجالات الازياء . واختار بارت الفترة من يونيو سنة ١٩٥٨ الى يونيو سنة ١٩٥٩ ، واستند الى مجلتي *Elle* و *Jardin des mode* ، وإن استند مادته من مجالات أخرى أحياناً . القاعدة الأولى التي تحدد تكوين المادة المراد تحليلها هي : عدم الاحتفاظ بأي مادة غير الكلمة التي تقدمها مجلة الازياء . وهذا يجد بلا شك من مواد التحليل . فهو يعني ، من ناحية ، عدم الالتجاء الى الوثائق المساعدة ، ومن ناحية أخرى ، عدم الاستفادة من المادة المحصورة المتمثلة في الصور . لكن فقر الأداة هنا ، وهو حتمي من الناحية المنهجية ، قد يكون له مردود إيجابي ، ألا وهو قصر الزّي على شكله الشفوي . ويعني هذا ، في الوقت نفسه ، مواجهة مشكلة جديدة ، يمكن التعبير عنها بما يلي : « ما الذي يحدث عندما يتحول الشيء حقيقياً كان أم خيالياً ، الى كلام ؟ »^(٦٠) ونلنس هنا حذراً ودقة متناهية في تفكير بارت ومسيرته المنهجية . ويرجع هذا الى دخوله مرحلة « عملية » متميزة ، كانت منعطفاً هاماً في حياته ، دخل بعدها مجال العلم نهائياً ، بدون أن يقطع صلته باهتماماته السابقة أو يتخلّى عنها . ولعل أصدق مثال لذلك هو عودته المستمرة الى الأدب بمناسبة حديثه عن الموضة من خلاله . وإذا كان قد أكد أن اختياره للسري المكتوب يطرح قضية تحول الشيء الى كلام ، فإن تأكيد هذا ينسحب أيضاً على الأدب ، وهو في نظره تجربة إنسانية تتحول الى كلام .

الباحث على الاختيار . فضلاً عن أن الزّي المصور في مجلة الازياء يختلف ، من حيث الوضع ، عن الزّي الذي يرتديه الناس . ويختار بارت « السري - المكتوب » لأسباب تتعلق « بالنقاء البنيوي » على حد قوله : « للزّي الحقيقي غاية عملية (الحماية ، الحياء ، الزينة) » . وتخفي هذه الغاية في « الزّي - الصورة » الذي لا يستخدم في الحماية ، أو التغطية ، أو الزينة ، بل يستخدم على أحسن تقدير للدلالة عليهم . مع هذا ، يحتفظ « الزّي - الصورة » بقيمة قد تعوق التحليل الى حد كبير ، ألا وهي تشكيله . أما « الزّي - المكتوب » فقط فلا يقوم بأية وظيفة عملية أو جمالية . فهو موجود من أجل معناه : إذا وصفت المجلة زياً بالكلمة ، فعلت ذلك فقط لكي تنقل معلومة مضومنها الموضة »^(٦١) .

واختار بارت « للزّي المكتوب » كبنية يصفها لا يعني بحال من الاحوال أن تحليله سيكون لسانياً بحتاً . صحيح أن مادة التحليل لغوية . لكن بارت لا يبحث في « الزّي - المكتوب » عن نظام فرعي للغة ، بل يبحث عن نظام تتكفل به اللغة .

كيف يختار الباحث مادة عن « السري - المكتوب » تكون متزامنة *Synchronique* تزامناً خالصاً ؟ أولاً ، توجد فكرة التزامن في الموضة ذاتها . فهي تتغير كل سنة ، وتقدم للباحث سلسلة من الشرائع المتزامنة . وما على الباحث إلا أن يختار أحدها ، كيها اتفق ، وأن يستند الى عدد من

(٥٩) المربع السابق ص ٦٨ .

(٦٠) المربع السابق ص ٢٢ .

سوسور بين اللغة Langue والكلام Parole . فالزى - يقابل اللغة ، في حين يقابل « الزى - الصورة » الكلام . ولا يكتفى بارت بهذا ، ويأخذ عن اللسانيات نموذجاً آخر هو التبادل . Commutation . والتبادل هنا تبادل بين شكل ومعنى ، بحيث يؤدي التغيير في الشكل الى تغيير في المعنى ، والعكس صحيح . هكذا يسمح التبادل باستخلاص الوحدات الصغرى . واذا يفعل يستخلص أيضا التغييرات المصاحبة هذه الوحدات ، بمعنى أنه يحدد « مجموعات تبادلية » . ويستخلص بارت مجموعتين :

١ - مجموعة تقيم علاقة بين الزى والعالم ، لانها تشتمل على سمات خاصة بالزى - طويل / قصير - أو الطبايع - رصين / خفيف الظل - أو المناسبات : زى السهرة ، زى للصباح ، الخ ..

٢ - مجموعة تقيم علاقة بين الزى والموضة .. وينظر بارت الى الموضة هنا من زاوية واحدة : ما يمتشى ومالا يمتشى معها . ويلاحظ أن السمات في المجموعة الاولى تكون دائها صريحة في الجملة . أما في المجموعة الثانية ، فتكون ضمنية في أغلب الأحيان ، لأنها بدئية . وفي كلتا الحالتين ، تظل السمات الخاصة بالزى مأثلة حاضرة . والشئ المهم هنا ، من الناحية المنهجية ، هو أن التبادل الذي يتم في احدى المجموعات يقابله تبادل مماثل في المجموعة او المجموعات الأخرى .

والعلاقة التي تربط بين عناصر المجموعتين هي علاقة تبادل . فالزى يختار من أجل هذه المناسبة أو

ويشترك « الزى - المكتوب » والأدب في كونها وصفاً . والكلام عن الموضة يرجع أساساً الى « الزى - الصورة » ، ويقوم تجاهه بعدد من الوظائف . يرشدنا هذا الكلام أولاً الى قراءة الصورة ، فالزى المصور يمكن قراءته وفهمه على عدة مستويات . و « الزى - المكتوب » يوجه ادراكنا له ، ويميز مستوى معنياً عن المستويات الأخرى ، وبالتالي ، يفرض اختياراً معيناً . فمعنى الصورة هو معنى غير أكيد لأنه مليء بالمعاني الممكنة . أما الكلام فثبت العين على واحد منها . فضلاً عن أنه يقدم نوعاً خاصاً من المعرفة . فهو يكشف عن تفاصيل خاصة لا تقدمها الصورة أولاً تقدمها بالدقة الكافية . وسواء تعلق الأمر بالقماش ، أو نوعيته ، أو لونه (خاصة اذا كانت الصورة أبيضاً وأسوداً) يكملها ، ويضيف شيئاً ربما كان أساسياً الى ما تشتمل عليه من معلومات . كما أن الكلام تكرر للصورة . فهو يؤكد شيئاً يظهر في الصورة : المعطف فضفاض أو ملتصق بالجسم ، مثلاً . ويقدم معلومة سبق أن قدمتها الصورة لكنه يؤكدها ويبرزها . من هذه الوظائف الثلاث : تثبيت مستويات الادراك « ، و « المعرفة » ، و « المبالغة » ، تتكون عملية وصف الزى . ومن هذه الأخيرة ، تتكون الموضة . فالزى - الصورة « يجمع بين عدة عناصر من بينها الشكل واللون . قد يكون الزى جذاباً أو غريباً ، لكنه يظل متمشياً مع الموضة . بينما يرادف « الزى - المكتوب » الموضة ذاتها . ولكي يحدد الفرق بين الاثنين ، يلجأ بارت الى علم اللسانيات ، مرة أخرى ، ويذكر الفرق الذي أقامه

والعالم الحقيقي - اذا ذهبت الى السياق ، ورأيت أزياء من قماش مطبوع - ويظهر الآخر عند تلقي الرسالة الخاصة بالزي المكتوب ، وإن لم يذهب المرء الى السياق ، ولم ير الأزياء المصنوعة من القماش المطبوع . لكن الامر يزداد تعقيدا ، لأن الجملة سالفة الذكر تأتي في الواقع بمعلومة أخرى : لمسيرة الموضة ، لا بد من ارتداء القماش المطبوع عند الذهاب الى السياق . يبقى بعد ذلك النظام البلاغي ، ومدلوله هو : صورة الموضة التي تقدمها أو تريد أن تقدمها المجلة . ويمكن أن يدرس كل نظام من النظم الثلاثة دراسة مستقلة ، ويحلل تحليلا منفردا .

يرى أحد النقاد أن من يقرأ « نظام الموضة » لأول مرة يمكن أن يرى في الموضة نظاما « قمعيا » يسميه بارت « طاغيا » ، يشتمل على سنة للزي تفرض علاماته بطريقة تصفية ، وبلاغة تسعى الى طمس هذا الطابع التعسفي .

والوظيفة الاولى لسنة الزي هي تحديد قوانين الزي الحقيقي . « فالزي المكتوب » يحدد أشكال الزي ، ويعطيها صفة شرعية . وتجري هذه العملية في اطار اجتماعي معين يتميز ، فيما يرى بارت ، بوجود ممثلين اجتماعيين حول الموضة : النسوة اللاتسي يستهلكن الزي ، أي قارنات مجلات الأزياء ، وأولئك الذين ينتجونه ، أي اجمالا وبلا تمييز ، الصناعات الخاصة بالزي : مصممى الأزياء ، ومجلات الموضة ، الخ ...

تلك ، أو من أجل الموضة .. يستخدم لهذا الغرض أو ذاك ، ويتمشى مع الموضة . مما يؤدي الى البحث عن سنة خاصة بالأزياء يكون الزي فيها دالا ، والعالم أو الموضة مدلولاً . لكن العلاقة الخاصة بالزي لن توصف وصفا كاملا الا اذا اعيدت الى بناء ما ، ما دام وجودها متوقفا على القدر الذي تختلف به عن العلامات الأخرى .

وغير عبر المجموعتين التي استخلصهما بارت نظامان ، أحدهما لغوي ، والآخر خاص بالزي . ويحاول المؤلف الربط بين هذين النظامين ، لكي يحدد مستويات المعنى . ويسمى المستوى الأول « السنة الحقيقية » ، والثاني « نظام المصطلحات » ، والثالث « النظام البلاغي » . ويسوق قانون المرور كمثال لهذا التقسيم . فالسنة الحقيقية تتمثل في اشارات المرور ولوحاته ، أي في أشياء يراها المرء ويعرفها بالتجربة ، بدون الاستعانة بالكلام . ويتكون نظام المصطلحات من الكلام الذي ينوب عن السنة الحقيقية . في هذا النظام الدال : جملة ، واللون الاحمر : علامة المنع ، والمدلول جملة هي : « اللون الاحمر علامة المنع » . وهذا النظام بدوره دال لنظام آخر ، هو النظام البلاغي . مثلا ، اذا قال المدرب لمن يتعلم قيادة السيارات : « اللون الاحمر علامة المنع » ، قال شيئا آخر في نفس الوقت ، عن مزاجه الخاص ، ومفهومه لدوره ، الخ ... ثم يطبق بارت مثال قانون المرور على الموضة . في هذه الجملة : ينتصر القماش المطبوع في حلقات السياق ، نجد نظامين : أحدهما يقيم علاقة بين الزي الحقيقي

ولا يمكن أن تكون علامة الموضة الاتسافية ، بمعنى أنها لا تنتج عن التطور التدريجي أو الموافقة الجماعية ، لأنها تفرض كل عام عنف ومن جانب واحد . والموضة ليست تعسفية فحسب ، بل هي « طاعية » أيضا . والانتقال من التعسف الى الطغيان يتم عندما يضاف الى القرار المتخذ من جانب واحد جزاء معنوي . إذن ، الموضة طاعية ، واللفة لا .

وأهم نتيجة يصل إليها بارت هي : الموضة ليست سنة فقط ، بل هي نظام بلاغي أيضا ، أو كما يقول بارت « أدب » . ويحدد موضع هذا الأدب فيقول أن الأمر لا يتعلق بالأدب بمعناه المطلق ، وإنما بنوع معين من الأدب ، ويدخل في نطاق الثقافة المسماة بالجاهيرية ، حيث تحتل الموضة مكانة متميزة . لا ينتمي هذا الأدب إذن الى نوع راق ، ومع هذا فالموضة فن ، والمقصود بهذه الكلمة هنا فن أدبي ، وفن كامو فلاج (أخفاء) أيضا . فالموضة تخفي البنية تحت الحدث ، وتخفي الطابع المجرّد لسنة الزيّ تحت مظهر حي . وإذا كانت الموضة أدبا ، فذلك لأنها طاعية ، ولأن محاولات الاختراع التي تقوم بها تهدف في المقام الأول الى إخفاء طابعها « القمعي » .

والحديث عن « نظام الموضة » لا بد وأن يشير الى أن هذا الكتاب يرجع عدة مرات الى مؤلفات ليفي - ستروس ، خاصة « الفكر البدائي » La Pensée Sauvage وإذا كان لا بد من الحديث عن التأثير ، فيجب الرجوع الى كتب سبقت

« الفكر البدائي » لأن هذا الأخير يرجع الى عام ١٩٦٢ ، ولا يمكن أن يكون قد أثر كثيرا على « نظام الموضة » الذي أكمله بارت عام ١٩٦٣ . وإذا تركنا جانبا قضية التأثير والتأثر ، وجدنا أن الموضة كما يفهمها بارت تشترك في نقاط كثيرة مع « علم المحسوس » الذي يتحدث عنه ليفي - ستروس في كتابه سالف الذكر . لكن ، على عكس الفكر البدائي ، لا تتحمل الموضة مسئولية ما يعطيها طعما وقيمة . فهي تخفي بعناية طبيعتها الحقيقية تحت حديث عادي . تهدف الموضة ، منطقيا ، الى الحث على البيع ، في حين تهدف الموضة البلاغية الطاعية الى إخفاء الدور الفعلي للموضة الاولى . وهكذا تيسر استيعاب الناس لها . ومع هذا ، فمن الواضح ان كلا منها تكمل الأخرى ، وكأنها دكتور جيبكل وستر هايد .

ويرى الناقد أ . بورجلان O. Burgelin أن هذا الكتاب ضرب أرقاما قياسية في أكثر من ناحية . فهو أطول نص كتبه بارت . وبما لا شك فيه أنه النص الذي تطلب أكبر جهد من المؤلف ، وهو النص الذي أنجز على مدى سنوات عدة . ولم يستقبل استقبالاً سيئاً ، بصفة عامة ، وحظي بعدد من الامتدادات النظرية للموضة ، من بينها ما كتبه جوليا كريستيفا J. Kristeva . وبالرغم من كل هذا ، ظل أثر الكتاب محدودا بالقياس الى الأثر الذي خلفته كتب بارت الأخرى ... « أو لم يكتب في ثلاثمائة صفحة تحليلا هائلا لا يحضم ، قد لا يرتفع مردوده الايديولوجي عن مستوى مردود

A. Martinet ، نشر عام ١٩٦٠ تحت عنوان « عناصر من علم اللسانيات العام » . ويحتمل أن يكون بارت قد أراد أن يحاكي سلفه وأن يكتب عن علم العلامات كتابا كذلك الذي كتبه مارتينييه عن اللسانيات .

يبدأ المؤلف بطرح سؤال هام : لماذا لم يتقدم علم العلامات الا قليلا منذ سوسور ؟ ويرد بقوله : لأنه لم يدرس سوى أنواع من السنن ذات أهمية محدودة . ولو أنه اتجه الى أنظمة ذات عمق اجتماعي حقيقي ، لوجد بسرعة اللغة تحتها . بمعنى أن الأشياء ، والعلامات ، والسلوك ، لها معان أيضا ، لكنها مختلطة بالكلام ، وان مجموعات الأشياء (الزى ، المأكّل ، الأثاث) لا تصبح نظما علامية الا عن طريق اللغة التي تسمى دالاتها ومدلولاتها .

ويأخذ بارت عن سوسور الثنائسي اللغة - الكلام ، ولا يدخل عليه أي تغيير . ويتساءل عن أهمية التعارض بين اللغة والكلام بالنسبة لعلم العلامات . ثم يذكر العلوم المختلفة التي استخدم فيها أو يمكن أن يستخدم فيها هذا التعارض . وسرعان ما يؤكد : « الى أي حد نرى أن مفاهيم اللغة - الكلام ، غني بالتفسيرات الخارجة عن نطاق اللسانيات . نسلم اذن بأنه توجد فئة عامة هي اللغة - الكلام ، يمكن أن تمتد الى كافة نظم المعنى » . (٦٣) ولا بد من إعادة النظر في التعارض

« اساطير ؟ » (٦١) ويؤكد هذا مرة أخرى ما سبق أن أوردناه عندما قلنا أن الوحدة العميقة التي تربط بين مؤلفات بارت لا ترجع في النهاية الا الى رغبته في نزح قناع الايديولوجيات ، والتشديد برفض التاريخ . ويقول بروجلان « يتضح من قراءتنا لنظام الموضة ... أن هذه الآراء (الواردة فيه) ، وان لم تكن خاطئة بمعنى الكلمة ، تبسط الامور ، وأنها أحادية الجانب الى حد كبير » . (٦٢) ويستطرد قائلا إن بارت نظر الى الموضة نظرة جديدة كل الجدة ، مبتكرة كل الابتكار . وقد يفهم ما قاله عنها فهما جزئيا ، كما لم يفهم ما سبق أن قاله عنها سلفه مالارمييه Mallarme .

في « عناصر من علم العلامات » يقتفي بارت أثر سوسور بوضوح ، لكنه يختلف معه في نقطة سبقت الإشارة إليها ، الا وهي العلاقة بين اللسانيات وعلم العلامات . وبحث بارت في مجال الموضة هو الذي انتهى به الى عدد من المفاهيم المخوفة عن اللسانيات . لذا ، تعتبر « عناصر من علم العلامات » نتيجة « لنظام الموضة » ، وامتدادا مباشرا له . فمشاكل الوصف التي قابلها بارت عندما بحث في الموضة أجبرته على التفكير النظري فيها . هكذا كان البحث في مجال الزى والموضة منتجا ونتاجا « لعناصر من علم العلامات » .

ومن الصعب ألا يفكر الباحث ، بمجرد النظر الى العنسون ، في كتاب آخر لاندريه مارتينييه

(٦١) عدد خاص من مجلة L'Arc ، العدد ٥٦ ، ١٩٧٤ ، ص ١٦ .

(٦٢) المرجع السابق ص ١٦ .

(٦٣) « عناصر من علم العلامات » ، ص ٩٧ .

وحدة ذات وجهين ، الدال - المدلول ، ثم يدخل التقسيمات المعروفة : شكل ومادة التعبير ، الشكل هو ما تحاول اللسانيات وصفه ، في حين تعني المادة بالعالم - اللالغوي . وهذا التمييز بين الشكل والمادة يمكن أن يكون مفيدا في علم العلامات ، حيث تعني بعض النظم ابتداء من مادة خالية من المعنى ، في بداية الأمر ، قد تكون نفعية أولا وقبل كل شيء : الماك ، الزي ، الخ ... ثم تنحرف هذه الأشياء النفعية نحو المعنى ، مكونة ما يسميه بارت « الوظائف - العلامات » . ويرى بارت ، بهذه المناسبة أن مجال تدخل علم العلامات لا محدود ، عمليا . إلا أن هذا التدخل يفترض أن الباحث يعرف كيف يرتب ويصنف المدلولات ، أي يعرف كيف ينظم شكل المضمون . ويرى أنه من الصعب اقتراح أي شيء لترتيب مدلولات ، أي يعرف كيف ينظم شكل المضمون . ويرى أنه من الصعب اقتراح أي شيء لترتيب مدلولات علم العلامات ، لأن هذا المجال ما زال جديدا لم يطره أحد . على عكس ذلك ، لا يثير ترتيب الدالات قضايا نظرية كبرى . ودور التبادل بالذات هو الذي يمكن الباحث من تقطيع العناصر وترتيبها . ولندكر ما سبق أن أوردناه . عن المجموعات التبادلية في « نظام الموضة » . يبقى بعد ذلك نوعان من العلاقات المأخوذة عن سوسور أيضا : الدلالة ، وهي علاقة داخل العلامة بين الدال والمدلول ، والقيمة ، وهي علاقة خارج العلامة ، مكونة من الفرق بين العلامات . وفي هذه النقاط أيضا ، يحاول بارت أن يذهب أبعد مما ذهب إليه سوسور .

بين اللغة والكلام ، حسب النظم . في جالة الماك مثلا ، يطبق هذا التعارض بسهولة وبلا أدنى تغيير ، عمليا . إذ توجد لغة غذائية (التعارض بين الملح / المسكر مثلا) ، وكلام غذائي (الأطباق) . ومن ثم تصبح قائمة الطعام بنية ، أي عنصرا من عناصر اللغة ، يملأ بطرق مختلفة حسب الحالة . والقضية الحقيقية التي تطرح عند تطبيق هذا الثنائي على نظم غير لغوية ، بالمعنى الضيق للكلمة ، هي قضية أصل اللغة . بالنسبة للنظام اللغوي ، الامور واضحة . فالعلاقة بين اللغة والكلام علاقة جدلية : يخلق الكلام اللغة ، لكن اللغة تحدد الكلام . وبمجموع الاعمال الفردية يكون واقعا اجتماعيا هو : اللغة . هكذا يسهم كل عنصر في تكوين النظام . لكن الأمر يختلف اختلافا تاما في حالة الموضة ، أو السيارة ، أو الأثاث ، حيث تخلق مجموعات القرارات الخاصة باللغة ، في تحديد الاطار الذي تفرضه الاحتياجات والايديولوجيات ، بدون أن يعني المستهلكون بالأمر . فضلا عن أن أهمية الكلام الاحصائية باللغة بالقياس الى اللغة ، في مجال اللسانيات . بينا الكلام فقير جدا في نظم كنظام السيارات أو الأثاث . ويسوق بارت مثال الثوب الطويل / القصير الذي يدل على أهمية العمل الذي قام به في مجال الزي والموضة ، وعلى أن الموضة نظام فقير الكلام . ولا بد من أن يحسب حساب مثل هذه النظم عند اعداد ادوات البحث والتحليل .

أما الثنائي الثاني عند سوسور ، الدال - المدلول ، فهو لب القضية والبحث في علم العلامات ، ما دام يعني بمكونات العلامة . يقول بارت أن العلامة

بارت عما إذا كان كل من الكتابة والاستعارة يفضي الى امكانية تجاوز المحورين اللذين تحدثت عنها سوسور . حتى اذا كان بارت قد خضع في بحثه هذا للحدس فحسب ، فإن هذا البحث يفسح المجال أمام أبحاث أخرى ومؤلفات ستصبح شغل المؤلف الشاغل .

أخيرا ، نقول أن « عناصر من علم العلامات » ، نص هام بالنسبة للسانيات البنيوية ، نص تميز بنزعة العلمية التي اضطرت المؤلف ان يسير خطوة خطوة ، وان يقتني أثر علماء اللسانيات . ولعل هذا هو ما أخذه عليه هؤلاء العلماء الذين نذكر من بينهم ج . موزان و ل . برييتو L. Prieto .



منذ أن كتب بارت « درجة الصفر في الكتابة » ، تبين أن حديثنا ثانيا يختفي وراء الحديث الظاهر ، ويفرض نوعا معينا من القراءة . معنى هذا أن بارت يبحث عن النظام وراء الكتابة . او لم يقل في كتابه عن المؤرخ ميشليه Michelet : « كنت أنقل على أوراق منفصلة الجمل التي تعجبني ... أو تتكرر فقط . وعندما رتبته هذه الاوراق ، كما يلهو المرء باوراق اللعب ، لم يكن في استطاعتي الا الانتهاء الى تيات بعينها » .^(٦٤) وقال قبل ذلك في « مقالات في النقد » : معنى العمل او النص لا يمكن أن يتكون تلقائيا . فالمؤلف لا ينتج أبدا الا افتراضات للمعاني والأشكال ، والعالم هو الذي يملؤها^(٦٥) . وقال قبل

وأخر ثنائي يتحدث عنه بارت ، بعد سوسور ، هو الثنائي مجال التوزيع - مجال الاستبدال Syntagme — paradigme ، لكن بارت يستخدم كلمة نظام systeme بدلا من paradigme ومجال التوزيع هو ، في كل الحالات ، مكان العلاقات بين الوحدات الحاضرة ، أما النظام أو مجال الاستبدال ، فهو محور العلاقات بين وحدة حاضرة في مجال التوزيع والوحدات الغائبة . لكن مجال التوزيع ومجال الاستبدال يقابلان شكلين من النشاط الذهني ، وكان سوسور قد أشار الى ذلك ، وجاء جاكسون من بعده ليعمق هذه الفكرة ، ويقرب مجال التوزيع من الكتابة metonymie والنظام من الاستعارة metaphore وأشار الى أن هناك من الاحاديث ما تغلب عليه الاستعارة : أفلام شارلي شابلن ، والرسم السريالي ، وما تغلب عليه الكتابة : القصيدة الملحمية ، والروايات الواقعية . ويرى بارت في هذا الاتجاه للبحث سبيلا ممكنا للانتقال من اللسانيات الى علم العلامات . وكان من السهل عليه أن يبين ان المحورين الذي تحدثت عنها سوسور يمكن أن يطبقا على النظم التي يدرسها . على سبيل المثال ، مختلف انواع الحلوى تعد نظاما ، ومجموع أطباق قائمة الطعام مجالا للتوزيع . « والجواب » والبنطلون ، والثوب يكوّنون مجالا للاستبدال ، أما الجيوب و « البلوزة » فيكوّنان مجالا للتوزيع - مختلف أنواع الأسرة - مجال للاستبدال ، اما السرير ، والمائدة التي يجانبه ، والصوان فمجال للتوزيع . ويتساءل

(٦٤) مجلة Tel Quel ، العدد ٤٧ ، ص ٩٤ .

(٦٥) « مقالات في النقد » ، ص ٩ .

Connotation مثلا - ، ويقترح مفاهيم أخرى ويطبقتها على نص بعينه هو قصة قصيرة لبلزاك Balzac بعنوان « سارا زين » .

يبدأ بارت بالتساؤل عن الطريقة التي يمكن أن نقيّم بها النص . ويرد قائلا : بكتابتها مرة أخرى ، أي بالوقوف منه موقف المنتج ، لا المستهلك . وذلك بقبول امكانياته المتعددة ، أي بالاعتراف بصفة « الجمع » Pluriel : « علينا إذن أن نختار : إما أن نتنقل من نص الى آخر ، ونساوي بين كل النصوص ، ونجبرها على اللحاق بالصورة التي تستشق منها فيما بعد . او أن نضع كل نص في حركته ، ونجعل مجال استبدال الفروق - وهو لا نهائي - يلتقطه ، حتى قبل أن نتحدث عنه ، ونخضعه للتقييم . كيف اذن نقيّم النص ؟ التقييم الأساسي لكل النصوص لا يمكن أن يتأتى من العلم ، لأن العلم لا يقيّم ، ولا من الايديولوجيا ، لأن قيمة النص الايديولوجية (اخلاقية ، جمالية ، سياسية) ، قيمة تصويرية ، لا انتاجية ... ان تقييمنا لا يمكن أن يرتبط الا بالممارسة وهذه الممارسة هي ممارسة الكتابة » . (٦٧) والنصوص تنقسم الى قسمين : نصوص قابلة للكتابة ، وهي تلك التي استطيع أن أكتبها مرة أخرى ، والنصوص القابلة للقراءة ، وهي نصوص لا يمكن الا أن نقرأ فقط ، « يلتقي التقييم بهذه القيمة : ما يمكن أن يكتب اليوم ، أي ما يقبل الكتابة قيمة خاصة بنا ؟ لأن

ذلك في « مقالات في النقد » يبحث بارت في مجال الأدب عن مخاطب يمكن أن يدخل معه في عملية تواصل communication . ويوصفه متلقيا لسنة معينة ، يبحث عن مرسلين لها ، من بينهم « صاد ، وفورييه ، ولويولا » Sad, Fouriet, Loyola (١٩٧١) ، مستهدفا أمرين : التنظيم ، والاجابة أحيانا . يبدو هذا التنظيم واضحا في حديثه عن صاد . فهو لا يتم بصاد كفر واما يدرس انتاجه . واذا كان صاد حاضرا فيوصفه مرسلا لسنة التي يتناولها بارت بالدراسة . من ناحية أخرى ، يطل كل من « متعة » بارت وسخريته العميقة من وراء الاستعارة اللغوية . اذن ، صاد غائب في هذه المسيرة ، كأنه لم يكن . مما يذكرنا بقول ل . جولدمان L. Goldman : « كثيرا ما حاول البعض أن يدرسوا مؤلفات الكتاب بالنسبة للمفرد ، أي الكاتب . والفرق الكبير بين المؤلفات التي أوجت بها البنيوية الوليدة والنقد الأدبي التقليدي تكمن ، ليس في كون الاولى ترجع العمل الادبي الى فاعل جماعي ، بينما يرجعه الثاني الى فاعل فردي فحسب ، وإنما في كون الفاعل الجماعي يعدّ بنية لها دلالتها لا تمر كما هي عبر الوعي » . (٦٨)



« س / ز » S / Z هو ثاني كتاب منهجي في مؤلفات بارت . فيه يعود الكاتب الى بعض المفاهيم التي سبق وأن تحدث عنها - « المعنى المصاحب »

(٦٦) ج . ل . كالفيه J.L. Calvet ، « رولان بارت » ، ص ١٣٤ .

(٦٧) « س / ز » ، ص ١٠ .

النص مجموعة من النصوص الأخرى ... الموضوعية والذاتية ، بالطبع ، قوى يمكن أن تستولي على النص ، لكنها قوى لا تتسجم معه . فالذاتية صورة ملآنة ، وامتلاؤها ليس سوى أثر لكل السنن التي تكوّنني ، بحيث تنتهي ذاتيتي الى عمومية الأنماط الثابتة . والموضوعية امتلاء من نفس النوع : انها نظام خيالي كالنظم الأخرى ... والقراءة لا تشمل على احتمال الذاتية او الموضوعية .. الا بالقدر الذي نعرّف به النص بأنه شيء تعبري ، أي شيء مقدم لتعبيرنا الخاص ... ومع ذلك ، فالقراءة ليست حركة طفيلية ، وكاملة لكتابة زينها بكل حالات الابداع ، بل هي ... عمل ... يجعلني أكتب قراءتي ... أنا القاريء لست مختفيا في النص ، كل ما هنالك أنه لا يمكن تحديد مكاني فيه . مهمتي هي الحركة ، ونقل نظم لا يتوقف استكشافها عند النص او عندي أنا ... فالقراءة عملية كلام ... القراءة تعني العثور على بعض المعاني وتسميتها ... فالنص تسمية في صيرورتها » . (٧٠)

اذن ، عملية القراءة استكشاف لسبل مختلفة ، استكشاف يجد في متناول يده أداة فعالة : « المعنى المصاحب » . انه أثر « الجمع » النص ، ومعنى لا يوجد في المعاجم ، وبمجموعة مبشرة من الدلالات ، ونقطة انطلاق نحو سنّة ثانية ، وتغيير في التواصل الخالص ، وسكان متميز لتقييم النص : « ما هو

هدف العمل الأدبي هو أن يجعل من قارئ النص منتجا له ، لا مستهلكا ، يتسم أدبنا بالترقّة السياسية التي تقيمها المؤسسة الادبية بين من يصنع النص ومن يستخدمه . ومؤلفه وقارّنه ... عندئذ ، يفوص هذا القارئ في نوع من الفراغ ، ... وبدلا من أن يؤدي الدور بنفسه ، ويصل الى سحر الدال ، ومتمعة الكتابة ، لا يبقى له سوى حريته البائسة ، حرية استقباله للنص أو رفضه له . وتتحول القراءة الى مجرد استفتاء » . (٧١)

تلقي التقييم عملية ثانية هي التفسير . هذا ويعطي بارت التفسير المعنى الذي اعطاه له نيتشه : « تفسير النص لا يعني اعطائه معنى ، بل تقدير « الجمع » الذي يتكون منه .. تستطيع نظم المعنى أن تستولي على هذا النص « الجمع » ، لكن عددها لا ينتهي أبدا ... ويتعلق الأمر .. بشايد كينونة هذا الجمع ، وهي ليست كينونة ما هو حقيقي ، أو محتمل ، أو حتى ممكن ... وبالنسبة للنص « الجمع » لا يمكن أن توجد بنية ، أو يوجد نحو أو منطق خاص بالرد » . (٧٢)

والنصوص التي يمكن أن تكتب لا تقرأ فقط ، لأنها لا تكتب حقا قبل تدخل القارئ او المتلقي : « كلما كان النص جمعا قلّت كتابته قبل قراءتي له . فأنا لا أخضعه لعملية تسمى قراءة ، وما « أنا » بفاعل برىء ... فهذا « الأنا » الذي يقترب من

(٦٨) المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٦٩) المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٧٠) المرجع السابق ، ص ١٦ - ١٧ .

ويجب أن يحترم التقييم الفروق Differences ، بمعنى أنه لا يستطيع أن يكتفي بتحليل بنيوي للجزئيات الكبيرة . كان ف . بروب V. Propp قد اقترح نموذجاً تحليلياً يرجع كل النصوص موضع الدراسة - وكانت مأخوذة عن الأدب الشعبي الروسي - إلى بنية سرديّة واحدة . لكن بارت يرفض هذا المنهج ويقول : « إذا أردنا أن نتنبه إلى « جمع » النص ، يجب أن نتنازل عن بناء هذا النص من كتل كبيرة ، كما كانت تفعل البلاغة الكلاسيكية ... لا بناء للنص . كل شيء يعني شيئاً ، باستمرار ، وعدة مرات ، لكنه لا يعهد بالمعنى إلى مجموعة : نهائية كبرى ، أو بنية أخيرة . من ثمّ ، كانت فكرة التحليل التدريجي الذي يطبّق على نص واحد ... فالنص الواحد تعترف به كل نصوص الأدب ، لا لأنه يمثلها ، وإنما لأنّ الأدب ذاته ليس نصاً واحداً . النص الواحد ليس التوصل إلى نموذج ما ، وإنما مدخل إلى شبكة لها ألف مدخل . والدخول على هذا النحو يستهدف على المدى البعيد رؤية مفتوحة ينتقل افقها باستمرار .. علاقة على ذلك ، فإن العمل في هذا النص الواحد ، حتى ادق التفاصيل ، يعني مواصلة التحليل البنيوي للسرد من حيث توقف ... يعني القدرة على الصعود إلى شرايين المعنى الصغيرة ، وعدم ترك أي مكان في الدال بدون التنبؤ بوجود سمة - أو أكثر - قد يكون هذا المكان بدايتها أو نهايتها » . (٧٢) ويعني هذا أن السعي وراء « جمع »

المعنى المصاحب « connotation ؟ انه ، من حيث التعريف ، علاقة ، لمحة تستطيع الرجوع إلى ذكر سابق أو لاحق أو خارجي بالنسبة لها ، أو الرجوع إلى أماكن أخرى في النص (أو نص آخر) . ولا ينبغي تضيق مجال هذه العلاقة التي يمكن أن تتخذ تسميات مختلفة ، بشرط عدم الخلط بين « المعنى المصاحب » وتوارد الحواطر ... من الناحية الجغرافية ، المعنى المصاحب معنى لا يوجد لا في القاموس . ولا في كتب النحو الخاصة باللغة التي كتب بها النص ... من الناحية التحليلية ، يتحدد « المعنى المصاحب » من خلال مكانين : مكان يخضع لتتابع الجمل التي ينتشر المعنى من خلالها ، ومكان تجميعي ، لأن بعضاً من أماكن النص يرتبط بمكان أخرى خارجة عن النص المادي ذاته ... من الناحية الصلاية ، كل « معنى مصاحب » بداية لستة معينة .. من الناحية الديناميكية ، المعنى المصاحب « سيطرة يخضع لها النص ، وإمكانية هذه السيطرة . من الناحية التاريخية ، يرسي المعنى « المصاحب » قواعد أدب خاص بالدلول . من الناحية الوظيفية ، يولد « المعنى المصاحب » من حيث المبدأ معنى مزدوجاً ، وبذلك يؤثر على نقاء التواصل ... من الناحية البنيوية ، يوجد نظامان - « المعنى المصاحب » و « المعنى الاصطلاحي » Denotation يقال عنها أنها مختلفان ، مما يمكن كل نظام من العودة إلى النظام الآخر ... » (٧٣)

(٧١) المرجع السابق ، ص ١٤ - ١٥ .

(٧٢) المرجع السابق ص ١٩ .

المصاحبة (المبحرة في كل وحدة قرائية معنى خارجيا قد يكون بناؤها النهائي ... لن نعرض نقد نص ما ، او نقدا لهذا النص ، بل نقترح المادة الدلالية ... لعدة أنواع من النقد (السيكولوجي ، والتحليلي ، والتاريخي ، والبنوي) ، على كل نقد ، اذا شاء ، أن يسمع صوته فيا بعد ، وهو انصت الى أحد أصوات النص .. التعليق القاسم على تأكيد « الجمع » لا يمكن أن يعتمد إذن الى « احترام » النص ، بل يقاطع النص الأم باستمرار ، ويقاطعه ، بغض النظر عن تقسيمه الطبيعي ... وما دام التعليق لا يخضع لأية ايديولوجية ، فهو يمثّل بالذات في اساءة معاملة النص ومقاطعته أثناء الكلام » . (٧٤)

وقبل أن ينتقل الى تحليل قصة بلسراك ، يشير بارت نقطة أخيرة خاصة بعدد القراءات الممكنة : « يجب أن نقبل حرية أخيرة ، حرية قراءة النص كما لو كان قد قرئ سلفا . الذين يحبون القصص الجميلة يستطعون ، طبعا ، أن يبدأوا بالنهاية ، ويقرأوا النص - كما يقرأ عادة . أما بالنسبة لنا ، نحن الذين نعمل على اقرار « جمع » النص ، فلا نستطيع ايقاف هذا « الجمع » عند أبواب القراءة . يجب أن تكون القراءة أيضا قراءة « جمعية » ، أي بلا ترتيب في الدخول ... وإعادة القراءة - وهي عملية مخالفة للعادات التجارية والايديولوجية لمجتمعنا الذي يوصي بالقراءة القصيدة بعد استهلاكها .. للانتقال الى قصة أخرى وشراء كتاب آخر - لا يسمح بهذا الا

النص يفرض تحليليا تدريجيا ، وتقطيعا أدق من ذلك الذي اقترحه بروب ، وتقسي الى وحدات للقراءة يسميها برت Lexies : « يقطع الدال الى سلسلة من الاجزاء الصغيرة المتجاورة ، نسميها وحدات قرائية . ولا بد من أن نقول أن هذا التقسيم سيكون تعسفيا بحتا ، ولن يشتمل على أية مسئولية منهجية ، ما دام مختصا بالدال ، في حين أن التحليل المقترح يختص بالمدلول فقط قد تشتمل الوحدة القرائية على كلمات قليلة ، أو عدة جمل ... يكفي أن تكون أفضل مكان يمكن ملاحظة المعاني فيه ، أسا حجمها فيتوقف على كثافة المعاني المصاحبة التي تتغير حسب لحظات النص . يكفي أن تكون لكل وحدة قرائية ثلاثة أو أربعة معاني تذكر . فالنص في مجموعه أشبه بسماه مسطحة وعميقة في أن واحد ، ملساء ، وبلا حواف . وكما يفعل الباحث عن النبوءة التي يرسم عليها بطرف عصاه مستطيلا وهما يسأل فيه عن بعض مبادئ طيران الطيور ، ويرسم الباحث بطول النص مناطق قراءة ، لكي يراقب فيها هجرة المعاني ، ويظهر السنّة بأنواعها ، وسرور الاستشهادات » . (٧٣) ويواصل بارت عرضه المنهجي بحدِيثه عن « النص المكسور » : « على الباحث أن يسجل تكرار المدلولات واحصائها بطريقة منتظمة ، بالنسبة لكل وحدة قرائية ، لا يهدف الى اقرار حقيقة النص (بنيتة العميقة) وانما طابعه « الجمعي » لن تعطي إذن وحدات المعنى (المعاني

(٧٣) المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٧٤) المرجع السابق ، ص ٢١ .

اللهو، في أكثر الاحتفالات صغيا وضجيجا . وكانت ساعة « الاليزية - بوربون » قد أعلنت لنوها عني منتصف الليل . كنت جالسا امام احدى النوافذ ، ومختفيا تحت ثنايا الستار المتموجة . هكذا استطعت أن أتأمل ، كما أشاء ، حديقة المنزل الذي اقضي فيه فترة المساء .

يبدأ بارت بتقسيم هذه السطور الى وحدات قرائية ، ثم يعثر في كل منها على سنة واحدة أو أكثر . ويبدأ بالعنوان : « سارازين » ويقول أنه يطرح سؤالا : سارازين ؟ ما هذا ؟ اسم علم ؟ شيء ؟ رجل ؟ امرأة ؟ والد على هذه الأسئلة ، أو حل هذا اللغز لا يرد الا متأخرا ، عندما يتطرق الحديث إلى السيرة الذاتية للمثال الذي يدعى سارازين . ويقرر بارت اطلاق اسم « سنة الأنغاز » على مجموع الوحدات التي تطرح ، بطرق مختلفة ، سؤالا ، وجوابه ، الأحداث المتنوعة التي يمكن أن تمهد للسؤال أو توخر الجواب ، أو تنطق بلغز ثم تؤدي الى تفسيره وحله . من ناحية أخرى ، كلمة سارازين ، في الفرنسية ، تدل بنهايتها على الانوثة والمؤنث ، خاصة بالنسبة لأسماء العلم . والانوثة هنا مدلول يثبت في عدة أماكن من النص . انها عنصر مهاجر ، يستطيع أن يتداخل مع عناصر أخرى من نفس النوع لكي يكون طابعا ، وأجواء ، ووجوها ، ورموزا . ويمكن أن يظهر هذا النص ، بطبيعة الحال ، في أماكن أخرى ووحدات قرائية أخرى ويسمى بارت هذه السنة « سنة المدلول » .

لغات هامشية من القراء (الاطفال ، والشيوخ ، والأساتذة) . وإعادة القراءة تقترح هنا ، منذ البداية ، لأنها الشيء الوحيد الذي ينقذ النص من التكرار ... ويخرجه من زمانه الداخلي (يحدث هذا « قبل » أو « بعد » ذلك) ويعثر على زمان اسطوري (يدون « قبل » أو « بعد ») . (٧٥)

لا تشتمل بعض الوحدات القرائية الا على كلمة واحدة ، مثال ذلك عنوان قصة بلزاك موضع الدراسة . في حين يشتمل البعض الآخر على عدة سطور . وهذه الوحدات مكان « جمع » النص القابل للكتابة ، ومدلولاته . وتظهر هذه المدلولات ، طوال النص ، من خلال خمسة أنواع من السنة ، تتداخل ، وتختلط ، الخ ...

يتساءل القارئ لأول وهلة : لماذا اختار بارت قصة بلزاك القصيرة « سارازين » ؟ « اعرف فقط أنني كنت أريد من مدة طويلة أن أحلل سردا قصيرا في مجموعه ، وأن دراسة لجان ريبول J. Reboyl عن قصة بلزاك هذه استرعت انتباهي . ويقول صاحب هذه الدراسة أن اختياره كان نتيجة لكلمة قالها جورج باتاي G. Bataille . (٧٦) . وقبل الانتقال الى أنواع السنة الخمسة التي يتحدث عنها بارت ، نورد السطور الاولى من « سارازين » ، من أجل ايضاح أفضل لهذه المفاهيم :

« كنت غارقا في واحد من تلك الاحلام العميقة التي تستولي على الجميع ، حتى على من يحبون

(٧٥) المرجع السابق ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٧٦) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

والمعرفة ، والتي يرجع إليها النص باستمرار ، ويطلق عليها بارت تسمية عامة : « سنة ثقافية » .

تشتمل هذه الوحدات القرائية الثلاث على أنواع السنة الخمسة التي تلحق بها كافة مدلولات النص : « لا توجد سنة أخرى غير هذه السنن الخمس ، وما من وحدة قرائية لا تجد مكانا فيها . ونستعيد أنواع السنة الخمسة هذه ، حسب ظهورها ، بدون أي محاولة لترتيبها . « سنة اللغاز » تفرق بين مختلف الأطراف (الشكلية) التي يتركز حولها المفرد ، ويظهر ، ثم يتأخر ، وأخيرا ، يكشف عن نفسه . أما بالنسبة للمدلولات ، فتستخلص لا أكثر ، أي بدون محاولة ربطها بأحدى الشخصيات (أو أحد الأماكن أو الأشياء) ، أو تنظيمها بحيث تكون مجالا واحدا للنتائج ... لن نعمل أيضا على بناء الحقل الرمزي ... والمهمة الرئيسية تبقى إذن التدليل على أنه يمكن الوصول إلى هذا المجال من عدة مداخل متساوية ... وينتظم السلوك في مشاهد Sequence مختلفة . والمشهد السلوكي لا ينتج أبدا ، إلا عن حيلة في القراءة : كل من يقرأ النص يجمع بعض المعلومات تحت اسم الأفعال (النزعة ، القتل ، اللقاء) . وهذا الاسم هو الذي يصنع المشهد ، فالمشهد لا يوجد إلا في اللحظة التي يمكن تسميته فيها . وهو ينطور حسب إيقاع التسمية التي تبحث عن ذاتها . أساس المشهد إذن تجريبي أكثر منه منطقي ، ولا داعي لادخاله عشوة في نظام شرعي من العلاقات ... أخيرا ، السنة الثقافية استشهاد بعلم أو حكمة . وعند احصاء أنواعه ، نكتفي بالإشارة إلى نوع

« كنت غارقا في واحد من تلك الأحلام العبيقة » : سيجري الحديث عن هذا الحلم المعلن عنه هنا وفقا لصورة بلاغية معروفة هي التضاد Antithese ، من خلال أمثلة متتالية : الحديقة والصالون ، الحياة والموت ، البرودة والحرارة ، الداخل والخارج . ما تعلن عنه هذه الوحدة إذن هو شكل رمزي كبير سيغطي مساحة كاملة من التبادلات والتنوعات ، تقودنا من الحديقة إلى الجحيم ، ومن الصالون إلى المرأة التي يحبها الراوي . إذن ، يبرز ، في المجال الرمزي ، حقل واسع هو حقل التضاد . وتعتبر هذه الوحدة مدخلا له . ويسمى بارت هذه السنة « سنة الرمز » . أما حالة الغرق - « كنت غارقا - فتأدى حدثا يضع حدا له ، أي شيئا يخرج الراوي من الحلم الذي غرق فيه . وبشال كهذا يشتمل ضمنا على سبب للسلوك الانساني . ويسمى بارت هذه السنة « سنة سنة الأفعال والسلوك » . أما الوحدة الثالثة فتشتمل في هذه الجملة :

« التي تستولي على الجميع ، حتى من يحبون اللهو ، في أكثر الاحتفالات صخباً وضجيجاً » . هذه العنونة هناك احتفال ، مضافة إلى معلومات أخرى (منزل في شارع سان أونوريه) مدلول لثراء أسرة لاني . والجملة نفسها ليست سوى تحريف لما يمكن أن يكون مثلاً ساتراً : « الاحتفالات الصاخبة لأحلام عبيقة » . وين يلفظ بها صوت جماعي ، مجهول ، أصله حكمة البشر . تنتج هذه الوحدة إذن عن سنة من أنواع السنن العديدة الخاصة بالحكمة

المعرفة (طبيعية، فزيولوجية، طبية، سيكولوجية، أدبية، تاريخية) المذكور» (٧٧)

« كانت ساعة الاليزية - بوربون قد أعلنت لتوها عن منتصف الليل » سنة المدلول « هنا تدل على الشراء : الاليزية - بوربون = حي سان أونوريه = حي غني = الثراء . وعلى مستوى ثان ، لهذا الثراء مدلولات أخرى : حي سان أونوريه = حي أغنياء الحرب = باريس بعد عودة الملكية = المساواة على الذهب ، الخ ...

« كنت جالسا أمام إحدى النوافذ » : تعبر « سنة الرمز » هنا ، لا عن التضاد ، وإنما عن ملخصه الذي يظهر في شكل حدّ . فالنافذة جد فاصل : « الداخل والخارج ، أي طرفي التضاد . » محتفيا تحت ثانيا الستار المتموجة : « تظهر » سنة السلوك « هنا سبب فعل قادم : الاختفاء . » كنت أستطيع أن أتأمل كما أشاء حديقة المنزل الذي أقضي فيه فترة المساء : « تظهر » سنة الرمز مرة أخرى مع الطرف الأول للتضاد ، ألا وهو اعلان عن وصف مستقبل : كنت أستطيع أن أتأمل / سوف أصف . و « سنة المدلول » تواصل الدلالة على الثراء : ها هو المنزل ، بعد الاحتفال ، وحي سان أونوريه .

يتضح من هذا التحليل أن السنة ، كما يفهمها بارت ، في « س / ز » ، شيء مختلف كل الاختلاف عما يقصد عادة بهذه الكلمة . فالسنة هنا ليس بنية أو مجال استدلال ، وإنما اتجاه معين للقراءة ، أو كما

يقول بارت « صوت » . و « الأصوات » هي التي تتولى إنتاج النص ، وتعين قراءاته ، وتضمن طابعه « الجمعي » . أما عن الوحدات القرائية ، فإن الأمثلة التي ساقها المؤلف وأوردنا بعضها منها ، فتدل على أن تقسيمها يستند إلى الحدث فحسب . ما من معيار يجعلنا نقول أن التقسيم هنا أفضل من التقسيم هناك . ربما أخذ البعض على بارت هذه النزعة التجريبية خاصة بعد الاحتياطات العلمية التي سبق وأن اتخذها في « نظام الموضة » ، و « عناصر من علم العلامات » . لكن ، لأبد من التوقف هنا عند نقطتين هامتين : فمن ناحية ، الشيء الوحيد الذي يهم المؤلف هو بيان المدلولات التي تظهر في النص ، وما الوحدة القرائية هنا سوى وسيلة مناسبة للبحث والعرض . ومن ناحية أخرى ، لا ينبغي أن نقيم « س / ز » بالقياس إلى كل من « نظام الموضة » و « عناصر من علم العلامات » ، وإنما بالنسبة للمأزق النسبي الذي وجده بارت في المجال الأدبي ، والذي تدل عليه بعض النصوص الواردة في « مقالات في النقد » . ومن وجهة النظر هذه ، يعتبر كل من « س / ز » و « صداد ، فوربيه ، لوايولا » تقدما أكيدا ، حتى لو افترضت محاولة المؤلف إلى الطابع العلمي الصرف . المهم هو أن بارت بدأ يقدم جوابا لسؤال لا يطرحه النقد على نفسه إلا نادرا : كيف يجري الحديث عن الأدب ؟ والجواب ، برأي بارت ، هو : بعدم الحديث عنه ، وإعادة كتابته . وأيا كان الحال ، فإن بارت ادخل تحسنا ملحوظا على منهج

الى المتعة - «متعة النص» Plaisir du texte (١٩٧٣) - ، مارة بالتلقي « س / ز » - بين النص القابل للكتابة ، والنص المتعة ، يظهر تعريف جديد للأدب . ويسير كتاب « متعة النص » في اتجاه الكتب السابقة له ، ولكن من وجهة نظر أخرى . ومن أول نص الى آخر نص كتبه ، من الأدب الى الأدب ، مروا بالموضة والبزّي ، والاعلانات ، والمصارعة الحرة ، نلمس استمرارية في نظر بارت الى الأمور .

تحليل النصوص وتطبيقه . واقتفى أثره عدد غير قليل من المعاصرين والتلاميذ ، نذكر من بينهم ، على سبيل المثال لا الحصر ، دريدا Derrida ، وج . كريستيفا ، وج . جينيت G. Genette .

لكن فكر بارت تميز بخواص تتجاوز قضية النص ، وتدور حول وضع من يتلقى السنة ، و « متعة » هذا التلقي . هكذا تغلق الدائرة التي تبدأ من الارسال - « درجة الصفر في الكتابة » - وتنتهي



BIBLIOGRAPHIE

Roland Barthes :

"Le degré zéro de l'écriture."

Paris, Editions du Seuil, "Points", 1972.

"Mythologies".

Paris, Editions du Seuil, "Points", 1970.

"Le système de la mode"

Paris, Editions du Seuil, 1967.

"Sur Racine".

Paris, Editions du Seuil, "Pierres Vives", 1963.

"Critique et vérité".

Paris, Editions du Seuil, Tel Quel", 1966.

"SIS"

Paris, Editions du Seuil, "Tel Quel", 1970.

"Sade, Fourier, Loyola"

Paris, Editions du Seuil, "Tel Quel", 1973.

"Le plaisir du texte".

Paris, Editions du Seuil, "Tel Quel", 1973.

Loui — Jean CALVET :

"Roland Barthes, un regard politique sur le signe",

Paris, Payot, 1973.

Guy de MALLAC' MARGARET EBERBACH :

"Barthes".

Paris, Editions universitaires, 1971.

Stephen HEATH :

"Vertige du déplacement, lecture de Barthes".

Paris, Fayard, 1974.

L'ARC, numéro spécial, no. 56, 1974.

يعتبر كتاب ج. سوليفان G.W.N.Sullivan (١) (limitation of Science) واحدا من الدراسات المعاصرة (الرصينة) التي تناولت بالتحليل قدرة العلم البشرى والآفاق التي تمكن من الوصول إلى بعضها ووقف إزاء بعضها الآخر ناكصا، عاجزا... وهو يذكرنا بكتاب الطبيب الفرنسي الشهير الكسيس كاريل الانسان ذلك المجهول: Man the unknown .. فكلاهما سبرغور العملية العقلانية للانجاز العلمى، ومارس تحليلها بعمق وروية .. وكلاهما يقدم للقارىء قناعات ليس إلى نكرانها من سبيل .. إنها ابنا العصر الذى خفت فيه حده الوهج المضيء الذى كان - يوما - قد حول ببريقه الوحشي جماعات العلماء والدارسين إلى منصوفة وعابدين في محارب العلم .

يومذاك ما كان بمقدور أحد من الناس أن يقف قبالة (العلم) ناقدا معترضا .. ما كان بمقدور أحد أن يشكك بقدرة هذا الصنم على أن يد إرادته الى كل مكان وأن يشمل برؤياه الموضوعية كل صغيرة وكبيرة ، فلا ينال أحد من نتائجها التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .. إن أحدنا لا يستطيع أن يتحدى الشمس بنظرة ثابتة والا فقد قدرته على الابصار .. يومذاك .. كان العلم هو هذه الشمس التي تسلب البصر من يختار أن يتحداها .. يومذاك كتب السير جيمس فتنز جيمس ستيفن (١٨٨٤) فصلا يعتبر مثالا للآراء العلمية في تلك الفترة ، فقال : (إذا كانت الحياة الانسانية في

العلم في مواجهة المادية قراءة في كتاب مرد العلم لسوليفان

عماد الدين خليل

أرادت البشرية تحسركا جادا صوب الأحسن والأرقى .. تحركا لا يضلله غرور ولا يحبطه اعتقاد اعمى على اليد الواحدة .

هذا إذا لم نكن خاطئين ، والخطأ - كما يقول تاليران - أكبر من الجريمة أحيانا، وذلك في تصور العلم والدين : يدان .. قد تعملان بتواز .. نعم .. ولكنها يدان منفصلتان .. هذه يد يميني وتلك يد يسرى .. والأخرى أن نقول بأن التيار الواحد الذي يلتقي فيه ويمتزج ويتداخل العلم والدين ، وتمتعي الثنائيات التي جاءتنا من الغرب ، ولم ندق لها طمعا في تجربتنا مع ديننا القيم (الاسلام) .. هنا .. حيث يكون الدين (علما) إلهيا شاملا .. وحيث يغدو العلم عبادة و (دينا) ..

يبدأ سوليفان فصله الثالث (الذي سنعتمده والخامس هنا نظرا لأهميتها بصدد الموضوع الذي بين أيدينا) ، هذه المقالة التي تذكرنا بتأكيدات كاريل في (الانسان ذلك المجهول) .. (تبدو التفسيرات العلمية للعالم من حولنا - يقول الرجل - أشد ما تكون وضوحا وإقناعا عندما تتناول المادة المجامدة ، ففي هذا المجال تبدو تلك التفسيرات مقبولة إلى درجة كبيرة ، لأنها على العموم ترضى . فضولنا وتعالج ما يثير اهتمامنا فيما يتعلق بالظواهر المادية . فالعمر ، والموقع ، والحجم ، والسرعة والتركيب الكيماوي ، هو ما تهتمنا معرفته لدراسة نجم من النجوم . وإذا علمنا أن المادة تتألف من ذرات مشحونة بالكهرباء ، ومنسقة وفقا لأنماط معينة ، فانتا

نشأتها قد استوفى العلم وصفها فلست أرى بعد ذلك مادة باقية للدين ، إذ ما هي فائدته وما هي الحاجة إليه ؛ إننا نستطيع أن نسلك سبيلنا بغيره ، وإن تكن وجهة النظر التي يفتحها العلم لنا لا تعطينا ما نعبده فهي كفيلة أن تعطينا كثيرا مما نستمتع به ونتمناه .. إننا قادرون على أن نعيش عيشة حسنة بغير الديانة .. » (٢)

لكن الزمن يمضي ومعطيات العلم الغزيرة تزداد تدفقا وعطاء كأموال البحر ، يدفع بعضها بعضا ويضرب بعضها بعضا .. ويتبين يوما بعد يوم وعقدا بعد عقد أن ما كان حقا بالأمس غدا اليوم باطلا ، وما هو مقبول اليوم ، سيفرض في غد أو بعد غد .. إن نتائج الجهد العلمي ليست سواء ، فبعضها قاطع بصدقه كالكسكين ، وبعضها الآخر - وهو كثير - اجتهادات ونظريات ، وبعضها الثالث - وهو أكثر من الكثير - ظنون وتخمينات ، وبعضها الرابع - وهو أكثرها - ميول وتحيزات نرجسية وهوى ..

وبعدما انطوت قرون الوهج والبريق - الثامن عشر والتاسع عشر ومطالع العشرين - حان الوقت لكي يعاد النظر في مسألة حدود العلم وقدراته .. ولكي يتصدى للحكم رجال ينطلقون من باحة العلم نفسه : المختبر ، لكي يصدروا حكمهم فيكون أكثر منطقية وأشد إقناعا .

ويبقى العلم - بعد هذا كله - يدا واحدة لا تستطيع أن تمضي بالحياة قدما صوب الكمال .. وتبقى الحاجة الملحة إلى اليد الأخرى .. يد الدين .. إذا ما

(٢) عباس محمود العقاد - عقائد للفكرين في القرن العشرين ، الطبعة الثانية ص ٣٠ - ٣٢

(White bead) منصفاً عندما أشار إلى هذه الحالة في معرض حديثه عن تطبيق أفكار الفيزياء والكيمياء على الحياة حيث قال : (لابد من الاعتراف بأن هذا الأسلوب - يقصد تطبيق أفكار الفيزياء والكيمياء على الظواهر الحية - قد لاقى نجاحاً مرموقاً . لكن المشكلة وهي هنا تفهم العمليات التي يقوم بها الجسم الحي ، لا يمكن أن تحدد بواسطة الأسلوب الذي تعالج به . ومن الواضح تماماً أن هناك عمليات معينة تقوم بها بعض الاجسام الحية بناء على تصور مسبق لغاية ما ، وتصور طريقة معينة لبلوغها وتحقيقها . ولا يمكن حل المشكلة إذلا جرى تجاهل فكرة الغاية لمجرد أن هناك عمليات أخرى يقوم بها الجسم الحي ويمكن تفسيرها في نطاق قوانين الفيزياء والكيمياء . إن وجود المشكلة في حد ذاته لم يعترف به ، بل جرى رفضه باصرار . لقد أجرى العالم ماني (Many) تجارب طويلة بقصد تعزيز اعتقاده بأن العمليات التي يقوم بها الجسم الحي ليست مستوحاة من فكرة الغاية . وأمضى العالم المذكور الكثير من وقته لكتابة المقالات التي أراد من ورائها أن يثبت أن فكرة الغرض أو الغاية غير ذات موضوع فيما يتعلق بتفسير النشاط الجسدي للكائنات البشرية ، شأنها في ذلك شأن بقية أنواع الحيوانات ، وذلك بما فيه أفعال هذا العالم نفسه ومقالاته . إن ملاحظة أولئك العلماء الذين يعملون للتدليل على أن أفعالهم لا مغزى لها ، ولا غرض من ورائها ، لأمر جدير بالدراسة والاهتمام .

(وثمة سبب آخر لاستبعاد فكرة العلة النهائية Final Causation ألا وهو الخشية من الانزلاق في التفسيرات السطحية ، وهذا أمر صحيح بكل تأكيد ،

تكون قد أرضينا فضولنا فيما يتعلق بتركيب المادة إلى درجة كبيرة : ص ٥) .

ولكن !!

(عندما نأتي إلى العلوم التي تعالج الظواهر الحية ، نجد الأمر مختلفاً ، والحال أقل إرضاء مما هي عليه بالنسبة للعلوم الطبيعية . إن كثيراً من الاسئلة التي تبدو لنا جوهرية جداً في هذا المجال لم تجد الاجابة عنها بعد . مثال ذلك : ما الذي يجعلنا ننظر إلى الكائن الحي ككل وليس كمجموعة من الأجزاء المكونة له فحسب ؟ ما الذي تعنيه تلك الفكرة الغامضة التي نعبّر عنها (بالكل) (wholeness) أو (الفرد) (Individuality) حتى لو أمكن تفسير كل فعالية أو نشاط يقوم به الجسم الحي عن طريق التغيرات الفيزيائية والكيميائية التي يحدثها ، فإن ذلك لا يعطينا الاجابة المطلوبة مالم يؤخذ بعين الاعتبار النظام الغائي) (Purposive order) لتلك التغيرات . على أن (الغرض) أو (الغاية) في حد ذاتها ليست فكرة علمية ، بمعنى أنها لا تستخدم في علوم الفيزياء والكيمياء ، وإن غالبية المشتغلين في علوم الأحياء ، أو على الأقل في علم الفيزياء الحيوية ، لا يستسيغون إدخال أية أفكار لم تثبت ضرورتها بالنسبة لتلك العلوم . إن مثل هذا العمل هو بلا شك إجراء جيد فيما يتعلق بمعالجة أصناف محدودة ومعينة من المشكلات أو القضايا . لكنه يبدو أيضاً وكأنه يقودنا إلى نتيجة مؤداها أن أهم قضايا علم الأحياء وأشدها بروزاً لم يتناوله الدرس والتحليل بعد . لقد كان البروفيسور وايت هيد

الحياة لا يرجى لها منافسة الصخور والجمادات في الاستمرار والبقاء .

(ان الانطباع الذى يراودنا بين وقت وآخر ، هو أن علماء الحياة لا يستطيعون الافتراض بأن التقدم الفعلى للأحياء يمكن أن يفسر ضمن شروطهم التى يتسكون بها ، اللهم الا من قبيل الايمان الخارق . ويوجد بالطبع بين علماء الحياة من ينكر ان مثل هذا النوع من التفسير أمر ممكن . وقد أدخل هؤلاء بعض

الأفكار الجديدة مثل (القوة الحيوية) (vital force) و (قوة التحقق) أو (الروح) emtelechy وما الى ذلك . لكنهم لن ينجحوا في تعريف هذه المصطلحات وتحديد مضامينها بحيث يمكن استخدامها في الأغراض العلمية . وبقيت المصطلحات شاهدا على أن المفاهيم الأساسية الحاضرة لعلم الحياة غير كافية : ص ٩٦) .

فها هنا نجد :

أولا : صعوبة تفسير النشاط الحيوى بعيدا عن النظام الغائى) ، الذى يضبط أنشطته ويسيرها الى هدفها المرسوم .. ومحاولة غير مجدية من علماء الحياة لاستبعاد الغائية واعتماد أساليب العمل في حقول الفيزياء والكيمياء والتى ترفض الانكاء عليها .. تلك الأساليب التى قد تحقق بعض النجاح ولكنها لتأصل المشكلة من أساسها .. اذ يبقى التعامل مع الحياة هو غيره مع الذرات والجزيئات . ومن ثم يطرح (وايتهيد) تحفظه حول ضرورة الاعتراف ، بشكل أو بآخر ، بوجود تصور مسبق لغاية ما يفسر العملية الحيوية .

فالعامل المضى لتتبع سلسلة متلاحقة من الظواهر الفيزيائية ، يمكن ان يفسده اقتراح سطحي يتعلق بالعلة النهائية . ومع ذلك فان وجود حقيقة مؤداها ان ادخال فكرة العلة النهائية في العلوم أمر له مخاطره ، لا يمكن أن يعتبر مبررا لتجاهل مشكلة حقيقية . فالمشكلة إذا تبقى قائمة لا يمنع ذلك كون القول ضعيفة .

(ان الاتهامات التى تتطوى عليها أقوال وايت هيد لها ما يبررها بالتأكيد . اتنا نحس المرة تلو المرة بأن المفاهيم الأساسية التى يستخدمها علماء الأحياء ليست كافية لمعالجة أهم المشاكل التى تواجههم . ان نظرية " الانتقاء أو الاصطفاء الطبيعى (natural selection) على سبيل المثال ، لتبدو مليئة بالفجوات عندما تدرس بالتفصيل . ان الرم ليتقبل بسهولة ، وبشكل عادى ، التفسيرات الفيزيائية المحضة على سبيل المثال ، ولكن لا بد له من بذل مجهود عظيم حتى يستطيع الاعتقاد ، ولو مؤقتا ، بأن جميع التطورات التى حدثت للكائنات الحية على ظهر هذا الكوكب جاءت نتيجة (لتغيرات عشوائية) (random variations) ، وللصراع من أجل البقاء ، ان نظرية الاصطفاء الطبيعى لا تفسر ولومن جانب بعيد أكثر الحقائق وضوحا فيما يتعلق بالعملية كلها ، ونعنى بذلك اقيام الكائنات الحية نحو الارتقاء . فلأ أن مجرد البقاء كان المطلب الوحيد ، فان نوعا من الحياة البدائية يبدو لنا كافيا ليقى بالغرض . ويبدو لنا في هذه الحال أيضا أنه لن يكون هناك ما يستدعى حثا ظهور هذا النوع من الحياة البدائية ، لأن مثل هذه

التجدد موجود في ذلك العقل وجوده في عقولنا . وإذا كانت هذه الأقوال تنطوي على عنصر من عناصر الحقيقة ، فأننى أشك في أن تكون تلك القوة ذات طبيعة مشابهة لطبيعة العقل . ان شكى في امكانية وجود نوع من الكائن المجهول (١١) يلزم عملية التطور يعود الى الاعتراف بجمال مثل هذا الكائن وبغرابته التي لا تنتقض ، تلك الغرابة التي تشكل الميزة التي ظلمت أشتعرها خلال عشرين عاما قضيتها في العمل العلمى الدائب : ص ٩-١٠)

فكأنه ، وهو العالم يتحدث بلسان هيفل الفيلسوف ، الذى تقود بحصلة فلسفته الى القول بالعقل الكلى للعالم ، والذى يتحرك التاريخ وفق توجيهه ، وتعبير الدول والحضارات عن مشيئته ، ويغدو الأبطال أدوات يديه .. والصيرورة التاريخية هدفها تحقيق ما يسميه هيفل بتجلى المتوحد .. الانطباع الهندسى الباهر بين التاريخ وبين مشيئة العقل الكلى هذا .

ما هى طبيعة هذا العقل ؟ أين يقع ؟ كيف يعمل ؟ لا أحد يدري .. تماما كما أن هولدن نفسه لا يدري طبيعة العقل (الذى يتميز بالغرابة) التى اشتعرها طيلة عشرين عاما من العمل العلمى المتواصل .. وهكذا وصفت فلسفة هيفل المثالية بأنها تمشى على رأسها .. ولا ندرى لماذا يمكن أن توصف فكرة هولدن هذه .

ومرة أخرى .. لو قالوا : الله ، لحلت الاحابى والألغاز .. ولوجد العالم والفيلسوف نفسيهما يتحركان في الطريق الصحيح مع أدلة الحياة المعجزة .

ثانيا : ان الخطأ يكمن في موقفنا من المشكلة ، في (كون العقول ضعيفة) ، كما يعبر سوليفان ، هذا الموقف الذى يسمى الى معالجة الحياة بعيدا عن فكرة العلة النهائية .. وهذا أمر له مخاطره ولا يمكن أن يكون مبررا لتجاهل مشكلة حقيقية .

ثالثا : ان نظرية الانتقاء ، أو الاصطفاء الطبيعى ، على فرض التسليم المطلق بها ، لا يمكن أن تفسر ولا أن تبرر الا على ضوء وجود علة ، أو قوة ما ، تسوق الحياة والأحياء في سلم التطور صوب الاحسن والأرقى .. والا غدت العملية من أساسها لغزا مبهما ، الأمر الذى دفع بعض العلماء الى البحث عن بعض المفاتيح مثل (القوة الحيوية) أو (قوة التحقيق) أو (الروح) وما الى ذلك ، لكنهم لن يتنجحوا في تعريف هذه المصطلحات وتحديد مضامينها ، بحيث يمكن استخدامها في الأغراض العلمية ، وبقيت المصطلحات شاهدا على أن المفاهيم الأساسية المحاضرة لعلم الحياة غير كافية) . ولو قالوا : الله ، لحلت الأحابى والألغاز ، ولوجدوا أنفسهم يتحركون في الطريق الصحيح لفهم معادلة الحياة المعجزة !!

ونلتقى بمحاولة أخرى يقدم بها ج . ب . س . هولدن (j. b. s. haldane) أحد ألع علماء الحياة الحديثين ، في احدى مقالاته (اننى لأتصور وجود قوة تلام خط تطور الحياة ملازمة العقل للدماغ . لقد حاول رويس (royce) في عام ١٩٠١ اعطاء صورة محددة هذه القوة ، وذلك كمقل ذى أبعاد زمانية هائلة . وذكر أن الاحساس القوى الذى يلزم عملية

(٢)

قصيدة أو مساحة من عمل فنى لكى يحكم من خلاله على مجمل العمل ويلاحظه النهائية .

فها هو ذا العلم يقول كلمته ، ويعلم من قلب المختبر ، لا على طريقة التصوير الكاريكاتيرى للحكمة من التهام القطط للفئران ، انه بدون تصور غائى للحياة والعالم والانسان فانه ليس ثمة أمل فى فهم الحياة والعالم والانسان .. ان العلائق والاستطرادات السببية قد تفسر جزئيات من هذه الأقطاب ولكنها لا تحل قضاياها الكبرى .

وإذا كان التهام القطط للفئران لا يمنحنا قناعة ما بهدفية خلق هذين الطرفين ، فان بدء الحياة والعالم وتسلسلها وفق ملايين الموافقات والعلاقات البنائية المركبة التى تستبعد الصدفة نهائيا ، لا يجعلها إلا تصور وجود مفتاح عظيم هذا كله : الغائية .

ان المادة التاريخية نفسها ، توأم الديالكتيكية ، تجد نفسها مسوقة الى نوع من الغائية يتحرك من خلالها التاريخ نحو الأحسن ، وهى لو أعطت الجماعة البشرية ، أو الطبقة ، الحرية المطلقة فى صياغة ظروفها التاريخية وصنع مستقبلها لذهينا معها الى رفض الغائية ، ولكنها تمنح مساحة واسعة فى امداد التاريخ لما تسميه بالضرورة التاريخية .. الجمعية التاريخية .. وما دام الأمر كذلك .. ما دام أن هناك شيئا ما خارج وعى الانسان وارادته يتحرك بعقلانية صوب الأحسن فلا بد أن فى الأمر غاية ما ، قوة ما ، هى التى تسير التاريخ ، وفق المادة التاريخية

بل ان المادة الديالكتيكية تذهب - كعادتها - خطوة أبعد ، فترفض الغائية بالكلية ، وترى(ان الفلاسفة المثاليين بما أنهم عاجزون عن تفسير حقائق العقلانية والنظام التى يصادفونها أينما كانوا فى الطبيعة ، فقد أخذوا يزعمون أن ما يحدث نشوء وتطور جميع الأشياء فى الطبيعة ليست الأسباب المادية وقوانين الطبيعة نفسها ، بل الهدف الذى ترمى اليه ، ومهمتها ، والغرض من وجودها . لقد أطلق على هذا الرأى اسم الغائية . ان انفلز يسزاً من هذه المباحثات ملاحظ ان القطط طبقا للنظرة الغائية الى العالم قد خلقت من أجل أن تبتلع الفئران وأن الفئران خلقت من أجل أن تبتلعها القطط ، وقد أوجدت الطبيعة كلها للبرهنة على حكمة الخالق !! ان المثاليين يأخذون بنظرية الغائية حتى يومنا هذا (٣) .

والأمر فى حقيقته ليس بهذه البساطة التى يريد انغلز (نعمدا) أن يصور بها قضية خطيرة كالغائية .. انه بهذا المثال ، يفتطع من وقائع العالم جزئية صغيرة يريد بها أن يفسر كنه العالم ولا غائيته بأسلوب كاريكاتيرى ساخر .. ومعروف منطقيا أن الحكم على الكل من خلال جزئية من جزئياته أمر يجانب الصواب ، إنه كمن يفتطع شريحة من لحم مخلوق ما يريد أن يفسر بها نشاطه البيولوجى الوظيفى وحتى العقل ، أو كالذى يفتطع تعبيرا من

(٣) بوردستيك وإلخوت : عرض موجز للمادية الديالكتيكية ، دار التقدم ، موسكو ، ص - ١٢٢ - ١٢٣ .

الجنسى عند فرويد مثلا قد أريد به تفسير أشياء كثيرة الى درجة أنه لم يفسر شيئا محمدا (١) .

وهكذا فان مفهوم (العقل الكلى) لدى هيجل قد أريد به - كذلك - تفسير أشياء كثيرة جدا في العالم الى درجة أنه لم يفسر شيئا محمدا .. وتبدل وسائل الانتاج ، في النظرية المادية التاريخية ، قد أريد بها تفسير أشياء كثيرة جدا في التاريخ الى درجة أنها لم تفسر شيئا محمدا .. وما يقال عن النالية والمادية يمكن أن يقال عن الوجودية والعينية وسائر المذاهب الغربية على كافة المستويات .

ان بعدا نفسيا يكسب وراء هذه التعميمات ، للكشف ذات الطابع الجزئى ، ان العالم أو الأديب أو الفيلسوف ، وقد اكتشف بذكائه مفتاحا ما من المفاتيح التى يمكن أن تسقط ضوءا على الوجود والتاريخ ، يسعى الى مد اكتشافه هذا لكي يغطى كافة مساحات الوجود والتاريخ ومنحنياتها الطويلة المعقدة المتشابهة .. انه يريد أن يحتكر حق الكشف والتفسير ، ويحجب عن الآخرين حريتهم العقلية والوجدانية في أن يرحلوا هم أيضا وأن يكتشفوا ويتكروا نظريات ونظما وأعرافا ، وأنها لترجسية هي ولا ريب أفسى أنماط الترجسية التى عرفتها مناهج البحث البشرى وطرائقه .. انها لتصل بهم - وهكذا - بحيل اليهم - الى عتبات الألوهية .. وكيف .. وهم يجلدون من المعجبين والاتباع عبادا خاضعين يسبحون بحمدهم ويمنحونهم طائعين صفة التوحيد والتفرد ؟

ها قد آن الأوان لكي يقول العلم كلمته .. انه ليست ثمة حقيقة في أى ميدان من ميادين العلم

نفسها ، في هذا النظام الفذ العجيب صوب غاياته الانسانية !!

(٣)

ويعد سوليغان تحليله الى (علم النفس) باعتباره أحد علوم الحياة فىرى أنه (على نقض العلوم الطبيعية ، ليبدو أشد قصورا أو أقل كفاية . فأكثر نظرياته قربا من مفاهيم الميكانيك ، وهى نظرية السلوك (behaviorism) تعانى من قصور شديد . حقا لقد أدخل التحليل النفسى (psycho — analysis) مفاهيم اساسية غير ميكانيكية ، لكن هذه المفاهيم بقيت غير محددة الى درجة لا يمكن معها وصفها بأنها مفاهيم علمية . فمفهوم الدافع الجنسى أو الليبدو (libido) عند فرويد (Freud) مثلا ، قد أريد به تفسير أشياء كثيرة جدا الى درجة أنه لم يفسر شيئا محمدا (١)) فمن وجهة النظر العلمية لا يمكننا أن نكسب شيئا جديدا اذا قلنا بأن أشد الظواهر النفسية بروزا تصدر من الليبدو ، بدلا من القول أن تلك الظواهر تصدر عن ارادة الله . ان المفهوم الذى يفترض فيه أن يفسر كل شيء ، لا يفسر شيئا على الاطلاق : ص ١٠) .

ويسعد سوليغان في الفصل الخامس المعنون بـ (طبيعة العقل) للوقوف طويلا عند معطيات علم النفس وكيف أنها لم تصل - عتبات اليقين الأولى . وثقلت نظرتنا هاهنا عبارة ذات بعد منهجى ، يكاد يكون سمة من سمات الفكر الوضعى في الغرب ، في تألفه وفى سقوطه على السواء .. (ان مفهوم الدافع

المادى أو الحيزى يمكن أن يفسر بها العالم كله .. انها تفسر جانباً من العالم .. نعم .. ولكن ليس العالم كله بأية حال من الأحوال .

ويخلص سوليفان الى القول بأن (المفاهيم الاساسية التى أمكن استخلاصها وعزلها حتى الآن ، والتى تعتبر وافية الى حد معقول ، هى تلك المرتبطة بالعلوم التى تعالج الظواهر المادية الجامدة . ونقول (وافية السى حد معقول) لأن نظريتى النسبية (relativity theory) والكم (Quantum theory) قد ادتا حديثاً الى إعادة النظر فى هذه المفاهيم ومراجعتها شاملة . على كل حال فقد أثبتت تلك المفاهيم نجاحاً فذاً خلال القرون الثلاثة الماضية وانه لمن المشكوك فيه أن يؤدى هذا النجاح الى نجاح أية تجربة تقوم على تطبيق هذه المفاهيم فى مجالات لاتقبل بطبيعتها التطبيق فيها : ص ١١) .

إذا فحتى العلوم التى تعالج الظواهر المادية الجامدة ، لم تسلم معطياتها من الهزات ، ، فها هى ذا نظريتنا النسبية والكم ، وتغيران وتبدلان فى الكثير من المفاهيم العلمية السائدة ، والمسلمات ، أو هكذا كانت توصف ، والتى صمدت خلال القرون الثلاثة الماضية . وبها يمكن من أمران النجاح (النسبى) لمفاهيم التعامل مع المادة يجب ألا يدفعنا الى الطريق الخاطيء وهو قسر تجربة الحياة على الخضوع للمفاهيم

نفسها ، لأن مصير قسر كهذا هو الفشل بعينه ، وهذا يعود بنا مرة أخرى الى ضرورة البحث عن معايير أخرى لدراسة علوم الحياة ، وإلى التسليم بالغائية كمفتاح لكثير من الأبواب الموصدة ها هنا .. وإن كنا نحن نجد فى الغائية أمراً مسلماً به حتى على مستوى المادة : (فقال لها وللأرض : اثبتى طوعاً أو كرها ، قالتا أتينا طائعين)^(٤) (وأن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)^(٥) . وقد عالجنا هذه النقطة بما فيه الكفاية فى كتاب (التفسير الاسلامى للتاريخ) .^(٦)

(٤)

ولكن ما هى المفاهيم الأساسية للعلوم التى تعالج الظواهر المادية ؟ وكيف أمكن استخلاصها ؟ (ان الاجابة على هذا السؤال - كما يقول سوليفان - سوف تمكننا من الوقوف على طبيعة وحدود الأسلوب العلمى ، وسوف تظهر لنا أن الأمل فى أن تكون هذه المفاهيم كافية لتغطية احتياجاتنا وتفسير كل ما يقع فى مجال خبرتنا وتجاربنا فى المستقبل ، أمل ليس له أساس يرتكز عليه : ص ١١) .

ذلك - والحق يقال - جواب خطير ، يعلن بصراحة أنه حتى على مستوى العلوم التى تعالج الظواهر المادية الجامدة فإنه ليس ثمة يقين مطلق ، ليس ثمة سوى الحقائق النسبية والافتراضات ، والتفكيرات .

(٤) سورة فصلت ١١

(٥) سورة الاسراء ٤٤

(٦) دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٧٥

الأشياء وصميم تركيبها أم أنها ذاتية تضفيها عمولنا عليها بشكل أو بآخر ؟ وهل ثمة نوعان من الصفات أحدها أساسي والآخر ثانوي .. ليس ثمة جواب نهائي ، ونجد أنفسنا في نهاية الأمر أن المسألة قد عولجت فلسفياً بطريقتين : الطريقة الأولى أو الرأي الأول ينكر القول بأن الصفات الأساسية أقل ذاتية بأى قدر من الصفات الثانوية ، ويعتبر مجموعتى الصفات كليتها تابعتين للعقل ، ولا يمكن تصور أى وجود لها خارجه . والطريقة الثانية أو الرأي الثانى ينكر القول بأن الصفات الثانوية أقل موضوعية بأى قدر من الصفات الاساسية . فكل من هذين الرأيين ينكر أن الصفات الأساسية هى أكثر حقيقة من الصفات الثانوية ، على الرغم من أن الصفات الأساسية هى فقط التى يمكن اخضاعها للمعالجة الرياضية .. ان العقيدة الغاليلية (Galilean Doctrine) التى أصبحت جزءا من النظرة العلمية الشاملة تصر على أن الصفات الأساسية هى وحدها حقيقة ، أما الصفات الأخرى فهى صفات وهمية بشكل أو آخر ..

وكذلك ، فان ثمة وجهات نظر مختلفة ، ومتضادة أحيانا ، حول مفهوى الزمان والمكان .. وحول فكرة السبب أو العلة (Cause) والغاية .. وحول الامتداد والفراغ .. أما عن طريقة التعامل بين العقل والمادة فقد أصبحت لفزا من الألفاظ .. ان ديكارت الذى عالج هذه المسألة بافاضة ، لم يقل شيئا فى هذا الصدد أكثر من أن الله قد جعل مثل هذا التفاعل ممكنا ! !

يقوم سوليفان للاجابة على هذا السؤال بجولة طويلة مع معطيات العلماء عبر قرون ثلاثة. يبدأ مع (كوبرنيكوس) و(كبلر) و(غاليله) فيبين أن دراستهم للظواهر اعتمدت أسلوبا انتقائيا يقوم على اختيار بعض من المجموع الكلى للظواهر على اعتبار أن هذا (البعض) فقط يمكن أن يصاغ فى قالب علمي .

وعلى سبيل المثال فان كوبرنيكوس وجد أن الأجرام السماوية تتحرك بانتظام وانضباط عظيمين . وتوصل الى اعتبار الشمس مركز النقل ، وكانت هذه النظرية عرضة لمعارضة شديدة بالنظر للمناهيم الحركة المغلوطة التى كانت سائدة فى ذلك العصر . ان نظرية كوبرنيكوس كتفسير فيزيائى للظواهر المعنية لم تكن بالتأكيد أفضل من نظرية بطليموس ، ومع فقد كان صاحبها واتقا من أن سحرها الجبالى كاف ليؤمن لها الخطوة باهتام الرياضيين وأعاجيهم . وبالفعل فقد كان هذه الثقة ما يبررها . وقد جاء كبلر فأخذ بالرواء الجبالى للنظرية الجديدة ، ورفع منزلتها فى نظره ، ذلك المركز المرموق الذى أعطته للشمس . ولا عجب فقد كان كبلر ، بطريقة باطنية غامضة ، أحد عباد الشمس (ويقتبس سوليفان فقرات من محاضرة لكبلر يتفضل فيها بالشمس وكأنها ترانيل أحد كهنة إخناتون) .. وهكذا فان العوامل التى أدت بكبلر الى قبول نظرية كوبرنيكوس لا يمكن اعتبارها الآن عوامل علمية على الاطلاق .

وما يقال عن مركز الشمس يمكن أن يقال عن صفات الأشياء : هل هى موضوعية متواجدة فى صلب

لقد لجأ فقط الى التجربة من أجل اقتناع خصومه بوجهة نظره . ان نيوتن يعتبر أول من ربط بين النظرة الرياضية والنظرة التجريبية ربطا كاملا :
ص ٢٦-٢٥) .

(٥)

وعندما نصل الى نيوتن نكون قد بدأنا عصر التجريب بمعناه الدقيق ، رغم أن عددا من الذين سبقوه كانوا تجريبيين كذلك ، مثل جيلبرت وهارفي وديويل (ولا يشير سوليفان الى الجهود الكبيرة المثمرة التي سبق بها العلماء المسلمون في ميدان التجريب .. ان سوليفان كمعظم الأوروبيين ينظر الى القارة كبده ومنتهى لمسيرة الحضارة البشرية) .

وعلى خلاف العلماء الذين سبقوه لم يعتبر نيوتن العالم ذا طبيعة رياضية بالضرورة .. ولم يفترض أن الرياضيات هي المفتاح الوحيد للحقيقة . لقد كان يقول (أرجو أن تلقى هذه المبادئ التي تم ارساؤها بعض الضوء على هذا الأسلوب) (الأسلوب الرياضي) ، أو أي أسلوب فلسفي آخر أصدق منه) . وبعد أن ثبت له فعالية الأسلوب الرياضي ، قرر استخدامه ولكن ضمن تحفظات اكيدة :
ص ٢٦-٢٧) وكان يقول (ان العلم بشكله الرياضي المفترض كان مغامرة ربما لزم أن نأثى بأسلوب آخر أكثر صداقا : ص ٢٩) .

أسلوب آخر أكثر صداقا !! اننا هنا في الشرق ، في عصور انحطاطنا الحضاري لا يمكننا بحال أن نتصور أن طريقة علمية ما ، رياضية أم تجريبية أم أية طريقة أخرى ، يمكن أن تعد مغامرة وأن بالامكان الاتيان بطريقة أخرى .. اننا هنا نرفض المساس

يتناول سوليفان هذه المسائل الأساسية وغيرها عبر جهده كبار العلماء الذين اعتقدوا بأن الرياضيات هي مفتاح الكون ، والذين سيطرت على أذهانهم هذه الفكرة فانعكست على معطياتهم كافة دون أن يعنوا أنفسهم - أحيانا - بتجريب هذه المعطيات للتأكد من مدى سلامتها وصحتها : كوبرنيكوس .. كبلر .. غاليله .. ديكرات ..

ثم يخلص الى القول بأننا رأينا حتى الآن (بأن تطور النظرة العلمية - قبل نيوتن - قد اخذ ملامحه الأساسية من زرععات الرياضيين . وقد كان الافتراض الأساسي المرافق للانجاز العلمى هو أن العالم الحقيقي ما هو الا عالم الكم . وإذا قارنا هذه النظرة بالنظرة العلمية الحديثة ، المتطورة ، فانا نرى أن رجال العلم المتقدمين كانوا شديدي الميل لأن يشرعوا للعالم على أساس افتراضات مسبقة (A Priori) ثابتة ، افتراضات ما هي في الحقيقة التعبير عن النزعات الرياضية التي كانت مسيطرة عليهم . ان النظرة الحديثة تختلف عن نظرتهم في أن افتراضاتهم ذات طبيعة تجريبية . وعلى الرغم من أن الرياضيات قد أثبتت حتى اليوم أنها أقوى اداة لتفحص الطبيعة تفحصا علميا ، فان ذلك لا يبرر الاعتقاد بأن الطبيعة هي رياضية بحكم الضرورة !! لقد تحققنا الآن من أن الاستنتاجات الرياضية مهما كانت متينة يترتب دائما تدقيقها عن طريق التجربة . ان غاليله الذي يدهشنا بكونه اكثر العاملين الأوائل تقدما ، يذكر بأنه لم يكن في معظم الأحيان يعتبر التدقيق التجريبى على استنتاجاته أمرا ضروريا .

وستظل عملية إعادة البناء قائمة هناك مادامت لديهم الرغبة الأصلية في التقدم . ويوم يعتقد الغربيون أن عملية البناء قد استكملت فعني ذلك أن شمس حضارتهم قد أذنت بالأقول !!

والنتيجة ؟ (لقد أصبح العلم شديد الحساسية ومتواضعا نسبيا . ولم نعد نلقن الآن أن الأسلوب العلمي هو الأسلوب الوحيد الناجع لاكتساب المعرفة عن الحقيقة : ص ٣٢) .. هذا ما يقوله العلماء أنفسهم .. أما العالة ، فانهم يرفضون ذلك ، ويتشجعون ازاء أية محاولة تستهدف نقد قدرة العلم على حل لغز الحياة والوجود .. فاذا ما قيل لهم ان هنالك أسلوبا آخر للمعرفة لن يتم فهم الحياة الا بمعونته وذلك هو الدين .. ففروا أفواههم دهشا ولوا أشداقهم اذراء !! ذلك أننا مازلنا نلقن بأن الأسلوب العلمي هو الأسلوب الوحيد الناجع لاكتساب المعرفة عن الحقيقة .. وأنه لا حاجة بعد اليوم للدين !!

ولنتابع (ان عددا من رجال العلم البارزين يصرون بمنتهى الحماس على حقيقة مؤداها أن العلم لا يقدم لنا سوى معرفة جزئية عن الحقيقة ، وأن علينا لذلك أن لا نعتبر أو يطلب اليها أن نعتبر كل شيء يستطيع العلم تجاهله بمجرد وهم من الأوهام . ان الحماسة التي يظهرها رجال العلم هؤلاء فيما يتعلق بفكرتهم القائلة بأن للعلم حدودا ليست مما يشير العجب في حقيقة الأمر . فلوا اعتبرنا بقدمه العلم على أنه الحقيقة النهائية فان الانسان نفسه لن يكون سوى ناتج عرضي مشتق من آلات رياضية هائلة

حتى بالنظريات والرؤى التي تطرحها المناهج العلمية ، فالقرويدة في وقت ما كان التشكيك بها يعد كفرا يواحا ومروقا عن حظيرة العلم ، والمادة التاريخية اليوم يعد نقدها بالنسبة لقطاع واسع من من المثقفين ، المقلدين ، خروجا عن الأسلوب العلمي وضربا في الخرافة !! هذا بالنسبة لنتائج البحث فكيف بالنسبة للمنهج نفسه ؟ !

أما في الغرب حيث صنعت هذه المناهج طيلة القرون الأخيرة ، وانتجت نظرياتها وقوانينها بالتالي ، فان بمقدورهم - هناك - أن ينقدوا ويشككوا ويستبدلوا أسلوبا باستلوب ومنهج بمنهج ، ناهيك عن رفض نظريات بكاملها وطرح نقائض بديلة لها تماما .. انهم صناع حضارة ، ونحن في عصورنا الأخيرة مستوردو حضارة ، ومن يجدون أنفسهم قادرين - بثقة - على التغيير والاستبدال فيما صنعتهم أيديهم وصاغته عقولهم .. ونجد أنفسنا عاجزين عن النقد الحر والتغيير والاستبدال .^(٧)

يمضي سوليفان قدما فيبين ان نظرة نيوتن التي هيمنت على أوساط العالم العلمية لمدة تقارب المائتي عام وجدت أنها غير كافية !! وأن ما يجري الآن هو استبدالها بالاتيان بنظرة مختلفة .. ذلك هو ما دعي بالثورة الحديثة في العلوم !! (لقد أصبح الآن واضحا أن المضامين الفلسفية للنظرة الجديدة تختلف اختلافا بينا عن مضامين النظرة القديمة ، وذلك على الرغم من أن عملية إعادة البناء لم تكتمل بعد على أية حال من الأحوال : ص ٣٢) ..

(٧) عالجت هذه النقطه بالتفصيل في بحث (ملاحظة في التقليد الحضاري) كتاب (مع القرآن في عالمه الربيع) ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٢

(التمسب للنظرة العلمية القديمة) فليس التمسب بمقتصر على الدين - حتى هؤلاء لم يعودوا يرتاحون لهذا التصور الشنيع : الانسان وهو يتحول الى ناتج عرضي في كون لا هدف له ولا غاية .. لقد انتهى عصر الايمان بتفاهة الانسان ، وأخذ العلم - وقد جاوز طفولته ، وخطا نحو الرشد - يقود البشرية نحو الحرية ، متجاوزا بها عصر العبودية الرهيب .. وان هذا المصير الأكثر اضاءة لاقى ترحيبا وتهليلا من بعض رجال العلم أنفسهم !!

(ان هذا التغير في النظرة العلمية يبدو وكأنه حدث فجأة . اذ لم تحض ستون سنة منذ صرح تندل (Tyndall) في بلفاست بأن العلم وحده قادر على معالجة كل مشاكل الانسان الأساسية ، ولم تحض بعد عشرون سنة منذ قال برتراند رسل وهو يتأمل بعض الأجوبة العلمية (ان استقرار الانسان لا يمكن أن يبنى من الآن فصاعدا الا على أسس متينة لا يتطرق اليها الفساد) ، انه والى الحد الذي تستند فيه هذه الملاحظات الى الاقتناع بأن الحقيقة الوحيدة هي المادة والحركة يمكن القول ان أسس هذه الملاحظات لم تثبت بعد . ان المحاولة لتمثيل الطبيعة على أنها مادة وحركة قد باءت بالفشل . لقد بلغت المحاولة ذروتها في أواخر القرن الثامن عشر. عندما جاهر لابلان مؤكدا بأن في مقدور رياضي عظيم الى الدرجة المطلوبة أن يتنبأ بكل مستقبل العالم لو أعطيت له معلومات كافية عن توزيع الجزئيات في السديم البدائي Primitive nebula . ان المفاهيم الأساسية التي استطاع نيوتن عزها واستخلاصها قد

لا عقل لها ولا غرض . وهناك من العلماء انسانيون الى درجة أنهم يجنون مثل هذه النتيجة مضطربة . وحتى أولئك العلماء التمسبون للنظرة القديمة فانهم يظهرون في بعض الأوقات رغبة ملحّة في أن لا تكون الأمور على الشكل الذي يعتقدونه . فعلينا اذا أن لاندعش اذا وجدنا أن الاكتشاف القاتل : بأن العلم لم يعد يجرينا على الايمان بتفاهتنا بالضرورة قد لاقى ترحيبا وتهليلا حتى من بعض رجال العلم أنفسهم : ص ٣٢ - ٣٣ .

اننا نجد في هذا المقطع (مبادئ) غاية في خطورتها بالنسبة للمسألة العلمية .

نجد عددا من رجال العلم البارزين يصرون بمنتهى الحماس على حقيقة مؤداها أن العلم لا يقدم لنا سوى معرفة جزئية عن الحقيقة . وبالمقابل فان الأجزاء الاخرى من الحقيقة ، الأجزاء الأشمل والأوسع والأعمق ، تندّ بالضرورة عن قدرة العلم على الاحاطة وهنا تبدو القيمة الحقيقية للدين .. ان الذين يقولون هذا ليسوا اناسا عاديين ولا فلاسفة ولا أدباء .. انما رجال علم بارزون ، وهم يقولونه (بمنتهى الحماسة) ، وهي عبارة تحمل دلالتها ولا ريب .

(٦)

لقد انتهى العصر الذي اتخذ العلم فيه الها .. عصر الوثنية العلمية التي مسخت الانسان وأذلته وحولته الى مجرد تابع ذليل للقوانين والنظريات .. بل الى مجرد ناتج عرضي تافه مشتق من آلات رياضية هائلة لا عقل لها ولا غاية .. انه حتى العلماء التمسبين للنظرة القديمة - ولنلاحظ هنا عبارة

لنا كيف أن العلم ليس حقائق نهائية لا تقبل نقضا ولا جدلا .. (لقد جاءت أول إشارة إلى أن مفاهيم نيوتن لم تعد تفي بالفرض عندما حاول بعض العلماء أن يصوغوا نظرية ميكانيكية للضوء ، وأدت المحاولة إلى ابتداء الأثير ، وهو عمل بعد من أقل ما أنتجته العبقرية العلمية قبولا . واستمرت المحاولة أجيالا طويلة وظهرت خوارق من العبقرية الرياضية في محاولة تفسير خواص الضوء ضمن مفاهيم نيوتن ، وأصبحت الصعوبات مدعاة لليأس أكثر من أي وقت مضى . وبدت مفاهيم نيوتن وكأنها قد أصبحت قابلة لأن تقهر بعد أن نشرت تفسيرات ماكسويل Maxwell القائلة بأن الضوء ظاهرة كهربائية مغناطيسية . وكان الأثير قد أصبح في هذا الوقت معقدا إلى درجة لم تعد تقبل التصديق . لم يكن معقدا فقط ، بل كان يشعأ أيضا ، والبشاعة في النظريات العلمية شيء لا يستطيع رجل علم أن يتسامح تجاهه . لقد قدم كوبرنيكوس مثلا صحيحا للعلم القائم على المزاج عندما بدا مقتنعا بأن السحر الجبالي لنظريته سوف يكفل لها شق طريقها في وجه نظرية بطليموس التي كانت بدورها تشكوك من التعقيد الذي لا يطاق ، لقد أصبح بناء الأثير صناعة فاسدة !! وسبب ذلك على الخصوص هو أن الطلب على منتجاتها كان قليلا جدا . وقد بدأ يتسرب إلى نفوس رجال من العلماء ما يشير إلى أنه ليس هناك شيء بالغ القدسية في تراكيب أو مفاهيم نيوتن ، وإلى أن قائمته بالأصول النهائية كالكتلة والقرعة وما إلى ذلك لم تكن شاملة لكل شيء على وجه الحصر . وبهذا يمكن إضافة الكهرباء إلى هذه الأصول عوضا

أثبتت كفايتها في التطبيق إلى درجة جعلتها تعتبر وكأنها مفتاح كل شيء . (ص ٣٣) .

أن تسدل وريسل ودارون وماركس وديركايم ، وغيرهم كثيرون أبناء عصر عبودية العلم ، عصر الدهشة والاعجاب الذي يتجاوز الوقفة الموضوعية إزاء الظواهر والأشياء إلى نوع من التقييل والاندماج .. لقد رأينا مثلا - تحول (كيلر) من عالم رياضي إلى كاهن ، وهو يقف قبالة الشمس ، من خلال النظرية الجديدة التي جعلتها مركزا للكون .. يقول كلمات وكأنه يرتل في أحد معابد أختانجون .. أن الأطفال الذين تبههم الأشياء الواجبة ، يفقدون قدرتهم على تأملها والتمعن فيها ، ويصبحون على استعداد لأن يرموا بأنفسهم فيها حتى ولو انتهت الأمر إلى أن تحرقهم أو تسلبهم !! أن علماء عصر الوهج العلمي كانوا مستعدين أن يتحول كل واحد منهم إلى (كيلر) آخر يسجد للهنم الجديد ويطوف حوله ويتنازل عن حرته الكاملة عند قلعيه ..

ولكن وبمرور عقود قليلة من الزمن ، تهاوت الاعتقادات القديمة ، وتعترت الصنميات الفاتية ، وتبين للنخ الجديدين من العلماء الكبار أن العلم ليس هو كل شيء وأن مفتاح الكون كله ليس بيديه .. وأنه ليس بمقدور أكبر رياضيين العالم أن يقول لنا كيف يستطيع عقله أن يفاضل أو يكامل بين الأرقام ؟ !

ويمضي سوليفان محدثنا عن هذا الانحسار الشامل للعلم والانطفاء غير المتوقع لوهجه الذي أعشى عيون أجيال وأجيال وفتنهم عن دينهم ، ويبين

صحيحاً للعلم القائم على المزاج) (لقد أصبح بناء الأثير صناعة فاسدة) (وليس هناك شيء بالغ القدسية في تراكيب مفاهيم نيوتن) إلخ

(٧)

ثم جاءت محاولات تفسير الكهرباء والضوء منعطفاً خطيراً في تاريخ الحركة العلمية .. لقد استعصت طبيعة الكهرباء على الفهم رغم المحاولات المضنية التي قادت جميعها إلى فهم (أن كل ما نعرفه عن الكهرباء هي الطريقة التي تؤثر بها في أدواتنا القياسية . والوصف المضبوط لسلوك الكهرباء على هذه الشاكلة يعطينا مواصفاتها الرياضية Mathematical Specifications وهذا بحق هو كل ما نعرفه عنها : ص ٣٥) .

الأوصاف وليست الماهيات .. هذا كل ما هنالك .. بمعنى آخران العلماء الكبار لا يزالون يقفون على الاعتاب ، ولما يفتحوا بعد الباب - لقد تمكنوا من اللامام بجوانب من تأثيرات الكهرباء ومؤشرات عملها .. أما هي .. كنهها .. تركيبها .. ماهيتها .. فلا يدري أحد شيئاً .. ومن عجب أنهم وهم يقفون على الباب استخرجوا من الكهرباء هذه المنجزات التقنية العظيمة .. فكيف لو عرفوا ماهية نفسها ، ماذا هم صانعون ؟ حقاً أن في الكون لطافات مذهورة هائلة ، ليست الكهرباء والذرة سوى مؤشرين عليها فحسب ، وإن على الانسان أن يبحث خطاه إلى مزيد من الكشف والتفتيش .. وإن من يقرأ في القرآن الكريم الآيات الخاصة بتسخير الطاقات

عن إرجاعها إليها . وهذا ما حصل بالفعل فبعد تردد طويل ، وبعد مجهودات أخيرة يائسة في محاولة تفسير الكهرباء ضمن شروط الميكانيك ، أضيفت الكهرباء إلى قائمة الأصول التي لا يمكن إرجاعها : ص ٣٣-٣٥) .

صيح تعبيرية ناقدة تنبث ها هنا وهنالك وتشير إلى ثقة العقل الغربي بنفسه وإلى أن الكثير من الحقائق العلمية لا تقرر على حال .. ونحن بأمس الحاجة إلى أن نمتلك الثقة نفسها .. أن نتعلم منهم هذه الأخلاقية التي فقدناها منذ أن أفلتت شمس حضارتنا .. ولن يتم هذا قبل أن نتحقق بإيماننا الاسلامي الأصيل ، ونبنى مخبراتنا بأنفسنا :

(كان الأثير) نظرية الأثير) ، قد أصبح في هذا الوقت معقداً إلى درجة لم تعد تقبل التصديق . لم يكن معقداً فقط بل كان بشعاً أيضاً ، والبشاعة في النظريات العلمية - كما ذكرنا سابقاً - شيء لا يستطيع رجل علم أن يتسامح تجاهه) !! وعندما استتبشع بعض علمائنا ومفكرينا نظرية الليبدو (الدافع الجنسي) لفرويد ، قامت قيامة أديعاء العقلانية المهزومين ، وقعدت .. وسنرى في المقطع الثاني من هذا التحليل كيف أن تلازمة فرويد أنفسهم انشقوا عليه وطرحوا بدائل أخرى لتفسير السلوك البشري .. ومن يدري فقد يأتي اليوم الذي تُستبشع فيه نظرية الليبدو (والبشاعة في النظريات العلمية - كما قال سوليفان - شيء لا يستطيع رجل علم أن يتساهل تجاهه) !!

وعبارات كثيرة أخرى .. (قدم كوبرنيكوس مثلاً

الرياضية فحسب ، وتلك هي حصيلة قرون من
النشاط العلمي !!

ونحن نحاول أن نتفحص الجان والشياطين
والروح البشرية .. وأن نخضعها للحصر المختبري ..
حتى إذا أعطينا الحيل ، اجتهدنا في الرأي فقلنا إنها
ربما تكون غير موجودة .. وهنالك في أوروبا نفسها ،
فلاسفة وأدباء ، حاولوا أن يتكثروا على معطيات العلم
كحقائق مسلمة منزلة من السماء وأن يبنوا عليها
فلسفاتهم وروايم ، لكي يضيفوا عليها - هي
الأخرى - صفة العلمية ..

ويتغير العلم .. ويتغير الأساس .. فإذا
بنظرياتهم تنهاى الواحدة تلو الأخرى .. هذا ما
حدث بالنسبة لكثير منها في حقول الاجتماع
والاقتصاد والنفس .. وإن المادية التاريخية التي
أقامت صرح نظريتها على معطيات العلم في القرن
التاسع عشر ، والتي سميت بالعلمية .. ما لبثت أن
تعرضت في القرن التالي ، وبخاصة في العقود
الأخيرة ، لكثير من الهزات العنيفة ، لأن الأساس
الذي بنيت عليه أخذ يتأرجح ويهتز ويتهاوى بعض
جوانبه .. وإذا كان العلماء أنفسهم ، أبناء المختبر
والتعامل التجريبي مع المواد والظواهر والأجسام ،
يعترفون بأن أحكامهم ليست نهائية ، وأن ما تمكثروا
من قطعه لم يتجاوز بده الطريق إلى الحقيقة .. فما
هؤلاء القوم من الأدباء والفلاسفة الذين لم يدخلوا
مختبرا ولم يجربوا ظاهرة .. يدعون بنهائية أحكامهم
وثباتها وديمومتها ؟!

الطبيعية لسلطان عليه السلام يعرف كيف أن هذا
التسخير كان بمثابة خدمة كبيرة جدا ، ويعرف أيضا
أن كتاب الله سبحانه جاء لكي يفتح أعين الناس
وعقولهم على ما ينطوى عليه الكون من طاقات
وقدرات .

لقد قبلت الكهرباء ضمن الأصول والأجسام
التي لا تقبل الاجراع إلى أصل سابق عليها ، لأنها
تستعصي على التحليل والاحالة (لقد قبل جسم
جديد في الفيزياء لا يعرف عنه شيئا سوى بنيتة
الرياضية Mathematical structure وقد بدأت منذ
ذلك الوقت تدخل في الفيزياء أجسام أخرى بنفس
الشروط . ووجد أن هذه الأجسام تلعب دورا يماثل
بالضبط ذلك الدور الذي تلعبه الأجسام القديمة فيما
يتعلق بتشكيل النظريات العلمية . لقد أصبح الآن
واضحا أن معرفة طبيعة الأجسام التي نتحدث عنها
لم تعد مطلبا لازما بالنسبة للفيزياء ، بل تكفي معرفة
بنيتها الرياضية وهذا بحق هو كل معرفتنا حولها . وقد
جرى التحقق الآن من أن معرفة البنى الرياضية هي
كل المعرفة العلمية المتوفرة لدينا حتى فيما يتعلق
بأجسام نيوتن المألوفة ، وإن اقتناعنا بأننا نعرف هذه
الأجسام بصورة قريبة ما هو إلا مجرد وهم ..
ص ٣٦) .

لقد طأطأ العلم الرصين رأسه ، وسلم بالواقع ،
بعد أن تجاوز مرحلة مراهقته العنيفة .. سلم بأن معرفة
الأجسام الفيزيائية على حقيقتها ما هي الا مجرد
وهم ، وأن ما تمت معرفته إلى الآن يتعلق ببناها

وحدها المعرفة التي يستطيع علم الفيزياء أن يقدمها لنا . إن هذا التعليل يبدو لنا أكثر التعليلات الفلسفية التي ظهرت للفيزياء الحديثة استنارة ومثانة . وإنه يبدو صحيحا أن العلم المضبوط (exact) هو معرفة ما يسميه أدينغتون بقراءة المؤشر (Pioneer reading) أي القراءة التي تشير إليها أداة من أدوات القياس : ص ٣٦-٣٧ .

أكثر من هذا .. ان العلماء التجريبيين عادوا (كما نقرأ في كتاب العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين) (١٧) إلى القوانين الطبيعية التي تحكم الحرارة والحركة والضوء وكل ما في عالم المادة من كهارب وذرات ، فوجدوا أن لها قانونا واحدا وهو الخطأ والاحتمال . أما القائمون بهذه التجربة فقد كانوا ثلاثة من أقطاب العلوم في مطلع القرن العشرين : ماكس بلانك (Max Plank) البولوني وورنر هايزنبرج (Werner Heisenberg) الألماني وأروين شرودنجر (Erwin Schrodingers) النمساوي . والأولان منهم صاحب جائزة نوبل في العلوم الطبيعية عن سنة ١٩١٨ وعن سنة ١٩٣٢ ، والثالث مكمل النظريات التي اشتهر بها الأولان ، وحجة لا تعلق عليه حجة في مسائل الطبيعيات على العموم .

فبلانك هو صاحب نظرية المقدار أو (الكوانتم) ، وخلاصتها ان الاشعاع قفزات لا تعرف القفزة التالية من القفزة الأولى الا بالتقدير

انتا نقرأ على سبيل المثال عبارات كهذه لمؤلفي كتاب (عرض موجز للمادية الديالكتيكية) (١٨) « .. تثبت المادية الديالكتيكية إمكانية معرفة جوهر الأشياء ، معرفة قوانين تطور العالم » (١٩) ، (من ذا الذي سيصدق اللأدرين الآن بأن هناك ما يسمونه (حدود) المعرفة ، في حين اقترح الانسان الفضاء ووسع بصورة كبيرة جدا حدود معارفه عن الكون ؟ .. إننا إذ نعرف العلم نعلم الحقيقة عنه وفنكلك المعارف الحقيقية .. » (٢٠)

وإنها حقا لرجسية (فلسفية) ما لها من مبرر ، وإنه قد آن الأوان لتعريفها .. وإذا قال فيلسوف ما بصدد إحدى المسائل شيئا وقال عالم ما شيئا فأخرى بنا أن نأخذ بمقولة العالم لأن أساليبه في البحث أكثر جدية وأتقن عملا .. وإننا هنا لتتذكر ذلك التساؤل ذا المغزى العميق الذي يطرحه سوليفان : (لماذا يترتب على الانسان أن يفترض بأن الطبيعة يجب أن تكون شيئا يستطيع مهندس القرن التاسع عشر أن يستحضره في ورشته ؟ : ص ٤٤-٤٥) .

(٨)

بعد تكتشف هذه النتيجة بصدد المعرفة العلمية (لم تعد المسافة طويلة بيننا وبين موقف أدينغتون (Eddington) القائل بأن معرفة البنية الرياضية هي

(٨) بوردستيلك وباهرت ، فار التدم - ميرسكو .

(٩) ص ١٥٩

(١٠) ص ١٧٥ - ١٩٦

(١١) ص ٥٨ - ٦٠

رصدناها قبل لحظة ونرصدها بعد لحظة تالية ، إذ ليس لهذه الذرات ذاتية ثابتة تبقى في جميع هذه الارصاد وكل ما يثبت منها هو الشكل أو الصورة التي تتكرر في رصد بعد رصد بغير ذاتية ثابتة (Sameness) (١٣) .

هل نتيجة ذلك - يتساءل العقاد - أن نسقط حساب الأسباب والعلل ونلغي القوانين الطبيعية ؟ إن بلانك نفسه لا يقول بذلك ، ويقرر في كتابه (إلى أين يذهب العلم : where is science going) أن الأسباب الطبيعية عاملة في كل حال وأنا لو حققنا موضع كل كهرب وسرعة وورثه أمكننا أن نعرف حركته التالية بغير خلل في الحساب ، فإذا كانت مراقبة الملايين من الكهارب تعطينا نتيجة تقريبية ، فالتنقض ناشئ من جهلنا بحالة كل كهرب على صدق ، لا من خلل القوانين الطبيعية . (١٤)

وذلك هو مصداق الأطروحة القرآنية في هذا الصدد : ان العالم محكم التركيب لأنه من صنع الله سبحانه : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) (١٥) (الذي أحسن كل شيء خلقه) (١٦) (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) (١٧) وأن المشكلة تكمن في القدرة البشرية نفسها على فهم العالم .. وذلك هو التحدي الذي يدفع الانسان إلى مزيد من الجهد للكشف عن سنن العالم ونواميسه ..

والترجيح ، وإن صحة التقدير لا تتفق إلا لأن أجزاء الكهارب تحسب بملايين الملايين فلا يظهر الخطأ فيها إلا بمقدار يسير .

وهايزنبرج هو صاحب نظرية الخطأ والاحتمال في قوانين الطبيعة ، وخالصة براهينه الكثيرة في هذا الباب أن الموضع والسرعة لكهرب معين لا يمكن تحقيقها في لحظة معينة على وجه اليقين ، وأن موقع الكهرباء بعد ثانية يتراوح اختلافه إلى مدى أربعة سنتيمترات (١٨) ثم يقل مدى هذا الخطأ في الثانية التي تليها ، وأن التجريبتين في أية قاعدة من قواعد العلم الطبيعي لا تأتيان بنتيجة واحدة بالغا ما بلغ المجرى من الدقة وبالغا ما بلغ المسيار من الاتقان .

وأما شرودنجر فهو المجرى المحقق الذي اسفرت تجاربه كلها عن نتيجة واحدة تؤيد نظرية اكسنر (Exner) وهي أن تقدير ما سيحدث تطبيقاً للقوانين المادية ممكن ، ولكنه غير محتم . وإذا دققنا في التمييز فليس هو بالاحتمال الذي يوصف بأنه جد قريب . ومن مقررات شرودنجر في محاضراته عن الحياة ومحاضراته عن العلم ومزاج الانسان Science and Human Temperament أن القوانين التي تنطبق على الذرات في البنية الحية وأن الصورة (Form) هي قوام المادة ، فلا يصح أن يقال إن هذه الذرة الصغيرة من المادة هي نفسها التي

(١٢) نقلا عن فلسفة العلم الطبيعي لانتونون في تحليله لنظرية الكوانتم .

(١٣) نقلا عن كتاب : الطبيعيات في زماننا : physics and our times

(١٤) العقاد : عقائد المفكرين ، ص ٦٠ - ٦١

(١٥) سورة الفرقان

(١٦) سورة السجدة ٧

(١٧) سورة آل عمران ٥

باختصار .. إن العالم لم يُكتشف النفاذ عنه بعد ، وسوف لن يكتشف بشكل نهائي (وهذا ما توحى به اكتشافات العلماء أنفي الذكر في حفل الفيزياء الذرية) لأنه يوم يتكشف العالم أمام وعي الانسان وإدراكه فلن يكون هناك جهد أو ابداع ..

(٩)

المادية الديالكتيكية تذهب في مفولاتها إلى عكس هذا ، مناقضة بذلك معطيات العلم التجريبي نفسه..إن العالم يمكن فهمه، بل إنه قد فهم فعلا، وأن الذين يرون خلاف هذا هم بعض فلاسفة المثاليين اللادريين ، يشجعهم البورجوازيون ، ويعملون على نشر ضلالهم !! يزعم بعض الفلاسفة المثاليين - كما تذكر المفولة - بأنه لا يمكن معرفة العالم . وقد أطلق على هؤلاء اسم اللادريين . ان اللادريه (Agnosticism) تنكر امكانية معرفة العالم ، والفلسفة البورجوازية المعاصرة تنشر هذا الاتجاه بصورة واسعة .

(ما الحجج التي يبردها اللادريون لاثبات وجهات نظرهم ، وهل لها أساس معلوم ؟ إنه لا يمكن إدراك العالم إلا بواسطة أعضاء الحواس : النظر ، السمع ، اللمس .. إلخ ولكن هذه - كما يقول اللادريون - تشهد غير نقات أبدا . كم من مرة خدعتنا أعضاء الحواس ؟ إن ملعة الشاي في الكأس المملوء بالماء تبدولنا مكسورة معوجة . ويبدو البيت من بعيد أصغر مما هو عن كنب . ونظرا لهذا لا

يجهز تصديق أعضاء الحواس . هذا هو استنتاج اللادريين فهل الأمر كذلك في الواقع ؟ لو سلمنا بما يقول اللادريون لفكرنا أن الإنسان لا يفهم بشيء سوى انه يسير وينظر بعجز إلى الأشياء المحيطة به .. ولكن الأمر ليس كذلك في الجوهر ، فإن الانسان في العالم ليس بمثابة متفرج إنما هو فاعل وخالق . ففي العمل ، في التطبيق ، يجهز الانسان على كل ما هو ممكن وفرضي لتدقيق ما تشير إليه أعضاء الحواس وبلوغ جوهر الأمر والنفاذ إلى أعان الظواهر المدروسة . وفي النمل الذي أوردناه يكفي سحب الملعقة من الماء بغية البرهنة على أنها سليمة » . (١٨)

فها نحن أولاء نرى في العقود الأخيرة من عصر العلم أن الذين يقولون بعدم القدرة على معرفة العالم ليس بعض الفلاسفة المثاليين ، أولئك الذين أطلق عليهم اسم (اللادريين) (وتعبير منالي ولا أدري ، وغيرها من المصطلحات التي يعرف الديالكتيكيون كيف يستخدمونها بغزارة ضد خصومهم ، هذان التعبيران مفصودان وقد أريد بهما تعزيز وجهة نظر فريق المادية القائل بالقدرة على فهم العالم لأن الطرف الآخر هو - بالضرورة - غير علمي ، ولا عقلاني ، وإنما هو منالي .. لا أدري .. هكذا) وبها يمكن من أمر . فإن القائلين بهذا اليوم هم العلماء بالدرجة الاولى ، العلماء الكبار ، تلامذة المختبر والتجريب والتعامل العلمي مع المادة ، بينما يبدو زعماء المدرسة المادية الديالكتيكية : ماركس وإنفلز

طابعها الحيادي ، فإذا ما حدث وأن استغلتها فلسفة من الفلسفات ، أو اتكأت عليها لتحقيق أهداف قد تكون غير موضوعية أو غير إنسانية ، فإن هذا لا ينفي السمة العلمية لتلك المعطيات ويدمجها هي الأخرى بالخطأ والفصور والانحياز !!

أما لماذا تقوم الفلسفة البورجوازية بنشر اتجاهه اللادرية بصورة واسعة ، فلأن الامر - كما تدعي الديالكتيكية - يقوم على إخفاء حقائق الفوائبن النهائية التي تتحكم بحركة العالم ، وتاريخه ، والتي كسفت المادة الديالكتيكية عنها النفاذ ، وأبرزها ولا ريب صراع الطبقات ..

ولكن .. ألا يجوز أن ينور المظلومون على جلاذيم ويربحوا المعركة قبل أن تتحقق قوانين التاريخ الحتمية ؟ إذا كيف نفسر تاريخ البشرية المليء بالنورات والانتفاضات ؟ كيف نفسر العشرات بل المئات من الانتصارات التي حققها المستضعفون ضد جلاذيم ومضطهديهم ؟

إن الفلسفة ، بما فيها الديالكتيك العلمي ، تميل دائماً للتعميم ، لأن تطلق أحكاماً نهائية أو شبه نهائية ، فتتغى شاءت أم أبت ، في مستنفع المتأالية ، وتفسر الحقائق على أن تنكيف لكي تجد لها مكاناً في قلبها الصامد ... إن ماركس وأنغلز انتها هيجل بأن فلسفته تمشي على رأسها ، ولكنها عاداتاً فصماً فلسفة تمشي على بطنها .. إن معدتها .. إن أمورها كهذه قد تجد لها مكاناً في ميدان الفلسفة ولكن الأمر يختلف في ساحة العلم ، ميدان التجربة والاختيار والأثبات حيث لا يستطيع أحد أن يدعي معرفة العالم كله ،

وتلاذمتها ، أقرب إلى خط الفلسفة ، وهم يظفرون أحكامهم ومفولاتهم (الفلسفة) بعيداً عن التعامل المباشر مع المادة . فمن من الطرفين ما ترى أحق بالتصديق وأكثر إقناعاً ؟ العلم الذي يقول : لا أعرف كنه العالم ، أم الفلسفة التي (تدعي) اطلاعها عليه ؟.

وتمة تعابير وصيغ أخرى في المفولة الديالكتيكية السالفة تتضمن هي الأخرى قدراً من سوء الفهم المقصود ، وأبرزها تلك التي تقول (بأنه لو سلمنا بما يقوله اللادريون لفكرنا أن الانسان لا يقوم بشيء سوى أنه سير وينظر بعجز إلى الأشياء المحبطة به) . ولكنه ينظر إليها بصيغ أكثر عقلانية ، ونشاط مخنبري لا يعرف الجولس وراء المكاتب لتدريج عبارات فلسفية تريد أن تنتزع من العلماء أخص ما يمتازون به ثم تدعيه لنفسها ..

مرة أخرى نلمس في المفولة السابقة تعابير ومواقف تند عن التحليل العلمي المنفع ، وتنبئ عن رغبة المادة وإصرارها ، إلى حد الاصرار ، على ربط كل مسألة فلسفية عامة بمعضلة الصراع التاريخي الطبقي الذي يجري على ساحة الواقع . وهكذا نجد المادية الديالكتيكية ، ها هنا ، تهتم الفلسفة البورجوازية المعاصرة بنشر اتجاه اللادرية بصورة واسعة .

فإذا ما تجاوزنا هذا التصلب المذهبي وجدنا أن الذين يقولون بعدم القدرة على فهم العالم هم علماء المختبر أنفسهم ، وأن معطياتهم لتتخلق في ظروف حيادية وتخرج إلى حيز الوجود وهي لما تزل تحمل

واكتشاف سره المكتسبون ! بعيداً عن انشاءاته
الطبيعية ، فالمختبر ليس نظاماً سياسياً أو تشريعاً
دستورياً كي يحمي مصالح هذه الطبقة أو تلك !

ومن حسن الحظ أن المادة الديالكتيكية تعترف
بأنها تنبني هيكلياً على المفولات الفلسفية ، وأن
الفلسفة لا الجلم هي التي تصوغ المفاهيم العامة (..
إن أعم خواص الاشياء تنعكس في المفولات
الفلسفية ، في مفولات معروفة لدينا الآن مثل
(المادة) و (الحركة) و (المكان) و (الزمان)
و (الكيفية) و (الكمية) و (التناقض) .. الخ .
إن المفولات الفلسفية هي أعم المفاهيم وبالتالي
يستحيل الاكتفاء بالمفولات التي تضعها الفيزياء
والكيمياء وغيرها من العلوم الخاصة . ففي عملية
المعرفة تتكون مفولات فلسفية عن أعم خواص
ظواهر العالم العائم) . (١٩)

وفي هذا وحده ما يكفي ، إذ تعسّدو المادة
الديالكتيكية كغيرها من الفلسفات تقوم على المفولات
الفلسفية العامة ، وهي مفولات تنشأ وتتخلق لدى كل
فيلسوف بصفة قد تختلف عن الفيلسوف الآخر ،
وقد تكون نقيضة لها تماماً ، ومن ثم فإن ادعاء احتكار
المعرفة الفلسفية لواحد من هؤلاء الفلاسفة ، ووصفها
بالملمعة ، وإنكار هذا الحق على الآخرين وإتهامهم
بالمثالية أو السفسطائية أو البرجوازية أو ما إلى ذلك
من مفردات قاموس الديالكتيك الغني بالمصطلحات ،
هذا الموقف هو غير علمي على الإطلاق !.

ولا ننسى أن ماركس وانغلز طرحا مفولانها
الفلسفية قبل عصر الفيزياء الذرية ، عصر بلانك
ونروندجر . وهاينريخ واينشتاين .. حيث تهاوت
جدران المادة واختلط الصواب بالخطأ والاحتمال ..
إنها طرحاها قبل هذا العصر بما يقرب من قرن من
الزمان ، ومن بدري فلعلها لو أتيح لها أن يرجعا
للحياة ثانية فإنها قد تكونان إزاء ضغوط حتميات
المناهج الفلسفية العامة ، على ضوء هزات العلم
العلاقة ، أكثر تحملاً من تلاميذهم ومريديهم ، لأنها
قد يجدوا نفسيهما غريبين عن العالم الجديد العجيب
الذي أخذت الفيزياء الذرية تطرق أبوابه ، العالم
الذي لم يتمكن أحد بعد من الكشف عن سره
الدفين .

فكم با ترى سيظل التلامذة والمريدون يطمنون
مفاهيم المادة القادمة من القرن التاسع عشر لكي
يفسروا القرن العشرين ، وربما الواحد والعشرين
على ارتداء أثوابها ؟

فاذا ما أضفنا إلى هذا كله الصبغة الانتقائية
التي تعترف الديالكتيكية باعتبارها إزاء منجزات
العقل البشري لكي تتلاءم ومصالح طبقة محدودة من
الناس ، أدركنا القيمة الحقيقية للسمة العلمية التي
تدعيها هذه النظرة .. ولنقرأ « لقد استوعب ماركس
وانغلز كل ما هو تقدمي وتمين بما كان العالم قد توصل
إليه قبلها ، ولكنها لم يفوما بمجرد استيعاب منجزات
العقل البشري ، بل صاغها بصورة انتقادية

أحد أكبر اختصاصي السدول النسائية في ميدان الاقتصاد ، وهو يستعرض جهده الكتاب الذين اهتموا بدراسة اقتصاد مجتمعات ما قبل الرأسمالية منذ عصر ماركس وحتى عصر بورشيف ، يفرأ أن هذه الدراسات جميعها مفككة ، لذلك فإن الاقتصاد السياسي للنظم الاجتماعية ما قبل الرأسمالية لا يخرج بعد إلى حيز الوجود باعتباره فرعاً منظماً من فروع الاقتصاد السياسي » . (٢١)

فإذا كان الأمر كذلك في أهم ما يخص الماركسية ، وهو التاريخ الاقتصادي فكيف الحال بالنسبة لمعطياتها في المسائل الفلسفية الأكثر شمولية وامتداداً ؟

(١٠)

بعد رحلة طويلة وشاقة في التاريخ يعود العلم ، بعد أن نما وشب عن الطوق وبلغ رسده ، لكي يلتقي بالدين ، واستبعدت الفكرة التي ترفض قبول كل مالا يخضع للفحص والتحليل .. لأن الأجسام الفيزيائية نفسها أبت أن تخضع للفحص والتحليل . ولم تسلم لنا نفسها لكي نعرّيها نوباً توباً .. كل ما قدمته لنا ، كما رأينا ، هو ملامحها الخارجية ، أما في الباطن ، على مستوى الحقائق النهائية للتركيب والماهية .. فلا جواب وإذا كان ذلك كذلك .. إذا كنا نحكم على الأجسام من خلال تأثيراتها ومؤثراتها ،

مكتسبات الفكر البشري الطلعي طيفاً لمصالح وأهداف البروليتاريا وسائر الشغيلة وبما أنها كانت ثورين عظيمين فقد أحرزنا مأثرة علمية لا نظير لها . ففانما بانقلاب ثوري في العلم وفي الفلسفة - ، والاقتصاد السياسي ، والمذهب الاشتراكي ، وغيرها من مجالات المعرفة البشرية - وأنشأ علماً ثورياً جديداً هو الماركسية » . (٢٠) ومعروف بداهة « أن العلماء لا الفلاسفة ، هم المكونون بتحقيق الثورات في ميدان العلم .. ومعروف أيضاً أن الفلسفة والاقتصاد وغيرها مما يسمى بالعلوم الفلسفية لا يمكن اعتبارها علماً بالمعنى الدقيق للكلمة وهذا يذكرنا بعبارة سوليفان التي ترد في آخر الفصل الخامس في كتابه (حدود العلم) حيث يقول (.. إن علم النفس لا يمكن اعتباره علماً حتى الآن . وللمعارف الأخرى مثل علم الاجتماع والاقتصاد وما إلى ذلك بعض النواحي التي لا تعتبر مرضية من وجهة النظر العلمية . والعلم هو أقوى ما يكون عليه عندما يتناول العالم المادي أما مفولاته في الموضوعات الأخرى فتعتبر نسبياً ضعيفة ومتلججة) (٢١) . وسوف نرجع إلى هذه المغولة فيما بعد ، والمهم هنا هو أن تشير إلى أن ماركس في مفولاته الاقتصادية فيما يسمى علم الاقتصاد الماركسي لم يكن على تمام الإلمام بتاريخ الاقتصاد البشري ، واعتمد في مساحات واسعة منه على معطيات تخمينية وظنية وهذا الأستاذ البولندي (اوسكار لانكه) ،

(٢٠) المرجع السابق ص ٢٣ وانظر نفسه ص ٢٥ .

(٢١) طبعة العقل ص ٦٠ - ٦٦ .

(٢٢) انظر كتاب (الاقتصاد السياسي) ١٩٤٨/١ ترجمة د . محمد سلوان الحسن (عن مجلة أفاق عربية سنة ٢٠٠٢ ، عدد ٦ ، محمد علي نصر الله ، أصداء على لفظ الانتاج الآسيوي) .

مكان في هذا العالم العلمي الجديد : ص ٣٩ - ٤٠

إن تطلعاتنا الدينية وحسنا الجمالي إذاً ليسا بالضرورة ظواهر وهمية كما جرى الافتراض في السابق .. يوم أن اندفع العلم المراهق والنظريات الاجتماعية والنفسية التسي بنيت عليه يضرب هذه التطلعات ويسقط تلك الأحاسيس ، واداً الحياة البشرية إلى مجموعة ميكانيكية محددة صارمة من الأفعال وردود الأفعال .. مسطحا هذه الحياة الكثيفة المعقدة المشابكة ، مدمرا امتداداتها المتقاطعة ..

جاءوا إياها تتحرك على خط واحد وفق امتداد واحد ، وبأقل قدر من تبادل التأثير بين الذات والموضوع وأشدّه انحساراً .. والانسان ، ذلك المجهول (إذا استخدمنا تعبير كاريل) أصبح ظاهرة مادية أخضعت للتحليل والاختبار ، من أجل الوصول بالقصر والاكرام ، إلى تفسير نهائسي لسلوكه .. فكان يندفع حيناً بتأثير دافعه الجنسي ، وكان يتحرك حيناً آخر على هدى ضرورة عمياء للبقاء والارتقاء ، وكان يتطور حيناً آخر ، سلسوب الارادة ، بضغط التبدل في وسائل الانتاج ، وكان يمارس حياته حيناً رابعاً من خلال عقل جمعي لا يأبه بحياة الأفراد .

أنماط مختلفة من التفسير أريد بها الوصول إلى المستحيل .. والمستحيل هو فهم الانسان وإدراك طبيعة علاقته بالمادة .. وكان الاعتقاد السائد يومها ، أن المادة قد حسم أمرها ، وأن ما تبقى هو الانسان !

لقد انتهى عصر التسطّيح والاحالة الميكانيكية أو البيولوجية لسلوكية الانسان ، ما دام قد تبين أن

فإن هنالك في حياتنا البشرية ظواهر لا يحصيها العد تؤثر في مصيم هذه الحياة وقد مؤثراتها إلى كافة الاتجاهات ، كالدين والجمال والأخلاق ... إلخ . ومن ثم فإن نكرانها لمجرد أننا لم نعرف عن ماهيتها شيئاً ، لم نعرف سوى تأثيراتها ومؤثراتها ، يقودنا بالضرورة إلى إلغاء العلم نفسه .. لأنه لم يمنحنا سوى كشف عن التأثيرات والمؤثرات أما الماهيات فلا جواب . ومن ثم كان لذلك الكشف الخطير على مستوى العلم ، والذي يلور ادينغتون ملاحظه النهائية تأثير إيجابي هام على مستوى الحياة البشرية .. إنها إرادة الله سبحانه التي ركزت الايمان به وحده في فطرة بني آدم تعود بهم ثانية إلى ساحة الايمان .. تعود بهم من ألف طريق .. وما هو ذا حشد كبير من العلماء يرجعون إلى الله والبروج والجمال والحق والخير كحقائق موضوعية مستقلة عن ذواتنا ، يرجعون من خلال منهج علمهم نفسه (من الواضح - كما يقول سوليغان - إن حقيقة كون العلم مقصوراً على معرفة البنى ، هي حقيقة ذات أهمية انسانية عظيمة ، لأنها تعني أن مشكلة طبيعة الحقيقة لم يبت فيها بعد . ولم يعد يطلب إلينا الآن أن نعتقد بعدم وجود مقابل موضوعي لاستجابتنا للجمال ، أو شعورنا السحري بالاندماج مع الله . إن مثل هذه الأمور يمكن أن تكون مغايتها لطبيعة الحقيقة ، وقد اعتبرت كذلك في كثير من الأحيان . وهكذا فإن تجاربنا المختلفة قد أصبحت كما كانت على قدم أكثر تساوي . إن تطلعاتنا الدينية وحسنا الجمالي ليسا بالضرورة ظواهر وهمية كما جرى الافتراض في السابق . وإن من حق الرؤى الباطنية (Mystics) أيضاً أن يكون لها

الأجسام المادية نفسها فقدت تسطحها وقادت إلى دهاليز وأعماق وسرايب ضيّمت العلماء بعد ثلاثة أو أربعة قرون في البحث في المادة ، دون أن يدروا أنهم لا يزالون يتحركون على السطح .

إن بعض العلماء يرون أن الموجات الألكترونية التي تشكل بنية المادة ، كما هو معروف حتى الآن ، يمكن أن تكون موجات احتمالية (waves of Probability) من غير وجود مادي معها كان نوع هذا الوجود .^(٢٣) أي أنه لا يوجد أساس مادي للأشياء على الإطلاق ! ويتفق علماء آخرون مثل ادينغتون وجينز على أن الطبيعة النهائية

المادية ، وتشير بلسان العلم المختصري والمعادلات الرياضية المركبة إلى التواجد الروحي في قلب الكون وفي صميم الذرة ، وإننا لنقف هنا خاشعين أمام واحد من جوانب الاعجاز القرآني .. تلك المجموعة من الآيات الكريمة التي تعدتنا عن تسبيح الكون والذرات للخالق العظيم :

(سُبِّحَ لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) (٢٧)

(سُبِّحَ لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) (٢٧)

(تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (٢٨)

(ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) (٢٩)

(ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) (٣٠)

الاجسام المادية نفسها فقدت تسطحها وقادت إلى دهاليز وأعماق وسرايب ضيّمت العلماء بعد ثلاثة أو أربعة قرون في البحث في المادة ، دون أن يدروا أنهم لا يزالون يتحركون على السطح .

إن بعض العلماء يرون أن الموجات الألكترونية التي تشكل بنية المادة ، كما هو معروف حتى الآن ، يمكن أن تكون موجات احتمالية (waves of Probability) من غير وجود مادي معها كان نوع هذا الوجود .^(٢٣) أي أنه لا يوجد أساس مادي للأشياء على الإطلاق ! ويتفق علماء آخرون مثل ادينغتون وجينز على أن الطبيعة النهائية (ultimate natural) للكون هي طبيعة عقلية .^(٢٤) وفي هذا يقول ادينغتون (ان مادة العالم هي مادة عقلية) ويردف (إن المادة العقلية ليست منتشرة عبر المكان والزمان بل إن المكان والزمان جزء من المخطط الدوري الذي هو في نهاية المطاف مشتق من المادة العقلية نفسها) ، أما جينز فيذهب مسافة أبعد ويعتبر العالم كله ذا طبيعة عقلية كاملة ، بل يجمله (فكرة في ذهن الله) (٢٥)

وأحدث النظريات التي طرحها عدد من كبار العلماء في مطلع السبعينيات ونشرت خطوطها العريضة مجلة (العلم - والحياة)^(٢٦) الفرنسية تقول بالمقابل

(٢٣) انظر ص ٤٠ - ٤١

(٢٤) انظر ص ٤٥

(٢٥) انظر ص ٤٧ - ٤٨

(٢٦) انظر بالتفصيل الترجمة العربية في مجلة النور للجمعية العدد الثامن ، السنة الرابعة ١٩٧٧ .

(٢٧) سورة الحديد ١ ، الحديد ١ ، الص ١

(٢٨) الاسراء ٤٤

(٢٩) الرعد ١٣

(٣٠) النور ٤١

(وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن
والطير) (٢١)

(انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي
والاشراق) (٢٢)

(كل قد علم صلاته وتسيحه والله عليم بما
يفعلون) (٢٣)

إن (التسبيح) ها هنا لا يقتصر على كون
الذرات والأجسام الفضائية تخضع للنواميس التي
وضعها الله فيها ، فهي بهذا تسبح بحمد الله
سبحانه .. فهناك ما هو أبعد من هذا وأقرب إلى
مفهوم التسبيح الحر ، أو التقديس الواعي .. إن هذه
المواجيد المادية تلك أرواحا !! وهي تمارس تسييحها
وتقديسها بالروح ، وربما بالوعي الذي لا نستطيع
استيعاب ماهيته .. وإن هذا ليقودنا ثانية إلى مقولة
ادينغتون (إن مادة العالم هي مادة عقلية) !! كما
يقودنا إلى الآية الكريمة (ولكن لا تفقهون
تسييحهم) .. حقا إن ادراك الطرائق التي تعمل بها
الذرات والأجسام لما يصعب تحقيقه .. ومهما تقدم
العلم وخطا خطواته العملاقة ، فسيظل جانب من
أكثر جوانب التركيب المادي أهمية ، بعيدا عن
التكشيف النهائي ، مستعصيا على البوح بالسر
المكنون .

وإذا كانت المادة نفسها ذات بعدين على أقل
تقدير .. أفلا يكون الانسان ذا أبعاد أكثر بكثير ؟

ومن ثم فلا التفسير الجنسي منفردا ، ولا التفسير
المادي منفردا ، ولا التفسير الارتقائي منفردا ، ولا
التفسير الجمعي منفردا ، ولا التفسير السلوكي
منفردا .. ولا غيرها من التفسيرات منفردة ، بقادة على
فهم الانسان .. ولا حتى وهي مجتمعة كذلك بقادة
على إدراك هذا الهدف الصعب .. وإنه لابد من
الدين إذا ما أريد للمعادلة الصعبة المركبة أن تجد
حلا .. والذي يقول هذا اليوم هم العلماء أنفسهم أبناء
المختبر والتجريب والتعامل العلمي الرصين مع
الظواهر والأشياء والموجودات .

(١١)

ومها يكن من أمر ثمة أهمية ذات بعد انساني
تنبثق عن التحليل أنف الذكر ، تتجلى كما يرى
أصحابها (في أنها ترك لنا مجالا أكبر من الحرية لكي
نضفي الاعتبار أو المفزى التقليدي على خبراتنا حول
الجمال ، والدين ، أو لنقل بالاختصار ، الخبرات
الباطنية . إنها لا تعزز بصورة إيجابية أيأ من
التفسيرات التي جاءت بها الأديان للعالم ، لكنها
تقطع الطريق على تلك المناقشات التي قامت لتثبت
أن أيأ من هذه التفسيرات (الدينية) ما هو إلا مجرد
وهم . لقد فعلت هذا عندما أظهرت أن العلم لا
يعالج إلا ناحية جزئية من الحقيقة ، وأنه لا يوجد
أدنى سبب يبرر الافتراض بأن كل ما يبجمله العلم أو
يتجاهله هو أقل حقيقة مما يعرفه : (ص ٤٨-٤٩) .

كذلك وأن يقول كما قال في ختام كتابه (الكون العجيب) (ان المعرفة الجديدة (لاحظ كلمة الجديدة) تضطرننا إلى تنقيح خوارطنا العقلية التي أوحى إلينا أننا وقعنا في كون لا يحفل بالحياة ، أو لعله يعمل على مناصبتها العدا . ويلوح لنا ان الثنائية العتيقة (لاحظ كلمة العتيقة ١١) التي تقوم بالعقل والمادة ويرجع إليها افتراض العداوة المزعومة ، أخذة في السزوال ، لا لأن المادة تدخل بأية حال من الأحوال في ظلال وأشباح ، أو لأن العقل تحول إلى وظيفة مادية بل لأن المادة الجوهرية تحيل نفسها إلى شيء من خلق العقل ومظهر من مظاهره ، ونحن نستكشف أن الكون يبدي الدليل على قدرة مدبرة أو مسيطرة لديها العقل الذي يائل ما نفهمه بقولنا ..) وجاز كذلك لعالم آخر كالسير آرثر ادغتون Eddington أن يقول في ختام كتابه عن كيان الدنيا الطبيعية إن نظرات المتصوفة لا تهمل ، أو أن ملكات الانسان التي يمازجها الشعور الديني هي من وقائع الكون إذا كان الانسان قد استبقاها بفعل الانتخاب الطبيعي ، وهو من أهم العوامل الكونية . وفي ختام كتابه (فلسفة العلم الطبيعي) يقول : نحن حتى في العلم ندرك أن المعرفة ليست بالأمر الوحيد الذي نعتد به ، ونسمع لأنفسنا أن نتحدث عن روح العلم .. وإن اعقم من كل قضية من قضايا النكران لمحي العقيده التي هي قوة خالقة أهم مما تحلقله .. وفي عصر العقل تظل العقيده راجحة لأن العقل بعض مادة العقيده .. (٢٤)

ليس هذا فحسب .. بل إن العلم في عهد مراحمته ، والفلسفة والآداب التي أقامت صرحها عليه كانت أسيرة اعتقاد أشد خطأ يقوم على افتراض أن كل ما يبجله العلم أو يتجاهله لا وجود له على الإطلاق ، وهو موقف ساذج لا يزال ينتشبت به كثيرون من أديباء العلمية في بلادنا ، أولئك الذين أخذوا على عاتقهم ، أو حملوا بشكل أدق ، مهمة إعلان الحرب على الغيبيات ، دون أن يدركوا أن الواقع الأخيرة لمسيرة العلم الجاد قد كشفت عن حقيقة أن المادة نفسها تحمل في تراكيبها بعدا غيبيا .. إن هؤلاء اليدركون الانسان بالنعامة التي إذا دهمها خطر ما دفنت رأسها في الرمال معتقدة - بنوع من خداع الذات - أنها ما دامت لا ترى الخطر فإنه ليس بوجود .. وتكون النتيجة أن تضع المسكينة في بطون السباع !!

إن المادة اليوم ، كما يقول العقاد (لا تصدّ المفكرين عن عالم الحقائق المجردة ، ولا هم يتخذون من صلابتها وجسامتها شرطا للحقيقة الثابتة ، فإن الحقيقة المادية نفسها لا تثبت اليوم بمجرد الصلابة والجسام ، ولا تزال ترد على أصولها حتى تزول إلى عدد من الهزات في ميدان مجهول هو ميدان الأثير وميدان الفضاء . فالماذا في القرن العشرين قد اقتربت من عالم الفكر المجرد ، بل دخلته وأصبحت في تقدير الثقافت (عملية رياضية) ، أو نسبة من النسب التي تقاس بمعادلات الحساب . وقد جاز لعالم كبير كالسير جيمس جينس (Jeans) أن يعتبرها

أدباء أو اقتصاديين وزعماء حركات تورية !! عن أن العالم ليس بنية مادية صماء وأن ما وراء المادة المنظورة عوالم وأكوان !!

يقول شروندجر في ختام رسالته (ماهية الحياة) (أريد أن أوضح في هذا الفصل الأخير بالإنجاز أن كل ما علمناه من بناء المادة الحية يوجب علينا أن نكون على استعداد لأن نراها عاملة على مثال لا يمكن إخضاعه لقوانين الطبيعة العادية ، وليس ذلك على اعتبار أن التركيب هنا يخالف كل تركيب درسناه في معالِم العلوم الطبيعية) . وضم شروندجر رسالته بالنسائل عن الشخصية والروح ، فقرر أن (الوعي) ظاهرة مفردة لا تقبل الجمع ، وأن كل ما يمكن الجزم به هو أن الشخصية لا تتكرر وأنها قوام مستقل عن كل قوام . (٢٧)

ويقول ليكوت دي نوي (De Nouy) (.. إن الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على التسوق العلمي لا يلزمه أن يتصور الله إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرباء ، فإن التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل ، وليس الكهرباء قابلاً للتصور في كيانه المادي ، وإنه مع هذا لا تثبت في أنشائه من قطعة الخشب) . (٢٨)

وكان رسل والاس في شيخوخته يعتقد أن الكون المادي إنما هو مظهر للكون الروحاني ، وأن في الكون

إن هذه المعطيات تعرض النظرية الديالكتيكية بصدد القول بمداد العالم ، ورفض الغيب ، أو ما وراء المادة ، لفة قاسية ، وتصيح مقولات الديالكتيك من مثل (إن موضوعية العالم أي وجوده خارج وعينا ومستقلا عنه تعني أنه مادي) (٢٥) ، ومن مثل (لقد أثبت العلم إثباتاً قاطعاً بأنه لا وجود للعالم غير مادي ، لعالم الغيب ، للعالم الآخر ، ومن غير الممكن أن يكون له وجود . وفعلاً ، طالما ليس هناك أي شيء غير المادة ، فإن الممكن وجوده هو عالم واحد فقط ، العالم المادي . لذا تعلمنا الفلسفة الماركسية بأن العالم واحد) . (٢٦)

تصبح مقولات قاطعة كهذه ، تشجنا غير علمي ، وإصراراً غير مبرر - على عدم بذل المزيد من الاهتمام في تنحّص بناء العالم ، والتنازل ولو قليلاً عن مواقف سبق وأن اتخذت في بيئات القرن التاسع عشر .. إن هذا يذكرنا بأسطورة المدينة المسحورة التي تحكي لنا عن رجل يدخل صدفة مدينة كان أحد السحرة الأشرار قد فضى بتوقف الحركة فيها . وظلّ أحيائها بعد ذلك ، السنين الطوال ، جامدين كالأصنام ، وفق الحالة التي كانوا عليها يوم حلت بهم لعنة السحر !!

وبدلاً من أن نحاول اعتداد سحر أقوى لإعادة الحركة والحياة لهذه المدينة المنكودة .. نفرأ مزيداً من الشهادات التي تصدر عن أفواه علماء ، لا فلاسفة أو

(٢٥) بروسليك وياغرت : عرض موجز ص ٣١ .

(٢٦) نفسه ص ٥٢ .

(٢٧) المفاد : عقائد المفكرين ص ٦٣ .

(٢٨) نفسه ص ١٠٥ .

الصور فلسفة رجال العلم في القرن التاسع عشر - ففة مدهشة - بنسبة عددها إلى سائر أعضاء الجمعية الملكية - قد قررت بأسلوب واضح أنها تؤمن بعالم روحاني وعناية ربانية مهيمنة ، وإن كثيرا منهم يعتقدون بقاء النسخة بعد موت الجسد) . (٤١)

ففة مدهشة من العلماء تفر بأسلوب واضح أنها تؤمن بالروح وبالعناية الربانية المهيمنة وبالخالود !!
وغير هذه الشهادات عشرات وعشرات ..

إن من الغول الجراف اليوم - يستخلص العقاد - أن يقال إن محسوسات المادة هي وحدها الوجود الحقيقي وإن المتكلمين عن أصول المادة بأنون بشيء أثبت من الكلام عن الأرواح والمجردات !! (٤٢)

(١٢)

إن انفتاح العملية العلمية على الخبرات الانسانية كالدين والمجال ... إلى آخره ، أخذ بالانحسار وإن مناعة العلم المستندة إلى فكرة السببية التي جعلته ينغلق على نفسه ، لا يبدو واضحا - كما يقول سوليفان - أنها تستمر . إن الاكتفاء الذاتي ، إن صح التعبير (ينطبق فقط على فيزياء المحل (field physics) التي تغطي جزءا كبيرا جدا من الفيزياء لكنها لا تغطي كل الفيزياء . والأمل في (جعله) يغطي كل الفيزياء أخذ بالتناقص . ففي الظواهر الذرية وتحت الذرية (sub — atomic)

الروحاني أفاط من نعم مل المعدل . . . لنرى نعم إلى الأرواح الكائنة في الخلايا الحية ، وربما تحذر إثبات هذه التصديرات بالبرهان الفاطم ، ولكنها فيما نراه أصلح لتوضيح الوقائع من أي تفدير يأخذ به الماديون . (٣٩)

ويعول سير آرثر تومسون (Thomson) ، أستاذ التاريخ الطبيعي بجامعة ايردين ، كثيرا على تخفف الكثافة المادية واقتربها من (اللاموزونات) أي المعاني التي لا توزن كالفكر والعاطفة والعناية (Imponderables) . ويقول إننا في زمن تنفت فيه الأرض الصلبة وفقد فيه الأثير كيانه المادي ، فهو أقل الأمانة صلاحا للغلو في التأويلات المادية . وفي جوابه للسائلين عن عقيدته في (مجموعة العلم والدين) (Science and Religion) يقول (.. إذا كان العلم صيفا وصفية ، وكان الدين في جانبه العقلي تفسيريا علويا أوفخيا ، فلا موجب للتعارض الحاسم بينهما) . (٤٠)

وقال روبرت بروم (Broom) ، عضو الجمعية الملكية الانكليزية في مطلع الخمسينات : (من نحو عشرين سنة اهتم بعضهم بأن يبحث عن الآراء المادية التي شاعت بين الدوائر العلمية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، هل لا تزال على شيوعها ؟ أم أن الآراء الأخيرة عن بناء المادة ومذهب النسبية وعلوم الحيوان قد عدلت على صورة من

(٣٩) نفسه ص ١٠٩

(٤٠) نفسه ص ١١٣

(٤١) نفسه ص ١٠٧

(٤٢) نفسه ص ٩٧

إن عصر الانكسار الكلي على حقائق علمية معينة قد انتهى ، وحل محله اعتقاد سائد ، أخذ تتسع شيئاً فشيئاً ، في أن ميدان العلم لا يشهد تغيرات فحسب .. بل طفورات وثورات .. إن المادية الديالكتيكية مثلاً أقامت بنيناها في بعض جوانبه على أسس المعطيات العلمية للقرن التاسع عشر .. وقد تبدلت تلك الأسس وتغير الكثير من تلك المعطيات .. وما زال أتباع التفسير المادي يصفونه بالعلمية .. وما يقال عن التفسير المادي يمكن أن يقال عن معظم النظريات الفلسفية والنفسية والاجتماعية ، وجعل الآداب والفنون التي نهضت على تلك الأسس المتغيرة .

إن جانباً من أخطر الجوانب الفيزيائية وأهمها ، وهو (الظاهرة الذرية) نردت على السببية التي اتكأ عليها العلماء في حقول الفيزياء والتي شكلت افتراضاً أساساً في العلوم .. وإن نوعاً من الإرادة الحرة في العلاقات الذرية أخذ يحل محل القاعدة الحتمية التي تعرضت للتصدع ... ونسأل : إذا كان التركيب المادي - الذري نفسه يتجاوز الحتميات صوب الحرية ، فكيف تتسنى لنا أن نخضع الحياة البشرية في صيغتها الفردية والاجتماعية لنوع من الحتمية الصماء .. ألا بعد هذا نوعاً من العمل الخاطيء (علمياً) لأنه يتحرك باتجاه مضاد لنواميس العالم والأشياء ؟

إن نتائج فلسفية هامة ستتمخض حقا عن هذا التغير إذا حدث وأن بُنيت أقامه كحقيقة سلم بها .. إن الفرق بين ما هو طبيعي وما هو خارق للطبيعة

يبدون أن الحالة التي يواجهها العلماء تنفع خارج المخطط الدوري (السببي) تماما . إن أكثر الأمور مدعاة لعدم الإتيان في هذا الصدد هو أن قاعدة السببية التامة (Strict Causality) التي تشكل افتراضاً رئيسياً في العلوم ، لا تبدو قابلة للتطبيق في هذا المجال . ففيها تتعلق بحركة الذرات المفردة (Individual atoms) ، وحركات الالكترونات يبدو أن هناك عنصراً من الإرادة الحرة (free-will) . إن قاعدة الحتمية (Determinism) قد تصدعت لتأخذ مكانها قاعدة اللاحتمية (Indeterminacy) ... وإذا استطاع هذا المبدأ أن يثبت أقامه نهائياً فمن الواضح أنه ستكون له نتائج فلسفية هامة . فسوف سهل علينا الاعتقاد بأن إدراكنا أو شعورنا بالإرادة الحرة لس وهما ، وسيكون في مقدورنا أن نكون أكثر حرية في أن ننسب للطبيعة تقدماً حقيقياً مدعاً ، بدلاً من أن نعتبرها تسير وكأنها آلة هائلة جميع منتجاتها مفرقة سلفاً . وكما أشار ديفنتون فإن الفرق بين ما هو طبيعي وما هو خارق للطبيعة سوف يتناقص حقاً . إن ذلك المبدأ لو قبل بصورة قطعية فإن ذلك سوف يؤدي إلى أعظم ثورة تحدث حتى الآن في الفكر العلمي وفي الفلسفة المركزة عليه : ص ٥٠-٥١ .

نورة عظيمة ، كما عودنا العلم دائماً .. أنه ليس نمة مسلمات نهائية ، وأن كنسوفات العلم قد تكون - أحياناً - من الحدة والعنف بحيث إنها تغير نوعياً أنماط تفكير بكاملاها فنقلها رأساً على عقب .. أنماطاً في منهج البحث وفي المعطيات وفي النتائج الفلسفية المرتبة على هذا وذلك .

بهذا تحدث توافقاً فحداً بين القانون وبين الابداع ..
بين الغدر وبين الحرية ..

فإذا ما حدث وأن استمد الانسان المؤمن من
إرادة الله هذه ، كان بفدوره أن يمارس ، بالنسبة التي
تنسجم ودوره في العالم ، تحقيق وفاق كهذا ، يحدث
(تفهما حقيقيا مبدعا) ما دام أنه حر ، وما دامت
الطبيعة نفسها ، في صميم تركيبها الذري ، مخلخلة
إلى الحد الذي يمكن هذه الحرية من أن تنفذ إليها
لكي تصوغها لصالح الانسان .

إن العلم قد بلغ أخيراً هذه المرحلة الخطيرة ..
المرحلة التي يلتقي فيها المادي بالروحي ، في وفاق
وانسجام .. ويتصالح الانسان مع الطبيعة لتحقق
التقدم المنشود ، سيداً في العالم وخليفة عن الله في
الأرض ..

(١٣)

وينتهي سوليفان إلى تلخيص فصله القيم بهذه
الكلمات : (لقد بحثنا حتى الآن في حدود العلم
باعتباره أسلوباً لاكتساب المعرفة حول الحقيقة . وقد
رأينا كيف أدت الحساسية الجديدة للعلم إلى الاقرار
بأن ادعاءاته السابقة قد بولغ فيها كثيراً . لقد جعلت
الفلسفة المبنية على العلم من المادة والحركة الحقيقة
الوحيدة . وهذا العمل فقد جرى استبعاد جميع
العناصر الأخرى الواقعة في مجال خبرتنا . هذه
العناصر التي نحمل ، كما يترأى لنا ، المغزى
الأكبر ، والتي تجعل الحياة في النهاية جديرة بأن

سوف يتناقص .. الفرق بين الطبيعة وما وراء
الطبيعة ، والحضور والغيب ، والمادة والروح ، والغدر
والحرية ... وستلتي معطيات العلم مع حقائق الدين
في عناق حار .. لقد حدث وأن التقت مراراً ، أما
هاهنا ، حيث تنهار الحواجز المادة وفند الحرية إلى
صميم التركيب الذري ، وحث يقف الانسان ، سيد
العالم وحليفة الله في أرضه ، حراً في أن يتحكم
بالطبيعة التي سخرت له ، لا أن تتحكم هي به كما
صورت فلسفات (الختمية) في القرن الماضي ..
هاهنا سيكون لقاء من نوع آخر .. لقاء كثيراً ما
حدثنا عنه القرآن ، كتاب الله المعجز ، وعرض علينا
نماذج غنية من صيغه وأنماطه ..

إن المعجزات التي يحدثنا عنها القرآن هي لقاء
من نوع ما بين ما هو طبيعي وما هو خارق للطبيعة أو
بعبارة أخرى ، تتجاوز للفرق بينهما .. وإن نقل عرض
بمقيس من مكان بعيد في لحظات معدودات - على
سبيل المثال - هو نموذج من عدد من النماذج على
تمكن الانسان الحر ، المدعم بتأييد الله ، من التحكم
بالتركيب الذري (الحس) للأشياء وتطويعها
لأرادته .. وإن الطاقات الطبيعية وما وراء الطبيعة
الهائلة التي منحها الله سبحانه لنبيه سليمان (ع)
تمثل تمكناً الانسان من تحقيق وفاق بين الطبيعي
واللاطبيعي من أجل تحقيق (تقدم حقيقي مبدع) ..

إن إرادة الله سبحانه تتجاوز (اعتبار الطبيعة آلة
هائلة جميع منتجاتها مقرر سلفاً) فصوصها كما تناء
(والساء بنيناها بأيدينا وإنا لموسعون) (٤٣) وهي

(١٤)

في الفصل الخامس من كتابه والمعنون بـ (طبيعة العقل) يعرض سوليفان للمعضلة التي خصص لها سلفه (الكسيس كاريل) كتابه الشهير (الانسان ذلك المجهول) .. هل سيفدر للعلم يوما أن يفهم الطريقة التي يعمل بها العقل البشري ؟ أن يدرك أسرار تركيب هذه الآلة المعجزة ؟ .. ويمتد التحليل - بطبيعة الحال - إلى الانسان كله ، سايكولوجية الانسان ، في محاولة للإجابة على السؤال نفسه : التركيب وطريقة العمل .. تُرى .. هل توصّل سوليفان إلى (نتائج) مغايرة لتلك التي قدمها لنا كاريل في كتابه ذاك ؟

سوف نتجاوز هنا التساؤلات والاعتراضات التي يطرحها المؤلف حول نظرية (النشوء والارتقاء) ، أو النظريات الموازية لها ، سلبيًا وإيجابيًا ، كقولهِ مثلاً (إن الخط الفعلي الذي يشير إلى انحدار الانسان من مخلوق غير انساني بصورة قطعية ما زال موضعاً للثأولات : ص ٨) وقوله ولما جاء دارون Darwin بعقيدته القائلة بأن الانسان قد تطور بدنياً من جذّ شبيه بالقرود ظل الكثيرون يتحرجون من الافتراض بأن هذه العملية تنطبق أيضاً على العقل . ذلك أنهم رأوا أنه ستكون لمثل هذه العقيدة انعكاسات ممقوتة دينياً وأخلاقياً ، حيث أنها تنزع عن الانسان أكثر ميزاته بروحاً ونبلًا ، وتعني بذلك روحه . وهكذا فإن بعضهم ، ومن بينهم والس Wallace استيقى الاعتقاد بأن عقل الانسان وروحه قد خلقا بصورة مخصوصة بيئًا سار بدنه في خط التطور : ص ١١ -

تعايش ، قد جرى استبعادها على أنه محض أوهام . لقد بدا العلم لبعض المفكرين ، وربما لغالبيتهم ، أنه قد جعل الحياة خائفة على الرغم من كل المنافع العملية التي قدمها . وهكذا فإننا لا نحدد ما يشير الدهشة عندما نرى أن النظرة العلمية الجديدة كما شرحها رجال من أمثال ادينغتون وجينر ، قد لاقت اهتامًا واسعًا . لقد كانت المعتنقات الميتافيزيقية التي رافقت العلوم مدعاة لليأس والقنوط ص ٥١-٥٢) .

وهو تلخيص على درجة من الوضوح بحيث انه لا يحتاج إلى إضافة كلمة واحدة ..

ثم يختتم سوليفان تحليله بالقول بأن الفلسفة العلمية القديمة (جعلت الانسان نفسه حاصلًا عرضيًا محضًا للمادة والحركة ، والتي عرضت الكون على اتساعه وعظمته على أنه مجرد من الغرض تمامًا .. إن المادة لن تكون أحسن حالًا لو افترضنا أن العالم الحالي يتجدد باستمرار . إن دوافعنا الدينية لا يمكن أن يفتنعا أي شيء أقل من الاعتقاد بأن للحياة مغزى خارقًا . وهذا الاعتقاد ، هو بالضبط ، ما جعلته الفلسفة القديمة أمرًا مستحيلًا . وهكذا يمكننا أن نستنتج أن الأهمية الحقيقية للتغيرات التي حصلت في العلوم الحديثة ليست في قدرتها المتزايدة على دفع عجلة تقدم الانسان ، بل في تغيير الأسس الميتافيزيقية التي تقوم عليها ص ٥٣ - ٥٤) .

ومعنى هذا - باختصار - أن الاحداد ، قد أصبح - على ضوء التقدم العلمي - أمرًا رجعيًا !!

العملية نزولا عبر السلم سنتردد في نسبته متلا للألميا ، أو للنبات . وربما كان من الصعب علينا التوقف حتى هنا أيضا بمعنى أننا سنجد أنفسنا وقد أضفينا خاصة الشعور على العالم غير العضوي . وقد لا يكون هناك سبب مفتح لتبرير عدم القيام بمثل هذا الاضفاء . لقد وجد من الفلاسفة من كان يعتقد بأننا نحفون في أن نقوم بذلك . ولكن يمكننا قبل ذلك أن نحاول العثور على بدائل أخرى أن أي بديل سوف يعاني بالطبع من مساوئ افتراض انقطاع في الاستمرارية : ص ١٧) .

وسنبدأ بتحليل طبيعة عمل العقل وتركيبه ، وبخصائص السايكولوجية البشرية والنظريات والآراء التي طرحت في هذا الصدد ، وسنرى أن بعض هذه النظريات والآراء بني على تسليم كامل بمعطيات الكشوف العلمية المتغيرة دوماً ، وسنجد بعضها الآخر يعاني من التعميمية ، ذلك الخطأ المنهجي الذي أسر الفكر والبحث الغربيين طويلاً ، والذي سبق وأن أشرنا إليه .. وبعضها الثالث مارس قدراً كبيراً من التبسيط أو التسطيع في العملية العقلية والنفسية ، رغم تعفدها وعمق غورها ، من أجل أن يتساقط التفسير مع العلاقات الميكانيكية في عالم الأشياء .

وسوليفان يلاحق عدداً من هذه النظريات والآراء ناقداً محملاً ، طارحاً قدراً كافياً من الأدلة المستمدة من حقائق العلم أو الفناعات المنطقية ،

١٢) وقوله (إن العفيدة المفيولة والفائلة بحصول تقدم تدريجي من جد تشبيه بالقرن إلى الإنسان الحديث نير السؤال المتعلق بمعرفة الوقت الذي اكتسب فيه هذا الكائن الروح خلال عملية التطور : ص ١٧) وقوله (.. حفا إنه ليصدق المول على العموم بأن تعقد السلوك مصاحب لتعقد تركيب الجملة العصبية. لكن التقابل بين السلوك والتركيب المشار إليه لا يظهر انسجاماً تاماً . فبعض الكائنات العضوية مثل النمل والنحل والعنكبوت ذات غرائز شديدة التعقد ^(٤٤) ، على الرغم من أن جملتها العصبية بسيطة نسبياً . ومن جهة أخرى فإن بعض الكائنات العضوية مثل أنواع معينة من الحيوانات اللبونة ذات غرائز أكثر بساطة بشكل ملحوظ مع أن جملتها العصبية شديدة التعقيد . وهكذا فإن مسألة التقابل بين التركيب العضوي وبين ردود الفعل المتوارثة لم تتضح تماماً بعد : ص ١٥) وقوله (على الرغم من أن النظرية الفائلة بتطور العقل بصورة مضطربة قد تكون النظرية الأكثر قبولاً واستساعة ، فليس هناك من شواهد الملاحظة ما يفضي بصحتها بالضرورة . ومن الممكن تماماً أن تكون قد حدثت بعض التفراخ بصورة مفاجئة خلال عملية التطور ، وأن تكون قد ظهرت عناصر جديدة كل الجدة . وكما سبق أن رأينا فقد جرى الاعتقاد بأن الشعور شيء خاص بالإنسان ، ولا يوجد أي حيوان له هذه الخاصية . ولو أننا أنكرنا ذلك وأصررنا على نسبة الشعور للحيوانات العليا ، فإنا سنتردد في متابعة

(٤٤) لاحظ أن هذه الحشرات الثلاث سوراً بالسما في القرآن الكريم ، ولهذا دلالة ولا ريب !!

متوغلا في صميم الفكرة او النظرية نفسها لكي ما يلبث أن يكشف التناقضات التي تعانيتها .

وهو ينفذ طويلا عند الفلسفة المادية العتيفة التي فسرت أفكار الانسان على أنها مؤلفة من حركات صغيرة من البليارد في رأسه ، فيقول (.. إن الانتقال من حيز التصادم إلى حيز الافكار مفاجيء جدا . وليس هناك في معرفتنا بخواص الحركة أو خواص الاجزاء الصغيرة الصلبة أي شيء من شأنه أن يجعلنا نتقبل هذه النتيجة . ومع ذلك فإن نظرية الفلسفة المادية هذه يمكن أن تكون صحيحة كوصف للحقيقة ، ولكنها ستبقى حقيقة غير قابلة للتحليل ما لم تصبح أفكارنا عن الأجسام الصلبة وعن الحركة أكثر اكثالا بكثير . إن القول بأن فكرة الفلسفة المادية المشار إليها يمكن أن تكون صحيحة كوصف (description) على الرغم من أنها غير قابلة للفهم كتفسير (explanation) يتوافق مع النظرية الحديثة للتطور الطارىء Emergen Evolution تلك النظرية التي نالت اهتمام وتعاطف بعض من علماء الحياة من ذوي العقليات الفلسفية : ص ١٩) .

إن الانسان المطارد ، عندما يحاصر في سطح بناءة مرتفعة ، ويدرك أنه مأخوذ لا محالة ويحكم عليه بالاعدام أو الاشغال الشاقة ، مستعد أن يرمي نفسه من أعلى طابق في محاولة يائسة ، يلعب فيها للاشعور دورا كبيرا لكي يتجاوز الحصار .. وإن العلماء والفلاسفة الذين استعصى عليهم إدراك الطريقة التي تشكل فيها الأفكار .. الصيغة التي يعمل بها العقل .. ليسوا جميعا - وبخاصة ذوي العقليات

الفلسفية من لا علاقة لهم بالمختبر أو الفلسفة ، كانفلز ورفاقه ، وغيرهم ، ليسوا على قدر كاف من التواضع ، ليسوا كالكسيس كاريل أو سوليفسان اللذين ، رغم مختبريتها وتجربيتها - أعلننا بتجرد العلماء ونزاهتهم أنه لم يحن الأوان بعد لاعلان رأي ، أو مجموعة آراء نهائية ، بصدد العملية العقلية أو حتى السايكولوجية عموما ، ومن ثم فإن ذوي العقلية الفلسفية (ونستخدم هنا تعبير سوليفسان ذي الدلالة) لم يشاءوا أن يتركوا المسألة دون جواب ، واعتبروا أنفسهم محاصرين بالسؤال الملح ، وسيحكم على معطياتهم بالاعدام أو الاشغال الشاقة إن لم يندفعوا إلى طريق الخلاص بجواب ما .. وما هي ذي إحدى أجوبتهم التي اطمأنوا إليها .. إن التصادم الجزئي في الدماغ هو الذي يولد أفكارا وكان دياكتيك التصادم الذي قد تفسر به بعض ظواهر التاريخ على السطح - وليس كل الظواهر - يمكن أن تمتد قوانينه الى أعماق الخلايا الدماغية لكي تعمل هناك . حيث تصادم الذرات فتولد قفزات نوعية في الحركة هي التي تصنع الافكار . من بضمن صواب هذا الرأي ونهائيتها ؟

إن المادية العلمية ادعت ، ولا تزال ، هذا الضمان .. لكن الفلسفة المستريضة شيء والعلم المختبري الجاهد شيء آخر .. إنها مادية فلسفية ، نعم ، ولكنها ليست علمية بأية حال من الأحوال إلا بقدر ما يتعلق الأمر بمنهج بحثها في مساحات من التاريخ الأوروبي ، وليس كل المساحات ، إذ أنه حتى على مستوى التاريخ ، فإن مساحات واسعة من

الأجسام الصلبة وعن الحركة أكثر اكتيالا بكثير، فإن العملية العقلية في خلق الأفكار ستبقى حقيقية غير قابلة للتحليل .. فالفلسفة المادية تريد أن تعتبر ما كشفه العلم حتى الآن عن خواص الحركة والأجسام (الذرات) الصلبة ، بمثابة حقائق نهائية ترى أن من حقها أن تبنى عليها .. وقد تبين لنا - مرارا - كيف أنه ليس ثمة حقائق نهائية في هذا المجال ، وأن من النظريات الحديثة ما يطرح فكرة أن الذرة تظهر (شيئا شبيها بالارادة الحرة something — Like free will

ونالسا : أنه إذا صحّت هذه الفكرة المادية كوصف للمظاهرة فإنها غير قابلة للفهم كتفسير .. والوصف يعطينا ملامح الشيء من الخارج .. والأهم هو أن نعرف ما الذي يجري في الداخل ، وكيف يتم الحدوث الفكري . فالنظرية - على فرض التسليم بها ، وهذه مسألة معلقة ما دام أنها تبنى على أسس غير مكتملة - تقطع شوطا صغيرا - في الطريق إلى فهم حدوث الأفكار ، وتبقى المسافات الأطول ، لم يقطعها أحد حتى الآن .

ورابعا : أن هذه الفلسفة تتوافق مع النظرية الحديثة للتطور الطارئ ، تلك النظرية التي نالت اهتمام وتعاطف بعض علماء الحياة من ذوي العقليات الفلسفية . فنظرية التطور الطارئ التي يمكن أن تدعمها الفلسفة المذكورة قد نالت اهتمام بعض علماء الحياة من ذوي العقليات الفلسفية . وليس جُلهم ، وهذا البعض هو من ذوي العقليات الفلسفية التي تسعى للاجابة على كل سؤال وفك كل لغز خوفا من

التاريخ البشري المبكر ، وبخاصة الجوانب الاقتصادية منه والتي بنيت عليها جوانب هامة من النظرية المادية ، تبين من خلال شهادات أحيار المادية وفقادها على السواء أن وقائعها التاريخية لا تتجاوز مرحلة الظن والتخمين وأنها ليست - على المستوى النقدي - بمصاف الوقائع النهائية المفروغ منها .. ومرة أخرى نسأل : من ضمن صواب التفسير البلياردي - إذا صح التعبير - للنشاط العقلي ، وتكون الأفكار ؟ إن سوليغان يبين لنا أولا : كيف أن هذا التفسير ينبثق عن فلسفة يصفها بالعتيقة ، وهذا دلالتة ، ويتميز بالمفاجأة التي تفقد تسلسلها المعقول ، إذ أن القول بتحول الصدام الشيشي إلى تراكيب فكرية ، هو كالقول بتحول الجبادات على حبر غرة إلى الحياة ١١ وهو ما تقول به المادية الديالكتيكية في قانونها المشهور عن (تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كمية) فنتناقض بذلك مع الحقائق العلمية ، وتريد أن تقنع نفسها بأنها قد وجدت المفتاح الذي يفسر نشوء الحياة وعمل العقل البشري .

وبين لنا ثانيا : أن ليس في معرفتنا بخواص الحركة ، أو خواص الأجزاء الصغيرة الصلبة أي شيء من شأنه أن يجعلنا نتقبل هذه النتيجة (وسيعود بعد قليل - كما سنرى - إلى هذه النقطة فيبين أن هذه المعرفة المادية نفسها تعاني نقصا خطيرا ، فكيف نبنى عليها نظريات علمية وهي لم تتجاوز - بعد - عتبات اليقين ، إننا سنبنى على أساس مهوَّش غير راسخ ولا شك ..) وأنه ما لم تصبح أفكارنا عن

طويل من الظنون والتخمينات والأمانسي (تلك أمانيمهم ، قل : هاؤا برهانكم إن كنتم صادقين)

أما ما الروح ؟ وما سرّها المعجز ؟ وما طرائق تعاملها مع الدماغ والمادة ؟ فإنها مسائل تستعصى على الحل البشري .. إن الدماغ لا يمكن أن ينشق على نفسه لكي يعاين نفسه ويعطينا الجواب .. والروح نفسها ما دامت فينا ، في لحمنا وأعصابنا وخلايانا ونسيجنا ، فإنها لا تستطيع أن تتفصل لكي تعاين طريقة عملها في الجسد .. ثم إن المسألة أولاً وأخيراً ، لا تعني مهمة الانسان في العالم ، والأحرى أن يتجاوز الانسان ذلك إلى البحث في صميم العالم وتركيبه للكشف عن سننه وقوانينه وللتحقق بالتقدم والابداع في مجرى التاريخ .. من ثم فانتنا بيتنا نجد في كتاب الله مئات الآيات التي تدعونا إلى فهم العالم والكشف عن سننه ، لا نجد سوى آية واحدة تحكي لنا عن الروح ، سر الحياة والفكر ، ومعجزة الخلق والابداع (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

ولنرجع إلى (النظرية المادية للتطور الطارىء) كإحدى المحاولات الوضعية الجديدة لحل المعادلة .. إن سوليفان يبين لنا في مقاطع مددودات عدم قدرتها على الاتيان .. وتهافتها .

تقول النظرية - كما مرّ بنا قبل قليل - بأن الحياة والعقل يعتبران خاصتين طارنتين على مجاميع مادية معينة .. ويرد سوليفان (إن المعرفة التامة بالناصر المكونة لهذه المجاميع لا يمكنها أن تتيح لنا التنبؤ بأن اجتماع هذه العناصر سوف ينتج خاصتي

أن تنهم بالعجز ، حتى ولو قادها ذلك إلى تجاوز مقتضيات العلم ومناهجه الرصينة .. وتبقى نظرية التطور الطارىء ، قبل هذا وبعدة ، نظرية وليست حقيقة مسلماً بها أو قانوناً .

(١٥)

فما هذه النظرية الحديثة للتطور الطارىء ؟

تقول النظرية - باختصار - (إن خواص جديدة بصورة جذرية تبرز إلى الوجود في مراحل مختلفة من التعقّد الذي يصل إليه الكيان المادي . فالحياة والعقل كلاهما قد اعتبرا وفقاً لهذه النظرية خاصتين طارنتين على مجاميع مادية معينة Certain material aggregates : ص ٢٠) .

في التفسير الاسلامي ، والديني عموماً ، تحلّ (الروح) المعادلة الصعبة ، تنصبّ على الدماغ ، ذلك النسيج المعقد من الخلايا ، فتتمنحه القدرة على الادراك ، وتنصبّ على المادة ، ذلك التركيب المتشابه من الذرات ، فمننحها الحياة .. ليس ثمة إشكال ، بمجرد أن نتيقّن نفوسنا بأن الله خالق الكون والحياة والانسان ، هو وحده القادر على إحداث معجزة الفكر في خلايا الدماغ ، ومعجزة الحياة في الذرات المادية ، بإضافة سرّه العجيب : الروح .. وبدون هذه الاضافة ، فإنه ليس بمقدور أية نظرية علمية أو فلسفية ، على مدى ملايين السنين ، أن تحلّ المعادلة ذات الطرفين . إذ أنها بالغاء الطرف الآخر : الروح ، تستمسي عبثاً للبحث عن البديل ولن يكون البديل سوى سلسلة طويلة من العنت والارهاق وطريق

معرفتنا عن ذرات الهيدروجين والأكسجين يمكن أن نصبح قادرين على الاستنتاج بأن خواص الماء يجب أن تظهر في اجتماع العنصرين السابقين ، وهذا سيؤدي إذا إلى دحض نظرية التطور الطاريء . ثم إن فشلنا في الوصول إلى ذلك الاستنتاج مهما تكررا يمكننا من إثبات تلك النظرية ، إنه يجعلها ممكنة فقط ، ويمكن أن يجعلها مع مرور الوقت محتملة . وهكذا فإن موقفنا من نظرية التطور الطاريء يعتمد إلى حد ما على تقديرنا لمستوى معرفتنا العلمية في الوقت الراهن . أما زال على علم الفيزياء أن يعرف الشيء الكثير عن خواص المادة ؟

ويجب سوليفان (من الواضح أنه لا يوجد أي شخص يستطيع الإجابة على السؤال السابق . وإذا أردنا أن نتحدث بصفة رسمية ، فإن العلماء يقولون دائما بأن العلم لم يكد يبدأ بعد . وإذا صح هذا ، أو بعبارة أخرى ، إذا كانت مبادئ وقوام علم الفيزياء قابلة لتطبيقات لا نهاية لها ، فإن نظرية التطور الطاريء يمكن اعتبارها في أحسن الحالات ، مجرد إمكانية وليست فرضية ناجحة . إن نظرية التطور الطاريء تفترض أن معرفتنا بقوام أو كيان الفيزياء والكيمياء هي معرفة مكتملة بالضرورة ولذا فإن فشلنا في استنتاج خواص الخلايا الحية من خواص العناصر المكونة لها يجب اعتباره إشارة إلى انقطاع حقيقي في الاستمرارية (Continuity) في الطبيعة . وهكذا فإن وجود علم متصل بصورة كاملة هو أمر مستحيل بطبيعة الأشياء . إننا لن نصل مطلقا إلى مجموعة من المفاهيم يمكن تفسيك جميع الظواهر عن طريقها : ص ٢٠ - ٢٢)

الحياة والعقل . ويمكن إيضاح الفكرة العامة المقصودة بالتمثيل لها عن طريق مركب من المركبات الكجائية . فالماء - على سبيل المثال - يتألف من هيدروجين وأوكسجين والسؤال هو : هل نستطيع عن طريق المعرفة التامة بخواص الهيدروجين والأكسجين أن نتنبأ بخواص الماء ؟ إننا نشير هنا إلى خواص الهيدروجين وخواص الاوكسجين كل على حدة . والجواب هو بالطبع ان العلم لا يستطيع أن يقدم لنا كشفا بخواص الماء مستمدا من المعرفة بخواص الهيدروجين وخواص الاوكسجين كل على حدة . ويحتمل أن يعزو معظم العلماء السبب في ذلك إلى أن معرفتنا بخواص الهيدروجين وخواص الاوكسجين غير مكتملة . أما نظرية التطور الطاريء فتقول بأن السبب هو أعظم من ذلك . إن خواص الماء ليست متضمنة أو محتواة في خواص الهيدروجين والاكسجين . إن ملاكا لايشأ منذ الأزل يتأمل خواص الهيدروجين وخواص الاوكسجين كلا على حدة لا يستطيع أن يقول بأن خواص الماء سوف تتجلى في اجتماعها . وبنفس الطريقة يمكن القول بأن خواص الحياة التي تتجلى في مجاميع مادية معينة لا يمكن الاستدلال عليها بأى قدر من المعرفة عن العناصر المكونة لها . والأمر نفسه ينطبق على التراكيب المادية والكيانات العضوية الأكثر تعقدا والتي تتجلى فيها الخواص العقلية .

ويضي سوليفان إلى القول بأن النظرية السابقة (ليست غير مقنعة بالتأكيد لكنها تعاني من العيب الذي يتمثل في أنه لا يمكن إثباتها أبدا . ومن ناحية أخرى فإن إمكانية دحضها تظل قائمة ، فمع ازدياد

(١٦)

إن العلماء يقولون دائماً بأن العلم لم يكد يبدأ بعد !! ومن ثم يفرض العلم احترام العقل البشري .. أما الفلاسفة فليشدوا ما يحلوهم ، في أغلب الحالات ، أن يدعوا أنهم قطعوا الشوط إلى نهايته وأنهم يقدمون للبشرية حقائق نهائية لا تقبل نقضاً ولا جدلاً .. ولكن إذا كانت مبادئ وقوام علم من العلوم ، كالفيزياء مثلاً ، لم تكتمل بعد ، وإذا كانت قابلة لتطبيقات لا نهاية لها فكيف يستتلى لنا أن نسلّم بنظرية تبني حقائقها النهائية على هذه الأوليات المتغيرة ، مدعية أنها حقائق مكتملة بالضرورة كما فعلت نظرية التطور الطاريء ؟ ومن ثم فإن أية نظرية من هذا النوع لا تعدو في أحسن الأحوال أن تكون مجرد إمكانية وليست فرضية ناجعة .. إن المادية الديالكتيكية ، في نهاية التحليل ، هي حصيلة أكثر تفلسفاً وادعاءً للعلمية ، للنظريتين السابقتين اللتين أثبت التحليل العلمي ظنيتهما وعدم صدقهما المطلق : المادية العتيقة ونظرية التطور الطاريء .

إننا نقرأ مثلاً هذه المقولة (إذا كان ثمة مفهوم يشتمل على جميع الأشياء والظواهر ابتداء من حبيبات الرمل حتى العقل البشري ، فإن هذا المفهوم يكون أوسع المفاهيم . إن هذا المفهوم هو مفهوم المادة .. وهذا المفهوم يتميز عن المفاهيم الأخرى العادية بكونه يعبر عن العلامات الجوهرية العامة ، لا

مجموعة من الأشياء وحسب ، وإنما لجميع الأشياء والظواهرات في العالم ، لكل ما يحيط بنا) (٤٥) ونقرأ (الوعي هو خاصية مادة عالية التنظيم) (٤٦) ، ونعرف القانون الذي تعول الديالكتيكية كثيراً عليه (قانون تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية) وإليكموه بإيجاز تام : إذا جرت في الأشياء تغيرات كمية ، فإنها لا تؤثر في الكيفية طالما هي تجري في حدود المعيار ، ففي هذه الحدود يكون الشيء وكأنه غير مبال بالتغيرات الكمية وكأنه لا يلاحظها . ولكن ما أن ينتهك المعيار حتى تبدأ التغيرات الكمية تنعكس على الحالة الكيفية في الشيء ، فالكمية تنتقل ، تتحول إلى كيفية ... تتراكم التغيرات الكمية تدريجياً وبصورة غير ملحوظة ، وتكون في البداية وكأنها لا تمس الجانب الكيفي في الشيء . ولكن تأتي لحظة ينكشف فيها هذا التراكم وتؤدي فيها التغيرات الكمية إلى تغيير كيفية الشيء .. (٤٧)

إلى هنا وليس ثمة جديد في تفسير العمل العقلي يضاف على ما قدمته النظريتان أنفسنا الذكر : المادية العتيقة والتطور الطاريء .. ونتابع الديالكتيكية حتى النهاية لكي نحظى بتفسير مقنع للنشاط العقلي ، ولا جواب .. ليس سوى تخمينات وظنون . ولو اعترفت النظرية بأنها محاولات في الطريق لاستحققت التقدير والاعجاب ، رغم جنوحها صوب الفلسفة لا العلم المختبري .. ولكنها تدعي بأن ما تقول هو الحقيقة العلمية النهائية ، هو الصواب المطلق .. فتقع في

(٤٥) ياغرت ، المرجع السابق ص ٣٢

(٤٦) المرجع السابق ص ٥٥

(٤٧) انظر المرجع السابق ص ٢٧ - ٨١ .

تفسر طبيعة النشاط الذي يقوم به العقل البشري الحسي .. وهو يقينا يختلف نوعاً ، وكما تؤكد الديالكتيكية في أكثر من مكان ، عن العقل الآلي .. وبهذا تقع في التناقض وهي تحاول أن تخرج من المأزق الذي أوقعت نفسها فيه بادعائها القدرة (العلمية) على حل كافة المسائل والمعضلات في كيان العالم وكيونة الانسان .

وما طرحه الديالكتيكية من أن العلم هو حوصلة العمليات العقلية المنصبة على المعطيات الحسية المستمدة - بدورها - من الواقع ، ليس تفسيراً لعمل العقل ، ولكنه مجرد وصف لواحد من أنشطته المعقدة المتشابكة .. كما أنه - أي هذا الوصف - ليس جديداً .. إن هذه المسألة قد أصبحت من البدايات ، منذ قرون مضت .. ولكن الجديد هو أسلوب الحسم والقطع الذي يعتمد الديالكتيكيون في أشد المواقف تطلبا للتروّي والتشكك والأناة .. من هذه المواقف مثلاً القول بـ « أننا لا نستطيع معرفة أي شيء عن العالم المحيط بنا إلا عن طريق الاحساسات » .^(٤٩) والقول (بأن الاحساس هو نتيجة تأثير أشياء العالم الخارجي في أعضاء حواسنا ، ولهذا بالذات يعطينا المعرفة الحقيقية الصحيحة عن العالم المحيط بنا)^(٥٠) نستخلص من هذا أن اللادورين على خطأ في زعمهم أن أعضاء الحواس شهود غير نقاة^(٥١)

الخطأ الذي بين لنا سوليفان بعض أبعاده وهو يناقش نظريتي المادة العتيقة والتطور الطارئة .

وليكّم نموذجاً فقط من تعميمات الديالكتيكية حول عمل العقل ، انها تسأل (كيف تصاغ الاستنتاجات من الوقائع) التي تقدمها المعطيات الحسية بطبيعة الحال ، وتجيب (إنها تصاغ بفضل خاصة التعميم (أو التلخيص) عند التفكير . وهذه الخاصة تكمن في أن التفكير يجمع في كل واحد العلام الرئيسية ، الجوهرية المجردة من الوقائع ، ويكون المفاهيم والأفكار العامة والصور ، ويصوغ استنتاجات تتسم بأهمية عامة لصنف كامل من الظواهرات . إن الحواس تزود العقل بالمعطيات والوقائع اللازمة .

أما العقل فيصوغ على أساسها الاستنتاجات ، التعميمات ، (أو التلخيصات) ، وهذه هي الدرجة العقلية للمعرفة . وبدون الحواس لا عمل للدماغ ، للعقل ، وبدون العمل المنظم الذي يقوم به الدماغ لا وجود للمعرفة الحسية . وعليه تؤلف المعرفة الحسية والمعرفة العقلية مرحلتين لعملية واحدة لا تتجزأ للمعرفة وتتم على أساس التطبيق للنشاط العملي) .^(٤٨)

إن الديالكتيكية تفسر هنا كيفية عمل العقل الألكتروني ، الدماغ الآلي .. ولكنها - يقينا - لا

(٤٨) باغوت ، المربع السابق ص ١٦٨ - ١٦٩

(٤٩) المربع السابق ص ١٦٤

(٥٠) المربع السابق ص ١٦٤ - ١٦٥

(٥١) المربع السابق ص ١٦٥

من التأثير في البدن بقسط متزايد من الحرية ويصبح كيانا له وحدة تبقى بعد الجسد . وليس في وسعنا أن نقطع بأن نقيض هذا التقدير قد ثبت بأدلة العلم الحديث ، ونعني بالنقيض أن العقل يستحيل أن يعيش بعد الجسد (٥٦)

وندع تخمينات الفلسفة التي تحاول أن تقفز أمام العلم خطوات واسعة مدعية أنها قد فهمت العالم .. ونرجع الى سوليفان .. الى العلم نفسه .

ثمة عبارات ذات دلالة ترد في تعقيب سوليفان الآنف ، انه يقول (اننا لن نصّل مطلقا الى مجموعة من المفاهيم يمكن تفسير جميع الظواهر عن طريقها) . ولقد بينا في مكان آخر من هذا البحث كيف أن أزمة منهج البحث الغربي في العلوم والانسانيات تتمثل في أنها تعاني من (التعميمية) التي تجعله يسعى بالقرس والاكراه الى جعل المفهوم ، أو مجموعة المفاهيم ، التي توصل اليها ، تفسر جميع الظواهر على الاطلاق . ويبقى بعد هذا كله عشرات الاسئلة المعلقة حول النشاط العقلي دونما جواب (وهكذا فإننا نرى أن السؤال المتعلق بتطور الذكاء ما زال شائكا وحافلا بالمشاكل التي لم تحل ، ولم يصحح بالامكان ، رسم أي خط واضح للتمييز بين ما يحس وما لا يحس ان الارتباط بين التركيب الطبيعي والميزات العقلية ما زال امر افتراضيا الى حد بعيد . ولسنا نعرف ، اذا كان الشعور ينبعث فقط في مراحل معينة من التمدد في التركيب أم يترتب افتراض وجوده

أن معطيات العلم المتزايدة يوما بعد يوم ، وخاصة في حقل الفيزياء والحياة ، تعرض النظرية الديالكتيكية بصدد العلاقة بين المادة والوعي لهزة قاسية فالمادة لم تعد ذلك البناء المتأسك الصلب الذي يعكس بشكل آلي وبالضرورة على العنلية العقلية ، وعذبه بدورها لم تعد بعد بحث عشرات السنين عملية بسيطة غير معقدة تعكس بسهولة وبساطة معطيات المادة من حولها ، ان العلاقة بين الطرفين غدت - على ضوء العلم الحديث - أكثر صعوبة وتعقيدا . ان المادة والوعي ينبتان في غابة التعقيد وليست ثمة ضرورة هندسية محتمة لأن تكون العلاقة بينهما تأثرا فحسب أو تأثيرا فحسب ، بهذا الاتجاه أو ذاك ، أي بالمنطوق المادي أو المثالي ، والأخرى أن يقال بأن العلاقة بين الطرفين أكثر انفصالا ولا مباشرة مما كان يتوهم ، وأكثر استقلالية وان الاتجاه السائد هو أن كليهما يسير على خط مستقل ، يتقارب مع الآخر باستمرار لكي يلتقيا يوما في نقطة ما : العقل والمادة ، الوعي والوجد ، وما خلال مسيرتهما تلك بأخذان ويعطيان ، نعم ولكن ليس بالصيغة المثالية أو المادية المقفلة والمسطحة في الوقت نفسه والتي تحيل أحدها الى انعكاس هندسي تام للآخر .. اننا نتذكر هنا عبارات وليام براون استاذ علم النفس بجامعة اكسفورد في مطلع الخمسينيات (ليس ثمة ما يتعنى من أن نفهم أن العقل الواعي - وان تطور من صور ايسط في الوظائف الحيوية - يتدرج شيئا فشيئا الى حال من الاستقلال ويمكن

(٥٦) المقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ١١١ .

وهكذا .. فإذا كان لنظريتين في علم النفس رأيان مختلفان تماماً إزاء ظاهرة من الظواهر فكيف يتاح لنا أن نحكم على صدق المنهج النفسي، وعلميته، وبقينته؟ فإذا ما تأكد أن إحدى النظريتين مصيبة، بشكل أو آخر، كانت الأخرى بالتأكيد خاطئة، وليس لنا من ثم أن نعتقد بأن علم النفس يتكئ على دعائم ثابتة، كما يحدث في الفيزياء والكيمياء، رغم أن هاتين تتعرضان بنسبة أقل، بطبيعة الحال، لتغيرات أساسية في صميم مقولاتهما .. وقد يقول قائل إن كلا من النظريتين النفسيتين تتضمن قدراً من الخطأ وقدراً من الصواب، وفي هذه الحالة أيضاً لا يمكن الاطمئنان إلى سلامة المنهج الذي يعتمد عليه علماء النفس في طرح نظرياتهم، لأنه في أغلب الأحيان يعتمد التعميم، ومن ثم تختلف النظريات النفسية - أحياناً - اختلاف النقيض مع النقيض، دون أن يكون هناك قاسم مشترك .. ذلك أن (التعميم) هو الضربة القاتلة لمناهج البحث العلمي الرصين . ومهما يكن من أمر فإن سوليفان يتناول بالتحليل والنقد اثنتين من أبرز النظريات النفسية وأكثرها انتشاراً : النظرية السلوكية ونظرية التحليل النفسي، لكي ما يثبت أن يصدر حكمه على مدى علمية وصدق النتائج التي توصلنا إليها بصدد تركيب العقل البشري وطريقة عمله .

أما النظرية السلوكية (Behaviorism) فهي أكثر النظريات تظاهراً بكونها سليمة وتقوم بمعاها الدقيق على القول (بأن ما ندعوه عمليات عقلية ما هو في الحقيقة سوى حركات جسمية . عندما نقول

في كل المادة الحية أوحى المادة بوجه عام .. ويمكن أن يكون تركيب عقولنا محكوماً بتركيب جللتنا العصبية لكن الأبحاث حول الجملة العصبية لا تلقى بصورة عملية أى ضوء على عملياتنا العقلية في الوقت الحاضر : ص (٢٥ - ٢٦)

ويسيطر الضوء مطلقاً ولن يشعله إلا الاعتقاد بوجود القوة الحيوية الخلاقة التي نفخها الله في طينة بنى آدم .. في عقولهم وأجسادهم : الروح .. وبدون هذه الاضاءة التي لا يستطيع العلم - بالتأكيد - نقيها أن عجز عن اثباتها، سيطر الفكر البشري يتخبط في الظلمة دون أى بصيص من نور، وهو يبحث عن الباب الذي يفتح على الحقيقة النهائية .. وهكذا نجدنا مسوقين - هذه المرة - بعد جولة قصيرة مع علماء الحياة والفيزياء والفلاسفة، صوب النظريات التي طرحها علم النفس في محاولة جادة منه للعبور على الباب ..

(١٢)

إلا أنه من سوء الحظ، كما يقول سوليفان (أن العلم الذي يتناول العقل وهو علم النفس ما زال في الوقت الحاضر في مرحلة بدائية جداً، بل أن البعض ينكر وجود أى علم من هذا القبيل !! وليس هناك بالتأكيد نظام من المعارف النفسية الثابتة التي جرى إقرارها بصورة عامة، بل هناك عدد من النظريات، لكل منها مجال محدود للتطبيق، وهي تختلف عن بعضها اختلافات عميقة حيناً تتناول الظاهرة نفسها .. ص (٢٦) .

وهكذا تغدو هذه المظاهر للنظرية السلوكية ضربا من النظرية المادية العتيقة . ولكن النظرية المادية المشار إليها نفسها اقترت في معظم الحالات بوجود عمليات عقلية مصاحبة للحركات الجزيئية على الرغم من كونها خاضعة لها كلية .

(.. صحيح أن هناك الكثير من أنواع السلوك مما لا يحمل أية دلالة على وجود التفكير ، وما يوحى بأن كل مايجرى في هذه الحالات عبارة عن ردود فعل تلقائية خالصة . مثال ذلك ما نقوم به عندما نستمع الى محادثة حول السياسة . ولكن ما هو مدعاة للدهشة أن لايجد السلوكي دليلا على وجود عمليات فكرية في داخله هو . والحقيقة أن كلا منا يدرك بشكل مباشر وجود أحاسيس وصور وأخيلة وتعليلات عقلية تعمل في داخله . وليس لدينا عمليا أدنى شك في كوننا محققين في أن تنسب مثل هذه النشاطات للآخرين . ان ابرة البوصلة في تتبعها لحركات المغناطيس (تدرك) بالتأكيد ، ومن وجهة نظر السلوكي ، المغناطيس . ولكننا نعلم أن هناك فيما يتعلق بادراكاتنا الخاصة شيئا آخر حتى ولو كان سلوكنا البدني منتظما وتلقائيا مثل سلوك ابرة المغناطيس . وهذا الشيء الآخر هو بالطبع الأحاسيس والصور التي لنا بها دراية مباشرة . ان هذه الأحاسيس والصور يجب ارجاعها الى حركات بدنية وفقا لمفهوم النظرية السلوكية ، يجب أن تكون ماثلة للحركات البدنية : ص ٢٧ - ٢٩) .

ويشير سوليفسان الى شرح الدكتور برود (broad) الذي أظهر على الدوام صبرا جديرا

بأننا نفكر في شيء من الأشياء ، أو ندرك شيئا ما ، فان هذه المقالة تعنى في حقيقة الأمر أن جسمنا يتصرف بطريقة معينة . ومن الصعوبة بمكان ، في البداية الاعتقاد بأن هذه المقالات تعنى ما نقوله . إن أحدنا ليفسرنا على أنها تعنى على سبيل المثال أن العمليات العقلية تكون دائما مصحوبة بحركات بدنية ، وأن الحركات البدنية والعمليات العقلية اعتباران لا يفترقان لحادث واحد . فيدون هذه التأويلات تصبح المقالات السابقة هراء واضحا . ولكن الذي يبدو أن هذا الهراء الواضح هو ما يشكل العنصر الأصيل في النظرية السلوكية .

ويعضى سوليفسان الى القول بأن « النظرية السلوكية تطرح ما نسميه (عقلا) دفعة واحدة فنحن لانفكر انما نقوم بحركات كلامية أولية ، ونحن لاندرك أى شيء ، وانما نقوم بحركات لتعديل وضع مُقَلَّنَا .. وهكذا .. وستكون مناقشة هذه النظرية من قبيل اضاعه الوقت بالتأكد لو لم تكن هناك حقيقة تتمثل في أن عددا ملحوظا من الناس يتظاهرون بالايمان بها وعددا أكبر يرغب في الايمان بها هذا السبب العاطفي أوداك !!

(ان الحركات البدنية التي تفترضها النظرية السلوكية بالضرورة حركات مكتشفة ، بل انها تشمل حركات اخرى مثل الحركات البسيطة التي تحدث في الحلق ، ومثل تغير ضغط الدم ، وما الى ذلك . بل ان بعض مظاهر السلوكية الأقل صفاء تفترض وجود حركات جزيئية في الدماغ لا يمكن ملاحظتها، وذلك عندما يتعذر ايراد دليل على وجود الحركات السابقة .

المرونة ، بحيث يمكن بالتكييف الملائم وخلق الظروف المحيطة الملائمة تحويل الطفل الى أى نوع من أنواع الانسان . يقول الدكتور واطسن ان السلوكى (يعتقد أنه لو أعطى قائمة بسيطة نسبيا من الاستجابات الأولية تكون متجانسة الى درجة معقولة فى الأطفال الرضع فانه يستطيع - بشرط أن يضمن بقاء الظروف المحيطة تحت المراقبة - أن يطور أى طفل فى أى اتجاه ، الى رجل غنى أو رجل فقير ، أو متسول أو لص) . ان المشكوك فيه أن تكون هذه العقيدة القائلة بأنه يمكن بتكييف الظروف فقط تكوين رجال مثل اينشتاين وشكسبير وحتى هنرى فورد ، مرضية حتى لأبله يحترم نفسه . أما للآخرين فتبدو مجرد أثر من آثار التعميمات السريعة بل السخيفة !! التى يقع فيها السلوكيون : ٣٩ - (٤٠) ..

ان هذا ليذكرنا بتعميمات المادية التاريخية القائلة بأن السلوك الاجتماعى للانسان يبعث بمثابة انعكاس أمين للظروف الانتاجية التى يعايشها والتى هى بمثابة تكوين اقتصادى صرف خلقتة الصيغ المتطورة لوسائل الانتاج .. فلو أننا - مثلاً - وجدنا أنفسنا فى ظرف تسوده علاقات انتاج مشاعية لاستحال علينا أن نتمرد على لص أو مرمّض أو انتهازي .. الى آخره .. ولاستحال علينا كذلك أن نجد من تحدّثه نفسه بتعاطى المخدرات بقصد الهروب من واقع حياته المعاشى .. ولكن ماذا لو أجرينا احصاء فى عينه أو

بالاعجاب فى معرض مناقشته لما دعاه بنظرية السخف الطائش !! Preposterously silly theory وأنه كان (موقفاً جداً) فى اثبات ان ادعاءات السلوكية بصدد التاثر بين الأفكار والحركات البدنية ، مستحيلة . ويورد طرفاً من هذه المناقشة (٥٣) ولا ينسى سوليفان أن يشير الى الجهود التجريبية القيمة التى أجراها كل من بافلوف على الكلاب ، والدكتور واطسن على الأطفال ، وكوهلير على قردة الشمبانزى بصدد الانعكاس الشرطى والافادة منه فى مجال التعلم عموماً ، وتعلم اللغة على وجه الخصوص ، على الرغم من أنها لم تحقق نجاحاً كبيراً حتى فى هذا المجال : المنعكس الشرطى الذى يكاد يكون الميزة الوحيدة لنظرية السخف الطائش هذه . (٥٤)

ولكن حتى مسألة الارجاع الشرطية هذه اندفع فيها السلوكيون إلى مدى بعيد فوقعوا فى الخطأ لأنهم أرادوا بهذا تعميم استنتاجاتهم المبينة على عدد محدود من التجارب والخبرات ، على سلوكية العقل البشرى فى آفاقه كافة .

يقول سوليفان (على الرغم من أن التجارب الموصوفة أعلاه ، بالإضافة الى عدد من التجارب الأخرى يمكن أن يكتب لها النجاح ، فانه سيكون من قبيل الاندفاع الشديد أن نصف العقل على أنه مبنى بشكل كامل من انعكاسات شرطية . ومع ذلك فان هذا ما يفعله بعض السلوكيين . ان هذا البعض يرى أن عقل الانسان على درجة لامتناهية من

(٥٣) انظر الصفحات ٢٩ - ٣٠

(٥٤) انظر الصفحات ٣١ - ٣٩ و ٤١ - ٤٢ .

شريحة - كما يسمونها - واحدة فحسب من المجتمعات الشيوعية المعاصرة وتبين لنا العدد الكبير المعشش من اللصوص والمرتبين والانتهازين والحشاشين ؟! اننا بمجرد أن نمر بأحدى بلدانهم مروراً سريعاً ، فإن بمقدورنا أن نضع أيدينا على حشود من هذه الناذج .. فأين ذهبت اذا تقنينات السلوكية المادية ؟

ثم .. اذا كان سوليفان ، أو برود أو غيرها ، يطلقون على النظرية السلوكية نعتهم القاسية تلك من مثل (نظرية السخف الطائش) ومثل القول بأن تكيف الظروف فقط كفيلاً بتكوين رجال مثل اينشتاين وشكسبير ، ليس مرضياً حتى لأبله يحترم نفسه ، ومن مثل التعيمات السريعة بل السخيفة) ، وان مناقشة النظرية السلوكية هي (من قبيل اضاعه الوقت بالتأكد) ، وان العدد الأكبر من المنتمين اليها يرغب بها لهذا السبب العاطفي أو ذاك ، ومن مثل أن تفسيرات السلوكي للعمليات العقلية الأخرى مثل الذاكرة هي تفسيرات فاشلة بدرجة مماثلة وأن النظرية السلوكية تعاني من الضحالة في افتراضاتها الأولية .. الى آخره .. اذا كانت أوصاف كهذه تطلق على نظرية مارست طرائق التجريب على الأقل ، وأنبشت من (المختبر) .. فهذا توصف المادية التاريخية التي لم تمارس تجريبياً ولا عاشت مختبراً .. وانما هي رؤية فلسفية لم تتجاوز الظن والخمين ولم تبلغ عتبات اليقين ؟ وكيف يسول صانعوها وتلاميذهم لأنفسهم أن يعتبروها بالعلمية ويعتبروها حقائق نهائية تعد مجرد مناقشتها أو التساؤل عن بعض جوانبها كفراً بالعلم ومروقاً عن بداهاته ؟!

ويتابع سوليفان موقف النظرية السلوكية من العمليات العقلية الأخرى ، فيرى أن تفسيرات السلوكي للذاكرة (هي تفسيرات فاشلة بدرجة مماثلة . يقول الدكتور واطسون (لا نعنى بالذاكرة أى شيء سوى حقيقة أننا عندما نواجه منها معينا من جديد ، فاننا نقوم بنفس الفعل الذى تعلمنا أن نقوم به عندما تعرضنا للمنبه في المرة الأولى . كأن نلفظ بنفس الكلمات أو نظهر نفس المخلجات الحشوية القديمة) . ويشير برتراند رسل (B. russel) الى أن كشف الدكتور واطسون هو غير صحيح بالتأكد اذا كان يعنى (بنفس الفعل الذى تعلمنا القيام به) العادات الملقطة . اننا نستطيع ونقوم بالفعل بوصف تجاربنا السابقة بأشكال لفظية مختلفة ، مثل قولنا (لقد قابلت السيد جونز في الترام اليوم) أو (لقد كان جوزيف في ترام الساعة التاسعة وخمس وثلاثين دقيقة هذا الصباح) ان العنصر الثابت في مثل هذين الوصفين المختلفين هو المعنى . ولو كان الأمر مجرد عادات لفظية فانه يترتب عليه الافتراض بأننا قد قضينا شطراً طويلاً من حياتنا نرد كل شكل ممكن من أشكال الكلام الذى يتبع لنا التعبير عن كل شيء يمكن تذكره . وهكذا فاننا نشهد هنا مثالا آخر على المبالغات التي يمكن أن تقلل الى حد كبير ما يمكن أن يكون للملاحظات السلوكيين من قيمة : ص ٤٢-٤٣) .

ويخلص الى القول (بأنه الى جانب قيام السلوكيين بوضع نظريات على أسس واهية جداً من الحقيقة فإنهم يقدمون نظريات تتناقض خيراً تأسا المباشرة . انهم ينكرون الحقائق الواضحة ، ينكرون

استحضاره الى مجال الشعور بجهود ارادى وبعضها لا يمكن استحضاره الا باستخدام الفن الخاص بالتحليل النفسي أو باستخدام أساليب أخرى مكافئة : ص ٤٤) .

ولا يسعنا استعراض معطيات نظرية التحليل النفسي بصدد اللاشعور والصراع والكبت والطاقة الجنسية أو الليبدو- كما يسميها فرويد - (٥٥) وإنما نريد أن نقف قليلا عند بعض التناقضات التي وجهها سوليفان الى النظرية لكي يتبين لنا أنها لا يمكن أن تعد بحال مسلمة نهائية تحل اللغز المتعلق بعمل العقل وانعكاسه على السايكولوجية البشرية .. فالحلم مثلا - الذي يعتبر تفسيره أحد أعمدة النظرية - ينبثق عن مصادر متعددة جدا للخبرة تجعل من الصعب الاعتقاد بأى تفسير للأحلام . (٥٦) فلهذا فمفسر الحلم متغيرات عديدة يستطيع أن يتصرف بها ، ويبدو واضحا أنه بقليل من الذكاء يمكن استخراج أى محتوى كامن منها كان من أى محتوى ظاهر . والواقع أن محللين نفسانيين مختلفين يمكن أن يقدموا تفسيرات مختلفة تماما للحلم الواحد . فرويد كما تعلم يجد في الحلم مجموعة من الرموز الجنسية وإدرا Adler الذى كان في وقت من الأوقات محللا نفسانيا ، والذى تذبذبت تعاليم فرويد (وما أكثر ما يحدث هذا في المدارس والنظريات الغربية) يجد في الحلم تعبيراً عن الرغبة في القوة . ويونغ Jung يحتمل أنه يقدم للحلم تفسيراً آخر أيضاً ومن المستحيل القول بأن أى من هذه التفسيرات هو أكثر معقولية من التفسيرات الأخرى .

أما نستطيع تشكيل صور بصرية أو سمعية أو ما إليها في عقولنا ، أن أولئك الذين يمتلكون من بيننا قدرة عظيمة على تكوين الصور البصرية العقلية ، أو الذين يستمتعون بالاصغاء العقل للأعمال الموسيقية المحببة لديهم - يعلمون أن هذه المقالة لا تتطوى على أى جانب من الصحة . حقا أن النظرية السلوكية عندما يجرى تطبيقها على العمليات العقلية كافة ، وليس فقط على العمليات العقلية البسيطة جدا ، تبدو قاصرة الى درجة تصبح معها غير ذات أهمية : ص ٤٣-٤٤) .

(١٨)

وأما نظرية التحليل النفسي ، التى وضع فرويد أسسها فيتناولها سوليفان في المقطع الأخير من (طبيعة العقل) بالعرض والنقد ، ويرى أنه إذا كانت النظرية السلوكية تعانى من الضحالة في افتراضاتها الأولية ، وأنها تبالغ في تبسيط العقل فان من الصعوبة قول هذا الشيء نفسه ، بالنسبة للتحليل النفسي (ان الأهمية الرئيسية للتحليل النفسي كنظرية عامة في علم النفس تتركز في افتراضاتها ، والافتراض الرئيسي من بين هذه الافتراضات هو وجود ما جرت تسميته باللاشعور (Un conscious) فعلمنا أن نفترض أنه الى جانب العمليات العقلية التى نعيها ، هناك عمليات عقلية نشطة أخرى لا نعيها مطلقا . وبعض هذه العمليات أو الأحداث التى تجرى في اللاشعور يمكن

وهذا أمر عجيب للأمال إذا كان يراد لتفسير الأحلام أن يعتبر علما ! ان الأمر هنا يبدو كما لو أن محللين كپاويين مختلفين قد توصلوا الى عناصر مختلفة تماما نتيجة لتحليل مركب كپاوى واحد . لذا فإن كون هذا الجزء من تعاليم فرويد قد أثار الكثير من الشك أمر ليس فيه ما يدهش . (ص ٥٢-٥٣) .

وفيما يتعلق بالاشعور ، هناك اختلاف كبير حول محتوياته بين الذين قبلوا أفكار التحليل النفسي واحترموها ففرويد ، كما هو معروف جيدا ، يركز تركيزا كبيرا على الرغبات الجنسية المكبوتة .. بينما يركز علماء آخرون على دوافع ورغبات أخرى كما سنرى .. انه لا يصبح مطلقا القول بأن معطيات التحليل النفسي قد لاقت اقرارا عاما من قبل علماء النفس (٥٦) ان النظرية في حقيقة الأمر (تركيب شديد التعقيد) وقد قللت وفرة الفرضيات التى انطوت عليها هذه النظرية الكثير من قيمتها ودرجة الثقة بها في أعين الكثيرين . ويمكن تقديم مثال جيد عن هذا الخصب في مجال صنع النظريات من خلال نظرية فرويد في الطاقة الجنسية او الليبدو Libido (ص ٥٤) .

ان فرويد يد الليبدو ، أو طاقة الحب الجنسي ، الى كل فاعلية وكل اتجاه في حياة الانسان من يوم أن يولد وحتى وفاته . ان كل صغيرة وكبيرة ، كل عمل جزئي أو هدف كلي سام هو بمثابة تعبير مباشر أو غير مباشر في هذه الطاقة الجنسية المكبوتة في معظم الأحيان (ان نظرية الليبدو هذه (٥٧) ، كما يعلق

سوليفان ، تمثل جيدا الخيال الخصب الذى بنى التحليل النفسي . انها بناء معقول ومنسب ومع ذلك فإن الحقائق التى بنيت عليها تقبل تأويلات مختلفة بالكلفة عن بعضها البعض . وقد أثبت هذه الحقيقة بشكل كاف ، وجود نظريات أو أنظمة منافسة لها . ويحتمل أن تكون أنظمة يونغ وادلر أفضل ما هو معروف منها . لقد افترض يونغ أيضا وجود ما ساء الليبدو . لكن الليبدو عند يونغ كان مختلفا تماما ما هو عليه عند فرويد . فالليبدو عند يونغ قوة حيائية أساسية ثابتة . ومنها نشق أو تنبع كل الفرائز ، ففى الرضيع تتخذ شكل غريزة الغذاء لكنها لا تتخذ الشكل الجنسي الا بعد ذلك بوقت طويل . وقد أنكر يونغ كون الاشعور منطقة تفتتها الرغبات التى جرى كبنتها بنتيجة الصراع . فالاشعور عنده نتيجة للنمو العقلي الانفرادى لدى الفرد . وقد قسم يونغ الناس الى فئتين رئيسيتين بالإضافة الى تقسيمات جزئية أخرى ، والفئتان الرئيسيتان هما الانبساطى (Extroverts) والانطوائى (Introverts) ففى الشخص الانبساطى يكون الحس متطورا أكثر من الفكر ، وفى الشخص الانطوائى يكون الفكر متطورا أكثر من الحس وفى كلتا الحالتين تميز الطاقات المهمة لأن تصبح لاشعورا . والآن ، اذا واجه الانطوائى حالة تتطلب حسا أكثر مما تتطلب فكرا ، تولد لديه صراع يمكن أن يؤدي الى العصاب . وهذا هو نفسه ما يصيب الانبساطى عندما يواجه موقفا يتطلب فكرا أكثر مما يتطلب حسا . لذا فان يونغ لم ينظر الى حياة

(٥٦) انظر صفحة ٥٦

(٥٧) انظر ص ٥٤ - ٥٧ للاطلاع على التفاصيل .

ويخلص سوليفان الى القول بأنه يمكن إيراد المزيد عن عقائد أخرى انشقت عن نظرية فرويد . والحقيقة أن عروض التحليل النفسي تنافس المسيحية جيدا في عدد طوائفها وكل طائفة من طوائف التحليل النفسي تدعى لنفسها ، مثل طوائف المسيحية ، نظرة شاملة واقعية وتشير الى قائمة مؤثرة من العلاجات الروحية والجسمانية لانبثات كفاية تعاليمها وصلاحياتها . إن أى شكل من أشكال التحليل النفسي لا يمكن اعتباره في وضع مرض كعلم . ولا يمكنه اللجوء الى النتائج من أجل اثبات النظرية لأن هذه النتائج اى العلاجات التي يقدمها (التحليل النفسي) يمكن بنفس الدرجة تقريبا الحصول عليها من خلال نظريات مختلفة كلية . لذلك لا يمكن الحكم على هذه النظريات من خلال النتائج . ويتبع ذلك أن هذه النظريات يمكن فقط الحكم عليها بالاستناد الى احتمالاتها الأولية . وهنا تواجه صعوبة تتمثل في أن كل اشكال التحليل النفسي تظهر محتملة بدرجات متساوية تقريبا . وربما يجب التفريق لمصلحة تلك النظريات التي تأخذ بفكرة اللاشعور . وذلك في مقابل تلك التي تنبذ هذه الفكرة . ان مفهوم اللاشعور مفهوم مهم بالتأكيد ، لكنه وجد قبل التحليل بوقت طويل ، وهكذا فان كون التحليل النفسي قد أدخل شيئا جديدا ، هو موضع جدل ونقاش : ص ٥٩-٦٠) .

(١٩)

والنتيجة التي ينتهي اليها سوليفان أنه ليس في نظريات علم النفس كافة (شيء من شأنه أن يغير

المرضى الماضية من أجل التعرف على أسباب عصابه ، بل حاول أن يكشف عن ماهية الموقف الحاضر الذي يتوجس منه المريض لينتقل من ثم الى تحفيز تلك العناصر المدفونة في اللاشعور ، والتي من شأنها أن تجعله قادرا على معالجة الموقف . ومن الطبيعي أن يقدم يونغ بالاستناد الى هذه النظرية تفسيرات للأحلام تختلف كلية عن تفسيرات فرويد ، كأن يرى بأن الأحلام تكشف وضع اللاشعور حيال مهمات الحياة . ص ٥٧-٥٨) .

أما تفسير ادلر ، الذي ينتهي الى المدرسة نفسها ، فهو أيضا مختلف (ولكنه مع ذلك معقول بنفس الدرجة . يرى ادلر أن المحرك الذي يسير حياة الفرد يتمثل في الحافز الذي يدفعه لاكتساب القوة والتفوق على من حوالبه . ولقد تمكن ادلر انطلاقا من هذه النظرية في تقديم تحليلات لها من الشمول والقدرة على الاتساع ما للتحليلات الصادرة عن نظريات مختلفة بالكلية ! وهكذا فأننا جميعا نعرف ذلك الشخص الضعيف الذي يكبت رغبته في اكتساب القوة والتفوق بالوسائل العادية ، ويستعمل عجزه نفسه ليسيطر ويطغى على أفراد عائلته . وحيث وجد فرويد موضوعنا جنسيا في التحليلات العصابية ، فان ادلر لم يجد صعوبة في أن يجد في تلك التحليلات مثالا آخر لايضاح نظريته حول الرغبة في القوة . وقد تجاهل ادلر فكرة اللاشعور ولم يستفد من استعمال مفهوم الكبت . وهكذا لم يعد لادلر أى وجه للشبه مع المحلل النفسي على الرغم من أنه نفسه بدأ محلا نفسيا . ذلك أنه رفض الأسس ذاتها التي بنيت عليها نظرية فرويد ص ٥٩) .

حد ما .. أما السيطرة على عينة يدخل فيها الانسان ، والعقل ، والحياة ، طرفا .. فتكاد تكون مستحيلة .. والنتيجة التى نصل اليها فى هذا المجال (ضعيفة ومتلجلجلة) .

ومن قبل سئل الرسول عليه الصلاة والسلام عن الروح : معجزة الانسان ، وسر العقل ، ومفتاح الحياة .. فأجاب القرآن عنه (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا) (٥٨) .. وصدق الله العظيم .

جديا فى قناعتنا بأن هذا العلم لا يمكن اعتباره علما حتى الآن . وللمعارف الأخرى أيضا مثل علم الاجتماع والاقتصاد وما الى ذلك ، بعض النواحي التى لاتعتبر مرضية من وجهة النظر العلمية . والعلم هو أقوى ما يكون عليه عندما يتناول العالم المادى . أما مقولاته فى المواضيع الأخرى فتعتبر نسبيا ضعيفة ومتلجلجلة : ص ٦٠-٦١) .

وهي نفس النتيجة التى ينتهى اليها الكسيس كاريل فى (الانسان ذلك المجهول) .. ان السيطرة على عينة من العالم المادى لغرض فهمها ممكنة الى

تمهيد

نتناول فيما يلي سردا لوقائع ثمانية وثائق في مهنة الطب ووظيفتها في معاونة القضاء في الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصمغ عيسى بن سهل (ت ٤٨٦ هـ) ، ووقعت أحداث هذه القضايا في الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وطرحت على القضاء وانتهى فيها الى رأي ، بعد مشورة الفقهاء وأهل العلم والرجوع الى أحكام الشريعة .

وقد توخينا تيسيرا على القارئ سرد أحداث هذه القضايا بأسلوب عصري أدنى الى الفهم من الأسلوب المصطلح عليه في مثل هذا المصدر الذي إجتزأنا منه هذه الوثائق ، الى جانب التعليق على كل وثيقة وربطها بالقوانين العصرية . أما موضوعات هذه الوثائق فالوثائق الأربع الأولى تتعلق بالمرض الجسدي الذي يوجد بالملوكة التي تداولها البيع هل هو سابق أم لاحق على تاريخ البيع ؟

والوثيقة الخامسة : تتعلق بكسر في ظهر صبية شهد به الأطباء . والوثيقة السادسة : تتعلق بعيب ظهر في الصبي بعد التراء بالرغم من براءة البائع من أي عيب . والوثيقة السابعة : تتعلق بمن أستأجر طبيباً ليكويه ثم بدا له وامتنع عن الكي . والوثيقة الثامنة والأخيرة : تتعلق باختلاف الطبيب والمداري على الأجرة .

ثم قمنا بدراسة السبات العامة واتجاهات القضاء للقضايا موضوع هذه الوثائق . ثم عرضنا نصوص

ثمان وثائق في مهنة الطب

دراسة وتحقيقه:

محمد عبد الوهاب خلايف

الوثائق محققة من مصادرها المشار إليها ، وأتينا هذا البحث بالمراجع .

الوثيقة الأولى

العيب يوجد بمملوكة تداولها المالك .

الدراسة والتعليق :

تتلخص هذه المسألة في خلاف ضار في شأن أمة بيعت ثم ظهر بها عيب بعد البيع لم يكن معروفا تاريخه هل هو سابق على البيع أم لاحق له .

فلما أراد المشتري أن يردها على النخاس الذي باعه إياها ، رد عليه بأنه باعها إليه سليمة ، وأن ما أصابها من عيب إنما هو أمر طارئ حدث بعد البيع ، ومن ثم فانه ليس من قبيل العيوب الخفية التي تعيب البيع وتبطله .

ومرجع الأمر لما كان الفصل في هذا النزاع هو معرفة ما اذا كان العيب قائما بالأمة المبيعة قبل البيع أم جد بعده . وقد طرح الخلاف في حينه على القاضي الذي أحال الأمة إلى إحدى النساء لفحصها والتثبت مما اذا كان العيب قديما أم طارئا مكتفيا برأي هذه المرأة الواحدة التي انتهت إلى أن العيب قديم ، ومن ثم حكم القاضي بفسخ البيع ورد الجسارية إلى النخاس الذي باعها .

وبعد مضي حقبة من الزمن على هذا الحكم تصدى له القاضي أبو الاصبع عيسى بن سهل مقبلا عليه بأنه قد جاني الصواب ، إذ ما كان يجوز لامرأة

واحدة أن تنفرد بالنظر في العيب وإبداء الرأي في تاريخ نشوئه ، وإنما كان لا بد من أن يتم الفحص بمشاركة امرأتين اذا كان العيب بالأمة في موضع باطن ، ولا يكفي بذلك ، بل تعرض النتيجة على طبييين فأكثر لترجيح صحة رأي المرأتين أو تفنيده .

وقد ذهب ابن عتاب إلى القول بالأخذ برأي الطبييات في خصوص قدم العيب او حداته ، والا فلا يشهد به سوى الحكماء ، وهذا هو الرأي السليم .

وهذه المسألة تطرح مبدأ جديرا بالتأمل يتصل بالعدالة ، سواء من ناحية الاجراء او من ناحية النتيجة الموضوعية المستخلصة من هذا الاجراء .

وهذه النتيجة هي ازالة حكم القاعدة القانونية على الواقعة المادية المروضة على الوجه الذي تحقق ثبوته . والذي يعنينا في هذا المقام هو الاجراء ذاته ، ومثار الخلاف الذي تنحصر فيه نقطة النزاع هو عيب في الشيء المبيع ، وهذا العيب كان خافيا وقت البيع ولم يتكشف الا فيما بعد ، والأصل في المعاملات الصدق والأمانة وحسن النية ، فلأن المشتري ابتاع المجارية بحالتها وقيل شرأها كما هي لما كان له رجوع إلى البائع ، ولكن المفروض أنه اشترى جارية خالية من العيوب ، فاذا تبين بعد ذلك وجود عيب خفي فيها كان هذا ، لو صح ، سببا لفسخ البيع ورد المجارية إلى بائعها . وإذا كان القاضي يقوم بوظيفته على تطبيق حكم القانون فان ما يخرج عن نطاق القانون مما يقتضي خبرة فنية خاصة لا يكون من العدل أن يبت فيه القاضي دون الرجوع إلى أهل الخبرة في هذا الموضوع وأهل الخبرة في خصوص مرض

الموضوع إذا ما أثبتت مسألة تحتاج تحقيقاً وثباتاً ان لا يصدر حكماً تمهيدياً قبل إحالة الأمر الى خبير للتحقيق والفحص والبحث وتقديم تقرير فني بنتيجة دراسته وخلاصة رأيه ، وغني عن البيان أن أهل الخبرة تختلف تخصصاتهم بتنوع فروع المعرفة ، فإذا تعلق النزاع بمسألة طبية فالخبير بداهة يكون طبيباً ، وإذا قدم الخبير تقريره فانه يكون على سبيل الاستشارة وليس ملزماً للقاضي ، الذي يجوز له ، سواء من تلقاء نفسه أو بناء على طلب الطرف الآخر في الخصومة ، أن يعين مجموعة من الخبراء أو خبيراً مرجحاً بحسب الأحوال ، ثم يبدى رأيه بالفصل في الموضوع مقرراً بوقائع الدعوى ودفاع ذوي الشأن فيها . وعمل الخبراء تنظمه في الوقت الحاضر قوانين مفصلة . أما في التاريخ الذي عرضت فيه هذه القضية فلم يكن هناك نظام موضوع ، وإنما كان الفقهاء يجتهدون استهدافاً لغاية واحدة ، هي الأطمئنان الى سلامة الرأي لا مكان تحقيق العدالة واصدار الحكم .

الوثيقة الثانية

مسألة أخرى في هذا المعنى

الدراسة والتعليق :

ورثة مسألة أخرى تثير بحثاً مشابهاً لموضوع المسألة السابقة تتلخص وقائمه في أن شخصاً ابتاع خادمة من رجل ثم تبين ان بالخادمة آثاراً ترجب الرجوع في البيع ورد الخادمة الى بائعها . لكن هذه الآثار لم تكن ظاهرة وقت البيع ولم يجبره بها البائع ،

في موضع باطن هم الأطباء ، ويبدى ان يختلف الحال بين الأتني والذكر ، فإذا كان موضوع الفحص أنثى كان الأجدر أن تتولاه أنثى مثلها ، وهذا هو ما لجأ اليه القاضي الذي أصدر الحكم وبنى حكمه على ما تبينه امرأة ذات خبرة في مثل العيب الذي وصفت به الجارية .

يبد أن ابن سهل أخذ على هذا الحكم أن القاضي اكتفى برأي امرأة واحدة وهي ليست اختصاصية ولا محترفة وإنما مجرد امرأة ذات دراية وخبرة . واستصوب ابن سهل أن يكون العرض على امرأتين لا واحدة ، فان أجمعتا على قول واحد كان لرأيها وزن ، على أن هذا في حد ذاته غير كاف ، اذ لا بد من عرض الأمر بالتشخيص الذي انتهت اليه المرأتان على طبيبين أو أكثر لا بداهة رأيهما في صحة قول المرأتين او عدم صحته ، على ابداء ملاحظات هؤلاء الأطباء موجهة نظرهم لتتور القاضي حتى يصدر حكمه لا على أساس رأيه هو - وهو ليس خبيراً في مثل هذا العيب - ولا على أساس رأي امرأة واحدة او امرأتين وهو ما قد يجانب الصواب ؛ بل على أساس ما ينتهي اليه الأطباء المحترفون في شأن رأي المرأتين للاستيثاق من سلامة النتيجة في شأن قدم العيب او خدانة عهده .

وهذا النظام يطابق الى حد كبير أصول الأثبات في القوانين المعاصرة فيما يتعلق بالتحقيق والخبرة في المسائل والمنازعات ذات الطابع الفني الذي يخرج عن نطاق خبرة القاضي .

فالقاعدة العامة أن القاضي قبل الفصل في

وأقر البائع بأنه لم يذكرها للمشتري لأنه لا يعتبرها عيبا .

وذكر المشتري أنه لم يطلع على العيب وقت الشراء ، فلما عرضها القاضي على اثنين من الأطباء قررا بأن الآثار التي بساقي الخادمة المبيعة داكنة اللون ، مما يدل على أنها نتيجة قروح غليظة قديمة العهد كانت بالخادمة منذ نحو سنة ، وأن هذا العيب يوجب رد المبيع ، وأمر القاضي برد الجارية الى البائع بناء على رأي هذين الطبيبين . وأوجب على البائع رد الثمن الى المشتري ، وأن تبين ان البائع كان قد اشتراها بحالتها بحسب قوله من بائع سابق .

وقد عقب القاضي أبو الأصبغ عيسى بن سهل على هذا الحكم بأنه لم يصادف الصواب ، ذلك أن الطبيبين قد تجاوزا اختصاصهما فيما أدياه من رأي لكونها قد حدا تاريخ العيب بنحو سنة ، وأنها قررا أن هذا العيب يوجب رد المبيع ، في حين أنه كان يجب عليها أن يقتصر في رأيها على بيان أن العيب قديم يرجع الى تاريخ سابق على البيع ، دون تحديد تاريخ نشأته بمدة معينة ، حتى لا يغلط الباب على رجوع البائع على من سبق أن باع له هذه الجارية . وألا يرتبنا على رأيها وجوب الرد ، لأن هذا الرد هو فصل في مسألة تخرج عن اختصاصهما ، والمرد فيه الى قضاء القاضي ، ذلك أن البائع ، وإن أقر بالعيب ، إلا أنه ذكر ان هذه الآثار لا تعتبر عيبا في عرفه . وفي عرف أهل البصر حسبها هو متعارف عليه . ذلك أنه كان من اللازم أخذ رأي تجار الرقيق والنخاسين لمعرفة إن كان هذا العيب ينقص من قيمة الجارية المبيعة ، لأنه

إن صح أن مثل هذا العيب من شأنه أن ينقص من قيمة الجارية المبيعة فلربما روعي هذا النقص في تحديد ثمن الجارية المبيعة بحيث يكون المشتري قد ابتاعها بثمن أقل من ثمنها فيما لو كانت خالية من هذا العيب ، إذ في هذه الحالة قد لا يكون الرد واجبا ، على اعتبار أن الثمن الذي اشترت به الجارية هو الثمن المناسب على أساس وجود هذا العيب الذي استنزلت قيمته من الثمن .

فإذا تكافأ الثمن مع حالة الجارية على أساس قيام هذا العيب بها ومراعاته فإن الرد لا يكون واجبا في هذه الحالة .

فكان المشتري لم يدفع ثمننا كاملا ، وإنما دفع ثمننا منقوصا بمقدار هذا العيب ، ولا حق له في هذه الحالة في طلب فسخ البيع ورد الجارية واسترداد ثمنها . ومن ثم يكون الحكم غير سليم فيما قضى به اعتدادا برأي الطبيبين في أمر يخرج عن الناحية الفنية التي ينحصر فيها اختصاصهما ، وامتد الى التدخل في موضوع الفصل في الخصومة الذي هو من حق القاضي وحده ، وإذا جازهاها القاضي في هذا الرأي فإنه يكون قد بنى قضاءه على رأي فاسد ، وجاوز في قضائه ما هو مطروح عليه من نزاع ، مع ان القضاء ينحصر بالزبان والمكان وموضوع الخصومة وأطراف الخصومة .

الوثيقة الثالثة : مسألة أخرى في هذا المعنى .

الدراسة والتعليق :

تتحصل وقائع هذه القضية في أن شخصا

الصفقة والرجوع فيها ، حيث أن أحدا من الأطباء على اختلافهم في الرأي لم يذهب الى انتفاء العيب أصلا . وإنما قام الخلاف بينهم على ظهور العيب واختفائه ، وأنه حديث أو قديم ، وأنه قبل أو بعد أمر التبايع ، مع اتفاقهم على وجوده بصورة ما .

وتتحد فكرة هذه القضية مع سابقتها في كون المرد في تحقيق وجود العيب المبرر لفسخ البيع والرجوع فيه ، إنما هو قول الأطباء باعتبار أن إثبات قيام العيب وتاريخ وجوده هو من اختصاص أهل الخبرة وهم الأطباء ، بوصفه عملا فنيا يخرج من نطاق تقدير القاضي الذي تنحصر وظيفته في انزال حكم القانون وتطبيقه على الوقائع المعروضة عليه في ضوء ما يقرره ذوو الاختصاص في النقطة الفنية منازع الجدل .

الوثيقة الرابعة : مسألة أخرى في هذا المعنى

الدراسة والتعليق :

أما موضوع الوثيقة الرابعة فيتعلق بمسألة طلب فيها أخذ رأي المشاورين ابن لبابة وأيوب بن سليمان وعبيد الله بن يحيى في ادعاء مضمونه أن شخصا اشترى جارية ثم اكتشف بها حفرًا وشقاقًا وآثار مرض ، وطلب منهم الرأي فيما إذا كانت هذه العيوب تبرر التراجع في البيع ، فكان رأي المشاورين أن البت في أمر هذه العيوب إنما مرجعه الى رجال أهل الطب فيما يروونه من اصابات ساقيةها ، وهي الاصابات الظاهرة أما الآثار الباطنة فتتطلبها النساء ويبدن رأيهم فيها لتحديد التاريخ الذي يرتد اليه

اشترى جارية ثم اتضح له بعد ذلك أن عينيها عيبا ، ورأى أن يطلب فسخ البيع لذلك . فلما عرض الأمر على قاضي المظالم استدعى ثلاثة أطباء وكلفهم بنحص الجارية ، ففروا صحة وجود العيب في عيناها وأنه موجب للرد . ولكن البائع استمهل القاضي لاستشارة أطباء آخرين في أمر هذا العيب وقد قرر أحد هؤلاء الأطباء الآخرين ان بالجارية عيبا حديثا ، وقرر الآخر أن هذا العيب ليس مستديما ، اذ يزول تارة ، ويعود تارة أخرى ، أي يظهر ويختفي ، هذا الى أن أحد الأطباء الأول بعد فحص عيني الجارية وقليلها لم ير فيها عيبا ولا نكتة ولا أثرا .

ويمكن ان يلاحظ في هذه الخصوصية أن العيب في عين الجارية لو أنه مستديم لا يمكن أن يصبح من قبيل العيوب الخفية لأنه ظاهر بطبيعته ، وهذا التصور يمكن ان يقوم معه احتمال أن المشتري لم يكن هذا العيب ليخفى عليه وقت الشراء ، كما يمكن ان يقوم احتمال آخر هو أن المشتري لم يعاين الجارية معاينة دقيقة . وهذا ما يمكن ان يؤيد وجهة نظر القاضي .

ومهما يكن من أمر فان قضاء القاضي لم يتم في هذه الحالة على الجزم ، وإنما على الترجيح بالاضافة الى أن العيب حتى مع الأخذ برأي أطباء البائع فان هذا العيب يظهر ويختفي ، وأنه يمكن ان يؤيد سلامة الحكم ، اذ يحتمل أن يكون الشراء قد تم في وقت اختفاء هذا العيب ومن ثم لا يمكن افتراض قبول المشتري به ، وحتى لو كان العيب يظهر ويختفي فان هذا بذاته يدل على وجود عيب ما ، وقيام هذا العيب ، وان يكن غير مستمر ، كاف في ذاته للدعوى عن

اتضح بعد البيع وجود كسر في ظهرها شهد به الطيبان بن قليخ ويحيى بن اسحاق ، وأكدوا أنه عيب قديم العهد ، وأنه عيب يوجب الرجوع في البيع وترد به الجارية الى بائنها .

وأضاف الفقيهان المشاوران ابن لبابة وابن وليد أنه اذا كان لدى البائع بينة على أن المشتري كان على علم بالعيب أو أن الصيبة كانت بريئة من العيوب فان للقاضي ان ينظر في ذلك ويحكم على مقتضى هذا العلم أو اتفاته . فان كان العلم متحققا كان الرضاء بالشيء المباع سليما مانعاً من الرجوع في الصفقة ، وكذلك الحال اذا ما كانت الصيبة المبيعة خالية من العيوب ، أما اذا كان العيب خفيا ولم يدرك المشترك قيامه وقت البيع فان الرد يكون واجبا .

وقد عقب القاضي ابن سهل على هذه القضية بأنه ما كان ينبغي على القاضي ان يضور القضية على هذا النحو ، وانما كان يتعين عليه ان يستعرض في أسباب حكمه ظروف الواقعة ورأي الأطباء فيها وأقوال الشهود ويخلص من ذلك الى النتيجة التي يضمنها حكمه ، ورأي ابن سهل أن رد الجارية في هذه الحالة واجب ، ورد الثمن من البائع الى المشتري لان ذلك . ومبنى هذا الرأي هو تقرير لقاعدة مأخوذ بها في التشريعات الرائنة وهي نظرية العيب الخفي ، وقوامها أن العيب في الشيء المباع اذا كان ظاهرا ، أو كان المشتري على علم به وارتضاه وقت الشراء وقبل الشيء المباع بحالته بعد المعاينة فان حقه في فسخ البيع ورد الشيء المباع يسقط بعلمه بالعيب أو بقبوله اياه . أما إن كان العيب خفيا ، أو كان المشتري قد

هذا العيب ، فان كان قبل أمد التبايع وكان خافيا على المشتري فسخ البيع وردت الجارية الى بائنها . أما ان كان بعد البيع فهو طارئاً يتحمل المشتري غره بعد توجيه اليمين الى البائع فيما يتعلق بالاصابات الباطنة على أساس علمه أو عدم علمه بها . ويلاحظ على هذا الرأي أن ابن سهل لم يذهب في التعقيب على هذه القضية مذهبه في قضية أخرى حيث تطلب فيما تكتشف النساء من عيوب باطنة وجوب عرض أمرها على الأطباء لاتقارها على رأيها أو عدم الاعتداد به .

وفما انتهى اليه الرأي في هذه المسألة ، أخذ بقاعدة لها صدق في التشريعات المعاصرة وهي نظرية الهلاك ، إذ الأصل أن الهلاك على البائع قبل التسليم وعلى المشتري بعده ، وقياسا على هذا فان قيام العيب بالجارية قبل بيعها يكون سببا لفسخ البيع ، على أساس تحمل البائع لهذا العيب ، أما بعد تمام البيع والتسليم فكل اصابة تطرأ على الشيء المباع يتحملها المشتري ، وهذا هو ما اتجه اليه رأي المشاورين .

أما فيما يتعلق باليمين فقد أصابت المشورة وجه الصواب لأن حلف اليمين على العيب الظاهر بالمشاهدة والرؤية سائغ ، أما فيما يختص بالعيب الباطن فان اليمين لا يمكن أن ينصب على الرؤية لاستحالتها وانما يريد على العلم فحسب .

الوثيقة الخامسة : كسر في ظهر صيبة شهد به الأطباء

الدراسة والتعليق :

أما الوثيقة الخامسة فموضوعها شراء صيبة

وهذا الرأي يتفق وما عليه العمل في التشريعات
الوضعية في خصوص حلف اليمين بين أطراف
النزاع . ذلك أنه إذا وجه أحد الطرفين اليمين الى
الطرف الآخر كان له أن يملفها أو يشكل عنها ،
ويردها على الطرف الآخر ، فان أقسم لزمه ما ترتب
على أداء اليمين من آثار . وغني عن البيان أن تبادل
توجيه اليمين في هذه الحالة إنما يرتد على نقطة الخلاف
بين البائع والمشتري ، أما ما فصل فيه الطبيب من أن
الغديدة التي بالوصيف الباع لا تضره ولا تنقص من
ثمنه فانه يخرج عن نطاق توجيه اليمين ، وبديهي أن
اليمين لا توجه في أمر لا خلاف فيه ، وإنما يقصد بها
حسم موضوع الخلاف ، لأن أداء اليمين فيها لا
خلاف فيه يعرض من يؤديها الى جزاء فيها لو حلف
على خلاف الواقع ، ولا يمكن تغليب أثر اليمين على
حقيقة الواقع .

الوثيقة السابعة : من استأجر طبيباً ليكونه ثم بدا
له ، وهل يجوز الكي ؟

الدراسة والتعليق :

تقوم الوثيقة السابعة على سؤال وجه الى الفقيه
المشاور ابن عتاب في شأن رجل شكا الى الطبيب أنما
بركبتة فاقترح عليه الطبيب أن يكويه بالنار في هذا
الموضع ، وطمانته الى أنه سيسفئ باذن الله تعالى .
واتفقا على الأجر مقابل هذا الكي . ودفع المريض
هذا الأجر الى الطبيب معجلاً قبل العلاج ثم انصرف
من عنده على أن يعود اليه لاجراء عملية الكي ،

قبل شراء الشيء المباع بحالته فانه لا يكون له حق
الرجوع فيه ، وهذه قاعدة مقررة في القوانين المدنية
والتجارية على حد سواء ، ومتى وجب فسخ البيع ورد
الشيء المباع لزم بالمقابل لذلك رد الثمن الى من دفعه
وهو المشتري .

الوثيقة السافسة : باع وصيفاً وادعى انه باعه
بالبراة اذ ظهر به عيب

الدراسة والتعليق :

ويتلخص موضوع الوثيقة السادسة في أن
شخصاً باع وصيفاً وأكد براءته من أي عيب ، وجرده
بين يدي المشتري تأييداً لخلوه من كل عيب ، وقد ذكر
المشتري انه عرض الوصيف على الطبيب فقال : ان
به غديدة لا تضره ولا تنقص من قيمته وأوضح البائع
أن هذه الغديدة إنما نتجت من حناء حملها إياه على
رأسه ، بيد ان المشتري اضاف أن بالوصيف عيوباً
أخرى غيرها ، وقد رأى الفقيه المشاور ابن لباة أن
من ادعى البيع على أساس البراة من العيوب فعليه
البينة وان عجز حلف المشتري اليمين . وللمشتري
ان يرد اليمين على البائع ، وعندئذ يكون على
المشتري اثبات وجود العيوب التي ادعاها ، فان
كانت قديمة كان البيع على أساس البراة من العيوب
مشوباً بالبطلان ، ووجب الفسخ ورد الشيء المباع ،
وان صح بيع البراة فعلى البائع اليمين على أنه ما
كان يعلم بهذه العيوب ، فان نكل رد اليمين على
المشتري ..

ولكنه عدل عن رأيه بقوله انه بدا له عما كان يشكو منه .

وسأل الطبيب رد الأجر اليه الا أن الطبيب امتنع عن الرد ، فاحتج الشاكي بأن الكي لا يجوز ، وقد أجاب ابن عتاب بأن الكي جائز وغير ممنوع ، ودلل على ذلك بأن النبي عليه الصلاة والسلام كوى أسعد ابن زرارة، واكتوى ابن عمر ولم يسمع عن النبي أنه نهى عنه . الا أن الكي موضوع السؤال لم يذكر عدد مراته ولا الآلة التي تستخدم فيه ، وأوضح بأنه اذا كان الطرفان قد وصفا الكي وحددا عدد مراته وبيننا نوع الآلة التي سيتم بها فان الأجر يكون مستحقا للطبيب . أما ان كانا قد أغفلا هذه البيانات ولم يتفقا على وصف ، وكان أمر هذا كله موضع خلاف بين الطرفين ، فان الاجر لا يلزم للطبيب ، ويمكن تفسير هذا الرأي على أنه في حالة الوصف يكون الطبيب قد قام من جانبه بتشخيص المرض ووصف العلاج وتحديد عدد مراته وآلته ، وذلك بعد الفحص ، ومن ثم يكون الطبيب قد بدأ في تنفيذ التزامه ويكون عدول المريض هو الذي حال دون تنفيذ العمل الذي تم الاتفاق عليه . ولم يمتنع عنه الطبيب وكان على استعداد للقيام به لولا عدول الشاكي ، وهو اخلال بالاتفاق من جانب واحد لا يسقط حق الطبيب في الأجر المفق عليه ، وهذا تطبيق لقاعدة مقررة في شأن الالتزامات المتبادلة تقتضاه أن هذه الالتزامات تقوم على إيجاب وقبول من الطرفين ، ولما كان العقد شريعة المتعاقدين فليس لأحد أن ينفرد بإرادته وحده في فسخ هذا الالتزام ، ومن ثم يلزم المسبب في الفسخ باحترام تعهده قَبْلَ الطرف الآخر ، الذي لم يمتنع عن

التنفيذ ، ولا سباً ان الطبيب قد قام من جانبه بالفحص والتشخيص وبذل فيه جهدا . استعمل فيه علمه وخبرته في الطب ولم يبق الا التنفيذ ، وكان مستعدا له والمريض وشأنه في طلب التنفيذ أولا دون أن يترتب على عدوله المنفرد الاضرار بحق الطبيب الذي تقاضى الاجر سلفا ، تأكيدا للتمسك بالالتزام وتعليق حقه بهذا الأجر .

الوثيقة الثامنة : اختلاف الطبيب والمداوي على الأجرة

الدراسة والتعليق :

أما الوثيقة الثامنة فيدور البحث فيها حول خلاف بين طبيبة ذكرت أنها تعالج صبيتين بأجر قدره ٤ دنانير ، بينما ادعت المرأة صاحبة الصبيتين بأنها اغما اتفقت مع الطبيبة على أجر قدره ١٢ درهما ، وان الصبيتين لم تنبأ من مرضها ، فلما طرح هذا النزاع على القاضي رأى تحليف الطبيبة اليمين القاطعة للحق بأنها اشترطت لقاء عمل يدها اجرا قدره ٤ دنانير ، وان تحلف المرأة انها ما اتفقت معها الا باثني عشر درهما ، فاذا حلفت كل منهما اليمين الموجه اليها انفسخ ما بينهما من اتفاق ، ولا تستحق الطبيبة اجرا عما قامت به ، لأن الطبيب لا يجب له شيء اذا كان الاتفاق على الاجر معلقا على حصول الشفاء . وهذا شرط فاسخ اذا تحقق الشفاء استحق أجر الطبيبة ، واذا تحلف سقط حقه في الأجر ، ومقتضى سقوط الحق في الأجر على هذا الاساس أنه اذا كانت الطبيبة قد تقاضت مقدما جزءا معجلا من الاجر لزمها رده ، وان نكلت احدى المراتين عن اليمين

في شأنها . ودور الطبيب في تشخيص العلاج وأثره في نتيجة الحكم والحديد التي ينبغي أن يلزمها الطبيب في الرأي الذي يسيده للقاضي ، يمكن بوجه عام استخلاص الأسس الآتي بينها :

١ - ان موضوع الوثائق الأربع الأولى يتناول فحص العيب المرضي الموجود في الشخص وتشخيصه وبيان التاريخ الذي يرجع اليه نشوء هذا المرض ، وما يترتب على نتيجة هذا الفحص من رد المبيع الى بائعه بحسب الأحوال تبعاً لما اذا كان هذا العيب قائماً قبل البيع أو بعده ، وتبعاً لما اذا كان المشتري أو البائع كلاهما أو أحدهما عالماً بهذا البيع وقت التعاقد . وهل تم التعاقد على أساس وجود العيب وقبول المبيع ، مع قيام هذا العيب تم اجراءات الرد وما ينبغي عليها من فسخ الصفقة وإعادة الثمن الى المشتري .

٢ - ان دور الطبيب كفني ممارس للخبرة هو دور رئيسي ، وقوله هو الفصل في تحديد العيب وجوداً أو عدماً ، وبالتالي تحديد ما اذا كان هذا العيب موجوداً قبل التبايع أو طارئاً بعد اتمامه ، وعلى مقتضى رأي الطبيب في هذا الجانب الفني يصدر حكم القاضي .

٣ - ان مهمة السطية تنحصر في الجانب المرضي ، ولا يسوغ له أن يجاوز اختصاصه كخبر إلى ابداء الرأي فيها من شأن القاضي وحده في ترتيب النتائج والآثار القانونية التي تنبئ على الرأي الفني اذ أن هذا هو الفصل الموضوعي الذي يستأثر القاضي وحده باختصاص البت فيه .

٤ - ان حكم القاضي يكون مجانباً للصواب اذا اعتمد على قول امرأة من أهل الخبرة في فحص

فالقول قول الحالفة منها . أما ان نكلنا مع انفسخ ما بينها من اتفاق وكذلك ينفسخ الاتفاق ان حلفنا سوا . وقد عقب القاضي أبو الاصبع على هذا بأن ما ارتأه القاضي هو محل نظر وتأمل ويبدو أن تحفظ القاضي أبي الأصبع يستند الى فكرة تهاجر اليمين وترتيب أثر فسخ التعاقد على هذا التهاجر ، وهذه الصعوبة القانونية إنما يرجع منشأها الى توجيه يمينين متعارضين مما لكل من المرأتين ، وقد كان الأولى الاكتفاء بتوجيه يمين الى إحداها ، وتطبيق قاعدة رد اليمين على الأخرى في حالة النكول في حلفها لرفع التناقض بين اليمينين . ومن المقرر في التشريعات الحديثة أن اليمين توجه وترد في حالة النكول وتنبي عليها آثار الحلف ، اما توجيه يمينين متعارضين لا يأتي صدقهما معاً مع قيام هذا التعارض بينهما ، وترتيب فسخ التعاقد على هذا فأمر غير مقبول ويبدو أن القاضي رتب الفسخ على نكول كل من المرأتين عن حلف اليمين الموجه إليها ، وقد يكون هذا سائقاً لفقدان الدليل المستتب من اليمين ، في حين أن الأمر على نقيض ذلك في حالة حلف كل من المرأتين اليمين الموجه إليها ، وربما اعتبر القاضي حلف يمينين متناقضين بمثابة نكولٍ مجرد كلاً من اليمينين من الثقة فيها ، وينبغي على ذلك أن المخرج لا يكون الا بفسخ التعاقد لعدم قيام الدليل على ترجيح صحة احدى اليمينين على الأخرى .

سهات عامة للقضايا موضوع هذه الوثائق

باعتراض وقائع القضايا آنفة الذكر واتجاهات القضاء فيها والسند الذي بني عليه كل حكم صدر

بجدة ، فليس معنى هذا بالضرورة وقوع خطأ في الحكم ، لأن القاضي اذ حكم بالرد أقام قضاءه على قيام المرض بالشخص المبيع في تاريخ سابق على التبايع وإنما هذا القضاء محل نظر اذا ما أخذ برأي الطبيب في تحديد تاريخ نشوء المرض على نحو جازم يغلط الباب على البائع في الرجوع على من سبق أن باع له . وبها يكن من أمر مان قضاء القاضي في هذه النقطة لا يجوز حجية فيما يتعلق بهذه الواقعة وإنما تلحق الحجية منطوق الحكم وحده ما لم تكن أسباب الحكم مرتبطة بهذا المنطوق ومتممة له .

٦ - انه في حالة اختلاف الأطباء في تشخيص العيب وظهوره أو خفائه واستمراره أو تقطعه ومعاودته وحدائته وقدمه لا يمنع القاضي من أن يأخذ بترجيح رأي الأغلبية ويبني على ذلك حكمه ، لأن الأغلبية يفترض فيها أنها أقرب الى الصواب ، ومن غير المقبول ترك الأرجح الى المرجوح .

٧ - إنه إذا كان للطبيب أن يحدد وجود العيب المرضي في الشخص المبيع فانه يدخل في مهمته أيضا أن يبين للقاضي ما اذا كان هذا العيب بما ينقص من ثمن الشخص المبيع أم أنه غير ضار ولا يؤثر في هذا الثمن ، وهذه وإن كانت نقطة ذات جانب قانوني الا أنها تنطوي من ناحية الخبرة الفنية على جانب ذي طابع طبي مرجعه الى رأي الطبيب ، كما يدخل في مهمة الطبيب أن يبين للقاضي سبب حصول هذا العيب ، فإذا كان التسبب في حدوثه هو البائع كان هو المسؤول عنه في تقدير ثمن المبيع . تطبيقا لقاعدة الملاك الجزئي في التشريعات المعاصرة .

موضوع العيب الخفي الباطن في أنسى لكون رأي المرأة في هذه الحالة غير قاطع ، بل يحتمل الصواب والخطأ على حد سواء ، وإنما يكون الترجيح أدنى الى الصواب اذا قام على الاعتداد برأي امرأتين على أن هذا في ذاته لا يكفي ، اذ تتطلب العدالة ، للاستيثاق من سلامة الرأي ، عرض النتيجة على أكثر من طبيب سواء اختلفت المرأتان أم اتفقتا زيادة في تأييد اقتناع القاضي وتأكيدهما واطمئنانه الى صحة حكمه . وهذه فكرة عدالة لها مثيلها في الاحكام التمهيدية الفرعية التي تصدرها المحاكم في العصر الحاضر قبل الفصل في الموضوع بنذب خبير للمأمورية لتحديد له لابداء رأيه استشاريا ، ولا يمنع هذا الرأي من اعادة للمأمورية الى ذاته أو عرضها على مجموعة من الخبراء او على خبير مرجح ابتغاء الوصول الى الحقيقة تحقيقا للعدالة .

٥ - ان الطبيب المكلف من قبل القاضي بفحص العيب يتحدد مهمته في اثبات وجود هذا العيب أو عدمه ، ووصف العيب وموضعه ، وليس له أن يحدد على نحو ملزم تاريخ بدء نشأته كما ليس له أن يقرر وجوب رد الخادمة المبيعة ، لأن اختصاصه الفني يقف عند حدود لا يجوز له تجاوزها ، أما الفصل في الموضوع وتقرير وجوب الرد أو عدمه فالمرجع فيه الى حكم القاضي ، وإنما الطبيب يعين فقط ما اذا كان العيب فرما أو مستجدا ، سابقا على واقعة البيع أو لاحقا لها ، وللقاضي بعد ذلك الحرية التامة في تكوين عقيدته واصدار حكمه . وإذا كان ابن سهل يذهب الى هذا الرأي ، وهو رأي صائب في ذاته بصفة

١٠ - أن الطب كان مهنة تقام في ظل قوانين وضوابط تحكمها وتحدد مهمة الطبيب واختصاصه ومدى التزام المريض قبله .

١١ - أنه في حالة اجراء عمليات بالكي كان لابد من الاتفاق على نوع الآلة التي ستستخدم في الكي وعدد مرات هذا الكي .

١٢ - أنه كان يؤخذ برأي الطبيب في تحديد قدم العيب أو حداته في بيع المجواري والخدم ، وجملة القول أن مهنة الطب في ذلك العصر كان لها شرفها وقواعدها وأصولها .

وكان الطبيب موضع ثقة وتكريم ، وأن رأيه في الناحية الفنية الطبية كان هو القيص في مقطع النزاع ، وأن الاختلاف في التشخيص لم يكن سببا لتخطئة الطبيب ، وإنما كانت العدالة تقتضي اتباع أسلوب للتجميع في حالة الخلاف للوصول الى تحقيق العدالة قدر المستطاع . وكان الطبيب بهذه الثابة يؤدي للعدالة خدمة جليلة ويعتبر من أعوانها .



٨ - أن الاجر المعجل للطبيب بعد قيامه بالفحص والتشخيص ووصف العلاج يكون مستحقا له على استخدامه لخبرته في هذا الفحص والتشخيص ولا يلزمه رده الى المريض في حالة عدول هذا المريض من جانبه وسده بإرادته المنفردة عن تلقي العلاج . ومقاد هذا دفع قدر الطبيب واعلاء شأنه على أساس ما بذله من جهد . ولا يغير من ذلك رجوع المريض في أخذ العلاج وفي ذلك تكريم لمهنة الطب ما دام الطبيب ليس هو الذي رفض القيام بالعلاج .

٩ - أنه في حالة الخلاف على أجر الطبيب نظير العلاج فيما بين الطبيب وطالب العلاج يرجع جانب الطبيب ، وأن جاز توجيه اليمين في هذه الحالة ، ومقتضى هذا أن الاجر المستحق للطبيب في مهنة الطب كان يحدد بوساطة الطبيب نفسه وأن جاز الاتفاق بين الطرفين على تعليق استحقاق هذا الاجر على تحقق الشفاء وهذا دليل ثقة بالطبيب في خبرته وفي ثيقته من سلامة علاجه وتوقع الشفاء والا لاستلزم تقاضي أجره بغض النظر عن حصول الشفاء أو عدم البرء من المرض .

نصوص الوثائق**الوثيقة الأولى :**

العيب يوجد بملوكة تداولها **الحال** .

من أحكام ابن زياد ^(١)

منتيل ^(٥) فقال سعيد : هذه الخادم إنما بعتمها
صحيحة وهي الآن مضروبة الظهر بزعم ابن منتيل
والشقاق وأنكر ابن منتيل أن يكون (قبض
ثمنا) ^(٦) من الشقاق الى هذا الوقت . قال (ابن
لبابة) ^(٧) :

يجب للشقاق القيام على الذي ردها عليه في
مرضها (فإذا) ^(٨) كان هذا من فعله وحدث عنده
عرضت على أهل البصر فقوموها صريحة وتقوم
بالعيب القديم ، ثم تقوم بالعيب الذي بها من مرضها
وضربها إذا كان ذلك مفسراً ثم يكون الذي ردها على
الشقاق بالخيار إن شاء أمسكها ثم أخذ من الشقاق
قيمة العيب القديم ، وإن شاء ردها ورد معها قيمة
العيب الذي حدث عنده من المرض والضرب ، فإن

(١٦٠) قام عندي رجل على قوم من
(١٦١) النخاسين في خادم بأعواها منه
(وظهر) ^(٩) بها (عيب) ^(١٠) فأمرت من وثقت بها
من النساء لتنظر الى تلك العيوب ، فاستبان بشهادة
المرأة أن العيب قديم . بثله ترد ، فردت على
النخاسين . ثم قام النخاسون على رجل من الشقاقين
فأقرهم بالبيع منها (فأمرته) ^(١١) بقبضها منهم ورد
الثلثم اليهم ، ثم قام الشقاق على (سعيد بن

❦ هذه الوثائق مستخرجة من مخطوط الاحكام الكبرى للفاقي أبي الاصمغ عيسى بن سهل . والنسخة الأصلية التي اعتمدنا عليها في تحقيق هذه الوثائق هي نسخة مكتبة الزاوية الناصرية بدمشق رقم ١١٨٩ مخطوطات الاوقاف ٨٢٨ في الحزنة العامة - الرباط . ورمزنا لها بالأسفل . والنسخة الثانية من مخطوطات مكتبة الزاوية الناصرية بدمشق تحت رقم ٣٧٠ مخطوطات الاوقاف ورمزنا لها (نج) ، والنسخة الثالثة تحت رقم ٥٥ في الحزنة العامة للمكتب ورمزنا لها (قب) .

ومخطوط الاحكام الكبرى للفاقي أبي الاصمغ عيسى بن سهل يجري تحقيقه حالياً .

وسعدت بمراجعة أستاذي المستشار مصطفى كامل اسماعيل وزير العدل السابق بجمهورية مصر العربية والخبير القانوني لمجلس الامة الكويتي ، سعدت بمراجعته لتصرحي هذه الوثائق وفرفيهاها . فله شكري وتقديري ، كما أشكر صديقي الدكتور عبد الرؤوف مخلوف على حسن مساعدته .

(١) ابن زياد : احمد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمن بن شبطون اللخمي . ولي قضاء الجماعة . يكنى : أبا القاسم . ألف كتاب الاضية . توفي سنة ٣٢٢ هـ وهو يتنقل الصلاة بالقضاء مما . انظر في ترجمته : ابن الفرعي ، تاريخ علماء الأندلس : ترجمة رقم ٨١ ، الحفشي : قضية قرطبة ص ١٠١ - ١٠٥ ، ١٠٩ - ١١٠ ، ابن فرحون : الديباج الذهب : ١٥٦/١ .

(٢) في قب : وظهرت .

(٣) في نج : عيب .

(٤) في نج : فأمرتها .

(٥) سعيد بن منتيل : لم نعرف على ترجمته في كتب التراجم التي بين أيدينا .

(٦) يباح في قب .

(٧) ابن لبابة : محمد بن عمر بن لبابة يكنى : أبا عبد الله من أهل قرطبة عاش ٨٩ عاماً وكان إماماً في الفقه مقدماً على أهل زمانه في حفظ الرأي والبصر بالفتيا ، توفي سنة ٣١٤ هـ . انظر في ترجمته : محمد خلاف : وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس حاشية رقم ١٠ ص ٤٤ وما ورد فيها من مصادر .

(٨) في قب : فأن .

سألت (أبا عبد الله - ابن عتاب) (١٣) هل يحكم بقول النساء فيما (شهدن) (١٤) فيه من عيوب الاماء أنه قديم قيل تاريخ التبايع أم لا يسمع منهن في ذلك (وشهد) (١٥) فيه الحكماء أو نخاسو الرقيق ؟

فقال لي : ان كن طبيبات سمع منهن في قدم العيب وحدوته ، والا فلا يشهد به الا الحكماء وهذا هو الصحيح ، وكذلك قول القاضي ايضا حكاية عن المرأة بئله تزد جهل لأخفاء به صارت المرأة (عنده) (١٦) (الشاهد) (١٧) والطبيبة والمفتية وليس اليها شيء من ذلك على ما بينا الا اذا كانت ماهرة (بالطلب) (١٨) على ما قاله أبو عبد الله فيسمع منها في قدمه أو حدوته ، وأما ان هي يجب (به) (١٩) أولا يجب فليس ذلك اليها ولا تسأل (عنه) (٢٠) وانما الحكم اذا ثبت العيب وقدمه بشهادة من تجوز شهادته فيه (أن يسأل) (٢١) تجار

أسمكها وأخذ من الشقاق قيمة العيب القديم رجع الشقاق على سعيد بذلك أيضا وإن ردعا عليه فالشقاق أيضا بالخيار في الامساك والرجوع بقيمة العيب أو الرد ورد قيمة العيب .

قال القاضي (أبو الأصم) (٢٢)

انظر قول القاضي (في سؤاله) (٢٣) فاستبان بشهادة المرأة ان العيب قديم بمثله ترد : أعمل قول (امرأة) (٢٤) واحدة في العيب ، وقدمه ، ولم يعترض ابن لبابة فيه وأفتى عليه ، والذي رأيت العمل به وقيدته بخط يدي مرارا لبعض القضاة أن تنظر امرأتان الى العيب اذا كان بالأمه في موضع باطن وتشهدا عند القاضي على عين الأمه بصفة ذلك العيب ثم تقرأ الصفة على طبيبين (و) (٢٥) أزيد فان شهدا أن هذه الصفة تدل على قدم العيب أعذر في ذلك الى المطلوب ، فان لم يكن عنده مدفع حكم عليه . وقد

(٩) زائدة في فب .

(١٠) ساقطة في فب .

(١١) في فب : المرأة .

(١٢) في فج ، فب : أو .

(١٣) أبو عبد الله بن عتاب : اللقب محمد بن عتاب بن حسن ويكنى أبا عبد الله . كان شيخ أهل الثوري في زمانه وعليه مدار الفري في وقته . قدمه القاضي أبو الطريف بن بشر الى الثوري سنة ٤١٤ هـ . ولد سنة ٣٨٢ هـ وتوفي سنة ٤٦٢ هـ . وشهد جنازته المعتمد على الله محمد بن عبد الله وشي راجلا . انظر : محمد خلاف : وثائق في احكام القضاء الجنائي في الاندلس خاتمة رقم ٣٣٣ صفحة ٦٥ وما ورد فيها من مصادر .

(١٤) في الأصل : يشهد والمذكور في فج ، فب .

(١٥) في فج ، فب : ويشهد .

(١٦) ساقطة في فب .

(١٧) في فب : الشاهدة .

(١٨) في فج ، في الطب .

(١٩) في فج : له .

(٢٠) في الأصل عنها والمذكور في فج ، فب .

(٢١) في الأصل ، فج ، يسأل والمذكور في فب .

الرقيق هل هو عيب ؟ فإذا شهد أهل البصر منهم (أنه) ^(٢٢) عيب يحيط من الثمن كثيرا أفنى الفقهاء حينئذ بالرد وسيأتي ان شاء الله (عز وجل) ^(٢٣) مسائل فيها بيان هذا المعنى .

وقال عن ابن منتهى أنه قال : (انما) ^(٢٤) بعثها صحيحة ، ثم ذكر في الجواب ان للشقاق الرجوع عليه ولم يذكر (لمقاله) ^(٢٥) . جوابا وفيه غير هذا تركناه والكلام (عليه) ^(٢٦) (كراهة) ^(٢٧) .

الوثيقة الثانية :

مسألة أخرى في مثل هذا المعنى قام عندي - رحمه الله - رجل يسمى عبد الملك ذكر أنه ابتاع خادما من رجل من أهل (جرامة) ^(٢٨) وأقبر

فقلت له : أشاور لك الفقيه (أبسا عبد الله) ^(٢٩) - حفظه الله - فما (رأى) ^(٣٠) أنه يجب لك من الوثيقة في الغائب (فقلت لك) ^(٣١) ان

(٢٢) في نفع ، قب : بأنه .

(٢٣) ساقطة في قب .

(٢٤) في نفع ، أنا .

(٢٥) في نفع ، لمقاله .

(٢٦) في نفع ، فيه .

(٢٧) في نفع ، كراهية .

(٢٨) جرامة : بالضم ناحية بالاندلس من أحوال فمصر البلوط وجواره . انظر معجم البلدان جزء ٣ ، ص ٧٢ .

(٢٩) ساقطة في نفع .

(٣٠) يحيى بن اسحاق . كان طبيا ذكيا عالما بصيرا بالعلاج صائما يده . استدرجه عبد الرحمن الناصر . ألّف في الطب كتابا يشتمل على حصة أسفار ذهب فيها ملهب الروم ، وكان يحيى قد أسلم وأما أبوه فقد كان نصرانيا . انظر في ترجمته : ابن أبي اصيبعة : هيون الألباء في طبقات الأطباء ، ٦٨/٣ وما بعدها .

(٣١) للمخ : محمد بن قتيب التميمي : من أهل قرطبة ، يكنى : أبا عبد الله حدث عن عبيد الله بن يحيى الموطأ . وولي خطة الزه والشرطة ، وكانت له منزلة من المستنصر بالله ، وكان عالما بالطب وتوفي سنة ٣٦١ هـ . انظر ترجمته في ابن الفريسي : رقم ١٢٠١ ، هيون الألباء في طبقات الأطباء ، ٧٢/٣ .

(٣٢) ساقطة في قب ، نفع .

(٣٣) في نفع ، قب : يدها .

(٣٤) أبو عبد الله ، هو الفقيه محمد بن عتاب وقد سبق ترجمته انظر حاشية رقم ١٢ .

(٣٥) في قب ، لرى .

(٣٦) في قب : فعلته بك .

للغائب . وليس في هذا عين على واحد منهم لأنهم قد
تقاروا أنهم لم (يتباينوا اليهم) (٤٦) على أن ذلك
عييب عندهم ويجب للبائع من الجراوي أن يكتب له
كتابا بما ثبت عندك وبترادهم الثمن بينهم ليرجع
بذلك على صاحبه ان رجع يوما ما ، أو أثبت له مالا
فتعديه به عليه (وهذا) (٤٧) الخادم (ان) (٤٨)
(أردت) (٤٩) بيعت على (الغائب) (٥٠) فيقضي
من ثمنها هذا البائع الأول اذا (أثبت) (٥١) عندك
أنه نقده (الثمن) (٥٢) وأثبت عدته وأسأل الله
توفيقك (وتسديدك) (٥٣) (عنه) (٥٤) قال
القاضي (٥٥) :

في هذا السؤال من الاعفال مثل ما تقدم لقوله
عن الطبيبين أنها شهداء في الشقاق أنه من مدة

شاء الله فاكتب الى - رحمك الله - برأيك في ذلك موقفا
إن شاء الله (عز وجل) . قال ابن لياية :

فهم - وفقك الله - ما ذكرت مما قيم به
(عندك -) (٢٨) في عيب الخادم ونسوت العيب
بشهادة يحيى بن اسحاق وتليخ ، وما قاله المتبايعون
من أنهم لم يعلموا أنه عيب (وقول) (٢٩) البائع من
الجراوي أنه بين (له) (٤٠) تلك الآثار .

فقال : لم أعلم (أنه) (٤١) عيب ولكني قد
عرضتها على الجراوي .

فقال الجراوي : نعم عرضها علي ولم أعلم
(أنها) (٤٢) عيب فلما قام المشتري وشهد عندك أن
(بها) (٤٣) عيبا وجب التراد بينهم (على أن ذلك
عييب عندهم) (٤٤) وترجى الحجة (للبائع) (٤٥)

(٣٧) ساقطة في ق ، فج .

(٣٨) في فج ، ق : عندك في الاصل (عهده) .

(٣٩) في ق : وقال .

(٤٠) في ق : لك .

(٤١) في ق : أنها .

(٤٢) في فج ، أنه .

(٤٣) في فج ، أنه .

(٤٤) ساقطة في ق .

(٤٥) ساقطة في ق .

(٤٦) في فج يتباينوا بينهم ، وفي ق يتباينوا بينهم .

(٤٧) في فج ، ق : وطه .

(٤٨) في فج ، ق : اذا .

(٤٩) في فج ، أعت .

(٥٠) في فج : البائع .

(٥١) في فج ، ق : ثبت .

(٥٢) ساقطة في فج .

(٥٣) في ق : وأرشده .

(٥٤) ساقطة في الأصل ، ق : ومذكورة في فج .

(٥٥) بهامش في ق .

يفتي الفقيه على ذلك ، كما أنهم اذا شهدوا أنهم يعرفون هذا العبد أو هذا البغل ملكا (لفلان) (٦٦) ومالا من ماله (و) (٦٧) بيده ولا (يعلمونه) (٦٨) خرج عن ملكه ببيع ولا غيره الى حين شهادتهم هذا لا يجوز لهم أن يقولوا ، فيجب أن يحلف صاحبه في مقطع الحق أنه ما باعه ولا وهبه ولا خرج عن ملكه بوجه ، ثم تأخذه وهذا أبيه من أن يحتاج فيه الى هذا التطويل ، لكنني رأيت هذا المعنى قد كثر عند الحكام ولا ينكرونه ، بل قد بلغني عن بعضهم أنه قال لم تزل (الشهادات) (٦٩) تؤدي في هذا المعنى هكذا (١٦٣) والشيوخ متوافرون ولا ينكرون .

(ورأيت) (٦٦) (في) (٦٧) جواب جاهل (بالفتنة) (٦٨) أهل الاعتناء للفتيا قد أفتى في فتاة ظهرت في دار مبيعة بقرب بيرها .

قال يقال للشهود هل يجب بذلك الرد ؟ فان قالوا يجب ردت فليت شعري ما الذي استفتى هو فيه

سوداء كانت بها منذ سنة (وأنه) (٦٩) عيب يجب به الرد في علمها ، فصارها المقتيان بالرد ، وهو خطأ من العمل ، انما عليها أن يشهدا (أنه) (٥٧) من دام قديم بها قبل أمد التبايع ثم يشهد أهل البصر من تجار الرقيق ونخاسيهم بأنه عيب يحط من ثمنها كثيرا ثم يفتي الفقيه بعد ذلك بجواب الرد اذا لم يكن عند المطلوب حجة ولا مدفع ، والخطأ العديد في هذا على ابن لبابة أقبح منه على القاضي ، لأنه كان عليه أن يرشده ويبيحه على ذلك ولا يعرض له عنه .

وقد أنكر ذلك أبو عبد الله بن عتاب من شهادة شهود (وخلفوا) (٥٨) به شهادتهم في عيب حوائث شهدوا به وقد أنكرته اتا (٥٩) أيضا من شهادة شهود شهدوا في عقد حائط وقمطه ، ادعاه رجلان أنه لفلان منها وقلت ليس ذلك اليهم ولا يسمع فيه منهم ، انما يردون الشهادة عند الحكم أنهم نظروا (الى الحائط) (٦٠) ، وأروا عقده من ناحية دار فلان أو أروا عليه خشب سقف (بيت) (٦١) فلان ثم

(٥٦) في قب : وهو .

(٥٧) في قب : بأنه عيب ، وفي قب : بأنه .

(٥٨) في قب : قب : وأصلها .

(٥٩) ساقطة في الأصل ومذكورة في السختين الآخرين .

(٦٠) في قب : للحائط .

(٦١) ساقطة في قب .

(٦٢) في قب : قب : لفلان بن فلان .

(٦٣) ساقطة في قب .

(٦٤) في قب : ولا يعلمون أنه .

(٦٥) في قب : الشهادة .

(٦٦) في قب : قب : وقد رأيت .

(٦٧) ساقطة في قب .

(٦٨) ساقطة في قب .

يذكر هل يرتطم له قبل الحكم بالرد عليه أم لا ؟ ولا بد من ذلك على ما نص في المدونة وغيرها وهو مختلف باختلاف قرب الغيبة من بعدها ، ولا ذكر أن اليمين على المبتاع من الغائب أنه ما تبرا إليه من ذلك العيب ولا أعلمه به ، ولا بد منها كذلك في الواضحة .

وقاله فضل استقصاء (لمحجة) (٧٧) الغائب هذا (ان) (٧٨) كان الابتاع منه وقع في داخل السنة المشهود يكون العيب (فيها) (٧٩) ولا ذكر ما يفعل ببقية ثمن الخادم ان بيعت على الغائب باكثر مما باع به ، وقد نص في المدونة أن السلطان يجبهه حتى يدفع اليه اذا قدم ومثل هذا الجواب ليس بجواب والله الموفق للصواب ولولا الرجاء (بأن) (٨٠) يكون هذا (ومثله) (٨١) من تبييناته وتعليم لمن طالبه هذه المسائل ودرس هذه للنوازل لكان الاعراض عنه أولى والله (تعالى) (٨٢) ولي الارشاد والهدى .

(فاذا) (٦٩) كان الشهود يشأون هل يجب الرد أم لا ؟

وهذا نهاية في الغباوة واذا فشت الجهالة في الناس ظنت حقا وحسبت سنة .

وفي جواب ابن لبابة في مسألة الخادم من الغفلة والاختلال نحو ما تقدم في الشهادة من ألهال لأنه أوجب رد (المتبايعين) (٧٠) . ها على بعض بشهادة الطبيب (للمبتاع) (٧١) الآخر أن (البيع) (٧٢) نحو عام وقد يكون لا ابتاع الجراوي ها المقدم عليه أزيد من عام ، ويكون لا ابتاع بانهما منه من الغائب عامين ، فكان من تمام جوابه بيان هذا والكشف عنه حتى يقف على حقيقة من أوقسات وقسوع (هذه) (٧٣) اليباعات ، اذ قد تكون قديما في بعضها ، حديثا في بعضها وهذا لاخفاء به وكذلك اسقط ذكر (ثبوت) (٧٤) (مغيب) (٧٥) البائع الأول الذي باع الخادم من بانهما (الجراوي) ولم

(٦٩) في قج ، قب : اذا .

(٧٠) في قب : بعض المتبايعين .

(٧١) في الأصل : المتبايع .

(٧٢) في قب : ولي قج العيب .

(٧٣) ساقطة في قج .

(٧٤) في قج : لبرته .

(٧٥) في قج : مغيب .

(٧٦) في قج : قب : من الجراوي .

(٧٧) في الأصل : لمحجة .

(٧٨) في قج : اذا .

(٧٩) في قب : منها .

(٨٠) في قج : أن .

(٨١) في قج : وشبهه .

(٨٢) ساقطة في قج .

الوثيقة الثالثة :

لخمس خلون من رمضان من سنة أربع وستين تضمن
ايتياعه لخادم جهراء صنعتها كذا ومعها ولد صغير
بشن كذا قبضه محمد منه ، وحضر محمد بن الفضل
مجلس نظري فوقفته على هذا (العقد) (٩٣) فأقر به
حاشي تاريخه فقال انه كان أول شعبان (من) (٩٤)
العام المذكور.

مسألة في هذا المعنى .

نزلت بقرطبة وأفتينا فيها خاطبتنا بها في ضرر
بيبصر خادم (بيعت) (٨٣) (صاحب المظالم) (٨٤)
(ابن أدهم) (٨٥) .

وثبت ذلك من اقراره وقوله عندي وكلفت أحد
اثبات العقد المذكور عندي لانكار محمد لتاريخه ثابتته
عندي بن (قبلت) (٩٥) من شهادته واعذرت في
ذلك الى (عبد الرحمن بن سعيد) (٩٦) وكيل محمد
بن (الفضيل) (٩٧) بعد ثبوت توكيله إياه عندي .
فقال : انه لا مدفع عنده فإشهد عليه به في

يا ساداتي وأكابر (عدوي) (٨٦) ومن أبقاهم
الله وسلمهم . قام عندي (أحد بن عبد الرحمن بن
عيسى) (٨٧) فذكر انه أبتاع خادما (جهراء) (٨٨)
من (محمد بن الفضيل) (٨٩) وأنه ألقى بها عيوباً
لم يتبرأ محمد منها اليه عند بيعه إياها منه ، وسألني
النظر له في ذلك (فأبحت) (٩٠) (له اثبات) (٩١)
ما يوجب النظر (له) (٩٢) فأظهر الي عقداً تاريخه

(٨٣) ساقطة في قب .

(٨٤) صاحب المظالم : هي خطة من الخطط القضائية التي تحول لاصحابها حق اصدار الاحكام وكان يحكم فيها استرايه القضاة ورون عن أنفسهم . انظر بحثنا
عن صاحب ارض والمظالم في الأندلس : مجلة كلية الآداب والفريعة ص ١٧١ وما بعدها ، العدد ١٤٣ ، سنة ١٩٧٨ ، الكويت .

(٨٥) ابن أدهم : عبيد الله بن محمد بن أدهم : ولد سنة ٤١٦ هـ . ونظر في أحكام المظالم في قرطبة فكان من أهل الصرامة في تنفيذ الحق قائماً لأهل الباطل
وشوون في الاحكام ثم استغفاه المعتد على الله محمد بن عباد بقرطبة سنة ٤٦٨ هـ . توفي سنة ٤٨٦ هـ . انظر : محمد خلا ، وثائق في احكام القضاء الجنائي
حاشية ٣١٤ ص ٧٢ .

(٨٦) في قج : علي .

(٨٧) أحد بن عبد الرحمن بن عيسى : لم نعر على ترجمته في كتب التراجم التي بين أيدينا ولعله شخصية من عامة المجتمع القرطبي .

(٨٨) جهراء : جاحطة العين انظر لسان العرب مادة جهر .

(٨٩) محمد بن الفضيل : لم نعر على ترجمته في كتب التراجم التي بين أيدينا ولعله شخصية من عامة المجتمع القرطبي .

(٩٠) في قج : بما يجب .

(٩١) في قج : فكلفته اثبات .

(٩٢) ساقطة في قج .

(٩٣) ساقطة في قج .

(٩٤) مذكرة في قج : قب .

(٩٥) في الاصل : قلت ، وفي قج قبلت وأخرت والمذكور في قب .

(٩٦) عبد الرحمن بن سعيد : لم نعر على ترجمته في كتب التراجم التي بين أيدينا ولعله من عامة المجتمع القرطبي .

(٩٧) في الاصل : قب ، فضيل .

فجاءوا بوني عنه موفقين مرشدين ان شاء الله (عز وجل والسلام) (١٠٨).

فأفتى [(محمد) (١٠٩) بن فرج] (١١٠) يا سيدي تصفحت (خطابك) (١١١) واذا قد أعذرت الى الخصم عبد الرحمن وكيل ابن (الفضيل) (١١٢)

فقال : انه لا مدفع عنده في تاريخ العهدة أنها كانت (١٦٤) أول شهر رمضان ولم (يخل) (١١٣) ما شهد به المتطببون الذين قالوا أن العيب أقدم من أمم التتابع ، وزاد أحدهم أن فيها مع هذا العيب القديم عيبا آخر مثله يقدم ويحدث فالقضاء برد الخادم بالعيب واجب ولا يمنع من الرد به شهادة أحد المتطببين الآخرين أنه عيب حديث وقول الآخر أنه يقدم ويحدث (اذا) (١١٤) لم يجتمعا على

العقد ، وأتاني أحمد بن عبد الرحمن (بمحمد بن فتح) (٩٨) (وسعيد بن ميمون) (٩٩) و (يحيى بن أيوب) (١٠٠) المتطببين فشهدوا عندي الشهادات المنتسخة في كتاب الكاغد المدرج (في) (١٠١) طي خطامي (١٠٢) هذا وثبت عندي ما شهدوا فيه من عيب المملوكة وأعذرت الى عبد الرحمن بن سعيد فزعم أن عنده ما يحمل (به) (١٠٣) ما شهد به الأطباء فأجلته فيها أدعاء من ذلك أجلا قاطعا من ثمانية أيام فأتاني في خلالها (بحسين بن هشام) (١٠٤) و (محمد بن خليل) (١٠٥) و (أحمد بن خلف) (٩٦) المتطببين . فشهدوا عندي بما تروته مما قد (أدرجته) (١٠٧) اليكم وقيلت شهادتهم لعرفتي بهم وثبت ذلك عندي ورأيت استطلاع رأيكم فيه

(٩٨) محمد بن فتح : من أطباء قرطبة عاش في القرن الخامس الهجري ولم نقدا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(٩٩) سعيد بن ميمون : من أطباء قرطبة عاش في القرن الخامس الهجري ولم نقدا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(١٠٠) يحيى بن أيوب : من أطباء قرطبة عاش في القرن الخامس الهجري ولم نقدا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(١٠١) ساقطة في ق .

(١٠٢) في الاصل ، خطابه والمذكور في السنتين الآخرين .

(١٠٣) ساقطة في ق .

(١٠٤) حسين بن هشام : من أطباء الاندلس عاش في قرطبة في القرن الخامس الهجري ولم نقدا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(١٠٥) محمد بن خليل : من أطباء الاندلس عاش في قرطبة في القرن الخامس الهجري ولم نقدا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(١٠٦) أحمد بن خلف : من أطباء الاندلس عاش في قرطبة في القرن الخامس الهجري ولم نقدا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(١٠٧) في ق : أدرجت .

(١٠٨) ساقطة في ق ، ق .

(١٠٩) ساقطة في ق .

(١١٠) محمد بن فرج : أبو عبد الله محمد بن فرج مولد اللطاع . حدث ومقدم في القنطرة بطرطبة ، كان عالما بعقد التترويع مع خير وعطاف لا تأخذ بالله لومة لائم ، توفي سنة ٤٩٧ هـ . انظر في ترجمته محمد خلاف ، وثائق في أحكام القضاء الجنائي حاشية رقم ٢١٣ ص ٩٢ وما ورد فيها من مصادر .

(١١١) في ق ، ق : ما خطبنا به .

(١١٢) في الاصل ، ق ، فحصل .

(١١٣) في ق ، ق : ق .

(١١٤) في ق : لا ، في ق : ان .

(من شهر) (١٢٣) رمضان فدل على (أن) (١٢٤) .
 ما اتصل بالتاريخ في عقد الابتياح من قوله .
 وكان عقد التبايع مستهل شهر رمضان غاب
 عن العين أو سقط عن التحصيل (١٢٥) كما أن قوله
 في فصل شهادة الأطباء لست خلون وهم ، إذ ليس
 في العقد الا لخمس خلون ، وكذلك في الخطاب فوق
 هذا خمس تصلح ، وإنما نحن بشر فينبغي أن يعود
 الحكماء اليك ويشهدوا عندك أن تلك النكته أقدم من
 مستهل شهر رمضان الذي أشهد المتبايعان أحمد
 ومحمد بوقوع البيع فيه لابد من هذا ولا يصح الحكم
 دونه لاحتمال أن تكون النكته عندهم مما يحدث بعد
 المستهل وقبل الخمس الحالية من الشهر فان شهدوا
 عندك بذلك أعذرت فيه الى البائع او وكيله ، فان
 ادعى مدفعاً أجلته فيه أجل (التلويح) (١٢٦) الثلاثة
 الأيام أو نحوها ، لا آجالاً مستأنفة ، واذ قد عجز في
 الاعذار الاول عن حل الشهادة (بالأمد) (١٢٧)
 الاول فهو أعجز على حل الشهادة (بالأمد) (١٢٨)

شيء واحد ، ولا يضاف الى شهادة أحدها شهادة
 أحد بن خلف أنه نظر الى عيني الخادم (وقلها)
 ولم ير (فيها) (١٢٥) عيباً ولا نكته ولا أمراً ، وان
 أمكن اصلاح هذه المسألة وقطعها بالصلح فهو
 (أحسن) (١٢٦) وان تعذر فالرد واجب والسلام .
 وجاوبت أنا سيدي ووليي وقع تاريخ
 (شهادة) (١٢٧) متبايعي المملوكة وابنها الخمس
 خلون من شهر رمضان من سنة أربع وستين
 (وأربعمائة) (١٢٨) واتصل به وكان عقد التبايع
 مستهل شهر رمضان ولغظ مستهل لا يستعمل الا
 (بأول) (١٢٩) ليلة من الشهر (كذلك) (١٣٠)
 ذكره أرباب البيان وأهل المعرفة باللسان فصار بين
 تاريخ التبايع وتاريخ التشاهد نحو أربعة أيام .

وفي فصل تنقيح (شهادة) (١٣١) الأطباء ابن
 فتوح وصاحبيه في النكته التي يعني المملوكة وأنها
 أقدم من (تبايعها) (١٣٢) الذي تاريخه لست خلون

(١٢٥) في ق ب : وقلها .

(١٢٦) في ق ب : فيها .

(١٢٧) في ق ب : حسن .

(١٢٨) في ق ب : تشاهد .

(١٢٩) مذكورة في ق ب .

(١٣٠) في ق ب : في أول .

(١٣١) في ق ب : كذلك .

(١٣٢) في ق ب : شهادات .

(١٣٣) في ق ب : تبايعها .

(١٣٤) في ق ب : لشهر .

(١٣٥) ساقطة في ق ب .

(١٣٦) في ق ب : التحصين .

(١٣٧) التلويح : التكتك والانتظار .

(١٣٨) في ق ب : في الامد .

وفي أولئك الشهود . وأما في معنيين متضادين وشهود مختلفين فلا ، وأما شهادة يحيى (ابن أحمد) (١٣٤) المتطبيب بالاهاالة (وشهادة) (١٣٥) ابن خليل بالبشرة وقول كل واحد منها أن ذلك مما يقدم ويحدث فمقاطعة لا تجب شيئا لانفراد كل واحد منها بمعنى لم يشهد به الآخر ، ولو شهدا جميعا على الاهاالة أو البثرة للزمت المتابع اليمين أن ذلك لم يحدث عنده في علمه ، ثم يرد حينئذ بعبعب النكته القديمة ، ولم يكن عليه شيء في الاهاالة (و) (١٣٦) البثرة ولتكوله عن هذه المسألة ، وكذلك شهادة حسين غير عاملة لانفراده بها ، وما شهد به أحمد بن خلف لا معنى له بوجه من الوجوه . وإن قال الشهود عند رجوعهم اليك أن النكته التي بعين (١٦٥) المملوكة ليست أقدم من مستهل شهر رمضان ، وانما مما يحدث بعده (لم) (١٣٧) يكن للمبتاع قيام بذلك (و) (١٣٨) نفذ البيع بينهما ، وإن قالوا أنها ' قد ' (١٣٩) تحدث بعد تاريخ الابتاع الذي هو مستهل شهر رمضان ، وقد يكون أقدم منه حلف البائع (بينها) (١٤٠) في

الأطول فإن أتى بشيء نظرت له والا عجزته وقطعت حجته وحكمت عليه بصرف المملوكة وابنها اليه ، وبصرف الثمن الى (مبتاعها) (١٤١) . ولا يجوز للمبتاع حبس ابنها ان ذهب اليه بما ينوبه من الثمن اذ هو في سن من لا تجوز التفرقة بينه وبين أمه فيه لصفره . هذا قول ابن القاسم وغيره . وقيد في فصل الاعذار الى عبد الرحمن وكيل البائع أنك أعذرت اليه بمثل ما أعذرت به الى أحمد بن عبد الرحمن في الفصل الواقع في أسفل الظهر ، ثم لم تظهر البنا هذا الفصل فيما أدرجته طي خطايك (البنا) (١٤٢) . ولم يكن ذلك الاعذار (لاشك) (١٤٣) الى أحمد في شهادة هؤلاء الأطباء لانهم شهوده وهو القائم بهم ، فمحال أن يعذر اليه فيهم وإذا كان (هذا) (١٤٤) هكذا فلا يصح أن يقال أنك أعذرت الى وكيل البائع بمثل ما عذرت فيه الى المتابع لانفراد كل واحد منها بالمعنى الذي أعذرت اليه فيه ، وإنما يصح أن يكتب مثل هذا في مطلوبين بمطلب واحد او طالين لشيء واحد (١٤٥) (و) شهد عليها بشهادة ينكرانها فيحضر أحدهما فيعذر اليه ثم يحضر الآخر فيعذر اليه في ذلك المعنى ،

(١٢٩) في قب : مبتاعها .

(١٣٠) في قب : أياها ، في قب : إياكم .

(١٣١) في الاصل : لاصد ، في قب : لاشكال والمذكور في قب .

(١٣٢) ساطعة في قب .

(١٣٣) ساطعة في قب ، قب .

(١٣٤) مذكرة في قب ، قب .

(١٣٥) مذكرة في قب ، قب .

(١٣٦) في قب : أو .

(١٣٧) في قب : ولم .

(١٣٨) ساطعة في قب .

(١٣٩) مذكرة في قب ، قب .

(١٤٠) ساطعة في قب ، قب .

الجارية من الحفر والشقاق والآثار والذي عندنا في ذلك أن ينظر (رجال) (١٤٦) (أهل الطب) (١٤٧) الى ما يجوز أن ينظروا (١٤٨) اليه من الحفر والشقاق التي يرجلها وينظر النساء الى (الآثار) (١٤٩) الباطنة . فان قالوا أنه عيب اعلّموا بوقت التباعد وكشفوا (أيحدث) (١٥٠) مثله في مثل هذا الامد (أم لا) (١٥١) ؟ فان قالوا لا يحدث (١٦٢) (في) (١٥٢) مثله يجب الرد ، وأن قالوا يحدث ويقدم وجبت اليمين على البائع (وفي) (١٥٣) الظاهر على البت (وفي الباطن) (١٥٤) على العلم . قاله ابن لبابة (وأيوب) (١٥٥) و(عبيد الله) (١٥٦) وغيرهم .

مقطع الحق بالله (الذي لا اله الا هو) (١٤١) ما كان بها هذا العيب عنده في علمه ان كان مما يخفي مثله ، وان كان ظاهرا أسقط من يمينه في علمه وحلف على البت ومضى البيع (وان) (١٤٢) نكل عن اليمين حلف المتبايع ما حدث بها هذا (العيب) (١٤٣) عنده في علمه ثم ردها على البائع وأخذ ثمنه ، وان نكل أسكها ولا شيء عليه . هذا جواب ما سألتنا عنه ملخصا (موجبا) (١٤٤) ولم نورد الإحاطة تدعو اليه (الضرورة) (١٤٥) وبالله التوفيق .

الوثيقة الرابعة :

مسألة أخرى في هذا المعنى

(١٦١) فهنا ! وفقك الله - ما ادعاء مبتاع

(١٤١) مذكورة في فتح .

(١٤٢) في فتح : فإن .

(١٤٣) في فتح : البيع .

(١٤٤) في قب ، قب ، موعبا .

(١٤٥) في فتح ، قب ، ضرورة .

(١٤٦) في فتح ، رجلا .

(١٤٧) في فتح : من أهل البصر .

(١٤٨) في فتح : ينظر .

(١٤٩) في الأصل : الآخر والمذكور في السختين الآخرين .

(١٥٠) في فتح : هل يحدث ، في الأصل ليجدث والمذكور في قب .

(١٥١) سائلة في فتح .

(١٥٢) سائلة في فتح .

(١٥٣) في فتح ، قب : لي .

(١٥٤) في فتح : الخبي .

(١٥٥) أيوب بن هاشم بن صالح بن هاشم يكنى : أبا صالح من أهل قرطبة ، وأصله من حيان . كان إماما في رأي مالك وأصحابه متقدما في السورى . توفي سنة ٣٠٢ هـ . انظر في ترجمته ولفاق في احكام قضاء أهل الامة حاشية رقم ٨٨ ص ٥١ وما ورد فيها من مصادر .

(١٥٦) عبيد الله بن عبيد الله بن يحيى يكنى : أبا مروان رئيس لفهاف المالكية وشيخ المقتن في قرطبة وهو ابن اللقبه يحيى بن يحيى تلميذ الامام مالك . كان رجلا عالما عظيم المال والجاه توفي سنة ٢٩٧ هـ . انظر في ترجمته ، ولفاق في احكام أهل الامة في الاندلس حاشية رقم ٢ ص ٤٣ وما ورد فيها من مصادر .

الوثيقة الخامسة :كسر في ظهر صبية شهد به الأطباء .

فإن أتى بالينة نظرت في ذلك بما (يريك) (١٦٦) إله
من الحق وقاله (ابن وليد) (١٦٦) .

قال القاضي (أبو الأصغ) : (١٦٤)

في هذا التقيد من (ذكر) (١٦٥) قول الطبيب
أنه يجب به الرد مثل ما تقدم ما قد أنكرناه وإذا استمر
مثل هذا (الجهل) (١٦٦) في ذلك الوقت وكان بقية
من صلاح الزمان وفور الفقهاء والاعيان فيما يرتجى
في وقتنا هذا . وقد اضمحلت تلك البقية ودرجت تلك
الطبقة وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١٦٧) شهد عند القاضي (أحمد بن
محمد) (١٥٧) (بن) (١٥٨) تلميذ بن (أود) (١٥٩)
الناس (المتطبيب) (١٦٠) أنه نظر الى الصبية الموقفة
بين يدي القاضي التي قام فيها (محمد على
سليان) (١٦١) يعيب فنظر اليها تلميذ ، فوجد كسرا
في ظهرها قديما ، قد انعقد وأنه عيب ترد به ، ومنله لا
يحدث في أشبه .

وشهد (يحيى بن اسحاق بن عبد الله) بمثل
ذلك .

قال ابن لبابة :

وجب رد الصبية بهذا العيب ، وقول البائع أن لي
بينة على أنني بائنته بالعيب او بالبرادة من العيوب

وكان صواب (ذلك) (١٦٧) التقيد أن يكون
ساقه : شهد عند القاضي (فلان) (١٦٨) قاضي
الجماعة (١٦٩) بقرطبة وفقه الله تليخ (بن
فلان) (١٧٠) الطبيب على عين الصبية

(١٥٧) القاضي أحمد بن محمد ، هو أحمد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمن بن شبطون اللخمي . وقد سبق لنا ترجمته . انظر حاشية رقم ١ وما ورد فيها من
مصادر .

(١٥٨) مذكورة في قب ، فح .

(١٥٩) في قب ، داود .

(١٦٠) في قب ، الطبيب .

(١٦١) محمد علي سليمان ، لم نعر على ترجمة لهذه الشخصية في كتب الفرائع التي بين أيدينا .

(١٦٢) في الاصل ، قب ، يردد للمذكور في قب .

(١٦٣) ابن وليد ، محمد بن وليد بن محمد بن عبد الله بن عبيد . من أهل قرطبة ، يكنى : أبا عبيد الله ، كان عالما بالثروة شاركا في الاحكام . توفي سنة
٣٠٩ هـ . انظر في ترجمته محمد خلائف ، وثائق في أحكام القضاء الجبائي حاشية رقم ١٣ ص ٤٤ وما ورد فيها من مصادر .

(١٦٤) مذكورة في قب .

(١٦٥) ساقطة في قب .

(١٦٦) في قب ، الخيل .

(١٦٧) في قب ، هذا .

(١٦٨) في قب ، فلان بن فلان .

(١٦٩) قاضي الجماعة ، لقب قاضي قرطبة بقاضي الجماعة نسبة الى جماعة القضاء وظل هذا اللقب حتى نهاية القرن ٤ هـ ، وفي عهد عبد الرحمن بن أبي عامر
تغير هذا اللقب وحمل مكانه لقب « قاضي القضاء » ولما انقضت دولة بني عامر ، تغير اسم خطة القضاء الى قاضي الجماعة مرة أخرى ، انظر بحثنا : القضاء في
قرطبة اسلاية في القرن الخامس الهجري - تحت النشر .

(١٧٠) ساقطة في قب .

اعذارا واحدا الى البائع ، فان لم يكن عنده مدفع شاورحينثذ ، ويكون الجواب ، اذ قد ثبت عندك من عيب المملوكة ما ذكرت ولم يكن عند بائعها مدفع عند الاعذار اليه كما وصفت فالحكم (بصرفها عليه) (١٨٠) واجب ورد (الثمن) (١٨١) الى مبتاعها لازم والله (تعالى) (١٨٢) يملك على الصواب ويجزى لنا ولك الثواب .

قال القاضي :

مثلت هذا رغبة في التعليم وحرصا على الزيادة (في) (١٨٣) التفهيم ، ولما خبرت من طموس هذا المعنى ، ودروس هذا الفن والله ولي التوفيق فيما يحاوله برحمته .

الوثيقة السادسة :

باع وصيفا وادعى أنه باعه بالبراءة اذ ظهر به عيب

(١٦٧) قام عندي - رضي الله عنك (١٨٤) - رجل فذكر أنه اشترى وصيفا حماسيا

(المبيعة) (١٧١) فلانة المنوعة في عقد التبائع الواقع فوق هذا في هذا الكتاب .

انه نظر الى ظهورها فلقى به كسرا قد برىء وانعقد وقال : أنه أقدم من تاريخ ابتياعها المذكور وكانت شهادته بذلك (عندي) (١٧٢) في تاريخ كذا ، وشهد الطبيب فلان بن فلان بمثل ذلك ، فان قبل شهادتهما أعذر الى البائع يحط من ثمنها كثيرا بشهادة تجار الرقيق العارفين بذلك ، وتقيد ذلك شهد عند القاضي فلان بن فلان قاضي موضع كذا فلان بن فلان وفلان بن فلان ، أن الكسر الموضوف (بالتقيد) (١٧٣) فوق هذا عيب يحط من ثمن المملوكة كثيرا (و) (١٧٤) كانت شهادتهما بذلك عنده في تاريخ كذا ، ثم يكتب القاضي بخط يده : (شهدا) (١٧٥) عندي ، وكذلك (تعمل) (١٧٦) متصلا بشهادة الطبيبين ثم يعذر في ذلك أيضا الى البائع (و) (١٧٧) يجمع الاعذار في شهادة هذين (و) (في) (١٧٨) (شهادة) (١٧٩) الطبيبين فيجعله

(١٧١) في بيع : المعينة .

(١٧٢) في الاصل ، قب : عنده والمذكور في بيع .

(١٧٣) في قب ، بيع ، في : التقيد .

(١٧٤) في قب : لو .

(١٧٥) في بيع : وشهد .

(١٧٦) في بيع : تقيد .

(١٧٧) في بيع ، قب : أو .

(١٧٨) ساقطة في بيع .

(١٧٩) في قب : بشهادة .

(١٨٠) ساقطة في قب .

(١٨١) في الاصل : البين والمذكور في التسخين الآخرين .

(١٨٢) ساقطة في بيع .

(١٨٣) في بيع ، و .

(١٨٤) في بيع ، رحمه الله وفي قب رحمه الله .

فإن كانت قديمة ولم يصح (١٦٨) بيع البراءة ووجب الرد ، وإن صح بيع البراءة فعلى البائع اليمين أنه ما علم بهذا العيب ، فإن نكل رد عليه (اليمين) (١٦٩) وأن حلف لزم المشتري والله الموفق للصواب .

الوثيقة السابعة :

(من استأجر طبيباً ليكويه ثم بدا له وهل يجوز الكي) (١٧٢)

(١٧٨) مثل ابن عتاب عن رجل شكاً الى (طبيب) (١٧٣) أُلما (بركتيه) (١٧٤) فقال (له) (١٧٥) : الطبيب :

أكويك في الركبة وتفيق إن شاء الله (عز وجل) (١٧٦) . فاتفق معه على أنجرة دفعها (الشاكي اليه) (١٧٧) وانصرف عنه ليرجع (اليه) (١٧٨) ويكويه ثم بدا له .

وسأل الطبيب الاجرة ليردها عليه فأبى من ذلك الطبيب . واحتج الشاكي بأن الكي لا يجوز .

من رجل وقال البائع : بعته بالبراءة وجرده بين يدي المشتري .

وقال (المتنازع) (١٨٥) : إنما عرضته على الطبيب . فقال به غديدة لا تضره .

فقاله البائع : هذه الغديدة إنما صارت من حنائه حملتها (١٨٦) على رأسه .

وقال المتنازع به عيوب غيرها .

فلما قيل لي يجب (بها) (١٨٧) الرد عليك وقد باعه من غيرك فرد (عليه) (١٨٨) بهذا العيب فكتب الي بما يجب في ذلك لأخجلها على الحق إن شاء الله (عز وجل) (١٨٩) .

قال ابن لبانة :

فهمت وفقك الله ما ذكرته ، وبيع المسلمين على العهدة فمن ادعى (البيع) (١٩٠) على البراءة فعليه البينة ، وإن عجز حلف المشتري ، وله رد اليمين على البائع ، وعلى المتنازع اثبات العيوب التي ادعاها ،

(١٨٥) في قب : المشتري .

(١٨٦) في قب : أجل حل حله .

(١٨٧) في قب : اليه .

(١٨٨) سائلة في قب : قب .

(١٨٩) سائلة في قب : قب .

(١٩٠) في قب : قب الانبياء .

(١٩١) سائلة في قب : قب .

(١٩٢) يخاص في قب .

(١٩٣) في قب رجل .

(١٩٤) في قب : في ركبته .

(١٩٥) سائلة في قب .

(١٩٦) سائلة في قب : قب .

(١٩٧) في قب : الي الطبيب .

(١٩٨) في قب : قب : اليه الشاكي .

فأجاب :

آلته التي بها (تكوي) (٢٠٩) موقد (٢١٠) يكون
بحديد مصنوع وبمنجل الحصاد وبعود .

فان كانا وصفا لكي وعوده وآلته فالاجرة لازمة
(له) (٢١١) وان كانا (أهملا ذلك) (٢١٢) ولم
يصفاه ، وهو مختلف الهيئة والصفة فذلك غير جائز
ولا تلزم فيه الأجرة وبالله التوفيق .

الوثيقة الثامنة :**اختلاف الطبيب والمداوي على الاجرة**

من أحكام ابن زياد كشفنا القاضي - رضي الله
عنه - في امرأتين اختلفتا في مداواة صبيتين
لاحداهما . فقالت صاحبة الصبيتين : ما عملتك
بائتي عشر درهما . وقالت الطبيبة : (بأربعة
دنانير) (٢١٣) .

الكي جائز غير ممنوع منه وقد كوى النبي صلى
الله عليه وسلم (أسعد بن زرارة) (١٩٩) واكتوى
(ابن عمر) (٢٠٠) من (اللقمة) (٢٠١) .

ولا يصح عن النبي (صلى الله عليه
وسلم) (٢٠٢) الهي عنه وأما جاء عنه ، وقد ذكر
العدد الذين يدخلون الجنة من أمته بغير حساب
فقيل (له) (٢٠٣) من هم يا رسول الله ؟

(قال) (٢٠٤) : هم الذين لا يسترقون ولا
يكتونون وعلى ربهم يتوكلون . وليس هذا بنهي
(إنما) (٢٠٥) (أخبر) (٢٠٦) (أنهم) (٢٠٧) أخذوا
في أنفسهم (بأشد) (٢٠٨) الأمور .

الا أن الكي الذي سألت عنه لم يذكر عدده ولا

(١٩٩) أسعد بن زرارة : وهو الصواب ولي جميع النسخ « سعد بن زرارة » وأسعد بن زرارة بن عس بن عبيد بن غنيم بن مالك . أبو امامة شهد العقبة
الأولى والثانية وباع فيها وتوفي قبل بدر بالهجرة والمسجد بيني فكراه النبي صلى الله عليه وسلم دفن بالبيع وهو أول مدفون به في شوال على رأس ستة أشهر
من الهجرة . انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى جلد ٣ ص ٦٠٨ . ابن عبد البر : ترجمة ٣٠ ، ابن الأثير : اسد الغابة ترجمة ٩٨ .
(٢٠٠) ابن عمر : عبد الله بن عمر بن الخطاب بن ثعلبة أبو عبد الرحمن أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم وقد قيل ان اسلامه قبل أبيه ولا يصح وأما
كانت هجرته قبل هجرة أبيه . انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى : جلد ٢ ص ٣٧٣ ، ابن عبد البر : ترجمة ١٦١٢ ، ابن الاثير : حجة ٣٠٨ .
(٢٠١) اللقمة : داء يعرض للرجل يعرج منه الشفق . انظر لسان العرب مادة - لغاد .
(٢٠٢) في تعج ، قب . عليه السلام .

(٢٠٣) مذكورة في قب .

(٢٠٤) في قب : فقال .

(٢٠٥) في قب : وأما .

(٢٠٦) في قب : بأنهم .

(٢٠٧) سائلة في تعج .

(٢٠٨) في الاصل : بأمر والمذكور في النسخين الآخرين .

(٢٠٩) في تعج : يكرهه .

(٢١٠) في الاصل : وقد والمذكور في النسخين الآخرين .

(٢١١) مذكورة في قب .

(٢١٢) في تعج : أصلاء .

(٢١٣) في ج : بأكثر من ذلك .

المعاملة على البرء ، فإن كانت الطيبية أخذت شيئاً روتنه ، وأبينها نكلت عن اليمين فالقول قول الحالفة ، وأن نكلتنا جميعاً انفسخ ما بيننا ، وكذلك ان حلفنا جميعاً .

قال القاضي (ابو الأصمغ) (٢١٧) :

في هذا الجواب نظر عندي فتدبره .

(ثم تحلف المرأة الثانية ما عامله) (٢١٤) ولم تهرأ الصبيستان (ببعده فالذي عندنا في ذلك أن) (٢١٥) تحلف الطيبية بالله في مقطع الحق لما جعلت عمل يديها الا بأربعة دنائير ، ثم تحلف المرأة الثانية ما عاملتها الا باثني عشر درهما ثم ينفسخ (فيما بينهما) (٢١٦) ولا شيء للطيبية فيما عملت ، ين الطبيب عندنا لا يجب له شيء الا بعد البرء اذا كانت

(٢١٤) ساقطة في قب . نفع .

(٢١٥) في نفع : فأنها تصالحان .

(٢١٦) في نفع : ما بينهما .

(٢١٧) مذكورة في قب .

المراجع

- ابن أبي أصيبعة : (لمولف الدين أبو العباس احمد بن القاسم) حيون الآتياء في طبقات الأطباء (٣ أجزاء) ، دار الثقافة ، ١٩٧٩ ، بيروت .
- ابن الأثير : (أبو الحسن علي بن أبي الكرم) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، كتاب الشعب ، ١٩٧٠ ، القاهرة .
- أبي سعد : (أبو عبد الله محمد بن منيع البصري الزهري) الطبقات الكبرى ، دار صادر ، ١٩٥٧ ، بيروت .
- ابن سهل : (أبو الأصم عيسى الاسدي) . الاحكام الكبرى (مخطوط) نسخة مكتبة الزاوية الناصرية ، بتسكروت رقم ١١٨٩ من مخطوطات الاوقاف رقم ٨٣٨ ق الحزانة العامة - الرباط .
- ابن عبد البر : (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد) الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، تحقيق علي محمد الجاوي ، مكتبة نهضة مصر ، بدون تاريخ .
- ابن فرجون : (برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد) الديباج للمذهب في معرفة أعيان المذهب ، (جزآن) تحقيق د . محمد الاحدي أبو النور ، دار التراث ، بدون تاريخ .
- ابن القزويني : (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الاذني الحافظ) تاريخ علماء الاندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، القاهرة .
- الخشتي : (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني) . قصص قرطبة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ / القاهرة خلال (محمد عبد الوهاب - دكتور) .
- صاحب الرء والمظالم في الاندلس ، مجلة كلية الآداب والتربية ، جامعة الكويت ، العدد ١٤/١٩٧٨ ، الكويت .
- القضاء في قرطبة الاسلامية في القرن الخامس الهجري . تحت النشر .
- وفاات في احكام قضاء اهل الذمة في الاندلس ، الطبعة الاولى المركز العربي الدولي للاعلام ، ١٩٨٠ ، القاهرة .
- وفاات في أحكام القضاء الجنائي في الاندلس ، الطبعة الاولى المركز العربي الدولي للاعلام ، ١٩٨٠ ، القاهرة .
- ياقوت : (شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الحموي الرومي) معجم البلدان ، الطبعة الاولى ، مطبعة السعافة ١٩٠٦ ، القاهرة .



صَدْرُ حَدِيثٍ

تعريف بالمؤلف :

مؤلف هذا الكتاب فلسطيني المولد ، تشبّع بالتقانة الغربية حتى أصبح من رواد العلوم الانسانية في العصر الحديث .

ولد ادوارد وليم سعيد في مدينة القدس في عام ١٩٣٥ ودرس منذ طفولته في مدارس انجليزية وفرنسية في فلسطين المحتلة ثم في مصر ، وبعد ذلك هاجر مع أسرته الى الولايات المتحدة الامريكية وهو ما زال في مقتبل العمر حيث درس الادب الانجليزي في جامعة برنستون وتخرج فيها في عام ١٩٥٧ ، ثم أتم دراسته العليا في جامعة هارفارد حيث تقدم بأطروحة دكتوراه في عام ١٩٦٣ بعنوان :

Joseph Conard and the Fiction of
autobiography

جوزف كونراد ، وفن السيرة الذاتية في القصة

ولقد ظهرت هذه الرسالة في كتاب مطبوع في عام ١٩٦٦ . عمل ادوارد سعيد لفترة وجيزة كمدرس في هارفارد ، ثم انتقل الى جامعة كولومبيا التي ما زال يعمل بها كأستاذ للنقد الادبي والادب المقارن ، أصدر هذا الكتاب الذي تقدمه للقارئ العربي في عام ١٩٧٥ ، وأصدر في نهاية عام ١٩٧٧ كتابا أحدث ضجة في الاوساط الادبية في أوروبا وأمريكا بعنوان : **orientalism** الاستشراق *

أوليات الهدف والطريقة

عبد الوهاب علي العكبي

تأليف : إدوارد وليم سعيد

* انظر مقال الدكتور أحمد أبو زيد في مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر - العدد الثاني يوليو ، أغسطس سبتمبر ١٩٧٩ بعنوان « الاستشراق والمشتشرقون » ص ٥٣٩ - ٥٦٠ ، والذي استعرض فيه الكثير من الأفكار التي وردت في هذا الكتاب .

لا بد أن تشير هنا إلى أن بعض فصول هذا الكتاب سبق أن نشرت في كتب ضمن مقالات متفرقة في النقد الادبي ، مثل الفصل الخامس الذي نشر في كتاب صدر عن مطبعة جامعة شيكاغو في عام ١٩٧٢ تحت عنوان :
Modern French Criticism النقد الفرنسي الحديث .

ولكي يتيسر للقارئ العربي الاطاحة بالافكار الرئيسية التي وردت في هذا الكتاب ، سوف أقدم أولا الفكرة الأساسية لهذا الكتاب ، ثم استعرض الافكار الرئيسية التي وردت في كل فصل على حدة . يحاول ادوارد سعيد أن يثبت في هذا الكتاب أن الفكر الاوربي ، وبصورة خاصة في الكتب التي ألفت منذ عام ١٨٧٥ ، ظهر بأفكار راديكالية في طريقة تناول الافكار وتربيتها في الكتب ، طريقة جديدة في الاسلوب . الاسلوب الاوربي الجديد يميل الى طرح أفكار نابذة من فكر المؤلف وذاتية وليست بالضرورة مقيدة بالتراث والعرف الاوربيين . هذه المحاولات الجديدة في الاسلوب لم تظهر فجأة منذ عام ١٨٧٥ ، وإنما بدأت في أوروبا منذ عهد النهضة والبحث والاحياء . يلخص ادوارد سعيد تطور اللغة والاسلوب الاوربيين في الكتابة على مرحلتين : المرحلة الاولى حيث النصوص مربوطة ومقيدة بقواعد التراث وهي مرحلة المحاكاة ، في هذه الفترة الاولى فإن النصوص الادبية لا بد أن تحاكي النصوص الكلاسيكية . العلاقة بين النصوص الادبية الجديدة التي تواف وبين النصوص الكلاسيكية في هذه الفترة تشبه الى حد كبير العلاقة بين الاب والوالد ، ويعرج في هذا

وأخبرني في ربيع عام ١٩٧٩ أن له تحت الطبع كتابين :

الكتاب الاول تحت عنوان :

The question of Palestine

السؤال حول فلسطين .

والكتاب الثاني تحت عنوان :

criticism between culture and system

النقد بين الثقافة والنظام .

وأصدر مع زميله الفلسطيني الدكتور ابراهيم أبو لغد في ربيع عام ١٩٧٩ العدد الاول من مجلة :
Arab studies quarterly

دراسات عربية فصلية . وتصدر هذه المجلة في جمعية المحررين العرب الامريكان .

عرض الكتاب :

صدر كتاب أوليات : الهدف والطريقة في عام ١٩٧٥ . يقع الكتاب في ستة فصول :

- ١ - الفصل الاول : أفكار أولية .
- ٢ - الفصل الثاني : تأمل في الاولييات .
- ٣ - الفصل الثالث : القصة كهداية الهدف .
- ٤ - الفصل الرابع : البداية بنص أو بكتاب .
- ٥ - الفصل الخامس : الكتابة ، العبارة ، الكلام ، علم الآثار ، والبنوية .
- ٦ - الفصل السادس : فيكون في عمله .

وطريقة الكتابة الجديدة ؟ هل توجد نقطة بداية للأعمال الأدبية تميزها عن الأعمال التاريخية أو النفسية أو الثقافية ؟ هذا الكتاب وبالتحديد الفصول الأربعة القادمة تحاول أن تجيب عن هذه التساؤلات .

المادة التي بنى عليها ادوارد سعيد كتابه ، الأعمال الأدبية الأوربية المكتوبة ، لأنه يعتبر الكتابة نوعاً فنياً قائماً بذاته ، طريقة الكتابة - شكل مضمون النصوص الأدبية الأوربية توضح تطور الفكر الأوربي في أوروبا . الكتابة كما يقول المؤلف في ص ٢٤ « لها عمل خاص بها ، لها أحلامها وحدودها - وكل هذه الأبعاد بدون شك متعلقة ومرتبطة بالوسط النفسي والاجتماعي والتاريخي . »

الفصل الثاني : تأمل في الأوليات :

يعرف ادوارد سعيد البداية بأنها النقطة التي تجعل الكاتب ينظر بعين جديدة في التراث ، أنه يعمل الأدبي يساهم في تطور التراث ويعطي بعداً جديداً للأعمال الأدبية القديمة . العمل الأدبي جديد يعيد تفسير التراث ويمدنا بأفكار جديدة عن تطور الفكر البشري . يلاحظ أن هذا التعريف قريب جداً من تعريف ت . س . اليوت للتراث في مقاله « التراث والموهبة »

Tradition and the Individual Talent

هناك بعض الكتاب الذين يمكن أن تعتبر أعمالهم الأدبية بداية في تاريخ الفكر الإنساني ، وأسهمت أعمالهم في إعادة صياغة الفكر الإنساني مثل مارتن لوتسر ، نيوتن ، بيكوت ، كوبسرينكس ، فرويد ،

التشبيه على أفكار العالم النفساني فرويد ، وسوف نرى فيما بعد أن ادوارد سعيد يناقش في مواضع متفرقة أفكار وكتب فرويد وخاصة كتابه تفسير الأحلام .

أما في المرحلة الثانية فإن النصوص الأدبية أصبحت مكتملة بعضها البعض ، وفي هذه المرحلة أصبحت لغة النصوص الأدبية محسرة من التقاليد وأتباع الأساليب والصور والتعابير الكلاسيكية . في هذه الفترة الثانية حرر الفلاسفة والكتاب من أمثال الفيلسوف الفرنسي فيكولوت Foucault وبيكتور Butor وبيكت Beckett ، شكل ومضمون النصوص الأدبية من الأسلوب والقيود الكلاسيكية .

الفصل الأول : أفكار أولية :

في هذا الفصل يقدم المؤلف بعض الأفكار الرئيسية التي سوف يناقشها في هذا الكتاب ، وذلك فهو يقدم هذه النقاط الأساسية في حينه استئالة تتبادر إلى ذهن أي فرد يناقش هذا الموضوع ، هل البداية مثل الأصل ؟ هل البداية لأي عمل أدبي هي البداية الحقيقية لذلك العمل الأدبي ، أم أن هناك نقطة سرية أصدق لتكون نقطة البداية في العمل الأدبي ؟ إلى أي مدى يمكن أن تتجسد نقطة البداية في شكل حسي ملفت للنظر ؟ بأي لغة أو منهج أدبي يمكن أن ندرس الأوليات أو نقطة البداية ؟ إذا اعتبرنا الكتابة عملية أدبية مستقلة تقوم على أسس وأصور علمية محدودة فيمكن أن نطرح التساؤلات التالية . بعد أي نوع من أنواع التدريب والتمرين يتسكن الكاتب أن يبدأ بالكتابة ؟ بأي موضوع يبدأ الكاتب كتابه ؟ ما هي نقاط الفرق بين طريقة الكتابة القديمة

نيتشه ، صمويل بيكيت ، وبيتر ، وغيرهم من المفكرين المشهورين .

الأفكار التي طرحها أولئك المفكرون في أفعالهم الخالدة حررت الفكر الانساني من قيود التراث ، ودفعته الى الابداع والخلق الفني الجديد . يحاول ادوارد سعيد ان يلخص ما أحدثته هذه الافكار الجديدة في التاريخ الفكري ويقدمها كفكرة لم تنل بعد الدراسة اللازمة ، خاصة وأنها ظاهرة من ظواهر الفكر الحديثة .

مصطلح بداية يعطي انطباعا بالزمن والمكان ، أي أن هذه الاعمال الأدبية حدثت في فترة زمنية معينة ، ولها مكان معين ، أي أن لها وسطا تاريخيا نشأت فيه ، ولها موضوع مستقل ، أي قدمت فكرة وموضوعا معيناً ، ولها مبدأ معين ، أي أن لها أيديولوجية معينة ، هذه الخصائص توضح بأنها عمل فكري مستقل يهدف الى غناء الفكر البشري ، وفي نفس الوقت الى إعادة تفسير الفكر الانساني بسبب أنه أثار ابعادا انسانية جديدة . إذن فالأدبيات هي المحاولات التي يقوم بها المفكرون والادباء لمحاولة إعادة صياغة تراثهم وتحرير الفكر الانساني من قيوده وقواعده الأيديولوجية . هذه المحاولات كثيرة ومتعددة في الفكر الأوربي لذلك حاول المؤلف حصر هذه الخصائص وتبيان ملامحها في النقطتين التاليتين :

١ - الصفة الأولى - الفرد مقابل النظام

The Individual versus the system

يضرب سعيد مثلاً لهذه الحالة بعالم اللغة

السويسري فرديناند دي سويسر . المعروف ان سويسر كان يبحث عن العلاقة بين الباحث الفردي والنظام اللغوي ، بين اللغة كعامل انساني فردي وبين اللغة كنظام مركب . لقد كان سويسر يبحث في القوة اللغوية للفرد كنظام فطري ركب مع خلق الانسان ، وفي ما يستطيع الفرد ان يغيره في النظام اللغوي العام الذي يخضع للقوانين والتأرجح اللغوية المعروفة التي تميز كل لغة والتي تتحكم في تفكير وتصرفات الافراد بحكم أنها تراث ثقافي متداول على مر العصور التاريخية . هناك مثلاً آخر يوضح هذه العلاقة ، وهو ان فيكو في كتابه العلم الجديد عارض الذين يقولون بأن اللغة والعادة تنتقل من مكان الى مكان في التاريخ عن طريق التشابه والاستعارة بقوله ان اللغة وكل المنتوجات اللغوية تتبع نظاماً متكرراً يأتي عن طريق القاموس الفردي الموجود في اللاشعور عند الفرد وعند الجماعة ، ويوجد هذا القاموس عند كل الأمم . بمعنى ان اللغة العربية وجدت بهذا النظام حسب القاموس الموجود في اللاشعور العربي ، واللغة الانجليزية وجدت بهذا النظام حسب التأرجح الموجودة في قاموس اللاشعور عند الانجليز . هذه الصفة تبحث في العلاقة بين القوانين العامة المتوارثة والموجودة عند مختلف الأمم ، وبين الموهبة الفردية . هنا يطرح السؤال الذي ينتج عن هذه العلاقة وهو من أين يبدأ الفرد ؟ وهل تكون البداية من عند مستوى النفس الفردية أم تكون عند القوانين العامة ؟ وكيف يمكن ان نفعل هذه القوانين العامة الجماعية عن الفردية الذاتية ؟

لإعادة تركيب الاحلام . المحلل النفسي أو الطبيب النفسي يمر بمراحل حتى يصل الى تركيب الحلم . في المرحلة الاولى يعود الى تركيب الحلم من الكلمات المتقطعة والآثار التي يتركها الحلم على الحالم . المريض قد ينسى حادثا مهما ولكنه يذكر بالتفصيل بعض الامور التي تحيط بهذا الحادث ، وهنا يدرك الطبيب ان هناك عوامل نفسية واجتماعية تكنت هذا الحادث في عالم اللاشعور وتقتنع ظهوره عن عالم اللاشعور الى عالم الشعور . يقوم الطبيب بتحليل كلمات الحلم المتقطعة والعبارات المفككة ، وحسب أفكار فرويد ، فإن المتناقضات الغفوية قد تشير الى معنى واحد - المعنى المتعارف عليه وعكس ذلك المعنى . لقد وجد على سبيل المثال عند قدماء المصريين ان بعض الكلمات والجمل في مواقف معينة قد تشير الى معنى هو عكس المتعارف عليه عرفيا ولغويا . يمثل هذه الطريقة يستطيع الناقد الادبي ان يعيد تركيب النصوص الادبية ويتوصل الى البداية كظاهرة نفسية فردية وكظاهرة اجتماعية تكمن في نفس كل فرد . يلاحظ ان تقاس هذه المواضيع النقدية بطرح صورة عامة في هذا الفصل وسوف يعود المؤلف الفاضل الى بحث بعض هذه الامور بصورة تفصيلية في الفصول القادمة .

الفصل الثالث : القصة كبداية الهدف :

يناقش هذا الفصل ، وهو أطول فصول الكتاب ، نشأة القصة في أوروبا وكيف أنها كانت

٢ - الصفة الثانية : البداية الجديدة كتركيب

The New Beginning as Construct

يوضح ادوارد سعيد هذه الصفة بالتساؤلات التي أثارها الفيلسوف فردريك نيتشه حول هومر وملحمته الإلياذة والأوديسة . لقد أثار نيتشه عدة تساؤلات حول هومر وهل هو كان شخصا معيناً أم اسم أطلق ليوضح بداية هذين العملين الخالدين ؟ في أي عمل أدبي خالد مثل هذه الاعمال تكون لدينا اشارتان الى مؤلفين . لدينا اشارتان الى هومر . هومر الاول هو اسم الشاعر الذي ارتبط اسمه بهاتين الملحمتين . أما هومر الثاني فهو الرمز الذي يكمن وراء الصور والأفكار والتعبيرات الشعرية التي صبت في هذا العمل الأدبي على مر التاريخ الأدبي الأوربي . هومر الثاني هو الرمز الذي يرمز الى جمع وتكوين وتركيب هذه الصور الأدبية المتفرقة . فكرة هومر الثاني تقوم على أساس أن النص الأدبي على مر التاريخ ليكتسب أفكارا جديدة ، والاعمال الأدبية الخالدة مثل أعمال هومر وشكسبير وملتون وت . س أليوت هي الاعمال التي تنجم مع تطور الزمن . اذا كان النص الأدبي الخالد ينمو ويتطور مع الزمن فأين تكمن البداية الحقيقية للنص الأدبي ؟

للإجابة على هذا السؤال يناقش ادوارد سعيد أفكار فرويد في تركيب الاحلام ، لأنه يعتقد بأن الناقد الأدبي الذي يعيد تركيب النص الأدبي يمكن ان يستفيد من الطريقة التي قدمها فرويد

٣ - ان الشخص الذي يستعمل هذه القوة يتحكم فيها ينتج عنها .

٤ - ان هذه السلطة مستمرة ومتواصلة في التراث الادبي .

المصطلح الثاني ، الازعاج او الارباك المباشر : Molestation وهذا يعني الشعور الذي يحس به كاتب القصة او البطل عندما يدرك الفراغ والتناقض بين حياة القصة والحياة العادية اليومية . انه الفراغ او الفرق الذي ينتاب الكاتب او البطل او القارئ عندما يدرك البون الشاسع بين حقيقة الحياة في القصة وحقيقة الحياة في صورها العادية اليومية .

بعد ذلك يطرح سعيد ثلاث فرضيات ظهرت عند نشأة القصة ، وهذه الفرضيات تبين العلاقة بين التجربة المعروضة في القصة وبين التجربة في الحياة العادية اليومية :

١ - لا توجد سلطة واحدة بدأت القصة ، وانما القصة كتجربة فنية تكونت من أصوات متعددة ، وهذه الاصوات والخبرات تنحوم مع مرور الزمن وتزداد التجربة الفنية عمقا مع تطور التاريخ .

٢ - عمق التجربة التي تعكسها القصة . يمكن ان نقيس عمق التجربة الفنية من خلال بعض المخطوط الرئيسية التي رسمها فيكو في كتابه العلم الجديد .

يعتقد سعيد بناء على ما أورده فيكو في كتابه المذكور بأن القصة تتضمن ثلاثة عناصر أساسية -

هدفا للأبعاد النفسية والتاريخية والاجتماعية الخاصة بحياة المؤلفين والعامه المهلفة بالشعوب التي ترتبط بها . تلك القصص صورت العلاقة بين النص ، كصورة للأبعاد الاجتماعية والنفسية للمؤلفين من ناحية ، وللشعوب الاوربية من ناحية أخرى . ثم في نهاية هذا الفصل يرحب على التأثير الذي تركه شكل وتركيب الفصة على شكل وتركيب النصوص الادبية في العلوم الأخرى مثل التاريخ والاجتماع وعلم النفس وغيره من العلوم الانسانية ، في القرن التاسع عشر ، ويضرب مثلا لهذا التأثير تحليله لكتاب تفسير الاحلام لفرويد .

عندما يجلل ادوارد سعيد العلاقة بين القصة كحدث فني وبين الكاتب كائنات صاحب تجربة يبدو واضحا أثر فرويد ونظرية التحليل النفسي على شرح وتحليل تلك العلاقة . لتوضيح العلاقة بين القصة والكاتب والقارئ يطرح في بداية هذا الفصل مصطلحين :

١ - السلطة : Authority

يشخص هذا المصطلح الفرد الذي يخترع او يعطي حياة بشيء ما . وقد يكون هذا الفرد مؤلفا او صانع عبارة او مخترعا . ويشبه المخترع او المؤلف في هذه الحالة مثل الوالد الذي يشعر بقوة العظمة والسلطة والانجاب . يتميز هذا المصطلح بالخصائص التالية :

١ - مقدرة الفرد بأن يبدأ عملا ما .

٢ - هذه القوة والانتاج الذي يكون نتيجة لما اخترعه يزيد في الانتاج الادبي .

يطرح المؤلف خمس نقاط توضح العلاقة بين شكل القصة الاوربية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والمؤلفات في العلوم الانسانية ممثلة بكتاب فرويد تفسير الاحلام :

١ - الخاصية الاولى الاكاديمية . النص يتكون من حوادث وسواقف ثم نصوص تشرح وتوضح هذه الحوادث .

٢ - المنطقية في التركيب ، وهذه المنطقية توجه القارئ بصورة تدريجية الى النقاط التي يهدف اليها المؤلف .

٣ - ان النص مشحون بالمواقف والاحداث وان تكون هذه المواقف والاحداث متناسقة مع المعاني التي يهدف اليها المؤلف .

٤ - النص يتكون من مجموعة من الوحدات المنفصلة ولكن في نفس الوقت متكاملة وفي نفس الوقت منسقة بصورة تدريجية .

٥ - ان النص مترابط بمفاهيم متوارثة ومعروفة في النصوص الاوربية . مثلاً له بداية ووسط ونهاية . وتكون العلاقة مبنية على أساس مؤلف ونص ، نص ومعنى وقارئ وعملية تفسير .

ملخص ما يهدف اليه سعيد بأن كتاب تفسير الاحلام يحتوي على مجموعة من الاحلام وتحليلها ودراسة للطريقة التي يتبعها المحلل النفسي لمعرفة مركبات الحلم . الحلم في شكله المكتوب يشبه الى حد كبير القصة من حيث ان له نقطة يدور حولها وله قيمة وله هدف وكمالاته تصور حالات نفسية واجتماعية . اذن

الشخصية الانسانية ، التاريخ البشري ، واللغة . تقابل هذه الثلاثة العناصر ثلاثة مصادر وهم القوة المقدسة ، الانسان او البشر ، الطبيعة . مع هذا التقسيم تدخل الثلاثة المراحل التي يعتقد فيكون بأن التاريخ البشري مر بها ، وهذه المراحل :

١ - مرحلة القوة المقدسة .

٢ - مرحلة العاقلة او مرحلة الكهوف .

٣ - مرحلة تكوين الأسر والنواة التي تكون العوائل الانسانية .

هذه المواضيع التي عرضها سعيد في الفرضية الثانية هي تمثل الثبات التي كونت عليها القصة الاوربية في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر . أغلب الثبات التي بنيت عليها قصص مثل دون كيشوت وروبنسن كروزو وتدل مارشر تدور حول اعادة تركيب التاريخ البشري والعلاقة بين الفرد والمجتمع والتداخل بين العواطف والمشاعر والاحاسيس الفردية والجماعية .

الموضوع الثاني الذي ناقشه المؤلف الفاضل في هذا الفصل يبين الأثر الذي تركه شكل وتركيب القصة على شكل وتركيب القصة في العلوم الاخرى ، وقد استخدم سعيد كتاب فرويد تفسير الاحلام كمثال يوضح هذا التأثير .

ان أسلوب وتركيب تفسير الاحلام يوضح نقاط التتابع او التدرج المنطقي الذي يخضع لعلاقة التتابع والمتنوع والوالد والابن ، وهذا النوع من التركيب يميز القصة الاوربية في القرن الثامن عشر .

فعمل المحلل النفساني يشبه الى حد كبير عمل الناقد الذي يحلل القصة وأبعادها ، وسوف يتعرض لهذه النقطة بالتفصيل في الفصل الرابع .

٤ - الفصل الرابع : البداية بنص او بكتاب

هذا الفصل يمثل المرحلة الثانية ، وهي مرحلة تحرير النصوص في العلوم الانسانية من القيود والناذج الكلاسيكية . وتبدأ هذه المرحلة تاريخياً مع نهاية القرن التاسع عشر وحتى العصر الحديث . مع ظهور الكتاب المحدثين من أمثال بودست ، وجويس ، ولورانس العرب ، وأسكار وأبلد ، وهوبكنز ، وكونراد حيث تحللت النصوص الادبية الاوروبية من القيود والتركيب المتوارثة ، وأصبحت النصوص الادبية تخضع لشكل جديد . لقد خلس هؤلاء الكتاب طريقة عرض وأسلوب النصوص الادبية الاوروبية من القيود التي رسمها أرسطو . من أسباب هذا التغير أن الفكر الانساني كان يخضع لقوانين منطقية وحقائق معدودة مفهومة ، اما الانسان الحديث فيؤمن بأنه لا توجد حقائق محدودة في الحياة . النصوص الادبية الحديثة مثل الارض الموات للشاعر الانجليزي إليوت ، واسلوب الرواية الجديدة لا تعطي معلومات وحقائق محدودة بقدر ما تثير تساؤلات وتفتح أبعاداً ومناخذ جديدة للفكر الانساني . النص الادبي الحديث لا يعطي معنى محددًا بقدر ما يحصر الفكر الانساني من المعاني المرسومة والمحددة . الكاتب في العصر الكلاسيكي كان يطمع بتقليد واتباع قوانين الاسلوب المتوارثة ، اما المؤلف في العصر الحديث وخاصة بعد ظهور الرومانتيكية في أوروبا أصبح يبحث

عن ذاته ويصور فنه فيما يكتب . الكتاب الحديث تعبير عن الذات الفنية ، اما الكتاب القديم فهو تعبير عن المفاهيم والمعايير والاعراف الاجتماعية المتوارثة في فن الكتابة . ان كتاب الرواية الجديدة من أمثال روب جرييه وميشال بيتور وساروت حرروا النصوص الادبية من قيود الاسلوب القديمة ، وأصبح تركيب النص يعتمد على الابداع الفني الفردي والوسائل التي يطرحها الكاتب لكي يعبر بها عن ذاته الفنية المتميزة وهذا يفسر وجود أساليب متعددة في الرواية الحديثة .

يقدم إدوارد سعيد أربعة خصائص تميز الاسلوب الادبي الحديث :

١ - فترة التفكير في الكتابة ، وهي الفترة التي تتكون فيها الارادة او الرغبة في الكتابة ، ويلاحظ ان هذا الهدف كدافع نفسي يتكرر في حياة وأسلوب المؤلف .

٢ - في هذه المرحلة الثانية يحاول المؤلف بأن يعطي معنى لما يكتب ولكن نجاح هذا المعنى وإتمامه امر صعب ويختلف عن اعطاء المعنى او وضع المعنى التام . كل كاتب له أسلوب خاص به ، والاسلوب من ناحية علم القواعد هو الوسيلة التي بواسطتها يربط الكاتب بين مختلف الرموز ، واما الاسلوب من ناحية علم المعاني فهو الوسيلة التي بواسطتها يربط الكاتب بين الرموز والنصوص التي تحمل هذه المعاني . اذن فالكاتب يجمع ويشكل هذه الرموز لكي تعطي معنى معيناً ، ولكن ادراك هذا المعنى أمر يختلف ولا يستطيع ادراكه بصورة عامة .

تتلخص مميزات الفكر الفرنسي الحديث في الخصائص التالية :

١ - المعرفة تدرك على أساس انها وحدة منفصلة ، بمعنى ان الباحث او الناقد يركز على المعرفة كوحدة منفصلة لا بد أن تحلل وتفصل في تركيبها الداخلي أولا قبل أن نبحث عن علاقتها بالمعلومات الاخرى .

٢ - الايمان بأن المعرفة تدرك على أساس واحدات مستقلة ، دفع البحوث التحليلية خطوات الى الامام وبالتالي ظهرت عيوب ونقاط ضعف الطريقة العلمية التي تقوم على التحليل التاريخي . ولذلك فان هذه الطريقة او هذا المنهج العلمي يفترض تحليل وتفصيل وتفكيك المعرفة الى جزئيات منفصلة قبل أن ننظر في العلاقات ونقاط التلاقي كما هو معروف في وسائل البحث القديمة .

٣ - نتج عن هذا التحليل والتفصيل في المعرفة نوع من عدم الثبات والاستقرار العلمي وكثرة الآراء والاختراعات الفكرية في طرق تحليل أساليب النصوص الادبية .

٤ - هذا المجهود الفكري للعقلية الفرنسية الحديثة ، والذي يعتقد سعيد بأنها أبرز عقلية اوروبية ساهمت في بناء الفكر الحديث وقامت ببحوث في العلوم الانسانية افضل من البحوث التي تمت في بريطانيا وامريكا ولكنه يستثني عالم اللغة الامريكي تشومسكي ويطعن في النظرة النقدية الشاملة التي تميز بها الناقد الكندي نوريس نواي ، ابقت بريق أمل في التوصل الى نتائج علمية ايجابية في تحليل النصوص الادبية .

٣ - النصوص الادبية الحديثة رغم الفسارء على التكرار والاعادة ، لانه يحتاج الى وقت حتى يدرك أسلوب وتكنيك ذلك الكاتب بالاضافة الى فك رموزه .

٤ - ان النصوص الادبية الحديثة تتميز بأن الكاتب في نهايتها يشعرنا بحب الاستمرار ، بمعنى أنه عند نهاية القصيدة او الفصاة لا نشعر بأن الكاتب يريد ان ينفذ عند تلك النهاية ، وانما يوحي الينا بأنه يريد أن يستمر في الكتابة وعرض تجربته القادمة .

هذه الخصائص الاربع توضح بأن النص الادبي الحديث أصبح أكثر خصوصية ، ويمثل تجربة فنية في يده . ان النص الادبي الحديث هو بداية في حد ذاته لانه يعكس تجربة فردية تقوم على أساس التحرر من قيود الاساليب الاوربية الكلاسيكية .

الفصل الخامس : الكتابة ، العبارة ، الكلام ، علم الآثار ، والبنوية .

إذا كان ادوارد سعيد استعرض فن تركيب وشكل الرواية الحديثة في الفصل الرابع ، فانه في هذا الفصل استعرض دور النقد الادبي الحديث ممثلا في البنوية ، في تحليل وتركيب النصوص الادبية الحديثة وتطوير الاسلوب الادبي الحديث . مع انه يناقش افكار رواد مدرسة البناء من أمثال ليفي شتروس ورونالد بارث ، ويستعرض الخصائص الفكرية التي تميز بها العقل الفرنسي الحديث . الا انه يركز بصورة خاصة على مايكل فيكولت Michel Foucault .

يركز ادوارد سعيد على مايكل فيكولوت ويستعرض أفكاره التي وردت في كتابين من أهم كتبه وهما :

تنظيم الأشياء :

The order of Things

علم حفريات المعرفة :

The Archeology of knowledge

يعتقد فيكولوت بأن الانسان هو محور العلوم ، واللغة هي الوسيلة التي يعبر بها الانسان عن موقفه واتجاهاته ، وهي في نفس الوقت الوسيلة التي نستطيع ان نحلل وندرس بواسطتها الانسان . اهم العلوم لديه هي علم الاحياء ، الاقتصاد ، علم اللغة . كل علم من هذه العلوم يرتبط بنوع من المعرفة يأتي مساعدا او معتمدا عليها . في الدرجة الثانية في علم الاحياء يأتي علم النفس كنوع مرتبط بالاحياء كمجال لمعرفة الانسان ، وبعد الاقتصاد يأتي علم الاجتماع ، وبعد اللغة يقع الادب وعلم الخرافة . العلوم المساعدة تساعد العلوم الاساسية في تغير كينونة الانسان . نظرا لأن فيكولوت يهتم بالانسان ووجوده البشري فان فكره يتميز بالخاصيتين التاليتين :

١ - الاهتمام بالبعد في التفكير البشري ولذلك هو يركز على العلاقة بين اللغة والفكر .

٢ - الناقد يعيد تركيب النص الادبي وكل عنصر من عناصر ذلك النص له علاقة بتحليل ذلك النص . فتحليل المسرحية يعتمد على تحليل الشخصيات واللغة والملابس والحركات وأثاث المسرح وطريقة وضع الأثاث وطريقة دخول الممثلين والطريقة التي

يتكلمون بها واتجاه حركات الاطراف وكيفية ترتيب هذه الحركات - كل هذه الامور تساهم في تحليل النص المسرحي . لذلك فان الناقد لابد ان يبحث في جميع هذه الامور المحيطة بذلك النص ومن هنا جاء التشبيه بعلم الحفريات . الناقد الادبي يحفر في جميع هذه الامور الثقافية ويعيد ترتيبها ، ويلاحظ هنا ان اعادة تركيب النصوص الادبية يشبه اعادة تركيب وترتيب الاثار التاريخية القديمة .

يطرح فيكولوت اربعة عناصر تميز الاسلوب الاوربي :

١ - عنصر القلب :

Principle of reversibility

أي نص أو أي كتاب يمثل كلام المؤلف ، ويمثل كذلك الوسط الاجتماعي والعلمي الذي ينتمي اليه . العلاقة بين الاسلوب والمؤلف مقيدة بالقواعد التي تحدد شخصية الكاتب والوسط العلمي الذي ينتمي اليه . العلاقة بين الاسلوب والمؤلف مقيدة بشخصية الكاتب والوسط العلمي الذي ينتمي اليه . الطبيب الذي يريد أن يؤلف كتابا في الطب لابد أن يكون دارس طب . النص الذي يكتبه يرتبط بالاسلوب في الطب وبالمؤلفات الطبية السابقة ، لابد أن يستفيد من أسلوبها وطريقة كتابتها . على هذا الاساس ، فهذا المؤلف لا يعتبر اختراعا وابداعا بالمعنى الرومانتيكي للكلمة وانما جزءا من تراث معين حقيقي بقواعد للاسلوب في تلك النصوص ، وفي نفس الوقت أسهم في تطويرها عن طريق امدادها بمعلومات جديدة وأسلوب جديد . اذن وصفنا لهذا المؤلف بأنه مصنف

أ - Formation التركيب . هذا القانون يبين لنا نوع الفن . بمعنى أن هذا الفن أدب وذلك الفن زراعة او كيمياء الخ . هذا القانون يحدد قاعدة التركيب او مضمون الفن .

ب - Transformation التحول

وهذا القانون يحدد كيف تتحول اللغة العامة الى لغة خاصة بنوع الفن . انه الطريقة التي تتحول به اللغة العامة الى لغة اقتصاد اولفة أدب اولفة طب .
جـ - correlation الترابط ،

هذه القاعدة تحدد العلاقة بين الاساليب في الفنون المختلفة . انها تحدد العلاقة بين الاسلوب في الطب والاسلوب في الادب والاسلوب في الزراعة على سبيل المثال . وتحدد كذلك العلاقة بين الاسلوب والقاعدة السياسية والثقافية والاجتماعية والتاريخية للمجتمع الذي تنتمي اليه . فمثلا لغة النقد الادبي في المجتمع الشيوعي تختلف عن لغة النقد في المجتمع الرأسمالي .

٤ - عنصر الخروج :

Principle of Exteriority

هذا العنصر يتعلق بموضوع الذاتية والموضوعية في المفاهيم العلمية ، ولذلك فهو يفرق بين التفكير واللغة . التفكير له اتجاه داخلي وأما اللغة فلها اتجاه خارجي . اللغة هي حلقة الوصل بين الذات (عالم الفرد الداخلي) وبين الموضوع (العالم الخارجي) . اذن فاللغة ترتبط بعنصر التفكير للفرد وبالمعاني التي فرضت من التراث على اللغة (وبالتالي على الذات في العالم الخارجي) .

جديد بسبب أنه أسهم في امداد ذلك التراث ، ويجعلنا نعيد النظر في تقييم المؤلفات السابقة في نفس التراث بسبب الابعاد الجديدة التي طرحها .

٢ - عنصر عدم الاستمرار او الانفصال :
Principle of Discontinuity

في لغة القرن السادس عشر ، الانسان الصالح كان يصور لغويا في صورة آلهة ، اما الانسان الشرير فيصور في صورة شيطان . اما في القرن التاسع عشر مع ظهور النظريات الحديثة ، فلقد تغير هذا التقسيم وأصبح تصوير الانسان يعتمد على العلاقة بين الله - الانسان - الطبيعة . اللغة في الماضي كانت تصويرية ، اما اللغة في الوقت الحاضر ، فهي تعبيرية .

٣ - عنصر التخصيص :

Principle of specificity

ويتضمن هذا العنصر موضوع العلاقة بين المؤلف وكتابه . كذلك يتضمن تحديد اللغة التي تستخدم في اي فن من الفنون وكيف تصبح تلك اللغة مميزة لذلك الفن . كيف نميز بين اللغة التي تستخدم في الاقتصاد وبين اللغة او الاسلوب الذي يستخدم في الطب او الاسلوب الذي يستخدم في الأدب او الزراعة . يقترح فيكونت لتحديد أسلوب الفن مجموعة من الاجراءات تعرف باسم الاستثناء او العزل :

Exclusion وهذه العملية تتم بموجب

ثلاثة قوانين :

وبيان أهميتها كمفتاح للمعرفة الانسانية وتكوين اسس علمية مجردة لدراسة اللغة ، وبالتالي عن طريق هذه القواعد التي قننت اللغة علميا التوصل الى معرفة القواعد الاساسية علميا للعلوم الانسانية . هذا الذي دفع ليفي شتروس بأن يستخدم نظام دي سويسر اللغوي ونظام رومات ياكبسون اللغوي في دراسة تركيب نظام العوائل والأسرة وخاصة في الشعوب البدائية . ان أغلب النماذج التي وضعها ليفي شتروس وغيره من رواد مدرسة البناء يعتمد على معرفة الاوليات ونقطة البداية في دراسة نصوص العلوم الانسانية .

٢ الفصل السادس : فيكو في عمله

يحاول فيكو Vico الفيلسوف الايطالي الذي ولد في عام ١٦٦٨ وتوفي في عام ١٧٧٤ ، في كتابه العلم الجديد New science ، الذي صدر في عام ١٧٤٤ ان يتمكن من معرفة نقطة البداية للتفكير البشري ، ولقد اتخذ من دراسة اللغة المنهج الذي بواسطته يمكن ان يتعرف على هذه الاوليات . يوضح فيكو في تحليله اللغوي للكلمات بأن الكلمة سواء كانت حسية او معنوية فانها يمكن ان تتحد بالقوانين التالية :

- ١ - الكلمة لها معنى غير محدد .
- ٢ - القاريء يطلب معنى لذلك فهو يفرض معنى محددًا على الكلمة .
- ٣ - بعد وضع المعنى تبدأ الكلمة في الاعتماد عن المعنى الأساسي وتتكون عدة معان .

هذه المحاولات العلمية لفصل عناصر اللغة عن الذات الفردية وعن العالم الخارجي يبين اهتمام اصحاب المدرسة البنوية بمعرفة الاوليات وتحديد نقطة البداية في عالم المعرفة . أغلب رواد هذه المدرسة يؤمن بأن محور العلوم الانسانية هو الانسان واهتمامهم باللغة ناتج عن ايمانهم المتأصل بالانسان وانه محور المعرفة الانسانية . اللغة عامل ملازم للانسان وهي الوسيلة الوحيدة التي يعبر بها الانسان عن المعرفة وبواسطتها يتصل بالعالم الخارجي . اللغة باختصار هي التراث الانساني + اللغة = المعرفة .

لقد اهتم العالم الفرنسي ليفي شتراس بالانسان البدائي وحاول الوصول الى معرفة الوسيلة التي كان يتصل بها الانسان قبل اختراع الكتابة . يلخص ليفي شتراس تطور الكتابة الى ثلاث مراحل :

- ١ - مرحلة الصفر حيث لا توجد كتابة او مرحلة عدم المعرفة .
- ٢ - مرحلة بداية الكتابة او مرحلة المعرفة .
- ٣ - مرحلة الاستبعاد لقواعد الكتابة حيث اصبح الانسان وبالتالي المعرفة مقيدة بقواعد معينة وحديد فرضت على المعرفة الانسانية .

مدرسة البناء تحاول ان تجرد التراث من العلوم الانسانية . خذ على سبيل المثال فرديناند دي سويسر ، نجده حاول ان يفرق بين الدال والمعنى وكذلك معرفة العلاقة بين الصوت والمعنى ، او نظق الساعة ومعناها واثبات ان هذه العلاقة طبيعية وغير منطقية . هذه المدرسة الفكرية تسمى الى تقنين اللغة

الشاعري الخ . يصف العلوم في بداية تكوينها بالشاعرية لأنه يهتم بالتراكيب اللغوية في مختلف العلوم والانعكاسات اللغوية وهذا ما يسميه بعلم فقه اللغة .

عن طريق فقه اللغة حاول فيكون يبحث عن لغة عامة مشتركة توضح وحدة المعرفة البشرية وبالتالي تعطي تعريفاً لإنسان واحد شامل . لقد كان فيكون يبحث عن وحدة الشاعر الانسانية والعوامل التي تجمع بين انسان واحد غير مقيد بالحدود الجغرافية والسياسية والتاريخية عن طريق اللغة ولغة الحرافة . لقد ركز على دراسة لغة الحرافة للأسباب التالية :

١ - ان الحرافة تستخدم لغة تاريخية ، ومعنى لغة تاريخية اي محدودة من ناحية الزمان والمكان ، ولكنها في نفس الوقت لغة عامة ودولية وكما سهاها « لغة عقلية عامة على كل الأمم » .

٢ - الحرافة لها منطق قصصي خاص بها ولا يتغير هذا المنطق مع تغيير العصور التاريخية .

٣ - تتميز الحرافة بأنها اختراع أصلي مع انها لا تخص مؤلفا بعينه وهي حكاية عامة .

٤ - نظرا لالتباس المعاني وتعددتها تبرز الحاجة الى الشرح والتوضيح .

على هذا الاساس يشرح فيكون الكلمات وتقارب معانيها ويحاول ان يرجع الكلمات الى أصولها بناء على تقارب معانيها . فمثلا في القانون الروماني كلمة Nomen تعني الحق ، وكلمة Nomos اليونانية تعني القانون ، ومن كلمة Nomos جاءت كلمة Nomis Mo التي تعني النقود ، وكلمة No Mos اليونانية أصبحت NUMUS اللاتينية . في الفرنسية كلمة Loi تعني القانون وكلمة Aloï تعني النقود ، وفي العصور البربرية كلمة Canon تستعمل للقوانين الشرعية والاجرة السنوية التي يدفعها المستأجر للاقطاعي مالك الأرض . يهدف فيكون من هذا التحليل الى بيان العلاقة بين العصور المتحضرة والعصور البربرية ، ويخرج من هذا التحليل الى أن الفرضيات التي يقدمها الانسان المتحضر والانسان البربري متساوية وواحدة ، ولعل هذه النتائج من العلاقة بين كلمة قانون ونقود سواء في العصور المتحضرة او العصور البربرية . نظرا لاهتمام فيكون بالاسلوب واللغة ودورها في تفسير المعرفة الانسانية ، لذلك فهو يقسم العلوم في بداية تكوينها التاريخي الى الميتافيزيقية الشاعرة والمنطق الشاعري ، والتاريخ

APPLIED SCIENCES

- 612.8
LI Ludel, Jacqueline.
Introduction to sensory processes. Jacqueline Ludel.
San Francisco : W.H. Freeman, c1978.
- 616.8588
MR Mental retardation : introduction and personal perspectives edited by James
4 S. Payne : (With a foreword by Norman R. Ellis). Columbus, Ohio : Merrill,
(1975).
- 616.8588
SI Smith, Robert Mc Neil.
6 An introduction to mental retardation (by) Robert M. Smith. New York,
McGraw - Hill (1971).
- 616.8650651
DB Danaher, Brian G.
3 Become an ex - smoker Brian G. Danaher, Edward Lichtenstiel....
Englewood Cliffs, N.J. : Prentice - Hall, c1978.
- 616.891408
HG Huber, Jack T., Comp.
8 Goals and behavior in psychotherapy and counseling ; readings and
questions. edited by Jack T. Huber (and) Howard L. Millman. Columbus,
Ohio, C.E. Merrill Pub. Co. (1972).
- 610.955
EM Elgood, Cyril. 1892 -
5 A medical history of Persia and the Eastern Caliphate. The development
of Persian & Arabic medical Sciences from earliest times until the year A.D.
1932... Cyril Elgood. 1979.

ARTS

- 745.507
SR Shivers, Jay Sanford. 1930 -
5 Recreational Crafts : programming and instructional Techniques (by)
Jay S. Shivers (and) Clarence R. Calder. New York, McGraw - Hill (1974).
- 745.92
HB Hillier, Florence Bell, 1916 -
5 Basic guide to flower arranging. New York, McGraw - Hill (1974).
- 779.0924
CL Caponigro, Paul, 1932 -
3 Landscape Paul Caponigro, ... New York : Mc Graw - Hill, c1975.
- 779.994256082
VA Victorian and Edwardian Bedfordshire from old photographs introd. and
4 Commentaries by Richard Wildman....London : B.T. Batsford, 1978.
- 791.43
DA Dick, Bernard F.
5 Anatomy of Film, Bernard F. Dick... New York : St. Martin's Press, c1978.
- 792.27
AB Adams, William Davenport, 1851 - 1904.
4 A look of burlesque : Sketches of English Stage Travesty and Parody/
by William Davenport Adams.-Folcroft : Folcroft Library Edition 1978.

يعتبر القرن التاسع عشر هو عصر الكشف الجغرافية في حوض النيل ، وإذا كان محمد علي قد أرسل بعثة عام ١٨٢١ بقيادة سليم قبطان في السودان ، بلغت درجة العرض الرابعة شمال خط الاستواء ، فقد ظلت منابع النيل تلهب خيال الأوروبيين ، هل ينبع النيل من جبال القمر ، وتلوجه الذاتية ؟ أم من نافورات سحرية هناك ؟ ظل الأمر مجهولاً بالنسبة لهم ، في عصر الانقلاب الصناعي ، وبزيادة شهية الأوروبيين للمغامرات والاستعمار .

الكتاب الذي بين أيدينا يعالج قصة من قصص الكشف الجغرافية ولكن بطريقة غير تقليدية ، من خلال قصة حب لعبت فيها الصدفة دوراً كبيراً ، صدفة لقاء حبيبين ، وكان من الممكن ألا يلتقيا .

عالج القصة ، الكشف والحب ، ويتشard هول بمهارة ودكاء وإنسانية ، من ثم يمكن قراءتها على أنها قصة كشف جغرافي ل منابع النيل ، وفي نفس الوقت لا يمكننا إنكار أننا نقرأ قصة حب في العهد الفيكتوري ، كانت بدايتها في وسط أفريقية ، على العموم من أي زاوية رأيت ، وجدت الكتاب ممتعاً .



مغامر من عائلة برجوازية

ولد سير صمويل بيكره والامبراطورية البريطانية في الأوج ، وعاش في عصر الملكة فيكتوريا ، ذلك أنه ولد عام ١٨٢١ لأب ثري كان يعمل بالتجارة ، كون

عاشقان على النيل

محمد عبد الغنى سعودى

تأليف ، ريتشارد هول

✻ كثيراً ما يشار إليه بسام كاهلها للنظري بدلاً من صمويل .

المغامرة تستهويه والصيد

رغم أنه كان مقرما بالاسلحة النارية فلم يبحث لنفسه عن مستقبل في الجيش ، رغم أن اثنين من اخوته كانا في سلاح الفرسان البريطاني ، بل ذهب (سام) كما كان يطلق عليه لزيارة أخويه اللذين اشتركا في حرب القرم ، وكانا يعيشان في معسكر قرب القسطنطينية ، وترك بناته الأربع في رعاية احدى أخوته (مين) وقام الثلاثة بصيد الخنازير البرية في البلقان ، وعاد الى بريطانيا ليعلم رغبته في دخول الكنيسة ، رغم انه كان يسخر من البعثات التبشيرية في سيلان ، ويبدو أنه كان يمر بمرحلة انبهار نفسي .

مع المهرجا في البلقان

حينما هبط من اسكتلندا الى لندن عام ١٨٥٨ ، لم تكن في ذهنه خطة معينة يتبعها ، واذا به يتحرك فجأة في نهاية نوفمبر من ذلك العام ، في رحلة الى شرق أوروبا دون أن يودع بناته ، ولعل هذا يرجع الى أن صديقه المهرجا الهندي دوليب سنج ، والذي كان يصغره بنحو سبعة عشر عاما سيقوم بهذه الرحلة ، وأحس في سام صديقا وراعيا كبيرا له ، وكان الغرض من الرحلة هو صيد الخنازير البرية الضخمة في الصرب والدببة من جبال ترانسلفانيا ، وبعدها يتجهان الى آسيا الصغرى ، ويرجعان الى روما حيث يأمل المهرجا أن يقابل الامير برتي ولي عهد انجلترا الذي يقضي الشتاء هناك في تعلم اللغة اللاتينية .

ثروة كبيرة ، من مزارع السكر التي كان يملكها في جايبكا ، ولسم يشق الاب البرجوازي في تعليم المدارس ، فاعتمد على المدرسين المحصوليين في تعليم أبنائه ، هكذا تعلم بيكر ما يريد ، وخاصة اللغات ، ونظرا لغرابه اطواره منذ القدم ، فلم يلتحق بعمل ما أو جامعة معينة ، بل تزوج وهو مقبل على العشرينيات من عمره .

قلقا ، مغامرا ، طموحا ، عقلا وجسدا ، يبحث عن الشهرة ، لذلك غادر انجلترا هو وزوجته وبناته الى سيلان حيث أنشأ مزرعة ، ولكن المرض أجبره على العودة الى انجلترا مرة أخرى عام ١٨٥٥ حيث توفيت زوجته بعد ذلك بمدة قصيرة .

عاد اليه القلق الذي يلازمه ، وأحس ان الزمان ينتكر له ، حينما رفض دكتور لفنجستون ان يضمه الى تلك البعثة المعانة من الحكومة البريطانية لكشف اقليم الزمبيزي ، رغم ما رفعه من وساطة لدى وزير الخارجية ، وبلغ من حرصه على المغامرة ان اقترح القيام ببعثة أخرى في جنوب افريقية تأخذ طريقا آخر كمساعد للفنجستون ، على أن يصرف ألف جنيه من جيبه الخاص ، ولكن رفض طلبه ، وزاد من ظلام الدنيا في وجهه أنه علم أن أحد الضباط الانجليز الذين تعرف عليهم في الشرق ، يقود بعثة استكشافية في افريقية بحثا عن منابع النيل ، وكان هذا الامر مثيرا للجغرافيين بعامه في تلك الفترة ، ولم يكن هذا الضابط سوى سيبك ومساعدته برتون اللذين ذاعت شهرتهما فيما بعد ، ويرتبط اسم صمويل بيكر بهما حين يأتي ذكر الكشوف الجغرافية .

من الفتاة ؟

انشغل بيكر بفتاته عن صديقه الذي فضل الرجوع الى بريطانيا ، ولكن من هي فلورنس ، عن سام بيكر أنه قال : ان المفاتيح الاولى لقصتها تبدأ عندما كانت طفلة ، تذكر الطلقات النارية والسيوف والجثث والنيران ، ذهبت كل عائلتها خلال ثورة عام ١٨٤٨ ، ونجت فلورنس لأنها استطاعت الاختفاء ، وكان اسمها فلورنس بريارا ماريا كاثوليكية ، تعرف تاريخ ميلادها في أغسطس ١٨٤٦ ، ولما كان اسم العائلة هو فيتان ، فمن المرجح انها حينها هربت احيتمت في ظل عائلة أرمنية في المجر .

مشكلات في حياته الجديدة

يبدو أن سام بيكر قد اكتشف حياة جديدة ، فرغم أن زواجه الاول قد استمر ثلاثة عشر عاما أنجب خلالها ستة أولاد ، توفي منها اثنان ، وعاشت أربع بنات فانه يبدو أن حياته الزوجية الأولى كانت رتيبة ، ولكن في حياته الجديدة واجهته عدة مشكلات منها فجوة السن بينها وقد بلغت عشرين عاما ، ومنها عدم قدرتها على التحدث سوى بالالمانية التي تركها سام منذ كان عمره عشرين عاما ، ولكن المشكلة الاكبر هي كيف سيرجع بها الى بريطانيا ؟ كيف سيقدمها الى أهله وبناته ؟ كما انها لا تتكلم الانجليزية ، ولا تعتبر مناسبة كزوجة بمقياس مواطنيه ، فهل يطلق لها حريتها الى مستقبل غير مضمون ؟

وصلا فيينا بالقطار ، وقاما بالصيد ، ثم تحركا الى بلدة بست حيث نزلا في فندق يطل على بلدة بودا على الجانب الآخر من الدانوب ، واستمتعا بوقتها ، لأن المدينة كانت في ذلك الحين مليئة بالمسارح ودور الاوبرا ، والفرق الغجرية .

فتاة للبيع في سوق الرقيق

انتقلا الى بلدة ودين Widdin ، وكانت تمثل حصنا تركيا ، يعيش فيها الجنود الالبان الذين استخدمهم الاتراك لاختضاع البلغار ، وكانت المركز الاداري مما يعرف ببلغاريا في الوقت الحاضر ، وكان فيها سوق للرقيق ، وذهب بيكر وصاحبه بصرفان بعض الوقت في جولة في سوق الرقيق . وفي تلك الجولة ، بينا كانا ينتقلان من مزاد الى مزاد ، اذا به يقف مشدوها ، وثبتا عينيه على احدى الجوارى ، وهي التي أصبحت رفيقته في مغامراته في افريقية وارتبط اسمه باسمها حين تذكر اكتشافات صمويل بيكر .

ما الذي حركه في الفتاة ؟ هل هي الشفقة أم الرغبة ؟ ربما أنه صدم قبل كل شيء عندما شاهد تلك الفتاة الشقراء ، مهبطه الجناح ، في عمر بناته ، وقعت في هذه الصيدية الرهيبة ، على بعد خطوة من شتاء قارس لا مفر منه .

ما رد فعل الفتاة حيال منقذها ؟ جاء على لسان فلورنس (كما ساهيا بيكر) « اني ادين لسام بكل شيء » .

في سبيلها لم يعد الى وطنه

وجد أنه لا يستطيع التخلي عنها ، وفي سبيل الهروب من مشكلة مواجهة عائلته ، التحق بعمل في خط حديدي تقوم على تنفيذه شركة بريطانية في البلقان ، ومركزها كونستانترا ، وكان أول ذكر لفلورنس في بريطانيا بواسطة هنري بركلي أحد أشقاء أربعة كانوا يعملون في نفس الشركة ، وكانوا يخشون تحدي سام بيكر لهم ، وفي نفس الوقت كانوا يشكون في أن تكون فلورنس زوجته ، كما كانت علاقتها موضع مراقبة من روبرت كولكهم فنصل بريطانيا في كونسترا ، والذي أصبح فيما بعد قنصلا لها في مصر ، ولم يكن كولكهم راضيا عن تلك العلاقة .

كانا سعيدين

وإذا كانت ظروف العصر الذي عاشا فيه لا تسمح بتوضيح العلاقة بينهما الا أن هناك ما يشير الى أنها كانا عاشقين فقد كتب بيكر في تلك الفترة أربعة عشر مقالا بأسلوب كله حيوية ومرح ، يصف كل شيء حوله من الذئاب والخننازير البرية الى التناقضات بين المزارعين والملاك ، محالة بالرسومات ، فقد كان سام بيكر ماهرا في فن الرسم، وصرح سام بحبه لها حين قال بأن حبه لها يفوق بكثير حب الأزواج لزوجاتهم ، وفي نفس الوقت كانت فلورنس سعيدة بالعيش مع من خلصها من العبودية ، مستجيبة لرغبته في السرية ، فنظام الحريم كان من سمات العصر .

أخبار رحلة سبيك تشيره

وصلت الجرائد الانجليزية الى كونستانترا في منتصف عام ١٨٥٩ تحمل أخبار رحلة سبيك الذي رجع الى بريطانيا هو وزميله ريتشارد بوتون ، وأعلن سبيك بان البحر الداخلي (البحرية) الذي ذكره الكتاب البطالة موجود فعلا ، وأطلق عليه سبيك اسم ملكته فيكتوريا ، وأعلن أيضا انه منيع النيل ، واجتاحت بريطانيا حمى النيل والاثارة التي أحدثتها رحلة سبيك ، وبدأت الصحف البريطانية في أواخر عام ١٨٥٩ تدعو سبيك الى القيام برحلة أخرى ، الى منطقة البحيرات الافريقية ، ويتجه هذه المرة شمالا مع النيل الى مصبه في البحر المتوسط ، ودعت الجمعية الجغرافية البريطانية الشعب للاكتتاب الذي يضاف الى مبلغ الفين وخمسمائة جنيه تقدمها الخزنة البريطانية .

تساءل هذا المغامر سام بيكر ، لماذا لا يأخذ الطريق العكسي من النيل شمالا الى البحيرة جنوبا ويقابل سبيك ؟

الجمعية الجغرافية توجهه نحو اثيوپيا

استقال سام بيكر من شركة الخطوط الحديدية ، وراسل بوتون زميل سبيك في الرحلة الاولى (ولم يرافقه في الرحلة الثانية) من أجل ان يشاركه في رحلته النبيلة ، وراسل سير رودريك مرتشيزون طالبا عدة خرائط وأجهزة عن طريق الاعارة من الجمعية الجغرافية ، وذلك لزيارة الخرطوم وبعض الاجزاء

هل يصحبها في اثيوبيا ؟

من أسوان بدأت القافلة تمر الصحراء تفاديا لجنادل النيل ، في درجة حرارة تزيد على ١١٠° ف ، وكانت القافلة تتألف من سام وفلورنس وخادمين وستة عشر جملا وقيمة كبيرة من الامتعة ، وبينما كان سام معتادا على الحرارة المرتفعة بسبب توطنه السابق في سيلان ، كانت هذه هي المرة الاولى التي تتعرض فيها فلورنس لمثل هذه الحرارة ، فشعرت بالارهاق والنصب ، ولكن لا بد من قطع الصحراء والا الهلاك ، وأخيرا بلغا النيل عند بربر ، واستراحا في خيمتهما تحت شجرة ، وقابل حاكم الاقليم ، وأطلعهم على خطاب التوصية من خديوي مصر ، ولما عرف منه القصد من رحلته ، حاول أن يثنى عن عزمه ، خاصة وأن معه سيدة رقيقة ، وكان يبكر في نفس الوقت قد ترك مؤقتا فكرة الاتجاه من الخرطوم جنوبا ، واستبدلها بالاتجاه من الخرطوم نحو الشرق ، لمسح الانهار التي تأتي من اثيوبيا ، كما اقترحت عليه الجمعية الجغرافية البريطانية ، وبعد ذلك يفكر في الذهاب جنوبا حيث « النافورات السحرية » عند خط الاستواء .

ولكن يا ترى هل يصطحب فلورنس أم يتركها لحين رجوعه الى بربرة أو الخرطوم ؟

ما العمل اذا حملت أثناء الطريق ، ومن المعروف ان د . ليفنجستون ترك زوجته في بريطانيا بعد أن صحبته في احدى رحلاته المبكرة وفقد طفلا لها . ولكن يبدو أن سام قد اقتنع بعدم قابليتها للحمل ، ربما تعرضت في فترة الاسترقاق لعملية معينة جعلتها عاقرا .

المجهولة من السودان ، ولكنه لم يلق ترحيبا من الجمعية الجغرافية ، واقترحت عليه خطأ آخر بعيدا عن سبيك حتى لا يسبب له مشاكل مع القبائل ، اقترحت عليه ان يتتبع الروافد الشرقية للنيل عبر حدود اثيوبيا ، ووافق سام على ذلك الاقتراح على الاقل لتلك الفترة ، لأنه علم أنها من أفضل مناطق صيد الفيلة .

أول مذكرات يكتبها في ١٥ ابريل عام ١٨٦١

بدأ يستعد لرحلة السودان بأرسال خطاب الى أخيه فالنتين يطلب منه مجموعة من البنادق والبارود وعددا من الكينين لمواجهة الملاريا في السودان ، وأرسل للبنك يحول له مبلغا من المال على الاسكندرية كما أرسل الى أهله يعلمهم بنيتهم بالتوجه نحو الخرطوم ، وبعدها جنوبا ليقابل سبيك ، أين ، ومتى ؟ الله أعلم .

أول مذكرات الرحلة كانت يوم ١٥ ابريل ١٨٦١ وفيها يذكر بأنه يترك القاهرة اليوم الساعة السادسة صباحا ، وكان التسميم عذرا .

تحركت الرحلة نحو الخرطوم بالنيل ، ولم تكن فلورنس مجرد تابع ، بل كانت تقوم بكثير من الوظائف التي تؤديها الزوجة كالطهي والحياكة ، كما مرّ بها على حمل بندقية صغيرة ، وبلغا أسوان بعد شهر من تركها القاهرة .

بحيث لا تكون هناك سوى فتحة للتبول ، وذلك لضمان العذرية ، تحدث عن الرقيق ، ووصف معسكر بيع الرقيق ، وأخذ بجبال الانبوبيات ، وصفهن بالفد المشوق والعيون الغزلانية ، وأنهن يتخلصن إخلاصا زائدا للذي يعطف عليهن ، فهم على حد تعبيره « فينوس الاقليم » ولاحظ ان كثيرا من الاوربيين في الخرطوم تزوجوا منهن ، وثمن الواحدة يتراوح بين ١٠ ، ٤٠ دولارا .

اتجه بعد ذلك من العطرية الى النيل الازرق متجها الى الخرطوم ، أملا في ان يقابل سبيك ويطلع على أخباره الخاصة بتناج النيل ، ولكنه حينما بلغها لم تكن هناك أخبار عن سبيك ذاته .

في الخرطوم على باب افريقية السودان

استقر سام بيكر في الخرطوم منذ أن وصلا في يونيه ١٨٦٢ ، في القنصلية البريطانية بموافقة باتريك القنصل البريطاني والذي كان هو وزوجته في رحلة على النيل الأبيض جنوب الخرطوم ، وحمد الله على عدم وجودها حتى لا يسألاه عن فلورنس .

قضى وقته بسجل ملاحظاته على الخرطوم ، سكانها الاصليين ، والاوربيين ، والحاكم ، والموظفين ، فامتدح القبائل العربية وكرمها ، وذكر بأن معظم الجنود في الخرطوم والذين كان يطلق عليهم الأتراك ، هم من الأيمن والشراكسة ، وان الموظفين ما كانوا ليزعجوا أنفسهم بالعمل ، أو محاربة تجار الرقيق ، فمعظمهم اتى الخرطوم من مصر مغضوبا عليه ، واما الحاكم الذي وصل من مصر في حراسة ١٨٠٠

اتخذوا طريقها مع نهر عطرية ، وقبل ان يغادروا ، بربر نحو الشرق كان قد بلغ الأربعين ، وكانت رحلتها هنا أقل مشقة من عبور الصحراء ، ولكن فلورنس سقطت صريعة الملاريا قبل وصولها الى كسلا ، وحينما وصلا الى بلدة سوفي ، كان الجو في طريقه الى التغير ، كانت بتناثره رياح رطبة من الجنوب ، كما بدأت الطيور تبني أعشاشها .

ممارسة الهوايات في معسكر سوفي

قرر سام أن يعسكر في سوفي لمدة خمسة أشهر حتى ينتهي المطر غاما ، وبنى أول بيت لها من الطين وأغصان الاشجار (نظير شلتنين) على نهر عطرية ، وبسط في ذلك الكوخ سريرين وطاوله ومرايا ، وعلقت بقبة الاغراض في سقف الكوخ ، وعملا طريقا مفروشا من الرمل الأبيض بين الكوخ والنهر ، شغل سام نفسه بهواياته ، ومنها الرسم ، وكان أول رسم له لفلورنس على ظهر الجمل واطعة يدا تحت ذقنها ، بينما هو يمتطي الجمل ويضع اصابعه خلف حزامه ، اصطاد أفراس النهر التي كان الاهالي يجرونها ويقتسمونها ، وتناولوا لحمها ، واصطاد الزراف التي كانت ترد النهر للشرب وغيرها ، كما كان يكتب مذكرات عن مشاهداته في الاقليم .. الناس والحيوان والطبيعة ، .. الخ وعرف كيف يتعامل العرب مع المرض ، وكيف يتداوون بالاعشاب ، وأعجب بهم من هذه الناحية ، حتى لقد أطلق عليهم بأنهم أطباء كبار ، وعلم منهم أيضا طريقته في الختان ، وقطعهم للشفرات الخارجية للفرج بالكامل ، ثم حياكتها

وصيته لفلورنس ، تاركا لها مالا ، فإذا حدث له مكروه يكتفي الرجوع للخرطوم ، ولا تواجه متاعب كثيرة ، وكان يوم الرحيل هو الثامن عشر من ديسمبر عام ١٨٦٢ .

في بحر الجبل نحو أرض النوير والدنكا

عندما أبحرت القافلة سرح خياله بعيدا ، تخيل أنه سيكون المنقذ لسيك من براتسن القبائل الافريقية ، ولن يصدق سيك عينيه حين يراه ، ولكن نظرة التشاؤم كانت تسيطر عليه أحيانا ، فقد يصل متأخرا بعد أن تكون افريقية قد ابتلعت ، وبماذا عن باتريك القنصل البريطاني الذي انقطعت اخباره هو وزوجته ، فقد وصلت بعض الشائعات قبل قيامه من الخرطوم ، بأن القبائل قضت عليه في اقليم المستنقعات .

وفي تلك الفترة كان كل من بيكر وفلورنس قد تعلموا بعض الالفاظ العربية ، وكان لفلورنس عين ساهرة على كل من في السفينة ، تثلت في الولد سات الذي التحق بالحملة وعمره اثنا عشر عاما .

كانت الملايا عذوها الاول ، تهاجها بين الحين والحين ، وتختلف في حديثها وقوتها ، لدرجة أنه كان يجشى على فلورنس ، كما كانت تهد قواه ، ومن أجل تفادي المستنقعات وبموضها ، أمر بأن تثبت المراكب ليلا في عرض النهر ، ولم تكن الرحلة جذابة ، كل ما حول النهر سهول مستوية ، والنباتات المائية تكاد تسد المجرى ، وسكون شديد لا يقطعه سوى نباح الكلاب في القرى البعيدة ، أو أنفاس أفراس النهر ،

جندي ، وكان من أصل شركسي ، فكان يبحث عن المال بأي طريقة ، يبعث رسله لجباة الضرائب ، ويقيم مزادا لبيع حمار الحكومة .

أما الاوربيون فكلهم من المذكور ما عدا القنصل العام وزوجته ، ولكنهم على الطريقة التركية كانوا يحتفظون ببنات افريقيات للتسري ، وصادف اثناء بقائه في الخرطوم لقاءه بالرحالة الفرنسي ليجيان الذي حصل على تفويض من نابليون الثالث لعمل تقرير عن اعالي النيل ، وعلم منه أن الملاحة في النيل ممكنة حتى عند كرو ، وبعدها تظهر المندفعات ، ومن ثم فهي نهاية رحلة تجار الرقيق الذين يقيمون المعسكرات هناك ، كما انهم يقومون برحلتهم في الشتاء حينما تهب الرياح الشمالية لتساعدهم على صعود النيل ضد التيار .

وأعجبه موقع الخرطوم ، عند التقاء النهرين ، وقدر محمد علي باشا خير تقدير ، فهي تصلح مركزا للادارة والتجارة في آن واحد .

بعد الضجيج حول القنصلية كان الرحيل

في ديسمبر ١٨٦٢ بدأ الضجيج يعلو في القنصلية البريطانية بالخرطوم ، وكان هذا نتيجة الاستعدادات التي يقوم بها بيكر لرحلة نحو الجنوب ، فهناك ٤ جمال ، ٢١ حمارا ، ٤ خيول ، ١٠ أطناس من الحبوب ، وأكوام من الامتعة ، فضلا عن خمسة وأربعين رجلا ، اخذ يعلمهم النظام ويديهم على اطلاق النار ، واستأجر بيكر قارباً وباخرتين ، وكتب

فضلا عن عدم مهارة الملاحين الذين كانوا يجنحون بالسفن نحو السدود النباتية .

بلغت البعثة أرض النوير ، وزاره احد زعمائهم ومعه زوجته طالين الهدايا ، وسجل بيكر فقر قبائل الدنكا ، وسجل عاداتهم في طريقة الشكر وهي البصق على يد المشكور ، وسجل رؤيته لاحدى بنات الدنكا عارية تماما ، بينما تغطي بعضهن الأرداف بأدوات زينة تصلصل بالجرس حين يسرن .

الوصول الى غندكرو

بعد شهر من الرحيل من الخرطوم كانت الرحلة قد قطعت ثلاثة أرباع الرحلة الى غندكرو ، وبلغت المكان الذي ترك فيه باتريك القنصل البريطاني سفينته واتجه نحو الشرق ، وقبل أمبال عديدة من غندكرو تغيرت المظاهر الجغرافية ، ظهرت التلال المنحدرة ، اختفت المستنقعات وبلغا غندكرو في الثاني من فبراير عام ١٨٦٣ ، ولكنها لم يعبرا على سبيك أو حتى على اخبار ضئيلة عنه ، وكان هذا مزعجا لأن المفروض أن يصل الآن ، وبدأ التجار يستعدون للابحار شمالا وسبكون المكان مهجورا بعد ذلك .

وصف بيكر غندكرو بأنها ليست بلدة بمعنى الكلمة ، وإنما سلاسل من معسكرات الرقيق والعاج على طول النهر ، ينتظرون فيها السفن لتحميلهم شمالا ، لم تكن هناك حامية ، ولا مراجعة لأي جريمة ترتكب ، ترحم الثران في المعسكرات ، وتتبع منها

الروائح الكريهة ، ويقضي الرجال وقتهم في المشاحنات والشراب ، وتنطلق الرصاصات من حين الى آخر دون معرفة السبب .

بدأت الاخبار المتضاربة عن سبيك وزميله جيمس جرانت ، منها أنها أسيران لدى أحد الملوك وأنها مريضان ، وربما يكون احدهما قد مات ، أما عن باتريك الذي ترك سفينته لاستقبال سبيك في غندكرو منذ عام ، فلم يظهر في غندكرو حتى ذلك الحين . وبدأ شعوره نحو باتريك يصبح خليطا من الرضا وعدمه ، يته كان من المفروض ان يكون في استقبال سبيك ومساعدته .

جاء البشير يعلن عن سبيك وجرانت

ماذا لو تحرك جنوب غندكرو وسبق باتريك في الوصول الى سبيك وجرانت وانقاذها ، وبينما كانت الفكرة تغدو وتروح في ذهنه ، اذا بصوت طلقات نارية من الجنوب تعلن قدوم سبيك وجرانت مع أحد البعثات التي تجمع عاج الفيل .

وتصافح وتعانق الرحالة مع سام بيكر وكانت لحظة تاريخية حقا ، ورجعا الى السفينة ، وسط الصباح وطلقات البنادق . كان سبيك وزميله قد اكتشفا بحيرة فكتوريا ، حيث يخرج نيل فيكتوريا ، وتركوا طريق النهر ، واتجهوا نحو الشمال ، الى أن وصلا الى غندكرو ، ودهش سبيك وزميله حين سالا عن القنصل البريطاني ولم يجده ، كما اندهشا حين قدم لهما فلورنس ، وجلسا ساعات يقصان تفاصيل رحلتها في بلاد الموتييسا ملك بوجندا . ووصفا ملكة

وبما زاد في الأمر سوءا ان جنس موري الطبيب الاسكتلندي المرافق لباتريك أفضى بما حدث انشاء حملة باتريك كاستيلاء الحملة على ماشية الاهالي بالقوة ، واستيلاء بعض أتباعه على النساء الافريقيات ، وكانت نالة الأنافي هو طلب باتريك من جيمس موري غلي لثلاثة رؤوس افريقية بعد استخراج مخفها ، لترسل الجاجم الى كلبه الجراحين الملكية بلندن .

من ثم رفض سيبك وجرائت معوته ، وانتهر سام الفرصة وقدم لهم سفينة الرجوع وكذلك المون اللازمة للعودة ، ووعدا بعدم ذكر اي شيء خاص بفلورنس بعد رجوعها الى بريطانيا ، كما أن سام سيتزوجها في الاسكندرية بعد رجوعها من رحلتها .

نحو بحيرة الجراد الميته

غادر سيبك وجرائت غندكرو الى الخرطوم بعد راحة عشرة أيام ، واقترح باتريك على سام أن يوحدا جهودها لكشف بحيرة لوتزيسجا ، ولكن حدث تمرد بين أفراد حملته فافترح باتريك ان يعودا معا الى الخرطوم ، ولكن الفرصة اصبحت سائحة الآن لسام أن يكتشف بحيرة لوتزيسجا رده ، وفعلا فافترح سام قائد مجموعة سيبك وجرائت ليعود هو ورجاله معه ، ولكن ظهر ان هناك مؤامرة بين رجاله للتخلص منه ، فتوقف حتى خرجت قافلة لاحد التجار الشراكسة وهو خورنيد آغا فقام معها في السادس والعشرين من مارس لكشف البحيرة .

يوجدنا بأن فيها نظام سياسي وإداري لم يكن متوقفا في وسط افريقية، ولكنها أخذت عليه بعض الاعمال البربرية كشقن احدى زوجاته اذا ما ارتكب خطأ صغيرا ، واعجابه ببنادقهم ، فكان يأتي بمرة كل صباح ويطلب من سيبك اطلاق النار عليها ، وعلى عكس ما حدث في مملكة يوجندا ، لم يسمح لها كامارامي ملك البانيورو بالتحرك سهلا ، الا بعد أن سلبها كل ما معها .

هل يعود سام من حيث أتى ؟

كان سام سمع باهتمام قصصها ، ولكنه شعر بأنها اكتشفا منابع النيل ، ولا فائدة من مواصلة مسيرته جنوبا ، ولكن سيبك أسار الى أن هناك بحيرة يطلق عليها الاهالي لوتاتريجا (الجراد الميته) ويقال انها غرب بحيرة فكوريا ، ويعتقد سيبك أن النيل يتدفق اليها ويخرج منها مرة أخرى ، وكان هذا تخميناً من سيبك ، وكاد قلب سيبك ينفجر فرحا ، وأعطاه كراسة مذكراته ليكتب له ثلاث صفحات عن تصوره ، ويرسم له رسما تخطيطيا لما يتخيله من روايات الافريقيين .

ظهور القنصل البريطاني ومقابلته بفنور

ازدادت روابط الصداقة بين الثلاثة ، واخذها سام في رحلات قصيرة للصيد ، ومن خمسة أيام من وصولها ظهر باتريك القنصل البريطاني ، ولم يستقبل بنفس الحجاب ، بل كان عليه أن يفسر لماذا فضل مصالحه الخاصة على الواجب ؟

فلورنس على الطريق

وظلا هكذا في حالة نفسية سيئة نتيجة للمرض حتى نهاية عام ١٨٦٣ ، ولكن مع بداية عام ١٨٦٤ شعرا ببعض التحسن نتيجة لانحساس المطر ، وأبتلع سام كمية من الكينين ليستطيع مواصلة السير وراكبا احد الثورين اللذين اشتراهما ، وبلغا نهر سومرست (نيل فكتوريا) في ٢٢ يناير ، وعلى الضفة الاخرى تظهر مملكة الزعيم كاراسي - وسط الضباب - الذي يجب ان يتلقى الهدايا ليسهل لها رحلتها الى الجنوب الغربي الى بحيرة لوتزنجا .

هل يمكن مقايضة فلورنس بعدد من زوجات
كاراسي ؟

وأخيرا وصلا مملكة البانيورو ، وقدمنا لملكهم كاراسي العديد من الهدايا مثل قطعة من السجاد الفارسي ، وبندقية ، وأحذية وشال ، وغير ذلك ولكنه رغب هذه المرأة البيضاء المصاحبة لسام ، وأبدى استعدادا لمقايضتها بأي عدد من زوجاته ، ولم يسحب كاراسي طلبه الا بعد تهديد سام له ، والواقع كان طلب كاراسي كرد فعل لأول امرأة بيضاء تصل وسط افريقية ، وأنتشر نبأ وجودها ، حتى ان ملك بوجندا حينئذ ارسل بعثة الى زنجبار ، طلب عدة أشياء من بينها بنادق ، وطباخ هندي ، وامرأة بيضاء !! . ورغم برود العلاقة بين كاراسي و سام ، فقد سجل سام لشعب البانيورو أنه أكثر تقدما من القبائل التي مر بها ، فالتساء والرجال يغطون نصفهم الأسفل .

كان كاراسي يعرف الصعوبات التي تواجه سام

سارت القافلة محملة بالخمرز والنسيج الملون كهديا للحكام ، ونفتت الابل ، واضطر أن يتقاضى عن تصرفات افراد القافلة في الاستيلاء على الماشية ، وعلم أثناء استراحته في الطريق أنه ما زال أمامه مائتا ميل الى الجنوب حتى يصل الى مملكة كاراسي حاكم البانيورو الذي أساء معاملة سيبك ، وكان سام يحسب أنه سيجري من نفس الطريق ، فكان حين يقابل رؤساء القبائل يلبس جاكبته الحريري والقبعة ، وترتدي فلورنس الفستان ، ويفرشان قطعة من السجاد أمام الحيمة ، فكان رئيس القبيلة العاري تماما يعجب اعجابا شديدا بما يراه ويتلقى الهدايا ، وبلغ اراضي قبيلة الأوبو ، وكان ملكها كاتشيبا لطيفا بهوى الموسيقى ، واطمان اليه بيكر ، لدرجة انه ترك فلورنس في رعايته ليستطلع الأرض والمناسيب ، ووجد أن مناسيب المياه مرتفعة في الانهار بحيث لا يمكن عبورها ، فصرف الوقت في تخمير بعض النار المحلية كالبطاطا ، وصيد الفيلة التي كان الاهالي يفرحون بها وسقط صريع الحمى وهو عند كاتشيبا ، وكتب في مذكراته عن تلك الفترة انه كان يعاني من الحمى ومن الفتران الضخمة التي يطارد بعضها بعضا ، وكذلك التمس الابقص ، وبسقوط الامطار بدأت الخيل في الموت بسبب انتشار ذبابة التسي تسي ، وانخفض عدد افراد القافلة ، والذي كان يزيد على أربعين شخصا الى اثني عشر شخصا ، منهم من مات ، ومنهم من هرب الى قافلة تجارية أخرى .

وسارت الرحلة وفلورنس لا تنطق ، وكلما أتى الليل يجلس بجوارها ينقط لها الماء ، وتفتيق قليلا ثم تعود الى غبوبيتها حتى يثس سام وانهار وأمر بالبحث عن مكان يصلح لها لحدا ، وسقط مرهقا يغط في النوم .

عودة الوعي

تتذكر فلورنس فيما بعد كيف أنها رجعت الى وعيها على صوت الرجال يحفرون قبرها بالفؤوس ، وحينما استيقظ سام من سباته ودخل عليها الكوخ ، ليلفي عليها نظرة أخيرة ، ذهل حين وجد صدرها يعلو ويهبط سهيفا وزفيرا ، وإن كانت تعاني ضعفا عاما ، وحينما عادت الى الوعي ، لم تكن تعرف شيئا عن الفترة التي قضتها في الغمأة طويلة ، ومع ذلك لم تبد رغبة في العودة ، بل الاستمرار نحو الهدف .

الوصول الى بحيرة الجراددة الميتة (بحيرة البرت)

استمرت الرحلة في مسيرتها ، وأخبرهم الاهالي يوما ان البحيرة قريبة ، ولم يصدق سام ، وأفهمهم المرشد أنهم اذا قاموا مبكرين في اليوم التالي فيمكنهم الاستحمام في البحيرة ، فوعده بحفنتين من الخرز اذا تحقق الغول ، ولم يبن طوال الليل ، قام سام بانفاظ الرحلة قبل الفجر ، وما زالت فلورنس محمولة على المحفة ، وبعد طلوع الشمس ، صعدت الحملة على تل ، وعلى بعد ربع ميل كانت البحيرة !!!!! لم تكن بحيرة وانما بحرا من القضة وكأنه ممتد الى اللانهائي

اذا ما استمر في السير جنوبا ، ولكن الانسحاب بعد أن أوصلك على الوصول بعد أمرا صعبا ، في نفس الوقت الذي كان يخاف فيه على فلورنس خاصة وأن الملاريا - عادت تهاجمها ، وكانت تنفل مستلغية على عنجريب (سرير من ليف الشجر) ، ولكنها بدورها كانت مصرة على مواصلة المسيرة ، وكان كل أسل سام ان يرى مخرج النبل من البحيرة ويعود فوراً الى غندكرو .

وخرجت الغافلة ومعها نحو ثلاثمائة رجل من مملكة كياراسي في أمان ، ولكن المشكلة أن رجال الحملة كانوا يفضون الليل في الرقص والغناء ، فلا يفهمون من النوم مبكرا ، وتضطر الحملة للمسير في حر النهار . واخيرا سارت الحملة حتى وصلت الى اراض مرتفعة ، واكتشف ان الاهالي يمشون حبوب البن كمستط ، فكان اول فنجان من القهوة يرتشفانه منذ عدة شهور .

متاعب الرحلة

كانوا يعبرون المستنقعات المتفاوتة في عمقها ، وكان الهالون يحملون سام وفلورنس أحيانا على محفة لعبور هذه المستنقعات ، وفي احداها غارت ساقا فلورنس وانزعوها بصعوبة وأخرجت من المستنقع وهي بين الحياة والموت ، وفتح سام فمها ووضع بين فكبيها قطعة من الخشب واخذ يدلك ساقها ، ولكنها لم تتحرك طوال الليل بينما كانت قافلة الحراسة تنفي وترقص طوال الليل ، مما اثار اعصاب سام ، فاضطر هذا الى طلب رئيس الفريق وطلب منه تسريح الفريق ، وأنه ليس في حاجة الا للمرشدين فقط .

نحو الجنوب الغربي ، ويزيد اتساعها في تغدبره على الخمسين ميلا ، ومن خلال المنظار المكبر أمكنه أن يرى الماء بنحدر على هيئة سلالات على السفوح .

وقف سام وفلورنس أمام البحيرة واجتمعت الغافلة حولها ننظر وتخرج منها التعلقات . وكان الطريق الى البحيرة منحدرًا بتسدة ، ولا يمكن الوصول اليه الا على الاقدام ، لذلك توكلت فلورنس على عصا ووضعت اليد الأخرى على كتف سام ، وكانت تغف وتستريح كل عشرين خطوة . وما أن وصلا الى البحيرة حتى اندفع سام الى البحيرة بغسل الحرارة والتعب ، ويشرب من منابع النيل ، وادركه - وعمره اثنان وأربعون عاما ، وبعدما بلغ البحيرة في مارس ١٨٤٦ - أن اسمه سيكتب في سجل المستكشفين الجغرافيين الى جانب ليفنجستون وسبيك وجرانت وبرتون .

عودة الابطال وانقلاب المد على سبيك

في الوقت الذي كان سام وفلورنس يفغان امام البحيرة ، كانت الجمعية الجغرافية البريطانية ترجح وفاة سام أو فقدانه ، في نفس الوقت الذي كان هو فيه يتخيل ما سيحدث في بريطانيا حينما تصل انباء اكتشافاته ، كذلك وصلت بريطانيا انباء فشل بعثة ليفنجستون ، وخيبة أمل الحكومة البريطانية التي دعمت الرحلة بما يزيد على خمسين ألف جنيه . هذا بينما استقبل سبيك وجرانت في سوتهمتين استقبال اللطائفين .

كانت أول علامة مريرة بالنسبة لرحلة سبيك هي

هجومه على باتريك نظرا لقيامه بأعمال غير نظيفة في السودان ، وصدر قرار الخارجية البريطانية بغلق الفصيلة البريطانية في الخرطوم . وظهر حفد بارتون على سبيك حين أرسل وهو قنصل لبريطانيا في فرناندو بشكك في اكتشافات سبيك ، وظهر عداة بين مرتشيزون وسبيك بسبب إهمال سبيك للجمعية الجغرافية البريطانية وعدم اعطائها مذكراته ، فند سلمها لدار نشر ، رغم دعم الجمعية له ، ومنحه الميدالية الذهبية ، وواجه سبيك عداة آخر من أعوان باتريك قنصل الخرطوم ، وهكذا ما أن هل الربيع حتى انقلب المد على سبيك ، ونظم مرتشيزون لسبيك وبرتون مناظرة حول كشف منابع النيل ، ولكن مات فجأة قبل المناظرة ، ولم يتسع جنازه سوى ثلاثة من خارج أسرته هم مرتشيزون ، وزمبله جرانت ، وليفنجستون الذي رجع فاشلا من رحلة الزمبزي . من بقي اذن ليضع اسم بريطانيا في قائمة الاكتشاف الجغرافية الافريقية ؟

لم يكن برتون على أبة حال ، ولم يكن جرانت مما يجذب الجمعية الجغرافية ، بينما استقبلت الخارجية البريطانية ليفنجستون ببرود شديد . لم يعد هناك سوى رجل واحد في نظر مرتشيزون وهو سام بيكر ، ذلك الرحالة الرياضي ، مؤلف كتابين ناجحين عن سيلان ، له أنح يعمل في سلاح الفرسان ، وصديق لأمبر ويلز ، كما ان المادة العلمية التي ارسلها عن رحلاته لروافد النيل الحبشية اتبنت انه رحالة ، ولم يكن هناك سوى نقطة ضعف واحدة وهي رفيفته ، ولكن رجلا في خبرة سام يعرف كيف التصرف في موضوع امرأة اختارها لتسلته في رحلته .

الابحار في البرت

نحو شلالات مرتشيزون

بعد ثلاثة عشر يوما من الابحار في البحيرة تغيرت المعالم واقتربوا من الساحل الغربي وظهر ورد النيل (نوع من الحسائس) لمسافة تعترب من نصف ميل ، ويبدو أنهم وصلوا الى مصب نيل فكتوريا في البحيرة ، واذا كان تغدير سبيلك لمنسوب بحيرة فكتوريا هو ٣٧٠٠ قدما ، فان تقرير بيكر لمنسوب بحيرة لوتازينجا (البرت) هو ٢٣٨٨ قدما ، اذن لابد وأن يكون هناك مسقط مائي .

معاناة بيكر وفلورنس من ملك البانيورو

وقامت الرحلة بقارب في النهر الذي يصب في بحيرة لوتازينجا ، وبدأ يضيق في اتساعه مما يزيد على ربع ميل الى نصف هذا الاتساع ، وظهرت الجروف الصخرية ، وفي الفجر سمع الرحالة صوت هدير الشلالات وكأنها الرعد ، وعلى جانب النهر قرية صيد صغيرة وشاطئ مليء بالتاسيح الضخمة ، واستمر في السير حتى صار النهر بين جرفين صخريين ، وظهر نحو الشرق أكبر مسقط مائي على أطول نهر في افريقية ، وكان المنظر رائعا ، حيث يعلو الزبد الماء ، بينما تغطي الاشجار الجروف الصخرية ، وكانت رؤية الشلال هي نهاية اكتشافات سام بيكر وفلورنس ، ولابد من الرجوع بأقصر الطرق ، بالطريق البري الذي أتوا منه ، ولكن الحمى عاودته لمدة أربعة شهور ، وكان لابد من نجدة من كياسامي ، ولكنه طلب بدوره رجاله وبنادفهم لمحاربة عدوه ، فرد بيكر طلبه ، وبلغ به اليأس ان تمتى بيكر الموت حتى

كان بيكر على بعد ١٥ كيلومترا من جبال رونزوري التي بطل على البحيرة ، ولكنه لم يرها بسبب الضباب ، وظل هذا الامر غير معروف لمدة ربع قرن آخر قبل أن يقوم رحالة اوروبي آخر باكتشافه ، ولو عرف سام وفلورنس هذا الأمر ، لكان هذا الاكتشاف الثاني ، ولم يكن في الامكان الاستمرار في السير ، فالغافلة او البعثة كانت منهكة ، كل ما فعله سام هو ساعه لأقوال الصيادين عن الفيئات في التواطىء المجاورة ، وكان هدفه هو ركوب البحيرة الى حيب بنتهي نل فيكتوريا في البحيرة ، ومنها يأخذ أقصر الطرق الى غندكرو ، بينما السير على شاطئ البحيرة تكنته خطورة كبريه لكثرة التاسيح الجائعة ، والطفس الحار المنبع ببخار الماء .

ذبح نورا كبيرا ابتهاجا بنجاح الرحلة ، وارتفعت الروح المعنوية وان كانت الاجساد منهكة . وقام رفاق الرحلة بحفر جذعين من التسيخ وغفل تانية مجاديف ، وقام زعيم القرية بتلاوة بعض التعاويذ ونس بعض الحرز لبعي القوارب شر أفراس النهر ، وأبحرا في الفارين في البحيرة المائدة ، بحواطها الجرانيتية العالية ، وأحيانا كانت الحواط تباعد وتسمح بشاطئيه رتلي أبيض ، وكانت البحيرة مليئة بأفراس النهر والقلبة والتاسيح وتوقفوا على أحد الشواطىء ليلا ، ولكنها لم تكن ليلة سعيدة ، ظلوا يحاربون أسراب البومض طوال الليل ، وهرب رجاله الذين يجدفون لانهم لا يريدون التوغل في البحيرة ، واضطر هو والباقي الى التجهيف .

المخاطر الطبيعية والبشرية ، ولم تطلب الرجوع ابدا ، مع ذلك فهي ليست زوجته في عرف الفانسون والكنيسة ، هل سيصطحبها معه الى انجلترا ؟ ولكن كيف سيقابل الذين يحتفلون بنصره ، وسيقضي الصيف القادم مع أسرته . هل ستركها في مصر أو جنوب أوروبا ؟ من الجائز أن توفق في زوج مناسب في عمر أبيها ، وهي على قدر من الجاهل وقوة الإرادة ، فضلا عن أنها لم تنجب ، ومع ذلك ففي عودتها من غندكرو ، اشتركا في حياة عائلة فعلا ، فقد كان معها خمسة أطفال صغار ، كانت تعتني بهم ، وكان سام يضع لهم السهام والأقواس .

الطاعون في الخرطوم والخوف على فلورنس

حيث بلغا غندكرو ، لم تكن هناك أخبار ما من التنبال ، وكان الطاعون يجتاح الخرطوم ، حتى قضى على نصف سكانها ، ومع ذلك لابد من العودة ، وقد توفي معهم في المركب خادمهم الأمين سات الذي ظل عينهم الساهرة على الغافلة طوال الرحلة ، ولأول مرة يذكر سام اسم فلورنس صراحة ، فقد كان قبل ذلك حرف F ولكنه هذه المرة يكتب في مذكراته بأنه ينسعر بحمى شديدة ، وأنه سلم فلورنس ف . فينيان شيكين ببلغين قدرهما ٣٠٠ ، ٢٠٠ جنيه استرليني على فرع البنك الاهلي في القاهرة ، هذا بالإضافة الى ما كتبه في وصيته لها .

وكانا كلما اقتريا من الخرطوم ازداد احساسهما بالمستقبل ، وبدأ يعد مسودة الكتاب الذي سوف ينشره عن الرحلة ، كذلك كان عليه أن يكتب رسائل

يتخلص من مشقة الرحلة والمرض ، وأوصى قائد المجموعة أن يعمل كل ما في وسعه لايصال اوراقه وخرائطه الى الخرطوم ، وعزمت فلورنس على قمل نفسها بالرصاص اذا ما توفي بيكر حتى لا تقع في يد كباراسي .

وبعد شهرين من هذه الحالة السيئة أرسل الى كباراسي ، بأنه اذا أراد مناقشة الموضوع ، فعليه ان يرسل خمسين من رجاله ومؤونة غذائية ، وبعدها يأتيون لمناقشته في بلاطه . وقطعت فلورنس بعض صور موديلات الازياء للعام السابق ، وأهدتها للملك كباراسي كنوع من الترضية له ، وكانت قد وصلت ضمن طرد يضم بعض أعداد من مجلة لندون المصورة .

أحس سام بأنه أن الأوان للرحيل في نهاية عام ١٨٦٤ ، فهذا مبعاد وصول السفن الآتية من الخرطوم الى غندكرو ، كما ان الملك لبس في حاجة اليهم بعد أن قام سام بتهديد عدوه ورحيله ، كما ان الملك قد أخذ كل شيء تقريبا من ضيوفه ، والتجار الآن في طريقهم الى العودة ومعهم الرقيق الذي اشتروه من كباراسي .

ما المستقبل الذي ينتظر فلورنس ؟

بدأ التفكير في مستقبل فلورنس مع بداية الرحلة الى غندكرو ، لقد لازمتها حتى الآن نحو سنوات ست ، تحملت فيها مخاطر هائلة ، كادت تودي بحياتها في العديد من المرات ، أكلا معا ، ناما معا ، قتلا القتران معا ، وفقت بجانبه صامدة أمام كل

استقبال الفاتحين

أعلنت الصحف عن محاضرة سام بيكر في الجمعية الجغرافية ، وعن عرض للرسومات التي قام بها ، ودعا مرتشيزون كبار الغوم من الوزراء وأعضاء البرلمان والأمرء ، كانت أمسية ناجحة ، امتدح فيها مرتشيزون - في تقديمه للمحاضر - فلورنس ، وحياتها الجمهور عدة مرات ، وأعد كتابه عن الرحلة للشهر بعنوان « البرت - نابثرا ، حوض النيل العظيم » وأخرجت المطبعة كتابه هذا في جزأين في أواخر مايو من ذلك العام ، وتصدرت صورة فلورنس الصفحة الأولى من الجزء الأول .

الانعام عليه بلقب فارس .

كان هناك اعتقاد متزايد بأن بيكر يستحق مزيداً من عرفان الجميل ، فكتب جلادستون الى مرتشيزون قائلاً بأن هذا المكتشف فعل الكبير لشرف الأمة البريطانية في ذيل الركن البربري من العالم دون أن يكلف الحكومة بنساً واحداً .

وكتب لورد ستانلي وزير الخارجية الى رئيس الوزراء طالباً الانعام عليه بلقب فارس ، وفعلاً أنعمت عليه الملكة بهذا اللقب ، وكان هذا شرفاً ما بعده شرف ، وأصبحت فلورنس ليدي بيكر ، وبعد الانعام عليه التي محاضرة في توتجهام ، وكان رئيس الجلسة هو رئيس مجلس العموم ، فنزل لفلورنس واصطحبها الى المنصة حيث اشتد تصفّق ١٤٠٠ مدعو في حرارة شديدة لها .

عديدة الى العائلة ، كما كتب الى كولكهم قنصل بريطانيا في الاسكندرية لأنه يعرف أنه سيبرق الى بريطانيا ، وذكر له أن سسمى البحيرة . باسم الامبر البرت زوج الملكة الذي توفي منذ سنوات ثلاث ، بينما أطلق على النهر الذي نصب في البحيرة اسم الملكة فيكتوريا ، وكانت السلالات التي تنحدر منها النهر من نصيب مرتشيزون رئيس الجمعية الجغرافية .

ظلا في الخرطوم شهرين حتى آخر نوبه ، واتخذوا طريقها بالبر الى بربر ، ومنها الى سواكن حيث يستقلان الباخرة عبر البحر الاحمر الى السويس نقاديا لمشقة الصحراء ، اذن فند قرر الا ينركها . وفي السويس لم يصدقا وهما في الفندق المريح والمشروبات المتوفرة أنها رجعا من منابع النيل ، واستغلا الفطار الى القاهرة والاسكندرية ، ومنها الى مرسيليا ، وباريس .

من وسط افريقية الى باريس

قابلا في باريس أخاء جيمس السذي كان ينتظره ، قدم له فلورنس ، وأخبره بأنه سيتزوجها فور وصولها لندن ، وذهب الثلاثة لآخذ صورة تذكارية ، وقرآن يخفي الأمر عن الصحافة حتى يتم الزواج بأقل ضجة ممكنة .

وبعدما وصل بريطانيا ، لم يذكر شيئا لبناته عن فلورنس قبل الزواج ، كما لم يشر السيد رودريك مرتشيزون شيئا عن علاقته بفلورنس ، لان بيكر سعى للتلاوات باسمه ، فضلا عن أنه أعجب بجالها ورفقتها .

الملكة ترفض استقبال فلورنس

أراد بيكر أن يزيد فلورنس شرفاً ، فطلب من صديقه بيكر وأرتكليف أن ينتهز الفرصة ويقدم فلورنس الى الملكة ، ولكن الملكة رفضت ، لأنها كانت تعتبر سلوكها غير أخلاقي ، وبعد شهر من رفض الملكة استقبالها دعتهما الجمعية الجغرافية الفرنسية ، وأهداه رئيس الجمعية الميدالية الذهبية ، وشد انتباه الحاضرين ، تسليم بيكر الميدالية الى زوجته ، وكم كان متبراً وهو في باريس ان يجد مجلة Le touz du monde تنشر كتابه مسلسلاً ، وتجسم وتبرز الصور العارية لجذب القارىء .

مرافق ولي العهد في رحلته الى مصر

لم يكن بيكر يستطيع البقاء هكذا دون عمل ، فكر في عدة مشروعات ، منها أن تمدد الحكومة المصرية بباخرة على البحيرات الاستوائية وذلك للبحث عن د . ليفنجستون ولكنه لم يجد استجابة ، أخذ يكتب القصص للآلاد عن المغامرات في سيلان وأفريقية الوسطى ، فقد كان يحس بركود أصعب عليه من الحمى ، على حد تعبيره .

وأخيراً وجد مخرجاً لهذا الركود في رحلة ولي عهد بريطانيا الى مصر ، وأرساله سام بيكر ليقوم بالترتيبات اللازمة لأنه يجيد العربية ، وسبق له التعامل مع السلطات المصرية ، هذا رغم معارضة الملكة الأم ، وخوفها على ورثتها من صداقة أمثال سام بيكر .

واستغل بيكر هذه الفرصة وعرض على الأمير التوسط له لدى الخديو ، واقناعه بارسال بعثة تحت قيادته الى البحيرات الاستوائية ، وحددت الموافقة ، وعين بيكر حاكماً لاقليم خط الاستواء ، ومستوليته إمام الحدود فقط ، مع تفويضه بالسلطات كاملة هناك ، وهكذا عاد الى افريقية ومعه فلورنس بعد أربع سنوات من رحلته الاولى الى وسط افريقية .

نجاحه في القيام برحلة أخرى بمساعدة مصر

غادرت الرحلة الخرطوم في ٨ فبراير ١٨٧٠ بلاثين مركباً ، و ١٤٠٠ جندي ، وذلك لانشاء محطات على النيل لتستقر فيها حاميات ، على ان ينقل مركبين بعد مئذفات غندكرو للابحار بها في بحيرة البرت باسم الخديو اسماعيل ، وقد يكون للحملة حظ في انقاذ لفنجستون ، وسارت الرحلة في النيل الجنوبي في بحر الجبل حيث السدود النباتية ، يعملون على صيد أفراس النهر وشوي لحمها ، وعمل الحساء من ثقاها وأرجلها ، وتركزت حامية في غندكرو ، وأطلق عليها الاسماعيلية نسبة الى الخديو اسماعيل ، ولكن أفراد الحملة أيضاً كانوا يتسربون ، المهم أن الحملة بلغت أرض البانيورو ، ولكن الملك كماراسي كان قد توفي ونولى ابنه ريجيا ، وكان شكله نحيفاً رغم صغر سنه ، ورغم ان الحملة قدمت له الهدايا ، فانه كان يتردد على مقر الحملة مرات عديدة يطلب هدايا وفرر بيكر ان يقيم محطة دائمة في أرض البانيورو ، وتصبح مركزاً للحكومة ، وأقام بيكر له لفلورنس بيتاً وطهرت الارض ، ورفع العلم

على العموم طبق بنهره سام بيكر وفلورنس
الآفاني في ثمانينيات القرن التاسع عشر ، وبحلول
الاستقرار بعد أن كبر سام في السن ، وأصبحت من
الاعتناء . وفي نفس الوقت كان أخوه هالنتين يصعد
نخلة في نفس الفترة . بكتابات المتعددة ، ولكن
فالتنين سبب فضيحة للعائلة بسبب التهمة التي
وجهت له وثبتت عليه ، وهو محاولته الاعتداء على فتاة
في القطار ، وبعد انتهاء المدة المتحكم بها عليه دخل
في خدمة الجيش المصري في وظيفة قائد عام ،
واستطاع إثبات وجوده عن طريق فك حصار الجيش
التركي من قبضة ٤٠ ألفاً من الجيش الروسي ،
وعرضت عليه وظيفة أخرى ، وهي قيادة الجيش

المصري بعد الاحتلال ، ولكن الملكة فكتوريا
اعترضت عليه فعين قائدا للجوليس المصري ، في
نفس الوقت الذي قامت فيه الثورة المهدية في

السودان ، وأفنت حملة هكس ، مما كان له وقع
الصاعقة على الحكومة البريطانية . وفكرت في قائد
قوي يقوم بعملية الانسحاب وإخلاء السودان ، فرشح
فالتنين ، ولكن ما زال ماضيه يتعقبه ، ورسخ

جوردون على اعتباره أنه كان حاكما عاما للسودان قبل
ذلك ، ولكنه بدوره رشح سام بيكر ليكون حاكما

عاما ، وأخاه فالتنين ليكون قائدا للجيش ، كان سام
بيكر تواقا لتلك المهمة ، ولكن لم يعرض عليه أحد
هذه المهمة بصفة رسمية ، كما أن فلورنس لا تريد
الذهاب الى افريقية مرة أخرى ، وكان في تلك الفترة
قد بلغ الثانية والستين من عمره .

العنايني ، ولكن يدوان جملة بيكر وقعت في كمين ،
فقد فوجئوا يوما بالطبول تدق ومحاكمة بمسكهم
بنحو ٥ آلاف بحارب ، وأصدر بيكر أمره إلى الجند
بالاستعداد ووزع البنادق عليهم ، حتى الجند
وأُسْرعت فلورنس الى مخزن الذخيرة ، وأخرجت
بعض المفرقات التي وجهوها نحو مساكن
ماسيندي ، فاذا حدث اعتداء فبصوت الحريق في
جميع مساكن ماسيندي المبنية من القش ،
واستخدم بيكر الحملة ، فأرسل المترجمون الى زعمائهم
يجربونهم بأن بيكر مسرور من العمل الذي قاموا به ،
وأن رجاله سيقصون وأن عليهم الرقص أيضا ،
المهم توقف كل شيء ، وطلب بيكر طعاما لجنده ،
فأرسل الطعام ولكن الشراب كان مسموما ، ولحسن
الحظ قام بيكر بالاسعافات اللازمة ، ورأت الحملة أنه
لا يد لها من الانسحاب من ارض البانبرو ، وأحرقوا
كل ما هو غير ضروري وكانت عملية الانسحاب
صعبة لان عسكر الملك رجا كانوا يطاردونهم ،
واستغرقت الحملة سبعة أيام للوصول الى النيل بعد
أن فقدت عددا من رجالها ، ومنهسا رجعوا الى
الخرطوم ، ومنها الى القاهرة .

فضيحة فالتنين شقيقه تلاحقه

استقبل بيكر وفلورنس مرة أخرى في الجمعية
الجنسية البريطانية ، وحضر هذا الاجتماع أمير
ويلز ، وأعلن بيكر أنه مسرور لأن من سيخلفه في
السودان هو رجل انجليزي له ماضيه ، فقد عين
جوردون حاكما عاما للسودان ، وكان جوردون اقرب
الى رجل الدين منه الى الحاكم الديني .

نهاية مكتشف القرن التاسع عشر

اشتدت الثورة المهدية ، ووصلت الخرطوم وحاصرت قصر الحاكم العام ، وقتل جوردون قبل ان تصل النجدة من مصر بمدة قصيرة ، وكان فالتين في تلك الفترة يرأس البوليس المصري في القاهرة ، وما كان له ان يتولى منصبا رفيعا ، والملكة فيكتوريا على قيد الحياة ، واصيب بنوبة قلبية ومات في القاهرة في الخامس من نوفمبر عام ١٨٨٧ ، ودفن في القاهرة ، كذلك لم يعيش سام او صمويل بيكر حتى يشاهد استرداد السودان على يد كتشنر عام ١٨٩٨ ، وقضى هو وزوجته بقية حياته في رحلات الى أمريكا الشمالية

والشرق الاقصى الى أن عاجله الموت في الثلاثين من ديسمبر عام ١٨٩٣ ، وعاشت فلورنس بعده نحو ربع قرن ، اذ توفيت عام ١٩١٦ ابان الحرب العالمية الاولى ، وبيع منزلها بالمزاد ، وضاع كثير من مذكراته .

ولا يسعنا الا ان نختم هذه العجالة بتلخيص لمجلة Pall Mall عن حياة سير صمويل بيكر حيثما نعتة بقولها :

« عندما لم يكن مستكشفا ، كان صيادا ، أو مقاتلا ، أو كاتباً »



العدد التالى من المجلة

العدد الثالث - المجلد الثانى عشر
اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

قسم خاص عن
العصور الكلاسيكية
بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال يمني
السعودية	٥	ريال يمني
البحرين	٤٠٠	فلوس
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلوس
اليمن الشمالية	٤٠٥	ريال
العراق	٣٠٠	فلوس
لبنان	٢٠٥	ليرة
الأردن	٢٥٠	فلوس
سوريا	٣	ليرة
المتنامرة	٢٥٠	مليان
السودان	٢٥٠	مليان
ليبيا	٣٥	قرشا
مستقط	٤٠٠	بايو
الجزائر	٥	دنانير
تونس	٥٠٠	مليان
المغرب	٥	درهم

الاشتراكات